

أولاد السلام

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : أولاد السلام
اسم المؤلف : ناهد يوسف صابر
التدقيق اللغوي : ريهام مصطفى
تصميم الغلاف : وحيد محمد
الإخراج الداخلي : عمر أسامة
رقم الإيداع : ٢٠٢٤ / ٢١٣٠٠
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٥٧-٠



شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر



01020439639



massar.pub1@gmail.com

مَسَار
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقياً أو إلكترونياً، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجاناً عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

أولاد السلام

ناهد يوسف صابر

مَسَاء
للنشر والتوزيع

هَدَايَا

أيها الرحيم

وحدك الشاهد على كل شيء، ووحدك القريب اللطيف الذي قدر لي
بجماله ولطفه أن أصنع من ليموني الحامض عصيرًا حلواً.. عساه أن يكون
خفيف على القلوب.. إن لم أكن ممتة لك وأهدي لك العمر كله إلى من أهده
ولماذا أعمل وأعيش.. عساك أن تقبل وأن تستجيب وترحم.

إلى سورية الحبيبة الأم..

إلى والدي الكرام الأفاضل..

وزوجي وأولادي وأخوتي..

وأقربائي وأصدقائي ومستفيداتي الغاليين

أحبكم جميعاً..

إلى الباحثين عن السلام رغم حروبهم الداخلية أهدي هذا العمل عساه أن

يترك جميل الأثر..

ناهد يوسف صابر

"لا يقاس غنى المجتمع بما يملك من (أشياء) بل بمقدار ما فيه من (أفكار) وقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة، كأن يحدث فيضان أو تقع حرب فتمحو منه (عالم الأشياء)، أو تفقده إلى حين السيطرة عليه، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على (عالم الأفكار) كان الخراب ماحقاً. أما إذا استطاع أن ينقذ (أفكاره) فإنه يكون قد أنقذ كل شيء، إذ أنه يستطيع بناء (عالم الأشياء)"

- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع

السابع من شهر تشرين الثاني

بدايات الشتاء..

كان يوماً مطراً هوائه بارد ومنعش، رائحة الأرض تتعانق مع زخات المطر، كشيء قريب، ندي، مبهم، يشبه الروح بداخلنا. بدايات الشتاء هي بمثابة بدايات العمر بالنسبة لي، ولادة جديدة لروحي، وكأنتي مولود بكر يولد كل عام مع بدايات الشتاء ويهرم مع نهايات الخريف، ويعود ويولد من جديد مع كل شتاء.

ها هو ذا ضوء الشمس بدأ يلوح من جديد! كوب من قهوة، أشعة شمس، برودة لطيفة، وصمت، هذا ما يُدعى الطقس الصباحي الجميل.

بالمناسبة، يصادف اليوم عيد ميلادي الثلاثين؟ ماذا يعني للمرء أن يكون اليوم هو عيد مولده، تساءلت؟ وأنا أرتشف قهوتي.

لاح لي أمر مثير بعض الشيء! عيد الميلاد يعني أنك اليوم أقرب إلى نهاية اللعبة بخطوة أخرى. مر من عمري ثلاثون عاماً، عشرة أعوام طفلة، عشرة أعوام مراهقة، وعشرة أعوام أخرى شابة، بناء جسدي وعقلي وروحي شُيد ببطء وبثبات عمل ما أنا عليه اليوم. في السنوات العشر الأولى من حياتي كنت أحياء، أَلعب، أشاكس أنا وقطتي كنا نعرف كيف نستمتع ونلعب، في العشرة التي تليها، القطة ماتت. بدأت أَلعب مع نفسي ومع المجتمع ومع الحياة، أَلعب وأفشل وأبكي أخيراً لم يعد اللعب ممتعاً كما كان في السابق، مشاعري تغيرت وجسدي فجأة تغير، وضعني بين تأرجح يومي بين عالم الطفولة وعالم الأنوثة، لا أدري بأيها أثبت قدمي، شيء يشدني للخلف وشيء يشدني للأمام، نجح الشيء الذي يشدني للأمام في النهاية؟ في العشرة الأخيرة، اللعبة بدت فجأة وكأنها لغز، نعم، لغز عميق وكبير ومبهم، مكتوب عليه "للاقوياء فقط، وإن لم تكن قوياً بما فيه الكفاية، للأذكاء فقط، وإن لم تكن ذكياً بما فيه الكفاية، للمؤمنين الحاملين فقط! دع نفسك جانباً، استسلم، اتبع روحك، ودعنا نمضي معاً"

أنشأت أسرح في تلك المعاني وأنا أرتشف ما تبقى من فنجاني، ثم ما لبثت أن نهضت وأتجهت نحو غرفتي، أمسكت مفكرتي، قلبت الصفحات ثم التقتت القلم وبدأت بالتدوين، عشت آخر عشر سنوات من عمري أصرار كائن غريب، يستيقظ معي، يأكل معي بل أحياناً يأكلني، نعم لوقاحته بتغذى عليّ، ينام معي، كان جائعاً فوقني دائماً، أشعر بثقله على كتفي أينما حللت وذهبت، لم أكن أعني بوجوده لشدة تداخله بكياني لوهلة بدا لي إنه أنا، أنا ندين؟!

لم أكن أعني أننا منفصلون، هو ليس أنا وأنا ليس هو.. هو باختصار دخيل، عشتش بي واستحوذ عليّ مثله مثل العاطفة، شعور هادئ يعشتش في النفس بهدوء فيصبح الموجه الأساسي للسلوك هو، إلى أن جاء يوم عرفت أنه ليس أنا.. وبدأت الحرب، بيني وبينه، بيني وبين الحرب ذاتها، بيني وبين نفسي، أنا اليوم ممتنة جداً؛ لأنني انتصرت عليه أخيراً، لم أقتله، لم أستطع؟ ولم أقطعه إرباً إرباً كما تمنيت، فشلت. لكن في النهاية أعترف بإنني صادقته! نعم، إنه القلق؟!

أغلقت المفكرة، نهضت من مكاني، ارتديت ملابس الخروج، ألقيت نظرة أخيرة على نفسي في المرأة، عدلت حجاي قليلاً، ثم خرجت، سرت في شوارع المدينة نحو وجهتي، مضيت بخط ثابتة، بتنفس منتظم وبجسد مستقيم، بطمأنينة ممتدة من يد الله... ابتسمت متأملة وهمسْتُ لنفسي، كل شيء يمضي، كل شيء يتغير، الحياة نهر جارٍ لا يقف، قبل عشر سنوات من تاريخ اليوم.

بداية الحرب

(ندين)

كنت أسير في ذاك الشارع الفارغ إلا من بضعة أشخاص على عجلة من أمرهم مثلي، ربما كانت مشاعرنا موحدة أيضًا، كان هذا الشارع معروفًا باكتظاظه بالسكان، كانت بدايات الحرب، بدايات الأسى. كان الناس في تلك الفترة كمن تلقى صدمة مؤلمة وما زال في هول الصدمة يحاول استيعاب ما يحصل، بعد عمر من الأمان بلدي بلاد الياسمين صارت بلاد الرصاص، تحيل لي!

أنظر إلى تلك المكتبة بخيبة لأنها مغلقة، أقول لنفسي مبررة: بالنهاية مثلها مثل كثير من المحال، أمشي بارتباك، بخوف، بقلق طفل ضائع فقد أمه للتو، لم أخرج منذ مدة إلا للحالات ضرورية قصوى؛ لأن الوضع لا يسمح، والخروج من المنزل بشكل شبه يومي لم يعد متاحًا، كيف لوطن كان حضنتنا الدافئ وسماؤه سقف روحنا العالية وأرضه جذورنا المتأصلة، كيف له أن يصبح هذا المكان الغريب، المريب، الذي بتنا لا نعرفه... أيعقل أن الحياة قد تنقلب رأسًا على عقب هكذا فجأة دون مقدمات!

كانت من عاداتي الطفولية التي ظلت ملتصقة بي رغم أنني ما عدت طفلة، أنني أحب قراءة وجوه الآخرين، التلصص على ملامحهم دون أن يتنبهوا، وأغرق بذاك التأمل، فالوجوه كأنها بوابة الروح، كل وجه يحكي حكاية، فترى وجوهًا مفعمة بالحب تطفو عليها ملامح الوجد والشجن، وجوهًا عابسة تتأكل من حدة المشاعر القاسية، وجوهًا طيبة مذعنة للكون وتنشر السلام من عيونها، وجوهًا مطفأة اغتالتها يد الحياة فأعتمتها، وجوهًا منيرة وكأن الشمس والقمر امتزجا واتفقا فمنحاهما بعضًا من بهائهما، اختلست النظر إلى بعض الوجوه، لم أر سوى وجوهًا خائبة ومكسورة وأجسادًا هزيلة، لم يتبق فيها إلا بضع من روح، ربما كي تستطيع أن تدفعها إلى الحياة.

ليس من السهل على الإطلاق أن تكون قد عشت معنى الأمان إلى أقصى حدوده، ثم تهوي إلى مستنقع الخوف والظلام.

ليس من السهل أبداً أن تكون فخوراً وزاهياً، لديك عنفوان وعزة نفس توصلك إلى سماء العز ثم ترتطم بأرض الذل!

ليس من السهل أن تكون تعودت على معنى الشيع ثم تجوع!

نحن اليوم أمام حقيقة سوداء وقمئة وقائمة.. حاولنا مراراً أن ننكرها وأن نطلق عليها أسماء أشد وطأة على مسامعنا، نحن اليوم أمام حقيقة مؤلمة، جديدة وغريبة اسمها الحرب.

كنتُ أمشي مسرعة؛ لكي لا أتأخر على أُمِّي التي بات قلقها مضاعف هذه الأيام، فلاحتمالات السيئة الآن تلوح بالأفق مجرد أن يتأخر أحد ما عن مواعده حتى لو دقائق! باتت أُمِّي تُسمعني دائماً (لا تنسي نحن في حالة حرب) وآلام أُمِّي الماضية وقلقها وتجارب حياتها استنزفتها بما فيه الكفاية، فبدت هذه الفترة كالإناء الممتلئ لا تستطيع إلا أن تحمله بتروءٍ لكي لا يفيض عليك، لذا ترجونا دائماً ألا نضعها في مواقف ليس لها طاقة بها.

تقول: حبيبتي ندين ما زلت طفلة بعيني، (وأنا أتممت العشرين من عمري) أنا أخاف عليك وعلى أخوبك هذا المراهق المجنون، وذاك الطفل الذي لا حول له ولا قوة، وأخاف على أهلك جداً فهو لا يأبه بشيء، وجددتك المسنة أخاف عليها، وعلى أخوتي، أخاف على الجميع في هذه الأحداث المضنية، وأحمل هم الدنيا فوق كتفي، فأرجوك ارحمني.. إرحمني أنت يا أماء من هذا الجبل من الخوف، أهمس بسري.

أصلُ إلى المبنى الذي أسكن فيه رغم أنه بات في هذه الأيام لا يسكنني، كان مليئاً بالحياة، بالأصوات، بالروائح، كنت أدخل المدخل أشم رائحة الياسمين على سور البناء من سكان حديقة الطابق الأرضي، كانت الجارة التي تسكن هذا البيت شغفها النباتات والزرع والورود، تحبهم وترعاهم وتعتني بهم كأنهم صديقاتها أو حتى بناتها، تلمسهم بحب وهدوء، تسقيهم بتروءٍ ودقة وتعلم كل نبتة ما يناسبها وما يزعجها، فتقول: هذه تحب الظل، وهاتيك تعشق الحرارة والضوء والشمس، وتلك تريد مساحة واسعة. ونباتاتها يؤكدون فهمها للأمر باستمرار، مجرد ما أنت تراهم تنبهر بجملهم وروعة تنسيقهم.

أصعد إلى الطابق الأول أسمع ضجيج لعب الأولاد وأصواتهم وبعض الأوقات ضحكاتهم

وصراخهم، وأصوات أمهم بالطبع، في هذا الطابق كانت تقطن، جارة جميلة شغوفة بالإنجاب والأُمومة، أنجبت أربعة أطفال صبيان وابتنان وحامل بالخامس رغم صغر سنّها، تنزعج جدًّا إن أحد ما تجرّأ وعلّق على عدد أولادها، أو على قراراتها المستعجلة بالحمل وكأنّها في سباق مع الحياة، تقول بعد أن ترم شفّتها وتعدّد حاجبيها: لم أطلب من أحد أن يطعمهم أو يربّيهم على حسابه، أنا ومروان نحب العائلة الكبيرة، وتدير وجهها منزعة.. دائماً تراها تركض، مرة لإطعامهم ومرة لتنظيفهم ومرة لإلباسهم ومرة لتعليمهم ومرة للهرب منهم! المهم أنّها في مهمة جري دائم، أنظر إليها وأستأسل أترانا لماذا ننجب الأطفال، ما الهدف من الإنجاب؟! الأطفال جميلون جدًّا ومدهشون أتراه هذا السبب؟!

سقراط يقول: (البشر ينجبون أطفالاً حتى يصبحوا خالدين... وهناك نوعان من البشر ليسوا في حاجة إلى ذلك: الفنانون والفلاسفة الذين يعانقون الخلود من خلال أعمالهم)

أما في الطابق الثاني: تقطن جذوري، منبتي، أصلي، متجسدين بامرأة كبيرة في السن، حكيمة العقل، لطيفة المحيا، هي جدتي. ورجل كبير في السن أكبر منها ببضع سنوات، ودمت في الخلق، وجاد في الرؤيا والفكر هو جدي، اشتّم هذا الطابق غالباً الروائح الذكية، ولا أسمع إلا أصواتاً خفية، لكن روجي دائماً ترنو هنا وتطمئن، حتى لو واصلت الصعود لمنزلنا في الطابق الثالث، بعد أن أرمي السلام على جديّ وأحياناً أجلس قليلاً قبل أن أكمل صعودي نحو البيت.

لكن.. الآن لا يجدر بي أن أجعل أُمي تقلق بأيّ ثمن، أصعد على عجلة من أمري وأعدّ جديّ بالعودة ليلاً عندما أنهى أموري في المنزل وواجباتي طبعاً، تضحك جدتي وتشير بيدها تقول: أسرع، أمك تكون الآن على نار. أصل إلى باب المنزل، أمد يدي إلى حقيتي المحشوة بالأغراض اللازمة وغير اللازمة، ألتقط مفتاح المنزل، أفتح الباب وأدخل، أرى أُمي متجهة إلى القبلة تصلي، أُمي تحب الله، وأبي يحبه جدًّا مثل والديه، عرفانا عليه جيداً فتنّا نأكل الطعام حبّاً، ونشرب الماء حبّاً، ونلبس الكساء حبّاً، نحن عائلة تحب الله، وتؤمن بدين الحب والسلام..

التفتُ لأُمي وقلت بصوت عالٍ وأنا أنجّه نحو غرفتي: أُمي أنا جنّت ارتاحي، أنهيت محاضراتي اليوم وأنتيك مسرعة، انظري كم أنا مطيعة ومهذبة، وها قد عدت سالمة أرايتِ؟ لم يكن هناك داعٍ

لنلك المحاضرة الصباحية التي أسمعني إياها فيها قبل أن أذهب، قلتها بضحكة، انتهت أُمي من صلاتها قالت بصوت مملوء بالسكينة: الحمد لله على السلامة، الأكل جاهز في المطبخ، متغافلة عن كلامي، بدلت ثيابي وغسلت يدي ووجهي جيداً، ثم ذهبت إلى المطبخ جلستُ على الكرسي وأمامي الطاولة بدأت بالطعام، قلت منادية لأُمي وأخوي: تعالوا لا أريد أن أكل وحدي، دخل يزن المطبخ بحماسة، وأجاب أسر وهو يمر من أمام المطبخ: كلي أنت واملئي بطنك هذا وكأننا والله نحن من أكلنا، قالها بسخرية.. نظرتُ جانباً بامتعاض، لن أرد عليه، فعلياً أن أستمع بطعام أُمي التي كانت وما زالت شغفها الطبخ.

يا إلهي، كم هو لذيذ طعامها تصنع كل شيء بالمطبخ بحب وإتقان وذوق، تتفنن بمزج مكونات وتوابل وصلصات لتخرج برائحة شهية وطعم ذكي لا تستطيع مقاومته، أحياناً من لا شيء تصنع كل شيء، ماهرة هدم كل حياتي الغذائية وخسارة تلك الأربع كيلو غرامات التي كنت أريد خسارتهم من وزني منذ خمس سنوات، حمداً لله أنني ثابتة على وزني هذا معها ومع طبخاتها، هذا بحد ذاته إنجاز عظيم، كنت أمضغ اللقمة وأستلذ بعد جوع، فأنا اليوم لم أضع بغمي لقمة منذ الصباح الباكر، فإذا بصوت انفجار بعيد... نهضتُ بسرعة أنا ويزن نحو الغرفة الداخلية، خرج أخي من غرفته، ركضت أُمي وهي تنادي: تعالوا إلى هنا ادخلوا إلى الغرفة الداخلية، قال أسر بعنجهية وقد اعتلاه توتر واضح: أُمي ما بك! أرجوك كفكِ دَعراً الصوت بعيد، قالها لأُمه وهو أشد حاجة منها للاقتناع بذلك، أسر بات متهوراً عصيباً مجنوناً، رغم أنه يدعي القوة لكنه ما زال طفلاً، كلنا نراه هكذا، إلا هو يرى نفسه رجلاً وسيد الرجال.. فهو الآن طالب في السنة الثانوية الثالثة، طوله متر وسبع وسبعون سنتيمتر، ملاحظة جذابة كأُمه، ومنكباه عريضان كأبيه وهرموناته الذكورية أنعمت عليه بصوت رخم، وذقن كثيف مما جعله يغير كثيراً بنفسه. نظرتُ إليه وبصوت منخفض قلت له: تحدث مع أُمك بأدب، اخفض صوتك على الأقل. قال لي: أنتِ اسكتي من تكلم معك. ابتسمت ابتسامة عريضة مفتعلة، وقلت له: مؤدب، مؤدب جداً. أجاب بابتسامة تشبهها، وبعيون ذابلة: مثل أختي مثل أختي تماماً.. وأُمي تنظر لكالنا بعيون متعبة، تطلب السلام قائلة: هل لكم أن تصمتا أنتما الاثنين؟

مرهقة جداً هي الأمومة صكُّ أبدي يجعل روحك معلقة بروح أخرى بكل تفصيلاتها،

يقولون: إن الفتاة أقرب إلى أمها، أتراني لذلك أخاف على أُمي بقدر خوفها عليّ؟

أنهينا عشاءنا للتو، حكينا لأبي أحداث اليوم وجلسنا نتابع نشرة الأخبار التي أصبحت طقسًا يوميًا مهمًّا وموجعًا في آن واحد، لا تستطيع إلا أن تتابع لتحاول أن تستكشف الواقع، وبالتالي لا تستطيع سوى أن تتألم، كل يوم أخبار جديدة على الساحة وأحداث مروعة وشهداء ودموع ودماء.

أُمي تبكي، تحاول أن تقاوم دموعها لكن تفشل دائمًا.. أبي، آه يا أبي، أبي الرجل الطيب المحترم والبسام والعامل.. غابت البسمة عن محياه، وبات قلقًا مذعورًا، يتابع ووجهه عابس أصفر.. أخي الطفل الكبير أسر، بدا الخوف ينسكب من عينيه قال: بابا ما هذا بحق الله ماذا يحصل، ولماذا يحصل؟ أجابه أبي ونظره ثابت نحو الشاشة دون أن يلتفت إليه: بابا هي حرب.

أتمنى ألا تطول، أتمنى أن يكون ثمة حل للسلام، لكن الآن هذا واقع حرب، همّ أسر بالكلام لكنه صمت وكأن ثمة شيء أخرسه، تركنا وولج إلى غرفته وحيدًا.

أستلقي بهذه الليلة على فراشي وأنا مصعوقة من صور الأشلاء التي أظهرتها نشرة الأخبار، ومن صوت الانفجار القوي الذي ما زال يدوي في أذني، ومن وجوه أبناء المدينة اليوم، ومن هدوء المبنى وذبول عريشة الياسمين، ومن الملامح الجديدة لواقع غريب بدأ يكسو حياتنا.. بدأت دموعي تنهمر بلا روية، مشاعر ثقيلة من الحزن غمرتني، لكنني أخيرًا نمت.

أستيقظ في اليوم التالي أغسل وجهي وأنظف أسناني وأرتدي ثيابي وأخرج، أرجو الله بقلبي أن يمر يومي بسلام بلا مشكلات، أفنتع أُمي أن أذهب هذه الأيام للكلية لأن ليس ثمة حل آخر أمامي، والحياة ستستمر. الحقيقية كنت أفنع نفسي وأبي كان معي لذلك اقتنعت.. أفف على الرصيف، بالبداية الصباح كم لها أثر عظيم على روحي، بزوغ الفجر نعمة، بعد ليل ثقيل. يمر أمامي أطفال يرتدون الزي الرسمي للمدرسة ويسرون إليها بشكل منتظم ومهيج، وكأنهم كائنات صغيرة وجدت لتؤكد أن الإنسان مولود جميل وكائن لطيف بريء وإن كان هذا لا يستمر طويلاً.

وقفتُ أنتظر الباص الذي ينقلني إلى جامعتي كل يوم، انتظرت طويلاً وأخيرًا أتى، صعدت

مع طلاب آخرين وامرأة معها فتاة صبية، ورجل عجوز بيده عكاز يتكئ عليه، كل أحد سيذهب إلى وجهته، يسأل بعض الشباب عن سبب التأخير وقلة المواصلات، يقول السائق: أزمة وقود، يجيب رجل يجلس في المقعد الأخير وأزمة خبز، "أزمة" من المصطلحات الجديدة التي خلفتها الحرب. جلسْتُ بجانب النافذة المطلة على الحياة الصباحية للمدينة، أفكر في كلام أبي البارحة بالتحديد، كلماته الأربعة التي قالها لأسر.. نحن في حالة حرب، تساءلْتُ ماذا تعني كلمة حرب؟ أو لم تكن الحروب شيئاً ماضياً درسناه في حصة التاريخ؟ يقال: إن الحروب قاسية وقمئة، تهدر بوجودها كثيراً من الأنفس، وهي لا تعرف العدل، أهمس لنفسي. الحرب فقط هي كلمة في درس التاريخ، لا، نحن لن نعيشها، نحن أولاد السلام، ولسنا أولاد الحرب، هذه أزمة وسوف تمر، قد تمر بأوقات عصيبة وفواجع قاسية تجعلك تدخل بحالة النكران فتنتطق بلا (هذا هراء)، لكن يصدمك هذا الهراء بأنه الحقيقة عينها، لكن! ما الحقيقة؟ ومن يعرفها؟ ومامقدار صدقها؟ بعض الحقائق تدفع ثمناً باهظاً لتحصل عليها وتموت دون أن تدريها، وبعض الحقائق تتركها محاولاً التغافل عنها، فتظهر أمامك فجأة! دون أن تطلبها.. الحقيقة الجلية اليوم أنها الحرب؟!

العممة انطفاء النور... عممة القلب بانطفاء الحب... وعممة الجسد بانطفاء الروح... هكذا كنت أفكر وأنا جالسة على الكرسي وأمامي الطاولة في غرفتي المعممة بعدما أنهيت نهاري في الكلية، لا كهرباء ولا ماء، ربه ماذا يحصل! فجأة تحولنا لكائنات معممة نسكن في بيت كله عممة، وإذا سألنا لماذا؟ أجابونا: الحرب! أجل شيء في العممة الرجوع إلى الذات التي جعلتنا سرعة الحياة ندفنها في غرفة داخلنا ونغلق عليها سبعة أبواب، ذواتنا المهملة، الضائعة بصخب الحياة.

تدخل أُمِّي الغرفة ومعها شمعة مضيئة تحملها بطبق صغير، أبسّم وأقول لها: وأخيراً نور، تقول: وأخيراً بابتسامة أيضاً، أقول لها مازحة علني أخفف عنها حزنها الجلي في هذه الأيام، نور وجه أُمِّي ونور الشمعة أنارا غرفتي بالحظي العظيم يا مدام سمر، تنظر إليّ بوجهها الحزين وتقاوم دعمها الذي خانها وذرف، أحضنها أرجوك لا تبك، تقول: أنت حصتي في هذه الحياة. بكيت ليلتها كثيراً لبكاء أُمِّي، لم يكن خفياً على المرء أن يشعر كم هي خائبة وحزينة هذه الفترة، هذا جلي، وبكيت لأنه كان في داخلي طفلة تريد أن تصرخ لكن لا تستطيع؟!

الشمعة بديل الكهرباء، لكن الماء، بإذا نستبدله؟ لم أتوقع أن نقصد بالماء يوماً ما، قلت لأبي

ونحن على طاولة العشاء، فقال: يا أولاد، سأخبركم بشيء مهم بقيت مدة أتهرب منه لكن لا مفر يجب أن نتحدث بالأمر، البلد اليوم وكما أصبح واضحاً للجميع بحالة حرب، صمت قليلاً ثم استطرد، أشياء كثيرة ستتغير وتغيرت في نمط الحياة ومتطلباتها، سنجلس على العتمة، وربما جوع ونعطش.. نظرنا إليه أنا وأخي بذهول مندهشين، شعرت أمني بصدمتها أرادت أن تخفف عنا، قالت لأبي: ليس لهذه الدرجة عبد الله تفاعل إن شاء الله أزمة وستنتهي، صمنا بخيبة، كيف لنا أن نقبل بهذا الواقع؟ وكيف يجزؤ أب أن يقولها بهذه الصراحة؟ وكيف له أن يرضى أن يجوع أولاده ويعطشون وهو ساكن؟ قلت في نفسي غاضبة.

يكمل أبي، سبرد أيضاً ربما، فالشتاء قادم ومن المؤكد أنه سيكون هناك أزمة في المحروقات من ضمن كل هذه الأزمات، هنا جن أسر، وقال: ماهذا الهراء يا أبي، وهو يحتق من الغضب ووجهه أحمر! ويزن ينظر مرتبكاً من وجه لوجه دون أن يعي شيئاً، أبي لم يتالك نفسه أمام أسر وسوء أدبه الذي لم يعتد عليه، الذي أوجده الضغط النفسي الذي يمر به، يقطب جبينه ويقول له بحدّة: الهراء ما تنفوه به أنت يا أسر بصوت عالٍ أفهمت، نحن في حرب، وطننا في حرب، والحرب ظلم وجوع وعطش وحرمان وخوف سواء اقتنعتم أم لا قالها أبي بحق واشتد صراخه، تدخلت أمني، وقالت: لكن ما الحل، ينظر أبي إليها وبضعف واستكانة يقول: لا أعرف، ينهض أسر من مكانه متجهماً نحو غرفته بغضب وكأنه نار تتقد..

لا تستطيع أن تحب شاباً في مقتبل العمر، طموح، متقد الذهن، أن الأفق ضيق لا يسعك.

في اليوم التالي نزلت الدرج ببطء درجة درجة وكأنني بحاجة لشيء ما يشعل وقود الحياة بداخلي ويحيي شغفي الذي أنطفأ، أنا التي كنت أخرج كالفراشة أريد أن أطيّر وأفقر على درجة تلو أخرى كأي أرقص، أين ذاتي، أين أنا؟ أحلامي... طموحي... جنوني... شغفي... اختصرتهم الحياة ليصبحوا ماء لا ينقطع، وضوء كهرباء لا ينطفئ، وشعور بالأمان.

بعد مسير ساعة تقريباً على الأقدام وصلت الكلية، مشيت لأني تعبت من الانتظار، تعبت من وجوه الناس، تعبت من العتمة، تعبت من جسدي المثقل وأنا أجره كل يوم نحو الحياة بصعوبة... تعبت وأنا ببداية الطريق؟! رأيت صديقتي من بعيد لوحت لها بيدي ناديتها حين،

نظرت إليّ وابتسمت ثم أسرع متجهة نحوي، ألقت عليّ التحية أهلاً ندين، ما الأخبار؟ الحمد لله، بتهكم وسخرية، مثلما يقول بابا حالة حرب، حالة حرب، وأطلقت ضحكة داخلها أنين مختبئ! ضحكت حنين أيضاً، ثم ما لبثنا أن تغيرت ملامحنا وكأنها أبت الاستعارة الكاذبة، أحياناً الدموع تستعير من الضحكة وجودها لأنها تعبت من الذرف وتتفق معها أظهري أنت وأنا أختبئ خلفك.

كان الطقس غائماً إنها بدايات الخريف، الأشجار شبه عارية تخلت عنها أوراقها تماماً، برودة لطيفة، الأوان بعد العصر بقليل، كانت الكلية مزدحمة اليوم، إنها فترة التسجيل للسنة القادمة، في قسم علم النفس قسمنا الذي ندرس فيه. قلتُ: هل سجلتِ بطاقتك؟ أجابت حنين لا، أنتظرك لتأتي معي..

قلت: حددي يوماً ما وأخبريني به، دعيه الأسبوع القادم، ما رأيك؟ قالت: يجب أن يكون في أسرع وقت، هذا أفضل لنا، الأحداث تتغير كل يوم، دعينا نبدأ هذه المسألة وننتهي منها قبل البدء بحلقة البحث، فأماننا الكثير من العمل والجهد. أومأت لها برأسي موافقة، يجب علينا البدء مبكراً فهذه السنة تبدو كيسة وتحتاج لجهد مضاعف، استطردت كانت أحلامي لسنوات الجامعة عظيمة وحماسي مليون، سأنتهي من الكلية وأبدأ في الحياة العملية،... والآن كل شيء يبدو مختلفاً، الواقع قد لا يشبه الحلم. أجابت حنين وقد علتها ملامح الاستغراب: لا أصدق، هذه كلماتك! أنسيكِ عبارتك المشهورة (الأحلام تتحقق).

علت وجهي ابتسامة رقيقة وكأني لمست شيئاً لطيفاً، والتفت إليها، الأحلام تتحقق قرأها وأنا في الثانوية، لا أتذكر أين، فقط علقت بذهني هاتين الكلمتين وظلت برأسي (الأحلام تتحقق). أحببت هذه العبارة وصدقها وآمنت بها، ما نحن لولا أحلامنا، لا شيء، لكن ثمة أحلام طرقها واضحة بسيطة سهلة، وثمة أحلام قد تكون مستحيلة..

ردت حنين، لا شيء مستحيل..

قلت: لا شيء مستحيل لكن؟! أنعرفين؟ بُتُّ في الفترة الأخيرة أقلق من ناحية مبادئي ومسلماتي وحتى أفكارتي... الأوضاع هذه هزت ثقتي بأمور كثيرة أنفاجأ بها كل يوم..

قالت: امتحان المبادئ أصعب امتحان.

هزرتُ رأسي موقنة..

أعادت ترتيب بعضاً من الأوراق بيدها بعدما نهضت من الكرسي، تعالي ندخل إلى المبنى ازدحم المكان، أنا لا أحب الازدحام، مضيئاً نحو المبنى الداخلي نحو القاعة الدراسية، دخلنا القاعة أنا وحنين، كان هناك عدد من الطلاب بوجه مرتعشة، ما إن يصدر صوت من بعيد إلا وترى أوصالنا ترتجف من شدة الخوف، يدخل المحاضر ببرود يتفاجأ من نسبة الغياب، يلقي ما عليه إلقائه ببرود وقلق من غير حماس وشرح مفصل كما عودنا من قبل، رغم طول المحاضرة وكثافة معلوماتها.

حنين فتاة، هادئة وعقلانية وطموحها جارف، مجتهدة ومثابرة وجدية وشكلها محبب ولطيف منحدرة من أسرة ميسورة، أمها معلمة وأبوها تاجر أقمشة، ولها أخت وأخوين، تعرفت عليها في أيامي الأولى من دخولي الجامعة وشيئاً ما مشترك بيننا جمعنا لا أدري ما هو، قد يكون التشابه وربما الاختلاف، فأنا هادئة لكن مجنونة أكثر، طموحة لكن غير مثابرة، جدية لكنها مزوجة بسخرية قارسة، مجتهدة لكن فوضوية وحاملة ولا منطقية أحياناً، حنين نقطة توازي، وأنا نقطة جنونها، فالتوازن ضروري والجنون ضروري أيضاً..

مهما كنا من مرتادي العزلة ومحبي الانطواء بعيداً عن صخب وضجيج العالم، نحن بالنهاية نسعد بوجود روح تفهمنا نبهنا دواخلنا دون حرج، ولعل هذا ما يفسره معنى الصداقة ووجودها.

خرجنا من القاعة متعبين بعد ثلاث ساعات تخللها ربع ساعة استراحة، كانت المحاضرة المعقدة والصعبة تلك والشرح المختصر وغير الكافي من قبل المدرس، كفيل بجعلنا مستائين من بداية اليوم. قالت حنين: لم أفهم شيئاً من المحاضرة المملة تلك.. تأتي بهذه الظروف البشعة وتتحدى خوفنا وخوف أهلنا، فنجد القاعة فارغة إلا من بضعة طلاب، ويأتي دكتور المادة ويشرح بطريقة صعبة ومعقدة، فأكملتُ الكلام عنها وتأتي ندين صديقتك الصدوقة تدعوكِ لاحتساء

فنجان قهوة يرمم كل خيانتك يا أفلاطونة زمانك، قلت بسخرية، فضحكت، استطردت بربك حنين كل ما رأيته ولم يعجب طموحك إنجاز في ظل هذه الظروف، لو حُتْ لها بيدي ساخرة، قربت وجهي منها وقلت: حرب.. حرب، نظرت حنين بعيني مباشرة وبانفعال قالت: ماذا يعني حرب؟ سؤالها أربكني وشئتني وأخافني من المجهول، فأجبتها بعد أن عدت خطوتين للوراء: هي الرقص.. الرقص الصاحب بجثة ثقيلة فوق أرواحنا ربا، رفعت أكتافي نافية لا أعرف ماذا تعني الحرب؟

حملنا فناجين قهوتنا الدافئة بيدينا بهذا الجو الذي تغلب عليه البرودة، واقتربنا من أحد المقاعد الخشبية لنجلس عليه، القهوة حبيبة الناس ومعشوقة الشعراء، قال عنها درويش: القهوة لا تُشرب على عجل، القهوة أخت الوقت تُحسَى على مهل! القهوة صوت المذاق، صوت الرائحة! القهوة تأمل وتغلغل في النفس وفي الذكريات!

هذا الكوب الصغير كان وما زال من أهم الطقوس القادرة على تعديل مزاجي، بدأنا أنا وحنين نحسّي قهوتنا بصمت مبهم تحتبئ خلفه حكايا كثيرة نطلقها شيئاً فشيئاً، أتى نحونا شاب صغير يبدو عليه في بدايات العقد الثاني من العمر، نظر إليه من بعيد.. طفل كبير أنجبته حياة الشقاء، هكذا يوحى مظهره المتعب، يرتدي قميصاً أزرق رقيقاً لا يكفي لدرء برودة الطقس عن جسمه، وبنطال جينز، وحذاء أسود، وبيده علبة بسكويت، يتقدم نحونا بأدب وثقة غير معتادة من أمثاله، ويقول: لو سمحت هل لك أن تشتري؟ أنظر إلى وجهه، يا لتناقض الحياة! يقبع الجمال في وسط القباحة، تركز الطيبة في أخبث الظروف أحياناً، تنظر إلى الهدوء الممزوج مع الحزن والانكسار في وجهه البريء فتأبى نفسك إلا أن تتعاطف، آخذ منه قطعتين من علبة البسكويت أعطيه الثمن وأشكره، ينظر إليّ بامتنان ويمضي.

تقول حنين: ألم تنظري بعدم التشجيع على عمالة الأطفال، مجنونة ألم أقل لك!

أقول لها هذا استثناء.. ألم تشعرى أنه لا يشبه البائعين أمثاله بطريقة كلامه وبتهذيبه وبوقفته، واضح جداً أنه لا يعبت أو يعمل لصالح أحد، وكذلك ليس طفلاً صغيراً، يعني صغير جداً، أتنبه، أقرب منها وأقول أو من دائماً بأن ثمة استثناء في كل قاعدة.. بكل الأحوال دعينا من ذلك

الآن، وأخبرينا ما مشاريعك اليوم بعد الكلية؟ وما أخبار خطيبك نضال يا سيدة ع (أقصد عقل).

تقول ببرود: لا بأس جيدة، جيدة.

أقول لها: واضح كم هي جيدة.

تقول لي: أنت محالة كبيرة تشعرين بما بي من نظرة واحدة لهذا سألتني.

أقول: لا تقولي إننا عدنا للخلاف مجددًا.

تقول: نعم.. نعم يا سيدة ق (تقصد قلب)، عدنا.

أقول ما السبب يا (سيدة ع) هذه المرة؟!

تحاول أن تتسم موارد دموعًا مدفونة بحدقتها، تلوح بكفها، أسلوبه بالتعامل غريب، غريب جدًا، أشعر وكأنني أحد من عملائه أو أصدقائه، أتعرفين؟ كأنه لا يفقه التعامل مع المرأة، يعني الأنثى، لا يوقظ الأنثى بداخلي، أنت تعرفيني، أنا لست حاملة ولا حتى مجنونة ورومانسية جدًا مثل كل الفتيات.

أرمقها بسخرية تقصدين مثلي، قولي لا تخجلي..

تضحك ثم تكمل، لا أرغب بورود كل يوم ولا أشعار ولا كلام حب معسول كل الوقت، فقط تعامل لطيف فيه هفوة، قليل من الحب لا أكثر

يتصل لي مطمئن عليّ، حديثه لا يتجاوز الدقائق، يتكلم فقط الضروري والمستعجل كأنه يتأكد فقط إن كنت على قيد الحياة ويمضي.. حديثه كله عن العمل، حياته كلها عمل، كل شيء بعد العمل عنده تافه لا يستحق الأخذ من وقته، أتمنى مرة واحدة يجربني بها بأنه يجنبي، أعجب بي، حتى أنا خطيبته يسألني ويحدثني عن العمل، تصوري البارحة، قال لي: هيا اشتغلي على نفسك وتخرجي بمعدل جيد لأسال لك معارف على فرصة جيدة لتبديئي العمل فور تخرجك مباشرة، نعم أنا حلمي أن أجد فرصة عمل مرموقة بعد تخرجي، لكن تمنيت أن يقول لنحضر لرفاننا قبل أن يقول لتعملي، تمنيت أن يقول اشتقت أن أراك مجددًا ثم يحدثني عن العمل والجحيم، قالت

بانفعال.

أضع يدي على كتفها لأهدئها أقول: لا بأس، لا بأس.

تتابع تصوري بعد عام ارتباط كامل يقول بيتي عن البيت الذي سنسكنه، حفلتي عن حفلتنا، صيغة الجمع عنده ملغية، كأنني موجودة بحياته تحصيل حاصل، لا يحمل لي أي مشاعر..

أحاول استيعابها، أقول لها: حنين، نضال عقلاني جدًا وأنت تعرفين هذا جيدًا، وأنت عقلانية أيضًا لكنك في النهاية امرأة، أنثى على حد قولك، والأنوثة رقة ونعومة وحاجة للحب والاهتمام مهما بدا أننا مكتفون، لذا يجب أن تشعر به هذا بطرق غير مباشرة ربما، لكن لا تظلميه، هناك عدة طرق للتعبير عن الاهتمام، والرجل والمرأة مختلفان من هذه الناحية، ما يرضي المرأة لا يرضي الرجل والعكس صحيح، والطرق التي تعبر بها المرأة مختلفة عن الطرق التي يعبر بها الرجل، لا أعتقد أنه لا يحمل لك مشاعر كما تقولين، وإلا فليس مضطرًا للاستمرار معك، وبكل الأحوال أين سيري فتاة رائعة مثلك، أضع يدي على كتفها وأضمها لي، صهري (السيدع) الغليظ هذا، لا يحق له أن يحزنك، تبسم، ثم تقول يبدو أن كل جماعة العين غلظين سوف أترأ منهم، أضحك مندهشة لا أصدق ماهذا! أنت تتخلين عن جماعة العين لا لا أصدق، تقول ربما لأن الوضع ازداد عن حده (سيدة ق) تتابع حديثها، ها وأنت كيف حال المعجب المتيم؟

أقول لها دعك من هذا، لا تبالغي.

تجيب أي مبالغة يا فتاة الأمر واضح.

أقول لها مقطبة جيني للأسف لم يتم الأمر، تقول للأسف له وليس لك، أقول لماذا؟!

لأنه واضح جدًا كم هو راغب بك، أنت وأهلك من صددتيه.

أقول بابتسامة عريضة هو المجتمع كله معه عزيزتي. لا تقلقي من أجله، يظل يختار من تعجبه ويتقدم لها إلى أن تأتي من تناسبه،

لكن أنا من أنتظر، الأمر ليس سهلاً أبدًا... تفاصيل كثيرة، وتعقيدات أكثر.

نعود لنشرب قهوتنا بصمت، تتخلله أحاديث عابرة عن الارتباط والعلاقات والدارسة والحياة، تناديني بها بالسيدة ق، التي هي رمز للقلب، وأناديها سيدة ع التي هي رمز للعقل، أنا قلبها وهي عقلي رغم إننا أحياناً نتبادل الأدوار، ونحن غارقون بينهما، وبين إلهامات هذا وأفكار ذلك، وإذا بصوت صفير يسمع من بعيد، صوت قوي يدوي يباغت حوارنا، أجسادنا، أرواحنا، وجودنا كلتينا، صراخ، فوضى، بلبله، بكاء، خوف، توتر، نركض بهلع نحو المبنى الداخلي مع الطلاب المتجمعين، نتلثم، نتعثر، يدخل موظفو الجامعة ويقولون ابقوا هنا لا أحد يتحرك، نزلت قذيفة أمام باب الكلية الأمامي، أنزوي نحو الجدران والدوار يغتالني أريد أحداً ما أستند عليه، فلا أجد، حينئذ تجلس على ركبتيها منهارة، أشعر بحرارة في جسدي تكاد توقعني، أقترّب من الدرج أجلس على طرفه وأحاول أن أستعيد رباطة جأشي مسندة رأسي على الجدران.

بعد قليل تأتي فتاة لا أعرفها، وما أجل الغرباء اللطفاء، كأنها شعرت بأن دواراً خفيفاً كاد يسقطني، تمسح على جبينني بكفها التي بللتها من زجاجة الماء التي بيدها وتعطيني حبة سكاكر وتقول ضعيتها بفمك، يبدو أن ضغطك انخفض، أنفذ كلامها ممتنة، تقف بجانبني بضع دقائق وتتأكد أنني بخير وتذهب، بعد قليل أنظر حولي، أقرأ الخوف والذعر على الوجوه، فأذا بالطفل الذي باعني البسكويت يقف بهدوء وسكينة هكذا يبدو عليه، يقف مستنداً على الجدار مقابل وكأنه متأسك أو أن الله وضع فيه التأسك وزرع فيه السكينة التي تعينه على حياة الشقاء، أشعر بتحسّن خفيف، أنهض أمشي ببطء أمرٌ بجانبه ألتفت، وأقول: ما اسمك؟ يجيبني وهو ينظر إليّ، اسمي محمد.

أقول وكأنني أعاتبه أو أوبخه رغم تعبي، أنظر ما جرى لك، أليس من الأفضل ألا تأتي إلى هنا؟ فينظر إليّ ويقطب جبينه، ويقول: انظري ما جرى لك أليس من الأفضل ألا تأتي إلى هنا؟ أذهل بجوابه وأشعر بسرور طفيف بداخلي، أقول له: معك حق، يجيب، أعتقد أنك لا تستطيعين أن تتركي دراستك، وأنا كذلك لا أستطيع أن أترك عملي؟

يبدو أن نظرتي لم تحب، واضح كم هو واعي وذكي، أقول له أنا اسمي ندين، يحمر خجلاً، بعد لحظات تأتي حينئذ تقول: سمح الموظف بالخروج، سرعة أرجوك دعينا نذهب، أنظر إليها بوجه منهك، هيا، أقول لمحمد: إلى اللقاء، ربما سنلتقي ذات يوم، بصوت متعب.. يومى برأسه ويرسم

شبه ابتسامة على محياه.

يرن هاتفي أمي المتصل، أرد أطمئنها لا تقلقي.. لا تقلقي أنا بخير.

أصل إلى البيت، أغلق الباب ورائي، أجلس على الأرض مسندة ظهري له وأنطوي على نفسي المرتجفة وأحاول تهدئتها بصمت، لا أستطيع الكلام حتى مع نفسي، هدوء في المنزل، الحمد لله لا يوجد أحد، أبي في عمله وآسر في معهده، وأمي ويزن عند جدائي.. تمر بك لحظات، تتمنى أن تختبئ وتنطوي وتخففي ولا ترى أحداً ولا أحد يرالك.. يا إلهي هذا الخوف كبير، أكبر مني، هذه المعاني الجديدة وغريبة، الأمان الأمان يا الله، أتراه بدأ يخفني ونحن يجب علينا أن نتذوق معنى غيابه؟ ساعدني يا الله، أقوي نفسي، فأهض من على الأرضية وأخلع عني حجابي ومعطفي وأدخل غرفتي أستلقي على سريري وأتموضع كالجنين بفارق بسيط، الجنين في رحم أمه لا يعرف معنى الخوف، وأنا في رحم الحياة غارقة في معناه، أحاول أن أنام.. النوم هروب جيد حين يصبح الواقع لا يطاق..

تمر ساعات ربما، أشعر ببعض الجلبة في المنزل، أفتح عيوني بصعوبة، وأجلس على السرير مثقلة، وأستعيد ما حدث معي اليوم بفعل الذاكرة، بعض الأحداث لا تجيد تقييمها وأثرها على نفسك إلا بعد أن تمضي، صوت القذيفة والصراخ ووجوه الطلاب، حتى الكلية لم تسلم من يد الحرب.. أفكر يا الله ماذا عساني أفعل! لا أذهب إلى جامعتي بعد اليوم، أقول لنفسي تباً للدراسة وللكلية ولكل شيء، أنا اليوم كدت أن أموت.. يُفتح باب الغرفة علي، يدخل آسر بقلتي وخوف يغطيه بضحكة عابثة، يقول: كيف حالك اليوم؟ يقولون إن قذيفة سقطت أمام مبنى كلية الآداب، أنظر إليه وعيناي مليئة بالدموع، كدت أن أموت، خفت كثيراً..

تدمع عيناه ويخاف مثلي، يجلس بجانبي ويضع يده على كتفي، ثم يقول: لا تذهبي للكلية هذه الفترة، عسى أن تهدأ الأوضاع..

أقول بانفعال: آسر أيعقل أن نسجن أنفسنا في البيت؟ أما كفانا أننا قضينا العطلة الصيفية كلها عاطلين عن العمل والحياة، معارضة فكرته التي هي فكرتي بالأصل، ينظر إلى الأرض بانكسار ولا يجيب..

لا شيء عبثي على هذه الأرض.

(محمد)

واع ومترن لدرجة تشعر أنك تتكلم مع رجل ناضج... وأنت تخاطب هذا الطفل الكبير، نشأ محمد في أسرة متواضعة له أم ووالده متوفى، وله ثلاثة أخوة صغار أكبرهم فتاة تبلغ ثلاثة عشر ربيعاً، وأوسطهم طفل بالعاشر، وأصغرهم طفل في الثامنة، وهو الآن رجل البيت كما عرف مؤخراً، أخوته مسؤولين منه ليس لهم أحد بعد الله إلا أخاهم الكبير هذا، ذاك أول امتحان يخوضه في الحياة وأصعب امتحان.

يسير بتعب متناقل الخطأ، ها قد اقترب من البيت ليس في يده شيء، باع علبة البسكويت لهذا اليوم، في جيبه مبلغ زهيد لقاء ما باعه، يدق باب البيت فيفتح له أخوه الصغير ويركض نحوه البقية، هذا المشهد جعل ذاك الطفل رجلاً كبيراً، ما زال يذكر عودة أبيه ليلاً للمنزل واستقباله هو وأخوته له بحفاوة، ما زال يذكر فخره بأبيه وتحديثه عنه أمام أصدقائه في المدرسة، ما زال يذكر يوم وفاته والموقف الذي وضعته أمه به وكأنه رجلاً، عندما قالت له: اذهب واقبل التعازي من الرجال فأنت الكبير.

نظرت أمه له بابتسامة، الحمد لله على السلامة بني، أهلاً أمي، اقترب منها ووضع ما في جيبه بيدها، وقال: هذا ثمن البسكويت.

كانت وما زالت أمه تسعى جاهدة لتحافظ على أسرته من الضياع بعد وفاة زوجها، فحاولت ملء دور الأم والأب ولأنها ليس لها معيل بحثت عن عمل تعمله في منزلها تحفظ به كرامتها هي وأولادها، إلى حين تتدبر أمورها وتتصرف بها ترك زوجها. أسمى ما تملكه هذه المرأة استقامتها من أجل أن يتعلم أطفالها، حُرمت من تكميل تعليمها لكنها أصرت أنها لن تجعل أبناءها يخوضون التجربة ذاتها، ولعل أجهل عطايا الحياة لها رغم كل معاني القسوة في العيش والفاقة التي عاشتها بعد وفاة زوجها أن أطفالها كانوا نبهاء ومتفوقين في دراستهم، وبذلك كانت تسلي نفسها أيام ضيقها فتأمل منهم خيراً، وطالما صلت لله أن يحققوا لها حلمها ويستعيدوا لها سعادتها المسروقة

بأن تراهم أولادًا صالحين ناجحين تستمتع بنجاحهم وبرهم فيها ذات يوم.

بعد منتصف الليل تفقد الأولاد وتتمتع بالمعوقات عليهم وتغطيهم بغطاء واحد وتتمنى لو أن في روحها غطاء دفع لتذرهم به، هي الأم، والأم الحقيقية تبدو وكأنها تجسد المعنى المطلق للحنان. كانت مستلقية تفكر بهم كل واحد على حدة، كم يؤلمها أن تشاهد محمد وهو بكرها وأكثر أولادها ذكاء وتهذيبًا أن يعمل بهذا العمر الصغير ويبيع البسكويت للناس وكأنه يتسول منهم، لم تكن لتتصور ذلك، غصة كبيرة في حلقها، طفل مثله يستحق حياة أجل، يستحق بيئة تعي مواهبه.

واضح كم هو راغب بأن يعين أمه، تنهد بعمق، آه كم تشبه أباك يا محمد.. النباهة والذكاء والأسلوب نفسه حتى بشكله تشبهه العيون الواسعة والبشرة الخنطية والفك العريض أنفسهم، الضحكة والعبوس نفسه، وكأنك هدية من الله لتذكرني به دائمًا رغم أنني لست أنساه، كيف أنسى رجلًا مثله صدق معي؟ كيف أنساك يا حزة، كيف أنساك؟ الموت غيب جسدك لكن روحك معنا دائمًا، قريبة مني ومن الأولاد... يسرقها النوم وهي تفكر.

في اليوم التالي تستيقظ على صوت جلبة الأولاد، يستيقظون قبلها، تنهض، تدخل الحمام تغسل وجهها بسرعة وكان هناك مهمة مستعجلة، صباح الخير يا أولاد تنادي عليهم، تدخل المطبخ لتجهز لهم شيئًا يأكلونه يسد رمق جوعهم وهم يجهبون أنفسهم للذهاب للمدرسة، تقترب من محمد وتقول له: بُني، أرجوك أترك بيع البسكويت وركز في دروسك لا أريد منك شيئًا آخر، لن تبقى أوضاعنا هكذا هي مسألة وقت ريثما تنحل أمور البلد قليلًا ونؤجر دكان أهلك، تقترب وتمسح على رأسه بيدها وتتابع حديثها غداً ستكبر وستصبح من أفضل الشباب وتساعدني، ووقتها أعدك أنني لن أمانعك.

ينظر إليها، ويقول: أُمِّي انتهت الكلام، تحدثنا كثيرًا بهذا الأمر، ألم تذكرني كيف قلت لي أنا رجل العائلة من بعد أبي؟ والرجل يساعد أسرته أليس كذلك! ومن أجلك لم أترك المدرسة وصرت أذهب للعمل بعد الدوام، لكن لو عملت بدوام كامل كان الريح أكثر.

تقول: لا أريد منك مالاً، فقط اعطني بدروسك وانجح، وهذا بالنسبة لي أفضل من كل الأموال، ونحن مستورون والحمد لله، يعني عملك هذا ليس ضروريًا، افهمني بني، يعني لست

مضطرباً كثيراً.

أمي أرجوك لا تقلقي، سأدرس وأعمل، يجيها

تصمت وتنظر نحوه بحب وامتنان وألم في آن واحد..

يخرج الأولاد من البيت مودعين أهمهم وهي تسير خلفهم ولسانها لا يكف عن الصلوات لحفظهم والتنبيهات لهم بأن يعودوا فور انتهاء الدوام المدرسي بسرعة؛ لأن الأوضاع في المدينة مضطربة هكذا سمعت من الجيران والناس، فمكان سكنهم بعيد نسبياً من مناطق التوتر وهي لحسن الحظ لا تملك أدوات اتصال بالعالم الرقمي، ولا تجيد قراءة هذا الواقع المر، فهي ذقت معاني كثيرة قبله وبعده وتجربت العلقم مراراً فاعتادت عليه، فلم تعد تكثر لفواجع العالم وأصبحت ترى الحياة فقط من خلال أطفالها.. وإن كانوا هم بخير فعلى الدنيا السلام.

ندين

في منتصف هذه الليلة بدأت ذاكرتي تلقي أمامي أحداثاً مضت كعادتها.

أنا يا ذاكرة أحياناً أريد أن أمحي وجودك ولا أستطيع، تباغتيني بحضورك القاسي دائماً وترمي أمامي مشاهد أنا لم أعرف كيف عشتها ومضت دون أن تنتشل روحي وتجعلها حبيسة اللحظة تلك، معتقدة أنني متحررة منها لكنها مسجونة فيك يا ذاكرة، أرجوك استقبلي، دعيني أحياء كالأطفال، أعيش كل يوم على حدة كأنه مغامرة شيقة، لا أبه بالماضي ولا بالمستقبل.

فجأة وأنا أصارع ذاكرتي وأحاول إخماد صورها لعلمي أستريح وأعط في نوم عميق لا أستيقظ من بعده أبداً يراودني وجه ذاك الشاب الصغير، إنه بائع البسكوت، أتذكر هدوءه ونباهته وجوابه بأنه لا يستطيع أن يترك عمله وأنا لا أستطيع أن أترك دراستي كما قال، أفكر ما الذي يجعل طفلاً بذكائه وشخصيته التي تنطوي على تميز واضح أن يبيع البسكوت؟ لماذا يعمل هذا العمل يا ترى؟ من المؤكد أنه مجبر يخيل إليّ، أفكر أياً ترى أباه رجل سكير ظالم يترك أولاده للعمل؟ أو أمه مريضة مثلاً؟ أو أنه يتيم لا أب ولا أم؟ احتمالات كثيرة دارت في رأسي

إلا الاحتمال الحقيقي.

غريبة الحياة ومدهشة وغامضة ومليئة بالأسرار.. اغتالي الأسي وأنا أفكر كيف سأقضي أيامي القادمة هكذا بلا وجهة ولاهدف فقط الانتظار.. كم أكره هذه الحالة، لا أبذلها على الإطلاق ولا بأي شكل من الأشكال، أهرب منها أحياناً.. أو أجل موعد ذهابي لطبيب عيادته مزدحمة هرباً من الانتظار، أو أجل وقت تسجيلي بالكلية لآخر وقت هرباً من الانتظار، ألغي أشياء كثيرة تضعني في حالة انتظار، أو إنني ألغي الانتظار أحياناً بقراءة كتاب أو مشاهدة فيلم أو البحث عن معلومة أو التحدث مع أي أحد، فقط ألا أعيش حالة انتظار.. أحياناً أتساءل؟ لماذا أنا أعاديهِ؟ أليست حياتنا كلها قائمة على الانتظار! ثمة من ينتظر عملاً، وثمة من ينتظر حباً، وثمة من ينتظر شفاءً، وثمة من ينتظر إنجاباً، وثمة من ينتظر لحظة سلام، وثمة من ينتظر الأمان، وثمة من ينتظر النجاح. جل أحلامنا وأهدافنا معلقة على باب الانتظار، أنا، أنا لا أجيد تقبله، أريد أن أقتحمه لا أعرف كيف أقف تحت رحمته، لا أتعلم، أبي دائماً يقول لي: الحياة ليست على مزاجنا يا ندين، أصبري. أنزعج منه بسري لكن لا أشعره، الانتظار يؤكد لي كلام أبي...

أأنتظر لتكف الحرب عن الاشتعال وليعم الهدوء لأشعر بالأمان ولأعود إلى دراستي وأصل لستتي الدارسية الأخيرة وأتخرج؟ أأنتظر لكي يفهم البشر وينعموا بحس رفيع بالذوق فلا يطوروا الأسلحة ويستخدمونها ضد بعضهم البعض ويشعلوا الحروب لأكمل حياتي بسلام؟ أأنتظر أن يهدأ خوفي هذا أو ربما يصغر لأنه يكبر معي كل يوم لأناب حياتي، وأنهض من فراشي يومياً رغم أنه ينهض معي؟ اللعنة على الانتظار، اللعنة على كل شيء يشبه ويمت له بصلة، اللعنة على كل من يضعنا بحالة انتظار ويقنعنا أن ننتظر.. العمر قصير جداً والحياة حلم سريع، لا وقت يجب أن نضيعه بالانتظار، أتراني غاضبة؟ لا. ربما يائسة؟ لا. ربما حزينة؟ نعم حزينة، الواقع هذا يستدعي الحزن، نعم يستدعي الحزن ويستحقه بجدارة.

أقول لنفسي: كفك تبويماً، ندين ستدرسين في البيت وما يصعب عليك تسألين عليه الأساتذة في يوم تحضري له لتذهبي للكلية كل فترة عندما تهدأ الأوضاع، لن تذهب سنتك الدراسية سدى، ولن تحملي المواد اطمئني لن تنتظري، ستخرجين في النهاية، ستحققين ما ترغبين به، فقط توكلي على الله ولن يخذلك.. ما اعتدت أن أطلب من الله ويخذلني حتى نفسي خذلني ووحده

الله لم يفعل.

يقول نبينا محمد عليه السلام: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها" لم يقل فليتنظر أو يرميها أو يقف ساكناً، قال فليغرسها، وأنا فسيلتي في تلك القيامة التي تجري الآن "تعلمي"، أولست حياتنا في هذه المدينة أشبه بيوم القيامة؟ الكل اللهم نفسي، الكل مذعور ومضطرب وخائف ويرجو النجاة، كم من الإيمان والقوة تحتاج لتزرع فسيلتك والقيامة تقوم! المهم ألا أنتظر، المهم أن تزول غمامة الحرب، المهم أن نحيا بسلام.

استيقظت في اليوم التالي بمزاج رائق، لعلها آخر فكرة راودتني قبل النوم وزرعت في الأمل، لولا الأمل لأصبحت الحياة جافة باهتة بلا ألوان، والأمل الذي يخلقه قلبك في ربوع اليأس إنه إنجاز عظيم وقوة تعينك لتقاوم الحياة وتخبرك أملك وقودك فاشتعل، وتعلم من دورس الحياة، دورس الحياة باهظة الثمن، تدفع من عافية قلبك وروحك وجسدك لتتعلمها.

جهزت الفطور بصعوبة، جعلتني أكره المهمة البسيطة تلك، الماء قليل والتقنين ضروري رغم أنه مزعج جداً، لكن ليس لنا خيار، كنت إن جهزت الفطور ذات يوم أجهزه على ضوء النهار وضوء الكهرباء، الآن الجو غائم فضوء النهار خافت وضوء الكهرباء منعدم، أذهب لأنادي على أمي وأبي وأخوتي ليتفضلوا على وجبة الفطور العظيمة التي جهزتها في هذه الأوضاع والتقنيات الجديدة، نجلس ونفطر بصمت رغم الضجيج العالي في ذواتنا، ويذهب أبي إلى عمله، ويذهب أسر لغرفته ليبدأ بالدراسة، ويزن لغرفة المعيشة ليبدأ باللعب، وأنا وأمي في المطبخ، أقول لها: سأحضر القهوة ما رأيك؟ تجيب يا ليت، أجهز القهوة وأسكبها في فنجانين لطيفين وأقدم أحدهما لأمي والآخر لنفسي، نحسبها بلذة وتأمل، لا زلنا صامتتين، بدا الصمت طقساً جديداً من طقوسنا في المنزل منذ فترة بدء الأزمة إلى الآن، رغم الثثرة التي لا تهدأ بداخلنا وكأننا لا نعرف ماذا نقول، أو لا نملك ماذا نقول، أو لا نريد أن نقول أصلاً!

أنظر لوجه أمي، قد بدا أنه تغير وكأن ملامح الكبر والهمل تكسوه ويشوبه الإرهاق، أقطع الصمت بقولي: أمي ما بك منذ فترة أنت وأبي؟ ترمقني بطرف عينها وتأخذ رشفة من فنجانها، ثم تقول: أتعرفين يا ندين القاعدة الثابتة التي لا تتغير، أقول لا، تقول (كل شيء يتغير) الناس والحياة

والمشاعر والزمن، كل شيء يتغير، قلت محاولة فهم وتفسير قصدها من كلماتها تلك: أتقصدين أن أبي تغير؟ تجيب لا ليس أبوك فقط، كلنا، أنت أصبحت شابة جميلة وذكية ومجادلة وطموحة بعدما كنت طفلة هادئة راضية، إسعادك يقتصر على نزهة ووجبة لذیذة، أخوك أسر صار شاباً كبيراً أيضاً له طموحه ومتطلباته وأحلامه، التي لا يتنازل عنها بعدما كان أقصى طموحه أن ينال في حضن أبيه، أنا تغيرت، صمتت، أبوك تغير والبلد تغيرت بعدما عشنا عمراً كاملاً من الأمان في هذه البلاد، اليوم صارت منبع خوف، قلت لها: أزمة وستنتهي، أمي مابك، أرجوك تفألني.

أحياناً كثيرة تتفوه بكلمات تقولها للآخر الذي أمامك لكنك في الحقيقة تقولها لنفسك؛ لأنك بحاجة لها أكثر منه ربما؟ أنت تقوي أحداً ما لأنك بحاجة لتقوي نفسك، وتدعمه لعل هذا الدعم يحتاجك، وتحضنه لأن روحك محتاجة لهذا الحزن.. نحن لسنا منقسمين بأقوياء وضعفاء، في الحقيقة كلنا ضعفاء، فقط من يدعي القوة ويلبس لباسها أمام الآخرين يتعري أمام نفسه ويشعر بمقدار ضعفه لوحده، لا يريد أن ينكشف على عورة ضعفه أحد.. سلام لقلوب المدعين القوة، المجاهدين لذواتهم، رغم أن في أرواحهم منابع ضعف وخوف.

نظرت أمي إليّ وابتسمت ابتسامة الذي لا يريد أن يخيب أمل الذي أمامه، لأنه يعرف الحقيقة التي لا تشبه تطلعاته، أمي كبيرة وواعية بما يكفي لتدرك معنى أن تبدأ حرب، وأنا غرة جديدة على الحياة... أجل معنى الحرب بمصطلحات كثيرة تخفف وطأتها على قلبي رغم أنها مصطنعة وغير حقيقية.

أحل فناجين قهوتي التي ثقلت بعدما فرغت، أتراها روحي التي ثقلت، لا أدري!

منعطف جميل

(محمد)

كان محمد يجوب الشوارع التي بدأت تكتسي بالعتمة وتعلن أنها بداية الليل، بدا يتلاحى لسمعه صوتاً شجياً الليل يا ليل يعاتبني ويقول لي سلم على ليل، الحب لا تحلو نسائمه إلا إذا غنى الهوى ليل، صوت المطرب ينبعث من المقهى الذي يجلس بداخله بعض الشباب، يقف وينظر إليهم بأسى، يالا حظهم استطاعوا أن ينعموا بالدفع ويجلسون في المقهى ويستمتعون بصوت المطر، بينما هو تبللت ملابسه به! يسير على مهل تأتبه كلمات أمه، يحاول تأملها.. الحزن ضار، والنعمة على الآخر لا تؤذي سوى صاحبها، الله من أسائه الحق، والحق لا يظلم، عليه أن يكافح ليحصل على ما يحب، تلك المعاني أعطته قليلاً من الدفع...

يحاول أن يسير على جنب الطريق لكي لا يتبل أكثر من رذاذ المطر، إنه جميل ينعش الروح رغم أنه يبلل الملابس ويجعلك تشعر بقليل من البرد، هكذا يفكر وهو يضع علبه البسكويت بكيس نايلون كان بجيبه كي يحميها من البلل.. يكمل سيره يرى امرأة ورجلاً يشيان ملتصقان ببعضهما وفوقهم مظلة يحملها الرجل ويهمسان بحب.

على الطرف الآخر يلحظ رجلاً ينزل درج مبنى مصنوع من المرمر بعجلة وعبوس هارباً من قطرات المطر التي تهطل فوقه بانتظام ولا تقف، يهرب منزعجاً نحو سيارته يبدو أنه لا يحب المطر. منعطف يساراً نحو شارع فرعي متابعاً سيره يشاهد رجلاً ومعه طفل صغير يحمله مسرعاً، والطفل يفتح يديه وينظر للسماه بضحكة ويقول: أبي هذا جميل لا تستعجل، يضحك أبوه ويستمر بعجلته، الكل مسرع ويحتمي من المطر، لا أحد يريد أن يتبلل به أكثر..

تمر فناة تمشي ببطء هذه المرة كأنها لا تأبه للمطر ربما تحبه، يداها في جيبيها وحقيبتها على كتفها، تقف قليلاً تجثو تضع شيئاً على الأرض وتمضي بطريقها، وكأنها مستمتعة بهذا الطقس.

في المكان الذي جثت نحوه ثمة أحد ما مستلقٍ وفوقه غطاء فضي تحت شرفة منزل بجانب

الطريق لذا المطر لا يبلله، فقط يشاهده وهو دون حراك.. ربما هو رجل، ربما هو امرأة، أو ربما طفل، الليل والمطر يستترانه وكأنه مختبئ في جوفهم، يا للمسكين أيًا يكن، كم هي نعمة أن يكون للمرء منزل يأوي إليه، يقول لنفسه.

يمضي في طريقه يتذوق الحياة في بعض المشاهد التي يراها أمامه فيشعر بروحه أخف، لم يعد يأبه بأفكاره التي طرأت على باله منذ نصف ساعة تقريبًا، ربما أصبح الآن يشفق على الشباب الجالس في المقهى وكأنهم سجناء، بينما هو حر طليق تداعب وجهه نسيمات باردة وتغسل روحه بضغ قطرات من الغيث، فقط المشكلة حذاؤه تبلل جدًا، لكن لا بأس سيعود إلى المنزل وبغير ملامسه وينظف حذاؤه جيدًا وينشفه على المدفأة، سيصبح على ما يرام.. ليته يستطيع أن يشتري حذاءً جديدًا، لونه أبيض رياضي ومريح يشبه ذاك الذي لفت نظره منذ أيام وهو يسير، كان على واجهة أحد المحال التجارية، يا ترى كم سعره؟

أعتقد أنني أحتاج لثلاثة أشهر وأنا أدخر مصروفي لكي أحصل عليه ربما، لكن كيف سأدخر؟ المال لا يكفي، من الأصل مصروفي قليل جدًا.. يتابع سيره وأفكاره تتدفق، تسير سيارة حديثة لونها أسود من طراز المرسيدس بجانبه، يحاول الابتعاد قليلًا نحو الرصيف، قبل أن يتنحى تحاذيه قفلطخه عجالاتها الحديثة بوابل من الطين وتسير مسرعة ماضية لوجهتها، ينظر لمظهره بعدما تمضي بغضب ما هذا الأحمق الغبي؟! يقود بلا تفكير، يحاول نفخ ثيابه، يخرج مندبلاً ورقياً من جيبه يمسح ما يستطيع ويمضي منزعبًا وعابسًا، وكأن مرور تلك السيارة بجانبه عكر مزاجه من جديد.

فإذا به وهو يسير يرى شابين يراقبانه من بعيد، يرتدون سترات موحدة لونها كحلي وبمنتصفها خط أبيض رفيع، يتدجون من سيارة مركونة على جنب الرصيف، يسير نحوه واحد منهم والثاني يلحق به، ينظر إليهم بتعجب وذعر وهم متجهين نحوه فيرتجس قلبه، يتساءل بينه وبين نفسه ماذا يريدون مني يا ترى؟ أتراهم أولئك الجمعيات التي تحارب عمله دون جدوى ومن غير مبرر؟ هكذا يبدو من مظهرهم، من المؤكد أنه لا يعمل للتسلية أو لتمضية الوقت في الشوارع في تلك الظروف غير الطبيعية، أو أنه يريد تشويه الواجهة الحضارية للبلد التي هي مشوهة أصلاً، اقترب أحدهم قاطعًا سلسلة أفكاره.

مرحبا، كيف حالك؟ قالها بلطافة.

أجاب محمد بعبوس: أهلاً.

ما اسمك؟

محمد.

كم عمرك؟

عمري أربع، تلغثم، عشر.. ونصف.

ماهذا بيدك؟

بسكويت أبيعه.

ماذا تريدون مني؟

نحن جمعية تابعة للأمم المتحدة، نكافح عمالة الأطفال.

اذهبوا وكافحوا من يتسوّل، أو من يؤذي غيره. ما شأن لكم بي، أنا أعمل فقط بعد العصر وفي المساء لأساعد أمي وأخوتي، قال متوتراً.

اقترب منه الشاب الآخر بروية حيث أنه شعر بتوتره، خاطبه بحنو ودماثة ليهذئ من روعه قائلاً: من الواضح أنك شاب محترم وأكبر ظلم لأمثالك أن يعملوا ويجوبوا الشوارع، أنت مكانك في المدرسة.

أجابه: ومن قال لك إنني تركت دراستي! أنا أدرس وأعمل، نظر الشابان لبعضهما وابتسما متفاجئين، فقلما يصادفان في عملهم هذا أولاداً بتلك الحالة المختلفة التي تجعل من طفل يعمل ويحيا حياة التشرد والعمل في الشوارع، ويعاني ما يعانيه الأطفال الذين يعملون فيه، ثم يعود للدراسة ويتابع تعليمه أيضاً، فعالم عمالة الأطفال أو تشردهم مخيف قادر أن يُخلّ توازن أي طفل ويجعله شخصاً ليس كما هو عليه في الحقيقة ؟

قال أحدهما: أنا اسمي سامر وصديقي حازم، والآن زاد إصرارنا لتذهب معنا لمقرّ الجمعية لنساعدك إن سمحت لنا طبعًا، انتابه بعض القلق من فكرة الذهاب معهم، خاف أن تكون خدعة ما، علمته حياة العمل في الشارع ألا يثق بأحد، قطع أفكاره التي تتوارد في ذهنه صوت واحد من الشباب وهو يقول له مازحًا: إلى أين وصلت؟ حرّك رأسه بأن لا شيء مهم.

ثم قال له: أخاف أن أذهب معكما وتأخر على أمي، أمي وأخوتي ليس لهم معيل سواي. يحببه الشاب الآخر: نحن ننقلك إلى منزلك لا تقلق، هيا تعال معنا بسرعة ودعنا نحتمي من المطر، ثيابك مبللة أرجو ألا تمرض.

ألقي عليه نظرة جانبية، وقال له: لا تقلق بشأني، إنني معتاد على هذا، مناعتي قوية، وهو واقف في مكانه دون أن يتحرك، قال الشاب: ثق بنا، ألا يبدو علينا أننا شباب طيبون! قال مازحًا عله يؤثر به، فمن الواضح كم هو شاب عنيد.

زفر طويلاً والحيرة والشك تكسو ملامحه، ثم قال لهم بتردد: حسناً، سأتي معكم.

تبسم الشابان وغمز أحدهما الآخر بعد أن نجحاً أخيراً بالمهمة، ومضى الثلاثة معاً... قلبه إطمئن لهم، فمظهرهم مريح، لكن هل يكفي لكي يغامر ويذهب معهم في هذه الظروف المضطربة في البلاد؟ شعر بخوف داخله بعدما صعد إلى السيارة وانطلقوا، هل يعقل أن يكونا من تجار الأعضاء البشرية؟ انقبض قلبه، يا إلهي ماذا فعلت بنفسي، كم مرة أمي نبهتني ألا أثق بأحد ولا أذهب مع غريب؟ ماذا دهاني؟ قلبه يرتجف، فتح فمه ليطلب منهم الوقوف، رنّ هاتف أحد الشباب، ألو أهلاً رنا، فعلاً صوت امرأة يبدو من سماعه الهاتف، يسمع بحذر ترى من هذه، يقول لها الشاب لا تقلقي ساعة وأكون في المنزل إن شاء الله، جهزي العشاء أنضور جوّعاً، نعم.. نعم، نلتقي حبيتي، انتهي لنفسك، ينهي المحادثة، يطمئن قليلاً، حديثه عادي، لا أدري، لكن لا يبدو عليها أنها أشرار، يقول لنفسه: أيها الأبله، وهل الأشرار يضعون بطاقة تعرفه على أنفسهم؟

ينظر الشاب الذي يقود بطرف عينيه لصاحبه، العروسة ياعم اهتمام ودلال ويضحك، يلقي صاحبه النظرة ذاتها عليه ويضحكان معاً ويقول له: عقبالك يا سامر. ينظر محمد من وجه لوجه يتابع الحديث، يشعر أن قلقه بدأ يختفي شيئاً فشيئاً.

وصلوا أخيراً لمكان الجمعية، حاول محمد أن يقرأ اللافتة الموضوعة بأعلى مدخل المبنى من داخل السيارة رغم عتمة الليل، جمعية أمان الطفولة لمكافحة تشرد وعالة الأطفال، يبدو أنهم فعلاً صادقون. ركن الشاب السيارة محاذة الرصيف وخرجوا منها جميعاً متجهين نحو مقر الجمعية، سار محمد خلفهم بتردد وبطء.

دخلوا المبنى معاً، كان المدخل عريض يفضي لدهليز طويل في مطلعه غرفة على طرف اليمين معلقة لوحة على الباب مكتوب عليها رئيس الجمعية، طلبوا من محمد الدخول والجلوس ريثما يصل الأستاذ ملهم على حد تعبيرهم، جلس محمد على الكرسي يتفقد المكان، مكتب واسع يوحي بالراحة، مفروش بأرائك مصنوعة من الجلد البني، وطاولة المكتب خشبية غامقة اللون، نظر جانباً وجد لوحة فيها منظرًا طبيعيًا أخاذ، جبال بعيدة وعشب أخضر كثيف ونهر على جانبه بيت ريفي جميل، كم حلم أن يكون له مرسم كبير وألوان وريش يرسم متى يحلو له، يجب الرسم كثيرًا، ويجب كرة القدم، لكن لا وقت لديه ليلارس ما يجب، ولا مال لديه ليشترى المرسم الذي يحلم به، بعد بضع دقائق من جلوسه وحيداً لكن مطمئن هذه المرة ولا يدري السبب، دخل رجل أربيعيني متوسط القامة تحتلظ في ملامحه الهيبة والوقار، يغزو شعره الشيب، يرتدي سترة صوفية زيتية اللون وبنطالاً بنيًا تحتها، حذاءه يلمع، تساءل بداخله كيف استطاع أن يحافظ على لمعانه رغم كل ذاك الوابل من الطين في فصل الشتاء؟ اقترب منه وجلس على الكرسي المقابل له، قائلاً: كيف حالك يا محمد؟

أجاب متلعثمًا: بخير.

كيف حال الدراسة والعمل؟ أخبروني الشباب بأنك تدرس وتعمل في آن معاً.

نعم كنت أدرس فقط، لكن بعد وفاة والدي اضطررت للعمل لأساعد أُمِّي وأخوتي فأنا الكبير بين أخوتي والمسؤول عنهم بعد أبي.

نظر بعينه مباشرة، وقال: اسمع يا محمد إن ما تفعله عمل رائع جداً، تلك الموازنة يا بني ليست سهلة على فتى بعمره على الإطلاق، كل يوم نجوب الشوارع لنبحث عن أطفال يعملون ونرى الكثير، منهم فئة تعمل لصالح جهات معينة، وفئة تعمل بسبب الفقر والحاجة وغيرها

من الأسباب التي تجعل من الأطفال والشباب الصغار عرضة لعالم خطير ومفتوح؛ لذلك نحن باعتبارنا نختص بمكافحة عمالة الأطفال هدفنا الوحيد أن نعيد الطفل إلى مقاعد الدراسة، ونحميه من عوامل كثيرة قد تؤذيه لكافة مراحل عمره التي الطفولة والمراهقة من أهمها، صمت لثوان ثم استطرد مبتسماً، لكن الجميل في حالتك أنك لست بحاجة لمن يعيدك للدراسة، فأنت لم تتركها أصلاً، أخبرني كيف حالك مع المدرسة؟

طأطأ محمد رأسه بحياء، وقال بتمهل: المدرسون يجنونني والموجه التربوي يقول دائماً لرفاقي ليتكم مثل محمد، وفي السنة الماضية كان ترتيبي الأول على الفصل، نظر الرجل إليه مندهشاً ومتأثراً في آن معاً، رائع جداً، على ما يبدو أنت لست بحاجة لمن يدفعك للدراسة ولا يشجعك عليها، أنت بحاجة لمن يدفع عنك العمل، فتى مثلك مؤلم جداً ألا يحظى بفرصة أفضل للتعليم، بني، لست مضطراً أن تعمل بعد اليوم، لا تضع وقتك، ضع كل تركيزك في دروسك وأنا... أجاب محمد بانفعال مقاطعاً لحديثه: لا أستطيع، لا أستطيع.

قال الأستاذ ملهم: هدى من روعك بني ودعني أعرفك أكثر على نفسي، اسمي الأستاذ ملهم، أنا مدير الجمعية واعتبرني من اللحظة بمثابة أبيك الذي توفي -رحمه الله- أقصد كما أخبروني الشباب، مما اضطررك للعمل. نخزت قلبه تلك العبارة وآلمته، بمثابة أبيك! ليس لأحد في الكون أن يكون مثل أبيه، مر بخياله وجهه الذي يحتضنه كل ليلة قبل أن ينام، ليس أحد مثل أبي قالها وقلبه حزين ليس يحياه فقط. قال الأستاذ ملهم: يبدو أن أباك محظوظ بك هذا واضح، أخبرني منذ متى توفي السيد الوالد؟

صمت قليلاً، ثم قال: أبي توفي منذ عامين ونظره جامد أمامه.

تفهم الأستاذ ملهم ما في أعماق هذا الفتى صاحب الشخصية الأبية الرزينة التي تجعله يبدو وكأنه رجل كبير، نهض من مكانه ووضع يديه على كتفي الصبي ونظر بعينيه، وقال له: أنا متأكد أن أباك فخور بك وأن روحه تحاوطك وتعتني بك رغم غيابه.

امتلاأت عينا الفتى بالدموع التي ذرفت منه لأول مرة دون استئذان وانتحب باكياً، مضى وقت طويل لم يمارس فيه حقه في البكاء، كان يريد أن يبكي في اليوم الذي رأى أمه ترجو صاحب

العمل اليدوي الذي تعلمه وهي في البيت أن يمهلها يوماً آخر لأنها لا تستطيع أن تنتهي اليوم بسبب وعكتها الصحية، فتعالا صوته عليها وكأنه استعبدتها!

كان يريد أن ييكي عندما اقترب من رجل لبيعه البسكويت، فصره على كتفه وانهمر عليه بوابل من الشتائم ولا يدري ما السبب!

كان يريد أن ييكي عندما كان في إحدى الكليات ونزلت قذيفة قريبة جعلت أوصاله تنشل وقلبه يقف من شدة الخوف والفرع ولم يستطع يومها البكاء؟ كان يريد أن ييكي عندما قال له صديقه في المدرسة أبي اليوم وعدني أن يأخذني إلى الملاهي، فشر يومها بيتمه واشتاق لأبيه ولم يستطع البكاء!

رَبَّت الأستاذ ملهم عليه بحنو متأثراً، حاول التخلص من ذاك المشهد بسرعة، فشدَّ على كتفيه، قائلاً: كفى يا رجل، دعنا من البكاء وهيا بنا نتفق على عملنا أيها الزميل المحترم، نحن نبش عن فتى نبيه مثلك ليساعدنا بالعمل، ها؟ ما رأيك؟ هل توافق على العمل معنا وبراتب جيد أيضاً؟ خفت تلك الكلمات الداعمة من وطأة حزنه، كأنها مسحت على روحه بلطف، فمسح عينيه بيده وابتسم.

قال له الأستاذ ملهم مشجعاً: كن على يقين أنك اليوم وجدت أسرة ثانية داعمة لك، الآن الشباب سيأخذون منك بعض المعلومات عنك وعن أسرتك وينقلونك للمنزل، وغداً صباحاً باعتباره يوم عطلة في المدرسة يمرون عليك وتأتي معهم إلى هنا، وبما أنك مصر على العمل سنأمن لك عملاً صغيراً معنا غير مجهد تستفيد منه وبذات الوقت لا تؤثر على دراستك، بُني، البلد في حالة حرب والأوضاع متوترة انتبه لنفسك ولدراستك وبإذن الله سوف تزول الغمامة وتكون من الجيل الذي يزرع خيراً في وطنه.

عاد الطفل إلى بيته حاملاً سعادة كبيرة على محياه وكأنه وجد كنزاً ما، ركض نحو أمه وأخوته ليزف لهم خبر عمله الجديد الذي حظى به بعدما دلف ذاك المنعطف الجميل، عمل لا يعرف ماهيته سوى أنه عمل محترم يعمل به كرامة تجعله لا يختلط مضطراً بعالم السوق والشوارع ولا يستجدي أحداً لبيتاع منه البسكويت، كم سُرَّت أسرته بهذا الخبر، وكم ناموا مساء هذا اليوم

سعداء ممتنين، ناموا جميعاً إلا السيدة ليلي، أمهم، كعادتها لم تنم معهم.

إلهي لك الحمد أنك استجبت لي وتوليت فلذة كبدي، قالتها وعيناها تفيض ثم أغمضتهم محاولة النوم.

ندين

كان لا بد من أن نتأقلم على فكرة التغيير، كل شيء يتغير، الاعتياد على شيء ما وكأنه أبدي ثم غيابه بشكل مفاجئ شيء من الصعب جداً تقبله، مضت أيام كثيرة علينا بعتمة موحشة، الكهرباء منذ مدة كبيرة لم تأتِ، الناس في حالة قلق وعجز وترقب..

المدينة ساكنة تارة ومشتعلة تارة أخرى، الخروج من المنزل مقترن بالخوف والبقاء فيه مقترن باليأس، عيوننا أصبحت تألف العتمة، كان الأمر في البداية بساعات تقنين فإذا هي تتكاثر أكثر وأكثر حتى صار قدوم الكهرباء ساعة في اليوم من أجل الأحداث، ثقل الأمر علينا لدرجة كدنا أن نجن، غمرتنا الكآبة واليأس والقنوط، لا شيء نعمله منذ مغيب الشمس حتى طلوعها، وكأننا كائنات أخرى لا تشبه البشر، أترانا أصبحنا كالخفافيش نجلس محذقين في العتمة ولا نرى شيئاً سوى الظلام أو بعضاً من ضوء الشموع.

ابتاع لنا والدي اختراعاً صغيراً يشبه المصباح ضوؤه عادي لكن يفى بالغرض بعض الشيء عندما تريد أن تتحرك لتقضي حاجة ما، أستلقي على فراشي ساعات طويلة، لا أفعل بل لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى التفكير، أفكر، ما هذا بحق الله؟ موت بطيء، حياة متوقفة، ظلام دامس يسكن أرواحنا ليس فقط مدينتنا، أصبح الشغل الشاغل والحديث العام للناس عن الحرب وتداعياتها وعن انقطاع الماء والغلاء والكهرباء، وعن كمية الشموع التي نستهلكها خلال اليوم، وعن الإهمال القسري الذي اجتاحت بيوتنا وأنفسنا بسبب قلة النور والماء بل انعدامهم أحياناً، أيام رتيبة مملّة تشبه بعضها بالكآبة والعتمة واللا شيء، أصبحت أمني نفسي دائماً أنها أيام وستمضي، الأمل موجود، والفرج قريب، أزمة وستنتهي، أقول لنفسي ويضحك القدر لم أدر أن هذه الأزمة ستكون عمراً دام سنوات!

كعادتنا على طاولة العشاء مجتمعين، اجتمع الأسرة على الطعام من أجل الطقوس اليومية التي تستشعر بها نعمة الدفء الأسري، خاصة إذا كان بين أفراد الأسرة ألفة ووثام، اجتماعنا في هذه الأيام لم يكن كما نحب ونشتهي، نجلس، نأكل الطعام الموجود بصمت وأحياناً ضيق، كل واحد منا يذهب لشأنه، كأننا في منزل عن العالم، نستضيء بشمعة ابتداءً، ثم شاحن كهربائي نركض لنشحنه عندما تأتي هذه الساعة الكهربائية البتيمة، وهكذا تمضي أيام العتمة في سكون واكتئاب.

ذات يوم وأنا أشتكي لأمي ضيقي ونفاد صبري، تدخل أسر ويزن الصغير مؤيدين لكلامي وشكايتي من العتمة والانعزال عن العالم الخارجي، لا كهرباء ولا ماء كما يجب ولا إنترنت، وكما أن دراستنا أصبحت عبئاً لا يطاق خاصة في المساء، أنهى أسر المحادثة الجماعية، بقوله: أكاد أصاب بالعمى، كان والدي يرتاح في غرفته فجأة دخل علينا معلقاً على حديثنا أصواتكم العالية وصلت للجيران، قالت أُمي: الأولاد ضاقوا ذرعاً من هذا الوضع، همس أسر بسخرية ممزوجة بألم: الآن يقول لنا نحن في حالة حرب، تجاهل أبي ديبب كلامه، ثم قال: معكم حق، أنا مثلكم وأكثر مستاء والوضع لا يجتمل، خوف وقلق والكهرباء شبه معدومة وحتى المياه تقنينها أتعبننا، ليس لنا سوى الصبر والانتظار عسى أن يأتي الفرج وتصلح الأعطال الموجودة في المحطة الكهربائية التي في الريف، لكن يا أولاد، احمداوا الله نحن في نعمة رغم كل هذا الوضع السيئ، الحرب الحقيقية مشتعلة في نواحي المدينة والسكان نزحوا لبعض الأرياف الآمنة ومنهم للمدينة، يا أولاد نحن بين الحين والآخر نسمع بصوت صاروخ بعيد أو قذيفة، ومع ذلك انقلبت حياتنا إلى جحيم، ما بالكم بمناطق الاشتباكات والجبهات المستمرة مع كل يوم، فاقصصار همنا على الكهرباء مشكلة بسيطة أمام أزمة الزواج من البيوت، ومعايشة هيب الحرب وروائح الرصاص.

نظرنا إليه بعيون مندهشة وقلوب مقبوضة، لا زلنا لا نعي ما يحدث. أكمل كلامه، نظموا حياتكم بما تملي عليكم الأوضاع، ادرسوا باكراً على ضوء الشمس وناموا باكراً بعد العشاء، يجب علينا أن نكون مرنين دائماً لا نعرف ماذا تطرأ مستجدات أسوأ لا سمح الله. (قد تعتقد أنك أضعف من أن تواجه أمراً ما، لكن في داخلك مارد شجاع، يخفي هذا الطفل الجبان الذي ينزوي بداخلك إن اقتضى الأمر، أنت أقوى مما تعتقد بكثير).

صديق الشيطان

(حسام)

كان تائه في شوارع المدينة بلا معنى، بلا وجهة، بلا وعي، يترنح يمينًا ويسارًا، يتحدث مع نفسه داخلًا في موجة من الهذيان والخدر، أنا لا أحد، أنا لا شيء.

محدق في الفراغ بصوت منخفض لا أملك سوى أن أهرب من أبي المجنون هذا ملوحًا بيده، وأمي المسحوقة تلك، وذاك الظالم اللعين كأبيه لم يفهمني أحد، لا أحد يشعر بي، لا أحد يراني أصلاً، ضحكة ممزوجة بدمع. يجلس على الرصيف، يحضن جسمه بقوة، يحيل إليه أن جسده بارد جدًا.. لم يلمسه أحد منذ مدة كبيرة، لا لمسته تلك الفتاة التي كانت بجانب خالد، لكن لمستها تزيد ناره التي بداخله، يريد شيئًا يطفئها، لمسة تشعره أنه أنسان... يهذي من جديد.

كلهم يكرهوني، وأنا أكرههم كلهم، صوته يعلو، أنا العاق وأنا القذر وهم النبلاء، أنا المجرم وهم البريئون، أنا.. أنا كل شيء وهم لا شيء لا أريدكم جميعًا، لا أريد وجهك القاسي العابس دائمًا أكرهك جدًّا، أنا لا أعرف كيف تبسم، أتراه وجهك لا يعرف إلا العبوس واللؤم، أغرب عن وجهي أنت ووجهك ملوحًا بيده، وأنت أيتها المستكينّة الضعيفة، ألم تشبعي من دور المستكينّة الضعيفة؟! تمنيتك ذات يوم أن تثوري في وجهي، ألم تغرقي بكل هذه الدموع التي تذرفينها كل يوم، أنت السبب لماذا أنجبتني، لماذا؟ لماذا تزوجت من هذا الظالم الذي أنجب ظالمًا مثله وأصبحتا اثنان؟ أين عقلك، أين تفكيرك، أين.. أين؟ يهذي بصوت عالٍ ينخفض تدريجيًا ليتحول لأنين.

تنهار قواه تمامًا فيرمي جسده إلى الخلف، وتسقط من يده سيجارة الحشيش الذي غيب وعيه وكأنه بعالم آخر، ضجيج روحه لفظته الكلمات.. بثته آهات مكتومة، كان متكورًا على نفسه ومنتحبًا، صوت نحيبه أسمع كل شيء إلا هم لم يسمعه!

مضى الوقت وهو مرمي كالجيفة على الرصيف، رن هاتفه، صوت أغنية هابطة يجعربها المغني بدلًا من أن يغني، فإذا بجسده كله يرتعش يصحو ويسحب هاتفه من جيبه مسرعًا ويحيب،

صوت هادئ وضعيف إنها أمه، أين أنت بني؟ أنا لم أنم إلى الآن، أنتظر. يجيب بصوت لا يكاد يخرج من فمه من شدة التعب أنا قادم لا تقلقي ويغلق الهاتف، تنظر إلى الهاتف بقلق، ابنها يضع، ابنها يسرق منها، هي تشعر بذلك رغم صمته العميق ووحدته الدائمة، قلبها يخبرها وقلب الأم لا يكذب.

يصل إلى البيت منهكاً، يدق الباب بهدوء لكيلا يستيقظ أحد، تفتح أمه أيضاً بهدوء، يبادلها نظرات الضعف والتعب، ويمضي باتجاه غرفته.

بعد أيام..

تغنم الأم وجود أبيه وأخيه الكبير وتفتح الموضوع، يا أبا عمران، ألم تلاحظ أن حسام تغير منذ اشتعال الأزمة في البلد؟! الولد أصبح دائماً خارج المنزل، وإذا أتى دلف مسرعاً إلى غرفته وتظاهر بالنوم كي يتجنب الحديث مع أي أحد، حتى وجهه لم يعد يعجبني، بصوت منخفض، قلبي يقبضني من هذا العمل الجديد الذي قال إنه يعمل به.

متكئاً كأنه ملك من ملوك العصور الغابرة ويده اليمنى سيجارة وبالأخرى فنجان شاي، وبوجه متجهم عابس زاده العبوس قباحة، ينظر إليها بطرف عينه وباستهانة يقول: دعيه.. دعيه. وشأنه، هذا ليس ولد أصبح رجلاً بطول الباب وعرض الحائط، دعيه يحل أموره ويقتلع رزقه اقتلاعاً من يد الحياة، لا وياً فمه هاذئاً تقول ولد؟!!

نظرت الأم نحوه بخيبة، ثم أطرقت ماسكة بيدها طرف ثوبها والتفت إلى أخيه الكبير، أنت يا عمران الكبير، أنت كبير أخوتك وأفضلهم، أرجوك اذهب وانظر أين يعمل أخوك، الأوضاع اليوم خيفة بالبلد، وأولاد الحرام كثر، بالنهاية مهما اختلفتم تبكون أخوة، والإنسان ليس له سوى أخيه، في النهاية هذا أخوك مدرك ذلك؟ من دمك ولحمك.. أعرف أنه تناول عليك كثيراً، أعرف وأساء الأدب أيضاً.

يصرخ بوجهها فجأة على غير عادته، ويثور قائلاً: فليذهب إلى الجحيم، لأنه لا يأبه بالكلام ولا بالنصح، فقط يتشدد ويتكبر ويرى أنه محور الكون، لا يفلح سوى بالأكل والشرب والنوم، فقط أعلفه، أما أن يعمل مع أخيه ويسمع له أو ينتج معاذ الله! أنا عملت كل شيء تجاهه وقدمت

له كل ما يمليه عليّ ضميري وفقدت الأمل منه. يدير وجهه عنها رافعاً يده بسهم اتركيني أرجوك أُمي، لم يفسده أحد سواك، يتدخل الأب، كفى، اصمتا أنت وهي، لا أريد أن أنزعج اليوم أكثر، كفاني ضغوطاً، اذهب أنت وأمك إلى الخارج إن كنتما تريدان إكمال حديثكما.

اليوم التالي..

في شارع مهمل مهجور، في مبنى قديم نصف مهدم، في غرفة مظلمة تنته، يجلس حسام ويديه السجارة التي أعطاه إياها صديقه الجديد، الذي هو ليس رفيقاً بما تعني الرفقة ولا صديق بما تعني الصداقة ولا حتى عدو بما تعني العداوة، إنما هو الشيطان. عندما يغوص المرء بمستنقع من الوحل والقذارة، ويتلطح به ويبعث به لدرجة يعرف بها مقدار قذارته كأنه تذوقها لفرط التعمق بها، يحاول أن يخرج من هذا المستنقع لدانة وقذارة ما شعر به، فيجد نفسه لا يستطيع؛ لأنه ببساطة اندمجت نفسه مع قذارة ذاك الوحل والمستنقع وانتصرت عليه، فغدا جزءاً منه؟! هنا يتمنى أن يغرق الجميع معه ليتذوقوا ما ذاقه فلا يشعر أنه وحيد بنقصه ودناءته، هذا عمل الشيطان.

يقول خالد وهو يجلس قبالة حسام في الغرفة المهجورة تلك: أنت يا رجل، تنعم، عش أيامك، وطز بكل شيء، تنعم يا عم.. بخبائث وضحكة، كحيوان بري اقترب من اصطباد فريسته. يتسم حسام ويضحك بشكل أبله، هو فعلاً في عالم آخر يتنعم، إنه بقعر الجحيم.

يلفُّهم زمن آثم وغيمة دخان تخنقهم ببطء شديد، يدوبون بلا معنى، بالخوف من القادم، وبالهروب الدائم أولاً من أنفسهم، وأخيراً من كل شيء يذكرهم بهم، على السطح يطفو إحساس بالنشوة الكاذبة الواهمة وفي العمق إحساس حقيقي بألم خفي مغيب كالموت.

أي شيء هذا الذي هو قادر على إفاقتهم من غيبتهم تلك، مدينة تعج بأصوات الحرب، مجتمع تائه هو الحاكم وهو الظالم وهو الجلاد.. مستقبل مجهول وماضٍ محمل بالآلام فائضة، وفراغ، وحاضر يقف متفرجاً مذهولاً من غفلة بني آدم، يرمونه برخص ثم يكون عليه لأنه مضى، ويتسألون أين ذهب العمر؟ كيف راح؟!

ينهض خالد من جلسته قليلاً يحاول الإتكاء بطريقة تريح جسده ليبدأ حديثه مع حسام،

الذي بدا وكأنه صحا من غيبوبته التي أدخلته فيها سجنائه، التي بات يقدمها له منذ فترة وجيزة. بعدما سبقها بمقدماتها بكل دهاء وخباثة، رأى في حسام أشياء كثيرة تخدمه وتخدم عمله، فلم يجد أفضل من سجنائ الحشيش ليبدأ معه ويتفنن باستغلاله واستعباده كيفما يشاء، مثلما فعل به بالضبط. قال: اسمع، اسمع يا حسام، أريد أن أعرفك اليوم مساء على شخص مهم جداً، رتب أمورك وهندامك وملتقي عند الساعة السابعة مساء، ها ما رأيك؟ ينظر إليه حسام باستغراب متسائلاً، من هذا الشخص؟ دعني وشأني لا أريد رؤية أحد، يجيب عابساً.

يجيبه خالد بغضب: ما بك يا رجل، أتريد أن تنعم بنعيمك هذا مجاناً؟ غامزًا بطرف عينيه بخبث ومشيرًا بيده كأنه يمسك حفنة مال، حبيبي لكل شيء ثمن، ألا تريد أن تعمل وتكسب ثم تدلل نفسك! يرد حسام أنا أعمل مع صديق لي في التجارة، ولديّ بعض المال لا تحمل همي، يقول له ماهذا المال التافه الذي لا يكفيك ليومين إن أردت أن تعيش بحق!

يقاطعه حسام بسؤال مباغت فيقول: لم أعرف إلى الآن من أنت بحق! أين هم أهلك؟ سمعت أنك وحيد؟ ثم يتنحج بارتباك؛ لأنه يعرف إنه بهذا السؤال يتطرق لعالم خالد المظلم، الذي لا يظهره لأحد، وقد يكون فضوله هذا تجاوز حده معه. هذا الرجل الذي بات يدّعي أنه صديقه ويريد مصلحته، لكن لا بأس، سيسمح لنفسه بتجاوز الحدود فهذا من أبسط حقوقه مع شخص بات يعرف أصغر تفصيلة في حياته وهو بالمقابل غامض لا يعرف عنه أحد شيء إلا القليل القليل، فقط ما يريد أن يظهره. بكل الأحوال هو شخص مريب ومهيب ومتملئ بالأسرار، يسمع كثيرًا ولا يتكلم إلا القليل وما يريده فقط، تارة يبدو أنه هادئ وتارة عصبي وغاضب وتارة طيب، وتارة الخباثة نفسها، مزاجي، غير واضح.

يرفع خالد رأسه بلؤم ودهشة وينظر بعينه بتحدٍّ غريب وكأنه أراد أن يشعره كم هو تجاوز حده معه، لكن حسام يحاول تهدئة الجو وتلطيفه بعدما شعر برائحة توتر كبير تغمرهم كغيمة سوداء تزيد غيومهم كثافة وسوادًا، قائلاً: أندري يا خالد؟ أنا لن أنجب الأولاد، لماذا أنجبهم على هذا العالم البائس؟! ساخرًا إن تزوجت أصلاً، الناس يعتقدون الإنجاب تسلية، يفعلون أفاعيلهم تلك ثم يبدوون بسلسلتهم هاتيك، حامل المرأة، ولدت المرأة، وفجأة ترى بيتًا صغيرًا فيه عرٌّ من الأولاد المهملين، المتروكين، المليئين بالأوجاع والغصات بسبب أهلهم الحمقى. يترك

على صدره بيده، هذا الذي أمامك واحد منهم. لا يتمالك خالد نفسه يجاوبه باستفزاز وعينه مليئة باللؤم والشر، أنت.. أنت اصمت نهائيًا. ينظر حسام مستغربًا من جوابه، مسرورًا لأنه استفزه ليتكلم. يسأله خالد: هل أبوك تخلى عنك؟ أنجبك وهرب؟ وكأنك صرصار تركه خلفه أو قبيصة رمته معدته فاستاء منه فغسل فمه ويديه ومضى، أمك تزوجت؟ هي الأخرى تركتك، صمت برهة، تركتك عند عمتك؟ زوج عمتك طردك وعشت في الشارع؟

خرجت تلك الأسئلة من فمه وكأنه لا يسأل إنما يتذكر، كان نظره جامدًا ويسأل ويتذكر وكأن شريط طفولته أمامه يمر، تشنج وجهه وعينه بدت كالجمر وكأن روحًا بداخله تحترق.. جمحظت عيناه.. قال جربت أن تعيش منبوذًا! ابتلعه صمت مهيب وكأنه كاد يختنق. شعر حسام بالخرج، ربما أراد أن يعرف أكثر عن ماضي الرجل الذي بدا كصديقه الفترة الأخيرة، لكن لم يرد أن ينسب بداخله بهذا العبث الذي جعله وكأنه يحمل بداخله جرحًا مفتوحًا لم يبرأ قط..

ليتنى لم أسأله فكر بذلك، هو سمع أن خالدًا تربى وحيدًا مشردًا بلا أهل تقريبًا إلا من عمته تلك التي يتردد إليها كل فترة، لكن لم يخطر بباله أن يحمل ماضيه كل تلك القسوة، نعم والده ظالم ومتجبر ولئيم جدًا لكنه على الأقل لم يتركه، وأمه صحيح أنها شبه مسحوقة لكنها موجودة، لم تتخل عنهم رغم كل هذا الظلم، يا له من عالم بائس، نظر جانبًا يحذر نحو خالد، تمدد خالد أكثر بجلسته واضعًا يديه تحت رأسه مغمضًا عينيه. واضح أنه لم يعد يريد التحدث، ربما لم يعد يريد وجود حسام معه أصلاً، نهض حسام من مكانه وحاول أن ينفذ الغبار عن بنطاله بروية وهذوء لكي لا يزعج خالدًا أكثر ومضى تاركًا وراءه نفسًا تحترق.

مر بشريط ذاكرته لخالد حدث عاشه قبل ثلاثون عامًا.. أمي، لماذا تسرعين هكذا، إلى أين نحن ذاهبان؟

تجيب وهي تمسك بيده وتجره مسرعة: إلى بيت عمك.

عمتي صباح؟ نعم عمك صباح، طيب دعينا نمشي ببطء قليلًا، قدماي بدأت تؤلماني، تشدد قبضتها على يده الصغيرة، هيا لا بأس عندما نصل سترتاح عندها، شعر الطفل وكأن أمه مستعجلة لأن وراءها أمرًا ما تريد أن تنجزه لترتاح، دائمًا هي على عجلة من أمرها. تطعمه مستعجلة، تشربه

كأس الماء مستعجلة لدرجة تسحبها من فمه قبل أن يروي كل عطشه، تغسله مستعجلة، تفرك شعره بالماء والصابون بسرعة وقسوة قليلة لكن هو يحتملها لأنه رغم استعجالها الدائم يشعر بقربها بالأمان، نعم، العالم المجهول هذا كله لا يعلم عنه شيء، سوى أنه يشعر بالأمان بجانب أمه المستعجلة، لا بأس ربا الأمهات كلهم هكذا على عجلة من أمرهم.

يصلون بيت عمته صباح، ترن أمه جرس الباب بقوة فتفتح عمته الباب، يبدو من ملاحظها أنها لم تسر لمجيئهم، تقول ببرود أهلاً وسهلاً تفضلاً. يدخل مع أمه ويجلس بجانبها ملتصقاً بها وتجلس عمته مقابلها، تقول لأمه: انتهى، حسمت أمرك؟ تنظر الأم نحوها وعيناها تغرق بالدموع دون أن تجيب.

تقول عمته: هيا خالد، اذهب للعب في الغرفة الأخرى، هناك الكثير من الألعاب، يقول لها وهو يشد على طرف ثوب أمه لا أريد اللعب، تبعده الأم بهدوء عنها، وتقول له: هيا خالد أنا سأريك بماذا تلعب، تذهب معه للغرفة الأخرى وتجلس مقابله على الأرضية وتمسح أنفها بمنديل ورقي بيدها، تمسك سيارة بلاستيكية زرقاء اللون، وتقول وهي تمد يدها نحوه: انظر كم هي جميلة؟

ينظر الطفل إلى السيارة بصمت دون أن يجيب بشيء، ثم يقول: تشبه سيارتي التي بالمنزل، وكأنها هي!

تجيبه أمه: اعتن بها جيداً، واعتن بنفسك يا خالد، أنا ربا أسافر بعد قليل، تصمت، مم، أنا... يعني أنت.. أنت انتبه لنفسك واسمع كلام عمتك. إلى أين ستسافرين؟ يجيبها الطفل وكأنه سمع أكبر مخاوفه تتحقق.

تقول: لا يهم، المهم أنت انتبه لنفسك وكل جيداً ونم جيداً واسمع كلام عمتك.

ستسافرين لعند أبي؟ خذيني معك سأسمع كلامكما ولا أعذبكما وأعدك ألا أكثر الأسئلة والطلبات طوال الوقت بصوت مخنوق وعينان تمتلئان بالعبوات. تجبئ وجهها بكم ثوبها وتخرج مسرعة، يحاول اللحاق بها لكن.

يمضي أسبوع وأمه لم تأتِ، يفكر حينها ماذا فعل لكي لا يحظى بحب أمه وأبيه؟ يغرق نفسه باللوم والأسى، لم يرَ أمه منذ ذلك الوقت وأباه لم يره قط! يفتح عيناه ويمسح عبراته بيديه وينهض، يترك الغبار معلقاً على لباسه ويمضي خارج المبنى النصف مهدم في الشارع المهجور.

عندما تملأ القسوة كل شيء حولك، حتى كأس الماء الذي تشربه وحتى الهواء الذي تنفسه وحتى الكتف التي ترتطم بها بغير قصد، تصبح روحك عطشى لشيء لم تتذوقه يوماً ولم تعرف طعمه، تهيم باحثة عن احتواء أين يكن وكيفما يكن، فيخيل إليها من لثت الحاجة وفراغ الروح أن حصار العدو حضن!

كانت أم عمران من عاداتها كلما ضاق بها الخناق تفتح الباب وتذهب هرباً من نفسها، لطالما أعيها الإرهاق والمرض الذي جلبه كثرة الهم والحزن على نفسها وعلى هذه العائلة المتفككة، التي يغني كل واحد منهم على ليلاه وهي لا حول لها ولا قوة. وإن حدث يوماً ما وأرادت أن تنفجر من شدة الضغط جاءت يد زوجها وأطفالها نهائياً فلا تعد توجد هي ولا يوجد ضغط، حية لكنها ميتة من الداخل، ضعيفة ولم تعد تعرف طريقاً للقوة لتواجه زوجها ولا أولادها ولا حتى نفسها، نفسها التي استكانت وأبت إلا الاستسلام فلاذت بالصمت، وجدت نفسها بعدما مشت كثيراً أنها أجهدت فأوقفت سيارة أجرة وأعطته العنوان حيث تريد الذهاب، مضت بها سيارة الأجرة وجابت الشوارع إلى أن وصلت إلى إحدى المناطق الراقية، وأمام أحد المباني طلبت من السائق الوقوف ونزلت من السيارة ودخلت إلى المبنى.

صعدت السلم ودقت جرس الباب، بعد دقيقة فتحت لها الباب امرأة مسنة منحتها الحياة كثيراً من معاني الرحمة والتعاطف رغم آثار السنين الواضحة على محياها، تهلل وجهها عندما رأت أختها، سلمت عليها بحرارة أهلاً أم عمران تفضلي، دخلتا صالة الاستقبال وجلست الأختان بجانب بعضهما تبادلان أطراف الحديث وتب كل واحدة منهما ما تحمله بقلها للآخرى، وتشكو لها ما تطيق وما لا تطيق، تحدثت أم عمران عن كل شيء إلا وجعها الحقيقي حسام.

نهضت أختها أم أيمن متجهة نحو المطبخ لتحضر الطعام لتأكله اليوم مع أختها فالطعام يصبح ألد عندما تشاركه مع من نحب، الوحدة والحنين أخذاً منها مأخذهما بعدما تركها زوجها

عندما وافته المنية منذ عام مضى، وأولادها بقوا حولها وكل واحد منهم مشغول بأسرته وعمله ولا يتقطعون عن زيارتها، كانت زيارات الأهل والأقارب والأحباب بين الحين والآخر تسعدها وخاصة أختها ميساء، أم عمران، فهي شقيقتها الوحيدة، نشأتا بائنة ذكورية فيها سبعة رجال وثلاث نساء فقط، هي وأختها وأمها.

ذكريات كثيرة تجمعهم ومواقف أكثر أثرت بهم شهداها معاً، عمر طويل مضى من علاقة أمهم بأبيهم التي ورثها ميساء مع زوجها كما تندعي، إلى تربيتهم لأخوتهم الصغار مساعدين أمهم، إلى خوفهم من أبيهم للحظة وفاته، إلى الفقر الذي عاشوه، إلى أشياء كثيرة خزنت بالذاكرة ينشونها كلما اجتمعوا معاً، يربطون الماضي بالحاضر ويستدعون بعض اللحظات وكأنها الآن ويغلقون الباب على لحظات أخرى رغم تذكركم لها وكأنهم يودون لو أن قفلاً كبيراً لا يفتح لهذا الباب.

أنبيا غدائهم وجلستا تتابعان أحاديثهما وهما تتناولان الشاي شعرت أم أيمن أن ثمة حديث في صدر أختها لم يطلق وكأنه مربكها أو أنه السبب في القلق الذي يبدو عليها، قالت: ما بك يا أم عمران؟ مهما حاولتي إخفاء التعب أنا لا يُخفى عليّ، صحيح أنني كبرت كثيراً وعصفت بي السنوات لكنني ما زلت أقرأ وجهك وأشعر بك دون أن تنطقي حتى.

نظرت إليها أم عمران بوجه شاحب مضطرب، أه يا أختي ماذا أحكي لك، وكيف أبدأ لا أعرف، حظي نحس، من يوم ما خُلقت والتعب والعذاب يلاحقاني أينما ذهبت، كنت أتحمل شقاء الحياة مع زوجي آملة بأن أولادي سيكبرون ذات يوم ويأخذون حقي الذي ضاع ويعوضوني عن عمري الذي أهدر، أتاري الآن بعدما كبروا زاد الهم أكثر، صار همهم وهم أبوهم فوق رأسي وأنا تعبت، وحقي ضاع بينهم، لا أحد يسمع لي من الأصل.. تجهيزها مقاطعة ومنفعلة يا أختي، أي حق هذا وأي عمر هذا الذي تقولين إنك أضعتيه؟ الحقوق تنتزع، هكذا علمني أبا أيمن -الله يرحمه- من عمله بالقضاء، إن لم تأخذي أنتِ حقوقك وتترعها فلا أحد سيعطيك أي حق، وأنت لا تعرفين حقوقك أصلاً لتطالبني بها، لا بأس، هدئي من روعك وأخبريني ما الذي يشغل بالك؟

قالت: حسام، حسام ابني يشغل بالي مؤخراً.. مسحت مقدمة رأسها بأصابعها وأطرقت تصارع مخاوفها التي تطفو بوعيتها ما أن تتذكر حسام. مابه حسام؟ قالت أم أيمن. أجابت أختها: لا أعلم، سوى أنه ليس بخير ابني وأعرفه تغير منذ مدة، تجلسين معه كأنه في عالم آخر لا يعرف كيف يتهرب منا ويخرج من البيت، قال إنه يعمل مع أحد أصدقائه متعهد بناء، يذهب باكراً ويعود آخر الليل، لا أراه وإذا رأيته وحاولت التكلّم معه، يغضب من أتفه الأسباب، قلقة جداً عليه، وقلبي ليس مطمئناً. تنظر إليها بقلق، ياترى ماذا يعمل؟

قولي لعمران أن يسأل عن الموضوع ويفهم تفاصيله، تحببها منفعة: أخبرته وأخبرت أبيه، تحدثت إليهم معاً لكن للأسف ردة فعلهم كالعادة ثورة وغضب. الأب قلبه كالحجر لا يبالي بانه أصلاً، فقط يقول دعيه يتعلم بنفسه من الحياة والأيام تربيته، وعمران ضاق ذرعاً من الاثنين أبيه وأخيه، وتستفزه مؤخراً تصرفات أخيه، لا يبدي أي احترام أو قبول له وإذا أراد التقرب منه أو عرض العمل عليه ليعملاً معاً ثار وهاج وأخبره أنه لا يحتاج إليه ولا لأبيه. الذي يؤلمني حقاً لا يجمعها شيء مطلقاً وكأنها ليسا أخوة، ولا يتفقان من الأساس، والفجوة بينهما كل يوم تكبر أكثر.. عمران ملّ منه وأصبح يميل لأبيه رغم سوء معاملته يقول لي: على الأقل هذا يبقى أبي بالنهاية وأنا ابنه، ليس أخ صغير يعتقد أنه محور الكون ولا يتقبل أدنى ملاحظة حتى ولو كان عليه الخطأ، دعيه يعمل بمفرده ويرينا ماذا سيفعل ويفحمنا بإنجازاته؟!

تسمعه أم أيمن بتفهم، أتردين كأن خطبة حنين زادت الطين بلة لتكتمل المشكلة مع حسام. قالت أم عمران: كانت بالنسبة له بصيص أمل لحياته بعد كل ما مرّ به.. تحببها: وأنا شعرت بهذا وقتها.

تقول أم عمران: ربما كان علينا الانتظار قليلاً، ليها كانت ارتبطت دون أن نقدم لها وترفضه، على الأقل كان شعر أنها ليست من نصيبه ومضى، أهون من معرفته أن مشاعره كانت من طرف واحد.

قالت أم أيمن: هذا جدّاً طبيعي ويجري مع الجميع، لكن شباب هذه الأيام شديداً يتعلق، كل الناس يحبون أشخاصاً وربما لا يبادلونهم المشاعر على الوتيرة نفسها، وآخرون يحبونهم وهم

أيضاً تكون مشاعرهم باردة، والدنيا مليئة بخيارات واسعة لكنهم يتكلمون بمن يحبونه كأنه فريد من نوعه وقد يصادفون من هو أفضل منه، جيل لا أعرف ما به.. تلوي كفها هداهم الله.

تقول أم عمران: أتعرفين والله أنا لم أحبها، بدت قوية ومغرورة أكثر من اللازم، رغم أن أمها متواضعة ولطيفة.

تجيبها أختها: ليست مغرورة حين أنا أعرفها جيداً، لكنها واثقة بنفسها.. تربت بيئة من الدعم والمساندة والقبول من أمها وأبيها وأخوتها فباتت واثقة وعاقلة جداً وتعرف ما تريد.

تطرق رأسها أم عمران بأسى، على عكس حسام تماماً، والله أحاول أن أتقرب منه الآن لكن للأسف أشعر وكأنه فات الأوان، تُرَبُّتُ أم أيمن على يدها لا تخافي لم يفت الأوان بعد، ما دام في داخلنا نفسٌ جديد، فلم يفت الأوان، ثقي بذلك. المهم الآن صحتك إن خسرتيها خسرت كل شيء، الحزن يقتل ببطء يا أختي أرجوك، لا تدعي شيئاً يؤثر على صحتك.

كل شيء ينحل مع الوقت ثقي بذلك، وتوكلي على الله.. اعيدي المحاولة مع عمران على انفراد لكي يساعد أخاه ولا يتركه للغرباء، عله يقتنع ويميل قلبه، في النهاية عمران طيب القلب وواع، لا أعتقد أنه يستهين بكلامك أو بوضع أخيه، فقط اختاري الوقت المناسب واطلبي منه مجدداً الأمر.

تتنهد ميساء بعمق وكأن بداخلها جبال هم وتهز رأسها موافقة، تودع أختها وتهب بالرحيل لمنزها، تسير بطريقها بخفة وكأنها أفرغت ثقلاً كبيراً من على كاهلها، لطالما كانت أختها ملاذها الآمن في هذه الحياة، الوحيدة التي تفهمها وتشعر بها بصدق، من الجيد أنها موجودة لولاها كادت ميساء تختنق بالكلمات بداخلها، فمنذ صغرهما وهي تعرف كيف تجعلها تتكلم وتعبّر عن نفسها، تلك المرأة الصامته التي لا تتكلم إلا إذا بدا الأمر ضرورياً وبصعوبة بالغة لا تعرف كيف تعبر عن ذاتها، كيف تشرح نفسها وتطلب ما تريد، تفهم ما تحتاج، تصر على ما ترغب، أدنى شيء يؤثر بها ويصيبها بصمت، صمت مبهم مليء بمشاعر مكبوتة غير واضحة باتت تتراكم مع الزمن.

السادسة والنصف مساء..

وقف حسام أمام المرأة، يلقي نظرة أخيرة على نفسه بعدما رتب هندامه ولبات مستعداً للخروج، فهو على موعد عمل لا يعرف عنه شيء سوى أنه من تحطيط خالد، يرتدي حذاءه بهدوء لكي لا يصدر ضجة تجعله يرى أحداً من عائلته ويبدأ بطرح أسئلته، ثم يصطدم معه. يخرج ويسير بخطا بطيئة ما زال هناك متساعاً من الوقت، يفكر يا ترى من هذا الرجل الذي يريده خالد أن يلتقي، ما هي غايته من ذلك التعارف؟ على أي حال فليكن ما يمكن لم يعد يهمه شيء، فهو في كل الأحوال فاشل بنظر الجميع

لكن هذه السجائر التي يعطيها له بدأت تفعل فعلتها بجسده، كأنه اعتادها واعتيادها مشكلة استهوي به نحو الجحيم لكن ما بيده حيلة؟

هو يريد فقط أن يسترخى كل فترة ويستمتع ويهرب من العذاب الذي يعيشه، لا يريد الإدمان.. يسكنه الخوف لكن رغم ذلك لا يجد له بد إلا أن يمضي إلى أين لا يعلم، الشيء الوحيد الذي يعلمه أنه ضائع ولا يقوى على اتخاذ أي قرار يخصه كأنه مسير! يقطع سلسلة أفكاره وهو يسير سلام جاره وصديقه مؤيد لوح له بيده كيف حالك يا رجل؟

يبادلته التحية أهلاً مؤيد.

يرد عليه: افتقدنا لك بالمقهى منذ مدة لم نعد نراك! ما الأخبار؟

يتمتم حسام بارتباك لا شيء، لا شيء، سأعود قريباً في يوم ما.

يقول له: إلى أين ذاهب؟ أتراه موعد غرامي، أمورك تمام! بضحكة.

يزيد ارتبائه أي غرام هذا، موعد عمل مع صديق لي، يجيبه: جيد إذاً بالتوفيق..

ما أخبار عملك أنت؟ يسأل حسام.

يرد: مع سوء الأوضاع الاقتصادية في البلد يعتبر لا بأس، الحمد لله على كل حال، المهم أن أؤدي أفضل ماعندي والنتائج على الله، هذه فلسفتي بالحياة. بيتسم ويقول له لطالما فلسفاتك

أعجبتني، لكن لا أجد تطبيقها بسهولة!

يبادله الابتسامة ذاتها، ويقول: لا شيء سهل، لا شيء سهل على الإطلاق.

- يرد حسام لذا يا صديقي هنا تكمن الصعوبة.

- ربما التحدي.

- تحدى إذاً يا رجل التحديات الصعبة، سررت بهذه المصادفة الجميلة، وأراك في المقهى قريباً...

- اتقنا، انتبه لنفسك..

مؤيد يستفز بكلامه أشياء كثيرة في نفس حسام، موعده غرامي!

تلك الجملة شكلت في مخيلته وجه حنين، الفتاة التي التقاها أول مرة في منزل خالته، تذكر هدوءها وملاحظتها وخجلها، حنين أول من وضع في قلبه معنى الحب، كان شاباً صغيراً وهي طفلة كبيرة، كان يستجدي أمه بين الحين والآخر للذهاب إلى خالته أم أيمن فتعجب بكثرة ولها للذهاب غير عالة أن شدة ولها هي لرؤية حنين التي كانت تسكن في المنزل المقابل لمنزل خالته، كانت جارتها وكم تحسر لأنها ليست جارته.

وأجمل صدف حياته البائسة كانت تلك التي تجمعهم بحنين، فمرة يراها في بيت خالته ويتجاذبان أطراف الحديث بخجل، ومرة تنزل درج المبنى فيراها ويرتبك ويسلم عليها بصوت مرتجف، ومرة تقف بجانب أمها وهي تتحدث مع أمه وخالته وتسلم عليهم، ومرة ومرة..

الأحاديث التي جمعتهم قليلة في الواقع وكم هي كانت كثيرة في مخيلته، كانت تتحدث إليه بتحفظ تام ورغم ذلك يتهيج ويسعد لحديثها، تعلم مع حنين معاني ومشاعر جديدة لم يعرفها من قبل. ومضت السنوات وما زال يحملها في قلبه بطهر تام رغم أنه لا يدري بما تكنه له، كان يكتفيه أنها أضافت شيئاً جميلاً لوجوده المفعم بالقسوة والحرمان العاطفي الذي لم يشأ مفارقتها حتى معها.

بنى في خيالاته بيتًا صغيرًا مليئًا بالحب والسعادة التي لطالما كانت منشودته وغايته، أراد بيتًا هي سيدته، وطفلاً يحمله هي أمه ومرت السنوات وهو يرى هذا البيت بخيالاته ويحتفظ بهذه الصورة بقلبه بكل إخلاص إلى أن جاء وقت هدم فيه كل شيء، وكأن قدره ألا يسعد! لا ينسى كلمات أبيه وقتها.

دخلت أمه على ملاحظها عبوس واضح لا يبدو عليها إلا عندما تبتئس جدًا وجلست بصمت، هو مجرد رؤية أمه بهذا المنظر فهم الرسالة والمغزى، حين رفضت الارتباط به، ما بالها تلك الفتاة؟ حيرته وحيرت روحه، كان يشعر أنها تقبله ربما لم تحبه مثلما أحبها لكن لم يشعر أنها ترفضه، هؤلاء الفتيات اللعينات لا أحد يستطيع فهمهم، أطرق بألم ووجه بدا شاحبًا.

كان أبوه متكئًا في صدر الغرفة ويده جهاز التحكم بقلب القنوات في التلفاز ووجهه جامد كالعادة، أخفى الصوت نهائيًا والتفت نحو زوجته قال: أي أخبرينا كيف جرت الأمور؟ ارتبكت أمه قليلًا، ثم قالت: لا يوجد نصيب..

شعر حسام وكأن حرارة سرت بجسده من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه، كان يعرف الجواب بدا ذلك بوضوح على ملامح والدته، لا يهم السبب، المهم رفضت، انضمت لقائمة من يرفضونه، يعرف معنى أن تكون مرفوضًا تمامًا، يعرف معنى أن تكون مكروهًا وكارهاً تمامًا، يعرف جيدًا.

يقول أبوه لاويًا فمه وما السبب؟ تقول: لا أدري لم تقل سببًا، لم توضح. يخيم الصمت لدقائق، يقطعه الأب موجهاً كلامه نحوه ابنه: من يريد أن يزوج ابنته من شاب فاشل؟! لا يثبت بدراسة ولا عمل وخسر أموال كثيرة بطيشه وتسرعه وخسر أناسًا أكثر، تهانينا استمر في هذا الطريق، وأعدك سيأتي يوم لن تجد مليم واحد في جيبك ولا بشر ينظر إليك أمامك.

كان ابنه يجلس في صفه، يسمع الكلام بصمت دون أن يلتفت نحو قائله، يسمع فقط، كان كمن يصب الرصاص بأذانه. لم يعلق أحد، عاد الصمت ولفهم ببوتقة واحدة غرقى معًا. الحقيقة ألمه رفض حنين للارتباط به، ألمه جدًا، ألم قوي عميق، عميق، مرتبط بشعور أعمق بداخله، شعور أسود، مؤذ قاتل، مستمر وممتد، فإنه أول ما رُفض، رفض من مكان مجيئه وغرسه وزرعه، من هذا الرجل الذي أمامه الذي يسمونه أب..

حنين قد تُستبدل، حنين ربما تُنسى، حنين تُعوض، لكن الأب لا يُعوض، لا يُستبدل، لا يُنسى، صلة عميقة، جذور ممتدة، ماء لا ينضب يسري بجسده وبجسد أولاده وكل نسله، يا الله، كم أكره أن أكون أباً، لكي لا أعامل ابني مثلما عوملت منه ولكي لا أشعره بأنه عبء وغير كافٍ وغير لازم وقدر، أحب أخاه وأكرهه، أدمم أخاه وأنبذه، أقدم لأخيه وأبخل عليه. أنا أعرف تماماً أن عمران أفضل مني، لا شك، لكن هذا ليس بيدي، حتماً ليس بيدي، بل بيد أبيه، أبيه الحقيقي له، والمزيف لي. كان يتحدث مع نفسه وروحه تثن وفمه صامت.

بعد فترة وجيزة، سمع خبر ارتباط حنين لمهندس مغترب اسمه نضال، سمع أنها سعيدة جداً به وكأنها وجدت رجل أحلامها، أما هو فحتماً ليس رجل أحلامها، هو رجل واقع، والواقع لا يطاق. عبث الذاكرة مؤلم، ثمة كلمات تقال لا يلقي صاحبها لها بالاً ومواقف تحدث ربما بعفوية تامة لكنها تُحدث بداخلك ألم سكين تعرف طريقها نحو الجرح تماماً وتنشئه.

(حنين... يا وجعي وبلسمه... يا شقائي وسعادته... يا دموعي وضحكته... يا تعبتي وراحته... يا غربي ووطنه)

حسام.

سلمي يا نفس (ندين)

يا نفس اهديني... يا نفس اركني... سلمي يا نفس...

كفاك ذعراً... كفاك خوفاً... اهديني يا نفس...

لست صدفة... لست هباء... لست إضافة... لست عبثاً... أنتِ وجود من موجود عظيم
يا نفس.

سرت الأيام بوتيرة بطيئة جداً، الأيام الصعبة دائماً تحذو حذو السلحفاة، والأيام السعيدة
لا تعرف إلا أن تطير، بدأ السخط يسري في نفوس أهل المدينة الشبه ميتة، أصوات اشتباكات
أحياناً بعيدة وأحياناً قريبة. ولأن السخط لا يجلب إلا السخط كان القادم لا يختلف عن الحاضر،
محاولات فاشلة للتأقلم وبدائل سيئة لمن لا بديل له، نريد الأمان... لكن هذا ترف عندما تشتعل
الحرب وتزهق الأرواح!

أغلقُ الكتاب الذي أمامي والدفاتر المبعثرة هنا وهناك وأهم مسرعة نحو الهاتف وكأنني
بمهمة مستعجلة

- ألو مرحبا، ممكن حنين معك ندين؟ بعد ثوان

- ألو أهلاً ندين أين أنتِ أيتها المحتالة، أخبريني كيف خطرنا على البال؟

- أهلاً حنين أنتِ على البال دائماً لكن تعرفين الأشغال كثيرة، بضحكة ساخرة.

- ارحميني أنتِ وأشغالك، أيضاً بضحكة.

- ما رأيك أن نلتقي، اشتقت لك؟

- ما مشاريعك للأحد القادم؟

- حاليًا لا شيء.

- تعالي زوريني في المنزل، ما رأيك؟

- حبيتي أي زيارة تلك! الأوضاع متوترة لا ماء كافٍ ولا كهرباء وطبعًا لا أمان، لا شيء يبحث المرء على أن يبرح بيته.

- كفاكِ غلاظة.

- الغاز ما زال موجودًا والقهوة جاهزة وهذه نعمة يا جحودة، والضوء نعالجه بأن تأتي نهارًا على ضوء الشمس الرباني الجميل، والماء إن حصل واحتجت للحمام احبسي نفسك لتعودي للبيت وكم هو جميل أن تفعلي تلك الفعلة على نفسك وأنتِ في الطريق.. بضحكة.

تضحك وتقول: جُنتي تمامًا، الأوضاع أثرت على عقلك، والأمان عزيزتي كيف وجدت حلًا له؟

أجيب: الأمان.. تنهيدة طويلة، ثم قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

رغم كل هذه القسوة التي حملتها سنوات الحرب التي أبت إلا أن تسير خطاها إلينا، رغم كل الخوف بداخلي، رغم حيرتي وضعفي وشكّي ويأسي.. كنت أحمل يقين بالله.. كنت التجئ أخيرًا إليه بعدما عرفته بحق وأحببته بحق عندما خذلني كل شيء إلا هو، حتى من أحببتهم بصدق

كنت أعلم أنه رغم كل العذاب الذي نحياه في هذه المدينة، ما زال يحبنا الله، لن ينسانا أبدًا... سننجو.. ووثقت فيه لدرجة تجعلني أعلم أنني مهما انهرتُ وتعبتُ، في النهاية ثمة يد ستمتد وترمني وتعيد تشكيلي من جديد... إنها يد الله... وهذه أضمن دورس حياتي التي تلقنتها مؤخرًا.

كان الغضب العنصر الأساسي الذي يلوح هواء في الأفق منذ اشتعال الحرب إلى الآن، الكل حائق وغاضب، لا يحتمل أدنى استفزاز.. أشياء غريبة وغير مفهومة، عصية على النسيان، صمت كبير وحزن عمّ أهل المدينة.

يوم الأحد التاسعة صباحًا.

يرن المنبه، أتقلب في الفراش متناسية صوته، أنعم بدفء لذيذ يتخلله كسل، يباغت فجأة وعيي الذي بدأ يرنو للواقع، ثمة موعد وثمة زيارة إنه الأحد وحين ستأتي. أقوم وأذهب إلى الصالة أرمي بجسدي المثلث على الأريكة وأجلس بفتور رامية كل جزء من جسدي على حده، بعد دقائق أنهض متجهة نحو الحمام فأغسل وجهي بهاء مقنن طبعًا وأنظر إلى المرأة أحاول أن أطبق نصيحة مدرب التنمية البشرية وأبتسم لنفسي في المرأة صباحًا!

أحاول أن أبتسم لكنني لا أستطيع فأعبس، ثم أمضي وأضحك ساخرة من نفسي ومن مدرب التنمية ذاك، البيت تعج به الفوضى، فعندما يحل الليل يصبح الترتيب مهمة صعبة بانعدام الكهرباء، فهذا يرمي أغراضه هنا وذاك هناك، وأطباق العشاء في المجلى لم تغسل، ومن ضمن الإهمالات الكثيرة هذه الفترة إهمال المنزل، بدأت بترتيب الصالة بإتقان وخفة ثم المطبخ، إلى أن أنهيت ترتيب كل المنزل ماعدا غرف النوم، وتركت سكان المنزل نائمين.

أنهيت جميع ترتيباتي، أخلع بيجامتي وأرتدي بنطال جنيز أزرق وقميصًا كحليًا مخططًا بالأبيض وأرفع شعري بشكل ذيل الحصان تسريحتي المفضلة، أدلف المطبخ أحضر الصحن لتقديم الكعكة التي صنعتها البارحة على ضوء الشمعة بعدما فرغت الشواحن وانتهى زيت المولدة الصغيرة، التي يشغلها أبي مساء بمقدار ساعتين أو أكثر لنهجم جميعًا نحو التلفاز وشواحن الهواتف النقالة، ونسرق بريق الحياة الذي انعدم بعد الحرب.

أخذ الكعكة وأقطعها إلى عدة قطع، أذوق إحداها آملة أن يكون طعمها جيد، فإذا هي لذيدة، أحضر صحنين وشوكتين وأملأ ركوة القهوة مياهاً وأضيف البن وأضعها على نار هادئة، يرن الجرس وصلت حين، أهمُّ مسرعة لأفتح باب المنزل، تأخذني اللفة، أراها أمامي وأرحب بها بحفاوة معبرة عن اشتياقي لها، مضت فترة كبيرة لم ألتق بحنين، توترت الأوضاع في الكلية وفي المدينة كلها ومكث الجميع في سبات داخل المنزل أملين بالفرج ومحتمين من الحرب في الخارج والحرب الحقيقية في نفوسهم، يقال البيت أمان المرء، لكن بيتك الحقيقي بداخلك!

أجلس على طرف الأريكة ممسكة بيدي فنجان القهوة الشهوي الساخن أرتشف منه بلذة بعدما

قدمت الآخر لحنين.

أسألها أخبرينا كيف الحال والأحوال؟ بعد زمان.

أي حال وأي أحوال يا ندين؟

أنا مصدومة ومكتئبة في آن معاً مما أراه أمامي.

تصمت قليلاً، ثم تحرك رأسها بأسى، ما أفبح أن تهدم كل مخططاتك وأهدافك وتحيا بخوف بلا هدف، وقتي كله يضيع هباء في التفكير والقلق على المستقبل الذي يضيع أمامي.. لا أصدق ما يجري يا ندين، أتعرفين كأننا ننحدر نحو الوادي ولا زلنا نضحك على أنفسنا بالأمل أن الأوضاع تتحسن، كل شهر نتأمل بالشهر الذي يليه، وكل عام نتفاءل بالعام الذي بعده، أترانا ساذجين أم ماذا؟ أم ليس هناك خيار سوى الأمل، أو ربما الوهم بالأمل؟ مستقبلي يضيع أمامي وأنا أقف متفرجة لا أقوى على فعل شيء، تصوري؟!

أجيبها: حنين إنه مستقبل وطن بأكمله، ليس مستقبلي ومستقبلك فقط، إنه مستقبل أطفال، وشباب وكبار، إن كنت دخلت في حالة اكتئاب وصدمة فأنا غائصة بها منذ فترة كبيرة!

لا أدري لكن بقلبي سخط كبير على كل ما يجري وليس في يدي حيلة، كيف تغيرت حياتنا فجأة رأس على عقب؟ كيف أصبح منظر الدم متداولاً هكذا؟ وكيف تتجرأ قنوات الأعلام على المتجارة بنا هكذا كأننا أعداد؟ وكيف تحالف كل شيء ضدنا، تدمع عينا حنين وتحاول أن تتماسك، وأنا أتكلم بعد سكوت طويل مرتت به لأيام عديدة.

تدخل أمني علينا بهدوء وعلى محياها ابتسامة عريضة تحيي بها حنين التي تبادلها الابتسامة نفسها، لكن يشوبها لمسة قلق فما زال شعور الحديث الذي تحدثناه يكسو وجهها، بعد أن تجلس على الأريكة المقابلة لحنين تقول: كيف حالك يا حنين، كيف حال الأهل؟ ترد حنين بحماس: الحمد لله خالة، بخير، أمني ترسل إليك السلام.

تقول أمني: أشكرك وبلغيتها سلامي أيضاً، تتبع كلامها مازحة، هل حدثتك صديقتك كيف تنكب على الدراسة هذه الأيام؟ تعرفين امتحان الفصل الأول اقترب وأنتن طالبات مجتهدات،

خاصة ندين.

أطرق بابتسامة خجولة، نعم أمي اسخري مني أكثر، أصلاً، أصلاً لو كنت في ظرفي أتحدثك لن تدرسي، نضحك جميعاً على الحزن يغيب، تنظر أمي نحوي نظرة غريبة مطولة فيها حب وفيها شفقة وفيها ثقة، لا أدري كيف شكلتها ملاحظها المتناسقة تلك، لكن أدري تماماً أنها تركت بداخلي أثراً يجعلني أقاوم رغم كل شيء.

تتركني مع صديقتي وتخرج إلى المطبخ لتحضر الإفطار، فجأة تقترب حنين مني وتجلس بجانبني، وتقول: أمي تضغط عليّ لأنكلم مع خطيبي لكي يحدد موعداً للزواج بعد نهاية العام الدراسي مباشرة، ما رأيك؟ تقولها بصوت منخفض وحساس خفي.

أجيبها بالحماسة نفسها والصوت الخفي: أمك تريد أن تتخلص منك ومن بلائك وغلاظتك.. تمتلك كل الحق على فكرة.

تنظر إليّ مجمدة وجهها ما أغلظك يا ندين، ما هذا الذي تتفوهين به؟

أقول: عفواً، لا.. لا أنتِ لستِ بلاء، آسفة، فقط بلوة صغيرة وأشير بإصبعي.

تقول بغضب: كفاك غلاظة ندين، ما رأيك؟

أقول: أكبر دليل على أنكِ بلوة صغيرة أنكِ تستشيريني في موضوع شخصي بحت؟! من سيتزوج أنا أم أنتِ؟ ترفع أحد حاجبيها وتزم شفتها نعم أنا سأتزوج.. وأنتِ يا خانم، لماذا لا تتحركي؟ أريد أن تتزوج معاً.

أطلقُ زفيراً، يا إلهي ساعدني على هذا المجتمع المريض، كلهم يركضون لتزويجي، لم أنتهِ من ضغط أمي بعد، تأتي الجارة هيا تخرجي وسأحضر لك أحلا عريس، ثم يأتيك أحد من أقاربك ويسألك متى سنفرح بك، والأجل من هذا كله جدتك تدعو لك بالزواج بأقرب وقت لأنك برأيها عانس، والآن أنتِ يا حنين؟!

بعد كل هذا الامتعاض والكلام الذي ألقيته على حنين وهي تستمع لي وفهما فاغر وعيناها مندھشة! تقول مشيرة بيدها: كل هذه المعاناة بشأن هذا الموضوع! أقسم بالله أنتِ المريضة لا

المجتمع، يا مجنونة، كيف استطعتِ أن تجعلي الموضوع عبئاً وضغطاً؟ ألا تتمنين أن تكون لك أسرة صغيرة، زوج صالح وأولاد صغار جميلون مثلك؟ ألا تتمنين أن يكون لك شريك يقاسمك حياتك بفرحها وحزنها، هذا حلم كل فتاة، ماذا تريدن بالضبط أنت؟!

أتنهّد ثم أرفع نظري نحو حنين، قائلة: أنتِ قلتيها، هذا حلم كل فتاة، وأنا بالنهاية فتاة، لكن ليس بهذه الطريقة، لا أريد الزواج من أجل إرضاء المجتمع، أريد الزواج من أجل الحب والمشاركة والعائلة والأمومة، من أجل المودة والاستمرار بالارتقاء، لا أستطيع أن أرتبط بشخص فقط لأنه مثقف وغني وابن عائلة، حين أريد أن أختاره بقلبي وعقلي معاً، أريد أن أشعر تجاهه مثلما تشعر الأم تجاه ولدها، وأليست الأنثى إذا أحببت رجلاً بصدق تشعر وكأنه منها وكأنها أمه وحبيبته في آن معاً، أريد أن تختاره روحي، حتى أستطيع أن أغامر معه بالزواج. أنتِ مدركة بحق، أن الزواج ميثاق غليظ يجعلك تختارين شخصاً للعمر بأكمله، ألا يجدر بي أن أكون راضية بكل كياني بهذا الشخص الذي سأقحمه حياتي وسأقتحم حياته! ألا يجدر بي أن أقبله كما هو ويتقبلني كما أنا لنستطيع أن نكمل المشوار ونحتمله معاً! والآن مع حالة الحرب هذه أصبحت تلك الأشياء رفاهية وليست ضروريات. والزواج أصبح طقساً اجتماعياً لمجارة سنة الحياة، وأنا.. لا أستطيع ولا أعلم كيف أجاري، إما أن أعيش كل شيء بتفاصيله أو أتركه أبداً، لا أملك الخيار ولا أستطيع الانقلاب على طبيعتي.

لطالما كنتِ صوت القلب، وحنين صوت العقل، كل ما ذكرته لا تعبأ به حنين، نعم يكفيها من شريك حياتها أن يكون ابن عائلة ومثقف وغني على أعراف المجتمع السطحية وقشوره، تشعر معه بالأمان المادي والأشياء المعنوية تأتي مع الوقت.. هذا قانون حنين، وقانون المنطق والعقل والحياة أيضاً، لكنني لم أتخذ قانوناً لي بعد.

أقول لها: دعينا من تلك الترهات، أخبريني كيف العمل على حلقة البحث؟ تنظر نحوي وتطلق ضحكة عالية ترهات قلت لي، تهز برأسها أصدقك، أصدقك جداً.

أضحك مؤيدة لردة فعلها وساخرة من نفسي، أقول: نعم الأمر ليس من الترهات على الإطلاق، تبّال له، إذ إنه أساسي جداً في حياتنا،

اكتفاء عاطفي على الأقل لنحقق التوازن، أليس كذلك؟! بضحكة.

لكن لا تقلقي، سيأتي بالطريقة التي أحبها، أنا واثقة.

تقول: أتمنى لك كل شيء جميل ومميز مثلك تمامًا، أجيئها هذا كثير حنين قلبي لا يحتمل.

احزري ماذا! وأخيرًا اخترت الموضوع الذي أريد بحثه في هذا الفصل.

تومئ بحماسة رائع جدًا أنك وجدت الموضوع، هيا أخبريني، عمّ يتحدث؟!!

أقول: العادات والتقاليد العربية بين المساوى والمحاسن، وأثرها على النفس والحياة الاجتماعية.

تصمت متأملة العنوان، ثم تقول: جميل العنوان ويبدو الموضوع مهم ومؤثر، ويحتاج لبذل الجهد، أنتهد وأزم شفتي، ما بالك بالجهد الذي سيبدل في هذه الظروف التي السهل بها صعب، والبسيط معقد، أتعرفين في البداية اخترت موضوعًا عاديًا ومكررًا جدًا، استسهلت، قلت لنفسني الأوضاع لا تساعد، لكن بعد ذلك تراجع وتقلت لا، يجدد بي أن أختار موضوعًا أريد بحثه بصدق وحب وشغف للتعلم والتأثير الذي يجلب التغيير، وإلا فما الفائدة من دراستنا تلك! تقول: نعم حتى كلامك عين الصواب، وصدقيني لأنك بدأت بإخلاص رغم صعوبة الظروف لكن ستجدين نتيجة مذهلة.. متأكدة، وأثق بك.

أسعد جدًا بدعماها، أقول لها: أتعرفين لماذا أحبك؟ لأنك تعرفين جدًا كيف تحفيزين وتدعمين رغم كل هذا الشح العاطفي حولنا، لا أحد يريد أن يقدم للآخر شيء حتى كلمة لطيفة لا أكثر رغم أننا أحيانًا نحتاجها أكثر من حاجتنا للطعام والشراب، تمد يدها تشد على يدي.. تنادي أمني علينا لنأتي على الفطار. مضى الوقت وأنا وصديقتي الأقرب لأختي نتسامر بمواضيع كثيرة نضحك ونندم ونصمت ونثور في آن معًا، لعل البوح لمن تألف دواء، خاصة عندنا معشر النساء!

في تلك الليلة، تستلق حنين على الأريكة مسترخية رغم ضجيج مولدة الكهرباء، التي ضريبتها أنها تعطي الضوء وتمتعك بقليل من الإحساس بالحياة الطبيعية رغم صوت جعيرها المؤذي لصاحب المنزل والجيران، أصبح الناس في المدينة يرون الأشياء التي لا تروقه

ويصمتون... إنها معطيات الحرب.

تقفز ببالها فجأة جملة ندين، ألا يجدر بي أن أكون أحببته من كل قلبي وأحبنني من كل قلبه حتى نستطيع أن نكمل هذا المشوار ونحتمله معاً؟ تذكر آخر مكالمة لها مع نضال بلا لفة وبلا مشاعر، نسي عيد ميلادها وبرر بوقاحة أنه مشغول، إذا كنا ننشغل عن شركائنا في يوم مميز كهذا، فماذا سيكون في الأيام العادية، لا يهيمه سوى عمله، لا يعرف كيف الإنسان يعبر عن مشاعره، لا يعرف أن اللفة والاهتمام لغة بحد ذاتها، بدأت أفكارها تتدفق بلغة تشبه أسلوب ندين، فتحاول إيقافها متسائلة، ماذا أصابني صرت أتحدث مثل ندين؟! لماذا هذه الجملة قفزت ببالها تحديداً؟

يعلق في ذاكرتنا ما النفس تحتاجه! مثلما الجسد يحتاج أشياء كثيرة تظهر على شكل رغبة أحياناً، فرغب نوعاً من الطعام بشدة في وقت ما، ولا نستطيع مقاومة النوم في وقت آخر، النفس تحتاج أشياء تبشها إلينا بطرق أحياناً نفهمها وأحياناً لا، وأحياناً نفهمها ندعي بأننا لم نفهم، رغم كل المنطقية والعقلانية الغارقة بها حين لا أنها تتمنى لو تشعر بها تحدث عنه ندين، فنضال شاب مثقف ابن عائلة غنية تكافأ مع عائلتها وطموح وعملي، وهذه صفات جيدة تتمناها أي فتاة، لكن لم يشعرها يوماً بمعنى الحب والاهتمام طيلة فترة الخطوبة التي مضت، أتراه لا يحبها؟ أتراه أيضاً لا تحبه؟ تلوح بيدها محاولة أن تصرف جميع الأفكار السلبية التي تراودها، فهي وإن كانت صديقة ندين إلا أنها لا تتفق معها بكثير من الأمور ويقضيان الوقت يختلفان، ثم يضحكان من اختلافهم لذا ما زالت تجمعهم صداقة حميمة رغم نقاط اختلاف كبيرة بينهما، تقول لنفسها معللة غياب العواطف بينها وبين نضال: ندين عاطفية جداً ورومنسية وحالة.

هذا ليس زمن قيس ولا جبران ولا حتى نزار.. وأيضاً ليس الحب مقياس النجاح في الزواج فثمة حالات كثيرة تزوج بها شاب وفتاة عاشقان من رأسهم لأخص قدميه ثم انتهى زواجهم بالطلاق، أي حب ذاك الذي تتفوه به ندين! ما إن تنتهي من تلك الخلاصة وتعجب بها؛ لأنها أعطتها قليلاً من الثقة والراحة حتى يباغتها وجه حسام العاشق ولغة جسده، التي كانت ترسل لها كثيراً من معاني الحب والشوق والأعجاب رغم أنها تصنفها مشاعر مراهقة بحتة وطفولية، إلا أنها لا تنسى كم كان يجعلها تحب نفسها.

أحبها لدرجة ترضي غرورها كأننى بحاجة لتشعر بأنها مرغوبة، وكسرتة كرجل مرغ قلبه في سبيل من لا تستحق.. في الحب ليس ثمة صلاح وصلاح، ليست كل امرأة صالحة في الحياة هي صالحة في الحب، وليس كل رجل هو سيئ في الحياة هو سيئ في الحب، الحب حظ.. الحب رزق.. وحسام كان فقير حظ في الحياة وفقير حظ في الحب، وحنين كانت غنية حظ في الحياة، فقيرة حظ بالحب؟!!

(مهما كنت من معتقي المنطق والعقل والبراغماتية... ومهما ادعيت وتشدقت بأن هذا زمن اللاحب... أحياناً أشعر بأن روحي عطشى لعاطفة ما، تشبه ما أنكره... مثل شعور وحاجة ملحد مضطرب أن يدعو الله! لظالما كان قلبي بحاجة للحب، للحن رقيق ينساب به عبر نبضة عابثة، حانية، تشعره بقليل من الدفء)

حنين.

الأمان

(ندين)

أنت خلقت في مكان آمن يدعى الرحم، ثم ولدت في حضن آمن يدعى الأم، ثم تربية وعشت وترعرعت في مكان آمن يدعى البيت، بيتك أمانك الحقيقي الذي تهرب إليه أخيراً من صخب الحياة، لكن ثمة بيت آخر احتوى كل هذه التفاصيل التي عشتها بأمان، بيت كبير، إنه وطنك الآمن. يا لها من نعمة عظيمة أن تحظى بوطن آمن، أن تضع رأسك على الوسادة في آخر نهارك وتنام وأنت آمن.

الثانية صباحاً، يتقلب عبد الله في الفراش لا يستطيع النوم، صوت اشتباكات بعيدة في الخارج وصوت اشتباكات قريبة هنا في الداخل، في داخل عقله الذي أفلق نومه، وضع الوسادة فوق رأسه مغطياً بها طرف وجهه لعله يستطيع النوم، تقلب يميناً ويساراً لكن لا جدوى، لم يستطع أن يسرق لحظة نوم واحدة، كيف له أن يجد سبيلاً إلى عينيه وعقله لا يهدأ ولا يقف عن التفكير؟ عمله تأثر بوضع الحرب فراجع وضعه المادي، وزوجته وأولاده مضطربون وحزينون دائماً، والحرب تمتد وتتوسع كل يوم، والأزمات التي خلفتها الحرب تقسم الظهر، لا شيء مستقر، لا شيء يدعو للتفاءل، ولا شيء واضح؟ والكل في هذه العائلة ينظر إليه النظرة التي تستجدي العطف والحل في آن معاً، تلك النظرة التي تهد روحه، لأنه هو المسؤول، هو صام الأمان بالنسبة لهم.

مهما بدا يكابر ويسهل الأمر ويهون الصعب لكنه بدأ يشعر بتغير زوجته الكبير، بدأ يلمس الكبر والهم على ملامحها، بدأ يشعر بمقدار الخيبة على وجهها والانطفاء ببريق عينيها، أصبحت تهرب منه بعدما كانت تهرب إليه. كأنها سمر جديدة لا يعرفها، فالعمر الطويل الذي عاشوه معاً في السراء والضراء جعله يحفظها عن غيب، لكن اليوم واقع الحرب المرير بدأ يجعلها تغترب حتى عن نفسها، فهي أيضاً أم، وإن كانت نامت الآن فهو من الحبتين اللتين ابتلعتها معاً من علبة الدواء المهدئ، قال لنفسه: مهتمك صعبة أيضاً يا سمر، ودورك أصعب، دورك كأم يجعلك

تحمّلين على عاتقك هم ثلاثة أبناء بكل تفصيلة من تفصيلاتهم وبكل إيماءة على وجوههم وبكل حركة من أجسادهم، وما أنقل هذا الحمل رغم خفته وما أحلاه رغم مرارته، ودورك كابنة يجعلك تحمّلين هم والديك عندما تكبرين وتصبحين أمًا كأنك أم لهم أيضًا، وإن كان الله وهبك نعمة الخنان فستصبح المهمة أصعب، فسمّر اليوم الحمل على كاهلها ثقيل، هي أم، أم للجميع.

وندين ابنته الكبيرة الجميلة كأماها، الطموحة والمتقدة والأقرب للمثالية كأبيها، كذلك تغيرت.. اجتاحتها يد الخيبة مبكرًا جدًّا في مقتبل عمرها كأنها أخرجتها، فهي لا تزال صامته ومستغربة ومنطوية وحزينة منذ بدء الحرب كأنها إلى الآن مندهشة رغم كل مهاراتها في تنمية ذاتها وفهم نفسها وتطويرها، ما زالت لا تستطيع تفسير وتقبل ما يحدث في هذا البلد، من أين لها أن تفقه معنى الحروب التي كانت وما زالت شيئًا موجودًا في الحياة، فقد شكلت الحروب تاريخ دول بأكملها، كيف ستشرح لهؤلاء الشباب أن العنف بدا وكأنه من عصب الحياة، ودول كثيرة عاشت تحت الحرب سنوات طويلة، حتى تلك البلاد التي اليوم صارت دولًا عظمى اغتالته يد الحرب.

الإنسان كائن دموي لهذا الحد، هذا ما يثبتته التاريخ كل يوم، ما بال هذا البشري، الذي لباسه لثوب الحضارة وتقدمه وارتقاء فكره عبر السنين لم يغير حبه لقمع الآخر وإيذاؤه وإلغائه وحتى قتله تحت مسميات كثيرة، مبررًا أنانيته وغروره وهمجيته.

فتاتي الصغيرة تلك تشاهد الأحداث من حولها بذهول وتحاول كظم غيظها وكتم دمعها، لكنها في لحظة غير متوقعة تنفجر لأنفها الأسباب، بل لكثرة الأسباب المتراكمة في داخلها، فأحلامها وطموحاتها الآن متوقفة إلى إشعار آخر، مستقبلها المهني والعاطفي متوقف، فقط تنتظر أن تهدأ الحرب لتشتعل هي، لكن لا تزال الحرب تشتعل ولا تزال هي منطفئة ومركونة مثل اللاشيء. علمتها الطموح، علمتها ألا تتعاطى مع الواقع، أن تصنع واقعًا تحبه، ألا تيأس، ألا تتنازل عن أحلامها، وعدتها أن أكون وراءها دائمًا، وأنا اليوم لا أستطيع أن أفي بوعدتي لابنتي الوحيدة التي تشبهني، لا أستطيع أن أمسك يدها بثقة لتعبر من أول محطة خذلان تقدمها لها الحياة وأساعدها لفهم أنها ما عادت طفلة والحياة رغم حلاوتها أصعب بكثير مما تتوقع، كيف سأعلمها أن تقبل الخوف الذي بدا كبيرًا في عينيها؟ كيف سأشرح لها أنه رفيق دائم في الحياة لا يبرحنا، فقط يحتاج منا القبول والمواجهة؟ كيف سأعلمها أن تُهدئ من روعها وأن تعالج كل

شيء بالإيمان؟ حتى إيمانها تزعزع في هذه الأيام، أكذا الثقة التي حملتها على منكبيّ العريضين بأني سأحمي أولادي وزوجتي، تصبح ثقلاً عظيماً يهد أكتافي فلا أستطيع أن أحمي نفسي حتى؟ أي مصاب هذا الذي يصيب الوطن، وطن المرء، شرفه وتاريخه، عروقه، أي مصاب جلل ذاك؟!!

تقلب للجهة الأخرى، عاد واستلقى على ظهره، شعر بجفاف بحلقه، نهض وخرج نحو المطبخ، شرب كأساً من الماء وعاد نحو غرفته، يلقي نظرة على الأولاد.. الحمد لله نائمون، ندين، ويزن، أسر كأنه لم ينم بعد رغم تمثيله بأنه مغمض العينين، هو يعرف جيداً، أسر ناظم على كل شيء وخائف من كل شيء، كذلك الأمر بالنسبة لطموحه وأهدافه مثل ندين، لكن بفارق بسيط هو لا يريد أن ينتظر، هو بحاجة كبيرة لأن يهرب من البيت والمدرسة والمدينة والحرب، هذا الرجل الصغير، عاد الكطفل يبكي في غرفته مختبئاً تحت وسادته، حينما يتذكر الرجل الذي مات أمامه هو وطفله، وقتما انفجرت سيارة تبعد عنه بضعة أمتار جعلته يطير ثم يهوي مرتطماً بصلاية الأرض، كان الرجل يمشي أمامه مستعجلاً، يمسك بيده اليمنى طفلاً صغيراً، يبدو أنها في طريقها لشراء شيء للطفل الذي بدا متحمساً ولا يكف عن الكلام، خطواتهم كانت مستعجلة، وكان هو وراءهم يسير ببطء، كان يشعر بالملل بعد درس فيزياء طويل، فأراد أن يستنشق بعض الهواء ويسير بتمهل، بدا الرجل وطفله بعيدين، وحدث ما لم يكن بالحسبان، ظل أسر صامتاً لأسبوع، تذكر الأب كم بذل جهداً عظيماً لجعله يتكلم تلك البضع كلمات عن الموقف ذاك، عن الطفل وأبيه، ويضع كلمات عن نفسه، حماني الله، كتب لي عمراً جديداً، والطفل وأبوه توفوا!

يحاول الهرب دائماً من نفسه، من الآخر، من هذا البلد، يسأل أصحابه، يتكلم مع خاله المغترب من زمن بعيد حول السفر، يضيق ذرعاً من كل شيء وكأن ثيابه لا تتسع له، فقط ينكب على دراسته كالمجنون ساعات متواصلة وكأنه يريد أن يفرغ غيظه بالكتب والدفاتر، ثم ينام، ينام لساعات طويلة بعد تعب، لا يتحدث إلا الضروري، قريب فقط من أمه، وكأنني أصبحت عدوه اللدود بعد الحرب، أشعر وكأنه يُحملني المسؤولية، لم يعد يهمني أن يهتم بدروسه، لم أعد أوبخه لهذا الأمر، لم يعد يهمني أن يصبح طبيباً أو مهندساً فليصبح ما يشاء، أريده فقط، مطمئن، مطمئناً وسعيداً. كما كان في السابق وهو طفل يركض نحوي بحماسة، يحضنني ويتسلق على كتفي بشراسة وينظر إليّ بعينين مندهشتين ونظرة لامعة كان كل الحياة بالنسبة لي، أين طفلي ذاك، كم

أفتقده، كم اشتاق له، لطلما أُمي نصحتني أن أستمتع بأولادي وهم صغار، أن أقدس الوقت معهم، لأنهم ذات يوم سيكبرون، وتتقلص عفويتهم وبراءتهم وكلماتهم وضحكاتهم وأسلتهم ومشابغاتهم..

تسير في منحنى آخر لا يشبه عالم الأطفال.

يزن، الطفولة المسروقة... من المخجل أن تصف حال الأطفال في بلد تغتالها يد الحرب، بل من المخزي! صورة يزن وهو يركض إلى حضن أمه بهلع، من أنفه صوت يأتي من الخارج قد يكون صوت رعد تكفي لتشرح مدى مقدار الخوف الذي سكنه، والذي لا شك التقمه منا وعائشه معنا، ذاك الطفل الذي لم يعي بعد شيئاً من الحياة. تنهد بعمق محاولاً صرف أفكاره... واستجداء النوم، أفكار كثيرة راودته وسيطرت على عقله، آلمته، وبعد مرارة كست ليلته المغمورة بأرق شديد غفا أخيراً.

في صباح اليوم التالي

استيقظ عبد الله بعد ليلة مؤرقة، نهض من فراشه مرتجفاً من شدة البرد، الوضع اختلف عن سابقه قبل الحرب، الدفء في الحرب رفاهية صعبة المنال. ذهب إلى الحمام، بينما سمر في المطبخ، ترتدي كيموناً شتوياً سميكاً زهري اللون، تقف ببرود وكأن برودة الطقس انعكست على وجهها الذي أصبحت تعابيره جامدة، بيدها اليمين تحرك القهوة الموضوعة على نار هادئة أمامها بطريقة فوضوية وعلى مهل كأنها ترسم لوحة ما، ويدها الأخرى مخبأة في جيب الكيمون الذي ترتديه، يدخل عليها عبد الله بوجه ندي بعدما غسله بماء بارد حرك الدم فيه، يقول لها صباح الخير، ترد سمر دون أن تنظر إليه صباح النور، ينظر نحوها بصمت، لم تعد تنظر لوجهه، يتلافى إحساسه بالسوء، ويدلف غرفة الجلوس، تأخذ الركوة وتضعها في صينية رتبها من قبل مع فنجانين وطبقين وكأس ماء، تذهب بها إلى غرفة الجلوس، وعبد الله ينتظرها هناك متأملاً لون السماء بعدما فتح الشباليك كعادته الصباحية حتى ولو كان الطقس بارداً، جلست بجانبه يرتشفان القهوة بصمت.

سمر كانت تمتاز بشهيتها الصباحية للكلام، فكانت تغرد مثل العصفور وهي تحتسي قهوتها، وهذه سمة من السمات التي كان يحبها عبد الله فيها، ابتسامتها ونشاطها وتغريدها الصباحي، ثمة شخصيات يجدر بك أن تسميهم أولاد الشمس لابتسامتهم الصباحية التي تضيف جمالا على وجوههم ووجه النهار، تشعر معهم بطاقة غريبة كأنهم فعلاً أبناء الشمس يتغذون على طاقتها فيشعون نوراً من بداية اليوم، كانت هي من هذا النوع، إلا إنها ومع الأسف تغيرت بعد سنوات من الحرب، فخرس العصفور الذي يغرد صباحاً بداخلها، وماتت الابتسامة الصادقة على محياها، وكأننا نحن براعم الظروف والمواقف التي تزرع فينا ملامحها وتفرضها علينا، نحن لا نختار الابتسامة بل هي التي تختارنا، ولا نختار الدموع بل هي من ترمي بثقلها علينا، نحن البشر منجم تناقضات كبير، في ذاتنا كل المعاني والمشاعر والأحاسيس والهواجس والتناقضات التي تأتي، مواقف تحييها ومواقف تغذيها ومواقف تميتها؟!

سمر كانت مفعمة بالحب والحياة قبل الحرب، لأنها تحمل رضى كبيراً بقلبها وامتناناً عن حياتها ومسيرتها بعد ثلاثة وأربعين عاماً مرت خلالها بتجارب كثيرة علمتها وطورتها، وحققت أهدافاً كثيرة جعلتها تشعر بالإنجاز والغبطة سواء أهدافاً شخصية أو عائلية، أعانها على الحياة مثابرتها واستقامتها وإرادتها، وأحياناً تمردها رغم كل المطبات الكثيرة التي مرت بها والأوجاع الكثيرة التي ألمت بها إلا أنها مرت.

فهي بالإضافة لنجاحاتها الشخصية أسست عائلة جميلة كما حلمت دائماً، فبات لديها شابة جميلة متعلمة مستقيمة تفخر بها دائماً، وشاباً طموحاً بات رجلاً صغيراً ترى من عينيه بريق التحدي والإصرار وتعلق عليه آمالاً كثيرة، وأهداها الله من بضع سنين كائناً صغيراً يحمل معاني الرقة والحلاوة كلها في داخله فبات مدلل العائلة يزن، الذي تحطو في تربيته ذات الخطأ التي خطتها في أخته وأخيه، ورفيق العمر عبد الله زوجها الذي لطالما أدمنت على وجوده الذي يتشكل عندها بمعان كثيرة، فهو الأم والأب والأخ والولد والرفيق والحبيب كلهم في آن معاً، خاصة بعد وفاة والدها بات جهاً لزوجها مضاعف، وكأن في داخلها تعلق أبدي نحو رجل يحميها يكون بظهرها، يهدئ من روعها، يساندها، عاشت هذا مع أبيها وعندما فقدت أول رجل بحياتها، تعلق بالآخر مثلما يتعلق الغريق بمرسى نجاته، عالمها الداخلي عميق لكن كانت حياتها الظاهرة

مستقرة نسيًا، روتينة إلى حد ما فهي منظمة وليست من أولئك الذين يكرهون الروتين والنظام ويتململون منه، على العكس كان يوترها أن يعكر نظامها شيئًا ما، أو تغير خطتها نحو شيء تسعى له عقبة ما. مطمئنة أن ما تسعى له، هو تدرج بطيء ينقلها للأفضل دائمًا، المهم ألا تتراجع، أو تقف، في سنواتها الماضية كانت هكذا إلا أن الآن الوضع اختلف وتغير، وسمر تغيرت فباتت معجونة بالقلق، مشبعة بالتوتر، ومغلقة بابتسامة كاذبة أحيانًا وغالبًا بصمت.

في الحرب الأمان مسروق وعندما يسرق الأمان يحل الخوف أو يعود ويحتل مكانة في الصدارة مجددًا. يقطع السكون صوت قطرات المطر تهطل من سماء غائمة على أهل مدينة أرهقَ أبنائها حد التعب.

- سمر: عبد الله أريد أن أستشيرك بموضوع مهم.

- عبد الله: تفضلي.

سمر: إلى أين الأمور تمضي برأيك؟

- يتلملم عبد الله من هذا السؤال المكرر، الذي حقًا لا يعرف جوابه، أو يتجاهله، أو ربما يخافه، فيرد عليها، لا أعلم.

تنزعج ضمنياً.. ذات الجواب دائماً، لا أعلم، لا أعلم، أسهل شيء للمرء ألا يعلم، تعرف أنه سيجيبها بهاتين الكلمتين، لكنها سألت لتجعل هذا السؤال مقدمة لموضوع كبير ومصري أرادت مناقشته من عدة أيام وترددت لكن لا بد من أن تناقشه أخيراً، وهذا الوقت مناسب ربما، على الأقل الأولاد نائمون، من الأفضل ألا يكونوا موجودين في أثناء نقاشه، لكي لا يشوش تفكيرهم فندين اقتربت امتحاناتها وأسر عنده السنة التحضيرية للدخول للجامعة، ويزن من الأفضل له ألا يسمع نقاشات حساسة كهذا، صمتت قليلاً وهي تفكر، ثم رمت سؤالها الذي هو صلب الموضوع.

- ما رأيك أن نسافر؟

- التفت ونظر إليها باستغراب وهدوء تام، ثم قال إلى أين؟

- أجابته بسرعة إلى أي مكان، المهم مكان آمن، لا يوجد فيه حرب، لا تحيا فيه بقلق أو بخوف.

- بصمت عبد الله قليلاً ثم يقول: المسألة ليست بتلك السهولة.

تجيبه بانفعال مكبوت: أعرف، أعرف تماماً، لكن ليس أمامنا خيار.

- يقول لها: هل يعقل أن نترك بلدنا الذي خلقنا وعشنا فيه واقتربنا أن نهرم فيه؟ هكذا، نترك بيتنا، حينا، عملنا، أهلنا، أصدقاءنا هكذا ونذهب؟

يتنهد بعمق وألم ويرتشف آخر قطرة من الفئجان ويضعه على الطاولة مصدراً صوتاً مبالغاً فيه.

تنهد أيضاً سمر وتقاوم غصة في داخلها، ثم تكمل: أنا من تقول لي هذا الكلام يا عبدالله! هنا أرضي، ولدت في هذه المدينة عرفت نفسي فيها، عمري عشته كله فيها، هنا جذوري وأجدادي، هنا كل شيء، تضع يدها على وجهها محاولة مقاومة دمعها ثم تستطرد، لكن خياران أحلاهما مر، تنظر بعينيها بقلق وتعب وتقرب منه، عبد الله أنا لم أعد أعرف معنى الراحة، أنا متعبة، مستنزفة لدرجة الموت، هل تعني أن تموت وأنت حي، لا تغرب عن بالي أي فكرة سوداء كل يوم وكل ليلة، أولادنا، بيتنا، أنت، أنا، كل شيء مهدد، الخوف يقتلني، القلق يدمرني، عقلي لا يهدأ، غالباً لا أستطيع النوم، أظل متسمة وشاحصة مثل قطعة خشب كلما خرج أحد منا من المنزل وأزفر عندما يعود، فيأتي شيطان الخوف ويهمس لي، لم ترتاحي ولن ترتاحي، حتى بيتك ليس آمن، أنسيت العائلة التي نزل عليهم صاروخ وهم نائمون، حتى النوم بسكينة صار حلم، أتعرف؟

انسني ليس من أجلي، فكر هؤلاء الأولاد، بحياتهم التي تسير منذ بدء الحرب إلى الآن بشكل مخز، ألا تريد أن تطمئن من أجلهم، ألا تريد لهم مستقبلاً أفضل، أي مستقبل ينتظرهم في هذا الواقع الذي يزداد سوءاً كل يوم!

راقبها وهي تتحدث، ملامحها، دموعها المحبوسة، صوتها المختنق، عيونها المتعبة والهالات السوداء التي أحاطت بها، بدت مضطربة مستسلمة تائهة، لا تعرف كيف تجد منفذاً ومهرباً لتنسلّ

منه وترتاح؟!

تذكر عيد ميلادها الأربعين منذ عدة سنوات، لم تكن الحرب موجودة بعد ولا حتى كمصطلح غريب بالنسبة لهم، أحضر لها باقة زهور من الورد الأحمر الجوري الذي تعشقه، واشترى لها ساعة يد فضية ناعمة تليق بيدها الناعمة أيضاً، كانت ليلة سعيدة، احتفلوا فيها بحب وقرب هو والأولاد، في تلك الليلة سمر بدت متحمسة وواثقة ومبتهجة، عندما أصبحا في غرفتهم آخر الليلة وقفت أمام المرأة وضعت يدها على خصرها، كانت ترتدي فستاناً أسودَ ضيقاً بياقة عالية على شكل قوس تحت الرقبة، بلا أكمام ويغطي الركبة، تضع على وجهها لمسات خفيفة من مساحيق التجميل التي يضعنها النساء بكثرة، لمسات خفيفة جداً، زادت من فتنتها وجمالها، شعرها الأشقر منشور على كتفيها يبعث كل خصلة موجة على حدة، كانت ترتدي بقدميها حذاءً لامعاً لونه أحمر قاني، بدت أنثى كاملة، بدت أصغر من عمرها بخمس سنوات على الأقل، بدت طازجة شهية، زاد جمالها وأنوثتها البهجة التي تسكنها، ابتسامتها الحلوة تلك، دلّعها رغم أنها أصبحت أم لثلاثة أبناء اثنان منها دخلا بمرحلة الشباب، سارت أمام المرأة بزهو، قالت بعدما التفت ونظرت إليه بطرف عينها ولمست كيف ينظر إليها بحب وإعجاب: حبيبي إياك أن تعتقد أنني كبرت ببلوغني الأربعين، على العكس أشعر أنني الآن ولدت ولادة جديدة لعمر جديد، مختلف، جميل، مليء بالنضج والوعي والأنوثة والجمال، أجمل الأعمار هو الأربعين، انتقال جميل تعي المرأة به ذاتها، نفسها، تعيد قراءة حياتها بشكل مختلف، نظرتها للحياة وللأشخاص تختلف، تصبح أقوى بكثير، فهي لم تعد غرة، صغيرة، وبذات الوقت لم تكبر وتشعر أنه فاتها شيء من العمر، الآن عمر الاهتمام بطرق جديدة ومختلفة بالروح والعقل والجسد، عمر احتواء الذات من جديد، أوليس الأنبياء نزل عليهم الوحي بعمر الأربعين، كأنه مرحلة وعي جديدة كلياً!

راح يتأملها مائلاً رأسه محازاة كتفه ويسمعها بصمت، كانت تحدثها له إنها في الحقيقية تحدث نفسها، تخبر نفسها، أنها ما زالت صبية، أمامها حياة بأكملها لم تكبر بعد، تخبر نفسها أنها أصبحت قوية لم تعد تلك المرأة الحساسة جداً والضعيفة، تخبر نفسها أنها تغيرت وحققت إنجازات عظيمة، أسست عائلة، طورت من شخصيتها، لاقت شغفها، تتحایل على سنوات العمر والتجاعيد الخفيفة التي بدأت تتوجس منها بعض الشيء بروح فتية لا تكبر أبداً.

كان عبد الله في تلك الليلة زاهياً بها ومحتفياً كأنه شهد أمام عينيه على تفتح وردة كانت مجرد بذرة، ربما الحب، ربما القبول، ربما كفاحهم بوجهة واحدة معاً جعل من حياتهم رحلة حقق كل منهما أشياء حلم بها، عرفا من هما وما يريدان حقاً، كانا يمثلان ما قاله الرافي بعبارة واحدة لخص بها أكثر ما يحتاجه المرء من الآخر في أي علاقة وخاصة الحميمة منها، فقال: إني صادقت معك جوهر نفسي.

قاطعت شروده عندما قالت منفعة، ما بالك لا تحيب، أين سرحت؟ فكر إن لم يكن من أجلي، فمن أجل أولادك ومستقبلهم، الواقع لم يعد يطاق، ألا ترانا نذبل أمامك كل يوم، ألا ترى نفسك كيف بدأ الهم على وجهك... أنا تعبت جداً، ولا أحد يشعر بي، أدارت وجهها إلى الجهة المقابلة وغطته بيديها موارية دموعها.

اقترب منها محاولاً تهدئتها، متأثراً بجراح كلامها الذي هو أيضاً يعانیه بطريقة ما، رغم أنه لا يعرف أن يوح، المرأة مخلوق يسهل عليه البوح ويتقن التعبير عن نفسه، ليس مثل الرجل،

سمر أرجوك كوني قوية، فترة وستمر، كل الذي قلتيه أنا أراه وأشعر به، بل أحترق به، لكن قرارات مصيرية كهذه لا تأخذ بيوم وليلة، أندرين قلقك مبالغ فيه بعض الشيء، ألا تؤمنين بأن الله واحد والعمر واحد؟ صدقيني القدر نفسه أينما كنت، والموت الذي تخافينه وتفرين منه، القدر الوحيد المحتوم، معياد بوقته لكل شخص، واطمئني لن نموت، لن نموت الآن على الأقل، سنشيخ معاً وأولادنا حولنا، وسنموت على هذه الأرض بإذن الله، هذه الحرب لن تبقى للأبد، أعرف، أعرف جيداً أن الأمر ليس بتلك السهولة، وأعرف أن الواقع لا يطاق على حد تعبيرك، لكن أعرف أيضاً يا سمر أن أي قرار نتخذه الآن صعب ومر، مثله مثل الحرب ومرارها تماماً، أنا الآن بعدما أصبحت بهذا العمر ووصلت إلى هنا بفضل أم وأب بذلا كل شيء من أجلي، لا أستطيع مطلقاً أن أتركها وأضي وليس لها معيل سواي، لا يجدر بي أن أهرب وأتركهم ورائي، أجابت بسرعة لما نتركهم، طبعاً لا، يذهبون معنا.

صمت وابتسم ابتسامة خائبة وأدار رأسه نحو النافذة ونظر إلى السماء. أطرقت سمر، وفكرت، عمدتها وحمايتها أشخاص كبار بالسن وكأنهم أشجار سنديان ممتدة جذورهم على أرض

حوت ماضيهم بكل زخمه، حياتهم، عمرهم الكامل، سنوات طوال، كيف لك أن تقتل سنديانة متقدمة بالعمر شاخت من الأيام والسنين والزمن، تقتلعها من جذورها وترعها في أرض غريبة، أترأها ستثبت... لا أدري.

هَمُّ أولادها ونفسها وقلقها وخوفها، غَيَّب عنها تلك الفكرة تمامًا، وكأنها عندما تصورتها ذهنيًا، صدمت، فتحت أمامها إشكالات جديدة أنستها الحرب من أساسها، تنهدت تنهيدة طويلة، التفت نحو عبد الله ونظرت مجددًا بأسى.

بعد ذهاب والدها للعمل

نهضت ندين من الفراش بصعوبة، كانت قد استيقظت على صوت أمها وسمعت النقاش الحاد الذي دار بين أمها وأبيها، وأكثر ما علق بذهنها فكرة السفر التي تحدثت أمها عنها، بالأحرى الهروب، ندين بمقدار الخوف الذي عايشته بهذه المدينة عايشة الحب أيضًا، فسَاء وأرض هذه المدينة هي سماء وأرض طموحها، لا تطمح للسفر ولا للهروب رغم كل الخوف والألم وانعدام الحياة، ثمة أمل كبير كان يبقياها، أو إيمان أن هذا وهم وهذا هراء سيمضي، هذا عبث، الحقيقة أن الأمان سيعود، لن تفقد شغفها وأحلامها وأشياء كثيرة تحبها وتدفعها للحياة، كانت تمر بها أوقات تأس تمامًا وتغضب وتشعر بلا معنى وتسخط، لكن تعود لتوازنها من جديد بقدرة القدير، تستيقظ صباحًا وتشعر أن شيئًا لم يكن، اليوم بداية جديدة.. فلتمضي وتواجه أقدارها، والحرب كأنها قدر لا بد منه، لكن سينتهي، حتمًا سينتهي، هكذا آمنت، عكس أمها التي وكأنها في هذه المحنة لم تعد تحتمل رغم محن كثيرة مرت بها، كأن الحرب فعلت فعلتها بها مثل الشعرة التي كادت أن تقسم ظهر البعير.

بدا كل واحد في هذه العائلة مرمي بعالم لا أحد يعلم عنه شيء، كل واحد تنتابه بدواخله استفسامات كثيرة؟ أفكار غريبة، توق لشيء صعب المنال، خوف من شيء أقرب للوهم، نشوات من أحلام ستتحقق، أو ربما تظل عالقة في سماء الروح، لكن شيء مشترك جمعهم في هذه الأيام واحد، متعاضد، لفهم بوتقة واحدة هو الألم. يكتمونهم أحيانًا ويتوارون عنه ويقاومونه، لكنه يظهر ويطفو معها أرادوا أن يتحايلوا عليه ويخبئونه لأنه موجود. يقول فرويد: (لا شيء مثل الألم

يجعل الناس يتغيرون).

لم ترد ندين أن تشعر أمها بشيء ولا أن تفتحها بالموضوع وحذت الصمت، عليها تخفف عنها جدالات طويلة ورؤى مختلفة، ربما هي محقة فهي في النهاية لها طاقة وكان هذه الأيام بدت مستنزفة جداً، وخلافات الرأي ستستنزفها أكثر!

انشطروا إلى شطرين مثل هذه المدينة: ندين وأبوها لا يريدان السفر، يعتقدان أنه بخيار السفر هذا لن يتطرحهم واقع أفضل من واقعهم الذي يحبون به، يقول والدها: فقط سيتغير التحدي لكنه لن ينمحي على الإطلاق، وأي بلد سذهب إليه لن يقدم لنا ما نتخيله من حقوق؛ ببساطة لأننا سنكون تحت مسمى لاجئ، وكل بلدان العالم مهما تشدقوا بحقوق الإنسان يظلون ينظرون لللاجئ بعين انتقاص في أحسن أحوالهم، يقول: لا يعقل وأنا ابن الخمسينيات أن أترك بلدي وأهلي وأصدقائي وعملي الآن وأذهب لأأسس حياة من الصفر في بلد آخر، لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه رأي فرصة ليتاجر بحقوق اللاجئين ويتشدد بحقوق الإنسان على أكتافي بل الآمي وخذلاني.

تباً لذلك الهروب من أساسه من جحيم لجحيم أكثر استعاراً بالنسبة لي على الأقل، تؤيد ندين أباهاً برأيه، ماذا سيتطرحهم في مكان غريب عنهم بكل التفاصيل، ربما سينعمون بالأمان لكن أمان مشروط، وأمان نسبي في أرض ليست أرضهم وأحلام ليست أحلامهم بل أحلام أناس آخرين، أين السوء في أن نصبر قليلاً؟ لن تستمر الحرب للأبد وفي قلبها خوف أن تستمر، إن لم يكن للأبد لوقت يستنفد فيه صبرها وتندم؛ لأنها لم تهرب من هذا العذاب ربما لعذاب أخف وطأة على روحها، لكن حتماً عذاب، هي تريد أن تستريح، تستريح من هذا التعب ليس أكثر.

بينما سمر وابنها باتوا لا يحتملون إلا الهروب من الحرب والسفر، لن يستريحوا مطلقاً داموا هنا، يقول أسر: أي مكان أعيش فيه وأنا آمن وحقوقى محترمة فهو بمثابة وطن، وطن مؤقت ريثما يُشفى وطني وأعود إليه وأنا أكثر قوة ونمو فأفيدة وأعمره ما استطعت، بينما إن كنت أجلس وأنتظر وأتألم وأنا أنتظر، فلن يستفيد أحد شيئاً لا أنا ولا وطني، كلانا سيخسر، الوقت يمر، والفرص للشفاء تقلص، كيف يشفى الإنسان في البيئة نفسها التي مرض بها، أحياناً لا يملك

الإنسان سوى أن يتخلى عن كل شيء ليكسب نفسه عندما يصل الأمر للنفس والعقل وللروح.. الأمر يصبح صعباً، صعباً جداً، ليس من طموحي على الإطلاق أن أبقى مقيداً بالخوف والألم والذكريات البائسة، أن أنظر للأفق فأراه ضيق بي وبوطني، أنا متعب، ومنهك، وخائف، ولم أعد أطيق البقاء في صلب التعب والخوف والقلق، نستحق حياة أفضل ومستقبلاً نعرف رأسه من قدمه، ربما لن نزول التحديات لكن حتماً ستخف جداً، وستمنحك فكرة لتأمل واقعك وتعرف أين ستجته.

والدته كانت تؤيد رأيه قلباً وقالباً حتماً ليس من الحكمة أن نختر الموت والعذاب بأبدينا، أستغفر الله، حتماً الموت مقدر وفي النهاية هو مختارنا، وأنا مدركة تماماً أن الحياة بخوف أبشع من الموت ذاته، ونحن مطالبون بالحياة ما دام قلبنا ينبض، لا أن نموت مرتين مرة في الحياة ومرة في الموت، الأولاد في بداية حياتهم والمستقبل هنا بات مجهولاً، حتماً لن يكون خياراً موفقاً أن أفرط بأولادي وتوازنهم النفسي والجسدي، دعك، أن أفرط بنفسي، نعم نفسي قبل أولادي، كيف سأحتوي أولادي وأنا نفسي لا أستطيع أن أحتويها؟ كيف سأساندهم وأنا منهارة تماماً مثل جدار متآكل؟ خياران مقرفان، أحلاهما علقم، لكن يجب أن نقرر ونختار ونفكر بحكمة في ظرف صعب جداً يتطلب حكمة كبيرة وروحاً واسعة تستطيع استيعاب ما يحدث.

ندين كانت مثل أبيها في شخصيتها وفكرها، فكانت أشد هدوءاً وصبراً وروية وتفواؤلاً من أمها وأسر، هي وأبوها كانا يأخذان الحرب على محمل الأمل، يأملان بأنها فترة وستمضي، مرحلة وستنقضي، لكن؟!!

مضت أعوام والحرب مستمرة، والخوف والحرمان وكل العقد النفسية والاجتماعية تتراكم في نفوس أبناء هذه البلاد، انعدام الأمن وتبعاته كارثة كبيرة، والخوف مرض عضال يشل حركتك عن كل شيء، فلا تستطيع أن تفكر في المستقبل ولا أن تعود للماضي ولا أن تحيا اللحظة الراهنة، الكل يمتلك الحق بخياره، والكل يدفع الثمن، والقاتورة من أرواحنا، وقلبنا، وعافيتنا.

وهو يقود سيارته بحذر وروية كعادته، يفكر عبد الله بكلام سمر، ويحاول أن يقنع نفسه بالرحيل، أو الهروب؟! شفقة على هذه المرأة التي تكاد أن تجن، وعلى هؤلاء الأولاد الذين عاشوا

معاني قاسية ببداية حياتهم، يا ليتهم يستطيع أن يسرق السعادة ويقدمها لهم، يا ليتهم يستطيع أن يهبهم الأمل بالحياة، يا ليتهم يستطيع أن يحمل عن كاهلهم هذا الهم والخوف، حمل ثقيل هدا أكتافه، ما الحل؟

شيء ما يربطه بهذه الأرض وكأنه شجرة متجذرة لا شيء يحركها من مكانها حتى موتها، تموت واقفة في أرضها.. وفي الوقت ذاته هناك أشخاص لم يعد يحتملوا، والعيش بتناقض وتنافر وإجبار طوال الوقت عيش سقيم، يا الله، أعني ماذا أنصرف؟

الأبوة الصادقة تقتضي كثيرًا من المحبة، وكثيرًا من البذل والعطاء، وكثيرًا من المساندة والاحتواء.. وكم أله أن يكون عاجزًا، لم يخطر بباله قط أن تحمل له الحياة أحداثًا قاسية تقسم ظهره وتخبره كهذه الأحداث، لم يخطر بباله أنه سيقف عاجزًا حائرًا أمام من يحب، ورغم كل هذا كان يؤمن بأنه ثمة حل، سيكون هناك حل لا بد من ذلك يرتاح به الجميع ويعيشون ما يختارون، عندما يعيش المرء خياره يكون جاهزًا للتعامل معه بكل إرادة ومسؤولية؛ لأنه بالنهاية يشعره بحريته التي هي أسمى ما يملك، وعندما يقيد بالإكراه لا يتعامل مع وضعه ويخلي مسؤوليته وكأنه غير معنيٍّ بالأمر فقط لأنه أجبر، لطالما خاف عبد الله أن يواجه قرارات صعبة كهذه، لكن الآن مخاوفه تحققت!

أرض الجميع (حسام)

هذه أرضي وأرضك.. جذوري وجذورك.. سكني وسكنك.. ماضي وماضيك.. مستقبلي ومستقبلك.. حاضري وحاضرك.. أمي وأمك.. نحن أخوة في التراب.. أرضنا لا يروينا إلا الحب؟.

المعادن الحقيقية للأشخاص تظهر عند الشدائد... أنت تنعم بدفء الفراش، والحياة حولك جميلة، وأمورك مرتبة وجاهزة، لا تستطيع أن تعرف معدنك وبذورك الحقيقية وأخلاقك الأصيلة لأنك لم تُختبر بعد، وأي شخص بموقعك هذا سيبتسم ويكون ودوداً جداً لا شك.
قد تعيش عمراً تعتقد أنك صادق.. وعند أول اختبار من الحياة يكون في داخلك منبع نفاق وكذب.

قد تعيش عمراً تعتقد أنك مُحِبٌّ ومتسامح.. وعند أول اختبار من الحياة يظهر كم أنت ملوث ببرائش الكره والحقد.

قد تعيش عمراً تعتقد أنك مفعم بالإنسانية والطيبة.. وعند أول اختبار من الحياة تكتشف كم أنت متعصب وعنصري.

قد تعيش عمراً تعتقد أنك ضحية ومظلوم.. وعند أول اختبار من الحياة تُصدم بأنك الظالم.
النفس البشرية مليئة بتناقضات رهيبة والإنسان دائماً يميل لأن يرى نفسه ويدين غيره، لكن عندما يدين نفسه هنا يختلف الأمر وتتجلى حقائق كثيرة؟!

كان خالد من التائهين في ذواتهم، فاقد المبادئ والأخلاق والحب والرحمة، معبوده المال..
برأيه هو كل شيء، كل شيء حتماً، لتعيش ولتصبح قوياً، ولتكتسب النفوذ والقوة واحترام الجميع حتى ولو لم يحبوك، من اللحظة التي قبض فيها أول مرتب شهري له ممن كان يعمل عنده

من مستغلي الأطفال وهو طفل، آمن بذلك ولاقي معبوده، لم يبحث ولم يحتر كثيرًا، معبوده أتى لعهده، كثر ماله، وزاد نفوذه في محيطه المشبوه وشعر بقوة المال، وحقق أحلامًا كثيرة لم يتخيل أن يحصل عليها يومًا ما. كلها مادية، فهو يعرف تمامًا كيف يستغل الفرص ويقتصبها اقتناصًا، لا يهتم شرعي أو غير شرعي، قانوني أو غير قانوني، أخلاقي أو غير أخلاقي.

ما معنى تلك التراهاات في زمن المال وقوة المال، أتراها أخلاقي التي كانت ستطعنني إن جعت؟! أو تكسيني إن بردت؟! يا له من هراء.. أخلاقي هنا في جيبي مشيرًا لماله، في جيبي فقط، ولتذهب الأخلاق للجحيم، أولئك الذين يتمتعون بحسن الخلق على ما أجزم يتضعضعون أمام أصحاب المال، يحترمونهم غصبًا عنهم.

أفكاره تلك غرست فيه بروية وهدوء، لم ينفعه أحد، لم يحبه أحد، حتى أمه تخلت عنه، فلم يبحث عما فقد، وجد ملاذه في المادة، المادة فقط؟!!

كانت الحرب فرصة ذهبية لجمع الأموال، يفكر دحك من الهراء، خوف، وقلة أمان، وتراجع اقتصادي يؤدي للفقر، كلها حالات صادقة منذ نعومة أظفاره، هراء يتفوه به البطاري أساسًا، أين كانوا عندما كانت هذه البيئة موجودة قبل الحرب، عندما كان الفقر يجلب الخوف، والخوف يجلب المرض، والمرض يجلب الموت، الموت عبثًا، أين كانت أموالهم؟ أين كانت مشاعرهم؟ فليذوقوا معنى الحرمان الآن فليستطعموه قليلًا، فليشعروا بالخوف، فليذهبوا إلى الجحيم جماعات كلهم بقلب بعض، وكل هذا لا شيء أمام نار الجحيم بداخلي.

رغم كل ما أعطاه له المال من أمان مادي، ومعارف، وعلاقات، ونفوذ، ولذة محسوسة. ثمة شيء واحد ينقص عليه حياته.. إنه لا يستطيع أن ينام إلا بعد أن يتطلع حفنة من حبوب الأدوية المنومة، وفي روحه خواء لا يفهمه؟ يتسع كل يوم!

ما رأيك بهذا المعلم، يقول خالد لحسام بعد مقابلتهم عدة مرات لذاك الرجل الذي لا يوحى بالخير مطلقًا، وواضح أنه من أصحاب السوابق والإجرام، ورغم أن حسام لم يرتح له منذ البداية، إلا أنه هز برأسه علامة على القبول، شعر خالد بأن حسام لم يرتح له، لذا يحاول أن ينقذ الموقف كعادته بأن يغيبه عن واقعه، فلا يفكر بما يحصل أصلاً، يعطيه سيجارة من جيبيه، وطبعًا

سجائر خالد مختلفة جداً عن باقي السجائر كاختلافه هو، لكن حسام يرفضها هذه المرة.

ينظر له بدهشة ما بك! على حد علمي أنها أعجبتك! هيا.. هيا.. خذ هيا.. ستريحك جداً صدقني يا رجل.. مبتسماً ببراءة مصطنعة. -

- يحدق بعينه مباشرة أعرف.. أعرف مقدار الراحة التي تصنعها لي، مدرك جيداً، بغصة في حلقه.

- يقول له مستغرباً: إذاً، لماذا ترفضها هذه المرة؟ ما الجديد؟! خيراً إن شاء الله؟

- لا.. لا شيء، لكن عندي زيارة عائلية وأريد أن أكون واعياً، ولا أريد لأحد أن يلاحظ أي شيء عليّ، يقول معللاً.

- آه، إن كان هذا الموضوع فلا بأس، معك حق لا أحد يريد أن تتغير نظرة الآخرين نحوه.

- تقصد لا أحد يريد أن يخيب أمله بنفسه أكثر.

- أوف ما هذه اللهجة الجديدة، كيف يخيب أمل المرء بنفسه؟

- بأن يخذلها كل مرة.

- ما بك يا حسام أنت مثال للتردد والحيرة لا أفهمك، حدد ما تريد وأمضي إليه دون أن تلتفت مهما جرى، أن تسير خطوة للأمام وخطوة للوراء فلن تحصل على شيء مطلقاً، صدقني، كأنك إلى الآن لا تعرف ما تريد.

- ليس المهم أن أمضي نحو ما أريد، المهم أن أعرف نفسي، وما أريد يجب أن يحقق لي في النهاية راحتي، أحياناً أريد بشدة بالغة سجائرك السحرية تلك، لكن ما ألبث أن أُنهي منها حتى أشعر أنني أكره ذاتي وتكرهني، أشعر بشرخ، شرخ كبير بروحي، أتعي هذا، أم أنه لم يمر عليك.

رفع خالد حاجبيه ثم ابتسم ابتسامة عريضة، الروح؟! ماذا نطق هذا الأبله، كيف يذكر تلك الكلمات أمام شخص نفسه سحقت أمامه! روحه ذابت وتداخلت وضاعت وتلاشت وتبخرت مع أولئك الذين رموه وكأنه لا شيء، وهو وافق، نعم وافق، أن تضيع، واختار بملء إرادته ألا

يبحث عنها مجدداً.

ابتسامة عريضة لم يرها حسام على وجهه من قبل بدت غير حقيقية، لكن بدا شيء صادق على ملامحه هذه المرة. كان يوارى مشاعره ربما لمس ألمه أو جرحه، لكنه دائماً يتوارى حتى بدا كأنه لا يشعر، أو يدعي ذلك.. يلفه غموض عميق، حتى ابتسامته محيرة وغير واضحة. لماذا كل هذه الابتسامة؟ يقول حسام.

يجيبه لأنني أعرف تماماً كم أنت ذكي وحاذق، لكن أحياناً تبدو أبلهًا وساذجًا، وتحدث كالمثقفين البائسين، روحي، أي روح تلك يا بابا، كأنك تعيش في الستينيات، كأنك مراهق، كأنك ولد.. ارتبك، خانتته الكلمات، بدأ يتحدث بكلمات غير مترابطة.

شعر حسام بذلك، تعود على أسلوب خالد الاستعراضي، فهو يتمتع بشدة عندما ينتقص من الآخرين، وكأنه سفير العباقرة، غالباً يتجاهله ولا يرد على كلامه؛ لأنه يدرك جيداً أنه لا نتائج من الجدال، أو حتى من الحديث العادي معه. يسأل نفسه دائماً ما الذي عرفه عليه؟ ما الذي أجبره ليدخل ذاك المستنقع؟ بتنهد بعمق... ولا يجد جواباً.

يتركه ويسير نحو وجهته، يفكر وهو يقود سيارته، العمل مع هذا المعلم كما أطلق عليه خالد هو لا شك في إطار الممنوع والمخالف، لكن ميزته مردوده المادي جيد جداً وهذا مغر بالنسبة له، يوماً ما عندما يغسل تلك العائلة الفاشلة بأمواله سيضطرون بالحذاء إلى احترامه وسيعرفون قدره أوليس هذا ما قاله خالد ومعه حق؟! الأموال التي يدخرها الآن كافية لفتح مشروع صغير لكن لا، هذا لا يكفيه، تراوده الحيرة. ذاك اللعين خالد بدأ يسحب منه شهرياً مبالغ ليست بالقليلة بحجة هذه السجائر التي يعطيه إياها بين الحين والآخر، والمشكلة أنه بدأ يشتبهها أكثر، كأنه بات يحتاجها بشدة.

يخبر نفسه لا.. لا لن أذمن، يشعر بخوف وقلق، أترأه هذا الطريق الذي يريده؟ حتماً لا. كأن صحبته لهذا الرجل بدأت تغيره، حتى بات يفكر بطريقته مؤخراً، هل المال كما يقول خالد كل شيء، الغاية تكديسه لكن ماذا بعد؟ خالد هذا الذي جمع من بداية عمله إلى الآن أموالاً طائلة ويسعى للمزيد، لما لم تلبسه حالة الرضا والانسجام الذي تكسو أولئك الذين يحققون ما

ينشدون؟ لا أدري!

أنا كشخص ماذا أفعل في هذا المحيط القذر، أعمل لأجمع مالا أكثر، ثم أهرب من أبي ومن مشكلاتي معه، من قسوته، من ظلمه، من تعامله غير العادل، من جميع عقده، وأهرب أيضًا من العائلة، أترها أُمِّي ستوافق أن تترك أبي وأخوتي وتنتقل للعيش معي كما أتخيل، أترها هذه الخطوات ستحمينا، ستغير شيئًا، نعم حتمًا ستغير وإن لم تغير ستؤثر، أبي لن يعرف قيمتنا أنا وأُمِّي إلا إن ابتعدنا عنه، وقتئذٍ سيشعر بمدى بشاعته، سينفض الجميع من حوله، أفكار كثيرة تشتت عقله وتسلب راحته وتزيد من حيرته، يمضي طريقه بصحبته.

يصل للمبنى يصعد الدرج ببطء درجة.. درجة، يقف قليلًا ثم يكمل، مرتبكا، متعبًا، حائرا، يشعر بصداع قوي يصل إلى باب بيت خالته المقابل لبيت حنين التي يدعي في نفسه لفرط حبه وجرحه أنه كرهها، يدير جسده كاملاً تجاه باب بيت خالته متحاشياً النظر إلى بيت حنين، يدق الجرس، ثم يسمع صوت أقدام ثمة من يصعد الدرج نحوه، كأنها أنثى، صوت حذاء بكعب، يرتبك هل يعقل أن تكون حنين، تفتح الباب خالته، وتمطره بوابل من التحيات والقبل، حسام يا حبيب خالتك، تعال هيا، ادخل.. ادخل.

والدته لم تجد أحداً أفضل من أختها -أم أيمن خالة حسام- لكي تتحدث إليه وتفهم منه ما سبب تغيره، وصمته الدائم، لكونها قريبة العائلة وبيت سر أختها تعلم كل الحكايا. تعلم مشكلات حسام مع أبيه وأخيه، وتعلم عجز وضعف أمه التي تكاد لا تحل ولا تربط، ومشكلاتهم العائلية التي تبدأ بكلمة من حسام لأبيه أو أخيه وتنتهي أحياناً بالعراك بالأيدي، وأحياناً بطرده من المنزل لعدة أيام يعود بعدها بوساطة من أمه التي تكون وعكت وعكة صحية أودت بها إلى المستشفى، فيضطرون مرغمين لمسايرتها قليلاً خاصة ابنها البكر عمران، الذي هو بدوره يعرف كيف يؤثر على أبيه رافة بأمه، وتعلم أيضاً قصة حبه لحنين ورغبته للتقدم لها ثم رفضها، لذا كانت ملهمة بكل التفاصيل.

يجلس على الأريكة يحذوه القلق، منحنياً إلى الأمام واضحاً كفيه بين ركبتيه ويهز قدميه بتوتر، تأتي خالته وييدها طبق الفاكهة تضعه أمامه على الطاولة وتجلس بجانبه وتبدأ بتقشير ثمرة منه

لتضعها في طبق آخر أمامه، ثم تبدأ حديثها قائلة: كيف حالك يا حسام؟ ما أخبارك ومستجداتك؟ لما لم أعد أراك كالسابق، هكذا تنسى خالتك الكبيرة التي تحبك، والله إنك بغلاوة أولادي.

يتسم لها، ويقول: تسلمي يا خالة، وأنتِ بمثابة أمي صديقي، أخبريني كيف هم أولاد خالتي؟ اشتقنا لهم ولأيام الراحة ثم يتنهد، تحببه متأملة وكأن شريط حياتها يمر أمامها، كبوا وتزوجوا وكل واحد منها انشغل بأسرته وحياته، ونسى الآخر تقريباً، لكن هذا لا يصح، دائماً أحذرهم ألا يدعوا العمل يسرقهم من العائلة، العائلة أولاً هي الأساس والسند يا بني، العمل لا يسندك إن تعبت أو مرضت أو مررت بمشكلة أهلك وأحبابك هم من يفعلوا ذلك، الله يرضى عليهم يتحدثون إليّ يومياً ويزوروني كل بضعة أيام ويطمئنون عليّ وعلى صحتي، الله يرضى عليهم.

والله يا حسام أنا أدت رسالتي في الحياة وعملت كامل واجباتي تجاههم ولم يبق سوى أن يتفقدني الرحمن ويأخذني لعند عمك أبو أيمن.

لا.. لا بعيد الشر يا خالة، العمر الطويل، يقول لها.

تضحك مداعبة له أطول من هذا، يضحك معها، ثم يقول: لا نشبع منك ومن حنانك وحكمتك، تحببه ملوحة بيدها دعنا مني ومن أولادي، أخبرني أنت كيف حالك في هذه الأوضاع؟ ماذا تعمل الآن؟ سمعت أن عملك تأثر بسبب الظروف، يزم شفثيه قائلاً: نعم للأسف، والله يا خالة الحرب أثرت على كل الحياة، وعلى كل الناس.. نسأل الله الفرج، تتنهد بعمق، آمين يا بني آمين.

تحاول تلطيف الجو، متى سنفرح فيك؟ أعرف لك فتاة رائعة ستعجبك، ما رأيك أن أعرفك عليها؟

يقول منفعلاً: لا.. لا أرجوك، يلوي رأسه أي زواج في هذه الظروف! يخيم الصمت لدقائق، تعود للحديث ثانية، لم تقل لي أين تعمل الآن، ماذا تعمل؟

يحمر وجهه قليلاً ويمسح أنفه بمنديل ورقي كان بيده، ثم يجيب: أعمل مع صديق تعرفت

عليه الآن بالأزمة بالبناء والديكور.

تقول متسائلة: مراتح بهذا العمل يا بني، هل هذا الرجل الذي تعرفت عليه ابن حلال؟ الله يبعثك أولاد الحلال لك ولأولاد خالتك.

يحببها يائسًا آمين، فخالد من الصعب الإطلاق عليه لقب ابن حلال!

يمضي الوقت دون أن تأخذ منه أكثر مما أراد أن يعطيه لها، تودعه آملة له التوفيق والسعادة ضالته التي حاول عبثًا دون أن يلقاها.

يذهب حسام مودعًا لها بحب وامتنان على أمل لقاء آخر ليس ببعيد، ودعته وأسرعته مهرولة للاتصال بأختها أم عمران لتحكي لها عن زيارة حسام التي لم تأخذ منه الكثير، لكنها طمأنتها بكل الأحوال، وحاولت أن تهدئها قائلة: مهما تاه يا أختي سيعود لصوابه وأصله، فهو مهما جرى يبقى ابن أصل.

اتجه حسام للمقهى الشهير في وسط المدينة، الذي كانت جلسته فيه بعد نهار عمل متعب مع أصدقاء طفولته وجيرانه ملاذًا له وهربًا من البيت، الذي يصدح بالغضب والانتقاد واللوم والشكوى. كانوا عدة شباب يمثل عمره يجتمعون على طاولة واحدة، يتحدثون عن العمل والرياضة ومغامراتهم مع النساء، وأيضًا عن أحوال الحياة العامة ويسخرون ويضحكون، يتناولون الشاي ويحتسون القهوة التي تجمعهم على الطاولة نفسها منذ عدة أعوام.

لكن لأن طبيعة الحياة في تغير مستمر، ولأنه لا شيء ثابت، سافر البعض منهم هربًا من الحرب والبعض الآخر عثر على أصدقاء جدد، ومنهم من انشغل وانهمك بالعمل، تفرقوا بعدما كانت جمعتهم روتين يومي جيل محب لهم جميعًا.

دخل المقهى، ألقي نظرة عامة، ثم بدأ ينظر إلى الطاولات واحدة تلو الأخرى عله يجد أحدًا من الرفاق القدامى، وإذا به يلتقي صديقه مؤيد جالسًا ومعه شاب آخر لا يعرفه، سر لرؤيته، اقترب منه بحماس قائلاً: كيف حالك يا رجل؟ نظر إليه مؤيد بوجه مندهش ومسرور في آن معًا، وحضنه قائلاً: اشتقنا لك أين كل هذه الغيبة يا حسام؟!!

يحببه حسام: وأنا اشتقت جداً لتلك الأوقات معك ومع الشباب، يسلم على الشاب الآخر الذي معه، ويجلسان معاً.

مؤيد من أكثر الشباب الذين كانوا يجتمعون مع بعضهم في هذا المكان نشاطاً وحيوية وتفواؤلاً، حسام كان غالباً متدمراً ومكتئباً، ظروف بيئته السيئة، وأسرته المفككة، وعلاقته شبه المنعدمة مع أهله رغم أنهم تحت سقف واحد استطاعت أن تؤثر عليه وغلبته ولم يحاول أن يغلبها، كان أجنب من أن يحاول.. كان فقط يتدمر ويلعن الحظ والظروف.

على عكس مؤيد تمامًا، مؤيد كانت ظروفه ليست بالمثالية أبداً، رغم أنه يبدو مثاليًا، له أب مسن ومرريض، وأمه وأخوته مسؤولون منه وعاش بفقر مدقع بسبب مرض أبيه، لكنه دائماً يحاول، ويعرف كيف يستغل أصغر الفرص ويقاوم دائماً ولا ييأس يؤمن أن الحظ سيستقيم، مهما تعب يعود أقوى من جديد، يخفي آلامه ويظهر ضحكته فيظن الجميع أنه مرتاح وسعيد، لكنه لم يكن كذلك دائماً، وفعلًا استقام معه الحظ فدرس وعمل حتى تخرج وعاد للعمل مجدداً، وبنى مشروعة الصغير الذي كبر مع الوقت، وأمن له حياة كريمة، مشيحاً بوجهه عن موضوع الارتباط إلى أن تتحسن أحواله أكثر ويحقق ما يطمح له بشكل أكبر هو وأسرته، كان مرتبطاً بعمله، وبأسرته بحب كبير، بنى نتائج جيدة غيرت وضع عائلته كلياً وتلافى خسارة مرض أبيه، كانت تفاصيل حياته الصعبة مغمورة لا يروياها إلا للمقربين، لا يجب أن يجعل أوجاعه مادة لحديث أحد فبات يكتمها ويقدم أفضل ما لديه، هذه القاعدة الذهبية لنجاحه، قدم دائماً أفضل ما لديك، نثرها بعفوية وهو يحدث حسام وصديقه الآخر، وقف عندها حسام قائلاً: كيف تقدم أفضل ما لديك، إن كان أفضل ما لديك سُلِب منك؟

عندما يأخذون منك كل شيء ستصبح فارغاً، مستهلكاً، لن تستطيع أن تبذل أي شيء.. يحببه مؤيد بتحدٍ: لا أحد يستطيع أن يؤذيك بقدر نفسك، هيا دَعك من دور الضحية.

تصمته هذه الكلمات، تؤلمه وتستفزه، يشعر مؤيد بأنه ثمة خطب ما أودى بمزاج حسام الجيد الذي دخل به إلى المقهى، فيحاول أن يعيده له بقصصه التي تبكي من الضحك، ليس فقط قصصه بل أسلوبه في رواها، يسخر من نفسه وأوجاعه والظروف بضحكة، هكذا تعود، واعتاد أصدقاؤه

عليه.

في نهاية تلك الليلة

يضع رأسه على الوسادة محاولاً الخلود للنوم بعد مضي هذا اليوم، الذي كان فيه مسحة من اللطف والصدق والأمل، بعد عدة أيام من التعب والتهيه والضيق والعبث برفقة خالد، ذاك الوباء الذي انتشر بحياته فزادها بؤساً وسوءاً، تذكر المواقف الطريفة التي حدثت عنها مؤيد وجعلته يضحك من كل قلبه رغم تفاهتها، لكن أسلوب مؤيد وضحكته الرنانة هي من جعلته يضحك رغماً عنه، تذكر حضن خالته الدافئ وسلامها المبهج واستقبالها الحاني، وختم يومه بابتسامة أمه التي أدخلت له كوب الشاي الدافئ بعد العشاء، كم يحب أمه وكم يشفق عليها في آن معاً، وكم يتمنى أن تبسّم له الحياة ذات يوم فيأخذها ويهرب إلى بيت جديد هو وأخوته الصغار بعيداً عن أبيه وعمران الظالمين، حسب ما يشعر، شيء ما بداخله حنّ للأيام الماضية.. للأيام البريئة.. للأيام البسيطة.. قبل الحرب.. قبل معرفته لخالد.. وقبل معرفته لخبر خطبة حنين.. وقبل معرفته لهذا السم الذي يدخنه وصار لا يستطيع الفكّ منه رغم أنه بات يتمنى جداً لو يتخلّى عنه، أن يتخلّى عن كل شيء يجره للهاوية.

رأى في عيون مؤيد بريق أمل رغم الحرب، رغم التعب، رغم الألم، شيء مرتبط به من الداخل استطاع لمسّه، ورعايته، فمنها فيه شيء يشبه اليقين ربها، أو الإيمان.

حسده عليه لأنه حاول كثيراً ولم يستطع أن يشعل هذا البريق بعينه، أن يحيي ذاك المعنى بداخله الذي لا يعرف سوى الحنية والحزن، عاد ليلعن حظه، والحياة، والقدر... لكن شيء ما في داخله جعله يشعر بأنه المسؤول ولو قليلاً عما حدث له، كأنه أشار بيد الاتهام نحوه، فبات هو الظالم، وهو المظلوم.

ربما هو ملام.. ربما يتبع هواه، كأن غرائزه تقوده وليس الإنسان العاقل بداخله، لماذا؟ سأل نفسه، ما الذي يجعله يسير في منحدر لا يشبهه؟ فكر أنه سار في هذا الطريق الوعر ليهرب، شعر أنه ثمة وادٍ أسود قد يتبعه في نهاية هذا الطريق إن استمر به.. نزلت دمعة حارة من طرف

عينه مخفية غصة كبيرة في حنجرته، أغمض عينيه، أغمض عين روحه، وعين عقله، وعين قلبه، وتجاهل كل ذرة في هذا السكون الليلي وغط في سبات لن يعرف العمق.

الليل.. الصديق الوفي الذي يحمل كل أسرارنا.. وهذياننا.. وعشنا.. الذين لا نجرؤ على كشفهم أمام أحد سواه.

في صباح اليوم التالي

نهض فزعاً على صوت شجار، وصراخ، وشتائم، وفي معمرة الأصوات تلك، تلاح لسمعه صوت أبيه، ففز مثل مجنون دون أن يعي أصلاً إن كان قد استيقظ أو إنه ما زال في الحلم، بوعي وبغير وعي، ركض باتجاه باب المنزل، ارتدى شيئاً بقدميه، نزل الدرجات بسرعة تجاه المدخل ثم الشارع، وجد أباه يصرخ ويتفنن بكل أنواع السباب والشتائم على جارهم الذي نزع منذ فترة وجيزة إلى بيت في المبنى الذي أمامهم، هذا الجار الذي يبدو من أولئك البشر الذين يطبق عليهم المثل -يمشي الحيط الحيط ويقول يارب السترة- إذا لم تسلم عليه لا يسلم عليك وإن لم تتكلم معه فلا يتكلم معك، يبدو مخدولاً، منزوياً، لا يطبق التعامل مع أحد لا يضطر للتعامل معه، ربما نفسه لم يعد يحتملها، نفسه التي بين جنبيه، وكأن الحديث مع الآخر والتعامل معه بلا فائدة، طاقة استنفدها، هرب مع عائلته من منطقة مشتعلة بآثام الحرب لمكان آخر أكثر أماناً نسبياً، عله يجد بعضاً من الاستقرار هو وعائلته.

رغم مرارة النزوح نزح مجبراً، فلا خيار أمامه، زوجة وأربعة أولاد مسؤولون منه، واجبه أن يحميهم بشتى الطرق، استأجر منزلاً في منطقة جديدة بعيدة عن منطقته لا يعرف فيها أحداً، ولم يرد أن يعرف أصلاً، أراد أن تنتهي هذه المهزلة ويعود لبيته وشارعه وجيرانه الذين يودهم ويودونه بلا مقابل، سوى عشرة السنين، وصدق الجيرة، لكن الآن خرج الأمر من يده صار من الواجب ذهابه بعيداً عن كل ما أحب، بل من المفروض حتماً، لا بأس، أرض الله واسعة، والبلد كبير ومناطقها كثيرة، وكلها بلدنا في النهاية هكذا حدث نفسه وواساها.

عاد البارحة ليلاً أبكر من المعتاد، ركن سيارته أمام مبنى مقابل لمبناه، سيارته التي يعمل بها

واشتراتها بعدما باع مصاع زوجته، بسبب الضغط المادي والخسائر الجمة التي أصبحت واقعًا بفعل الحرب، وعدها أن يعوضها عندما تتحلل الأمور بمصاع أجمل وأثمن، أملًا أن تحل فعليًا، تذكر وهو يركن سيارته أنه في العادة تركن سيارة كبيرة مغلقة هنا، كأنها لتحميل بضائع ربا، بدا له أن الأمر لا يهم، توجه نحو بيته منهكًا، عمل كثيرًا اليوم وتعب أكثر أراد فقط أن يأكل طعام العشاء ويستريح.

نام ليلاً بعدما أكل طعامه وجلس بعض الوقت مع عائلته، غرق في نومه بسرعة من شدة التعب، استيقظ صباحًا على جلبة رجل يتحدث بصوت عالٍ يسأل ويلوم ويزجر، دق جرس منزله فإذا بولد صغير يطلب منه أن ينزل ويغير مكان سيارته، لأن رجل يدعى أبا عمران طلب ذلك على حسب ما فهم.

شعر بقليل من الاستياء، لكن ما لبث أن رضخ للأمر الواقع، ربا يريد حاجة ما من هذا المكان ذاك الرجل، على أي حال هو ذاهب لعمله بعد ساعة من الآن وسيذهب بسيارته، بدل ملابسه وخرج مسرعًا عندما وصل لمكان ركن سيارته رأى الجار الذي يلّمحه عادة في المبنى المقابل لمنزله، رجل عابس دائمًا، ثمة شيء لا يجعلك تتراح عند رؤيته، ربا تعاليه، أو عبوسه، أو القسوة بملامحه، حاول تجاهل هذا الحكم الذي انتابه تجاه الرجل، الذي مجرد ما اقترب من سيارته أكثر وهم للسير بها لحل المشكلة، صدم بما سمع من إهانة وتوبيخ وشتائم انصبت عليه صبا، لماذا؟ لأن هذا المكان الذي اضطر أن يركن سيارته فيه لأول مرة، كتب باسم هذا الرجل بقانون الغاب الذي أوجدته الحرب والفوضى فصار كل من هب ودب يملك ما يشاء ويبيع ما يشاء بأملالك ربا عامة أو خاصة، لكن أن يصل المرء بجشعه وجنونه أن يملك قطعة من أرض شارع عام للجميع، هذا الذي جعل الرجل يصاب بصدمة كبيرة على ما سمعت أذناه مما تفوه به أبو عمران، أيحاسبه على أرض وجدت له وللجميع، أيشتمه بوقاحة وجراءة وكأنه أجرم جريمة كبرى بسبب هذا الأمر الأقل من تافه، أيزيد آلامه آلامًا، أيزيد شعوره بالغربة ببلده، أيزيد جرحه جراحًا، أي بلد أصبح ذاك المكان، أي نوع غريب تحولوه أولئك البشر، ما بال هذا العالم أصابه الجنون!

كأن المشهد بدا من حوله كحلم يراقبه فقط دون أن يعيشه، سباب الرجل أمامه، تهجمه عليه وتدخل البعض لحمايته وإنهاء المشكلة، كلها صور ليست يشاهدها لكن يعيشها، مذهول

مما وصل إليه الأمر، مما حل به من هذه القشة التي قسمت ظهر البعير، لم ينته كل هذا الوابل من الشتائم والسباب الذي انصب عليه بثبات، حاول أن يتناسك رغم أنه بدا كمن كان يصمت وقلبه يصرخ، ظل هذا الرجل يضغط عليه لدرجة جعلت أسوأ ما فيه يخرج للعيان، حينها انفجر قلبه وأخرج الصراخ، أصبح أشبه بحيوان شرس مقيد، وفك قيده للتو، تهاجم على أبيه لحسام وبدأ بالعراك معه والآخر لم يقصر لولا تدخل الناس من حولهم، كان سبب الخلاف للرائيين والسامعين أئفه من كل هذه البلبلة التي صارت، ركن الجار سيارته في المكان الذي اعتقد أبوه لحسام أنه له وقطعة الأرض تلك المؤلفة من بضعة أمتار ملكه، هذا السبب الواضح الجلي الذي لا يستحق كل ما حصل، لكن السبب الخفي هو في دواخل رجل لم يعد يحتمل أكثر، استهلك تماماً، وآخر يريد أن يسيطر على كل شيء، حتى ولو لم يكن له أي سيطرة عليه.

لكن بمعتقدته الذي جعله يعتنق قانون الغاب، البقاء للأقوى، للأقوى، للأعنف، ظن أنه يستطيع أن يسير بهذا القانون دون أن يزعجه أحد، فهو عرف بمدى سوء خلقه في منطقته فكان الكل يتجنبه ويأبى التعامل معه أو الاحتكاك فيه، البعض خوفاً، والبعض احتقاراً وكرهاً. إلا هذا الغريب المحمل بالألم، المودع لبيته، وشجرته، وشارعه، وسريه، ومكتبته رغم أئفه، الملقب بالنازح، المثقل بالانكسار والخيبة والأسى، وقف في وجهه وصرخ صوتاً أخرج الجميع وهو أولهم، ملأ صده الكون، لأنه كلام حق، وقال له: هذه الأرض للجميع.

الأيام لا تعرف الانتظار (ندين)

هكذا هي الأيام!

تركض مسرعة دون أن تلتفت لحزنك أو معاناتك أو حتى مرضك، هي لا تنتظر إما أن تلحق بها، أو تتركها تضيع منك.

وهذا العمر الذي يبدو كلوحة فسيفسائية فيها كل الألوان مقسمة لكثير من الأجزاء وتحتوي على كل المعاني أيضاً أب الأيام

لا يعرف الانتظار. في الحروب تريد للأيام المريعة أن تمضي، تريد من الزمن أن يسرع، تريد من العمر أن ينتهي، عله ينتهي الخوف بداخلك، لكن هذا الوقت هو عمرك!

سافر اليوم أسر بعد عدة سنوات من الحرب، ها قد حقق أمنيته وهرب، أسر لم يسافر، أسر هرب من الخوف، من الوجوه المتعبة، من الدخان الأسود الكثيف، من الأصوات المفزعة، من الحياة شبه الميتة، سافر بعد معاناة طويلة مع نفسه ومع أسرته ومع كل شيء.

لا شك أن الجميع انتابهم مرارة كبيرة وشعور ألم وفقد لسفره، ولا شك أن أمه ودعت جزءاً منها اليوم على أمل اللقاء ذات يوم ليس ببعيد.

ولا شك أن أباه بكى رغم أنه مضى وقت كبير لم يبك فيه، ولا شك أن ندين افتقدت الأخ والصديق، ويزن افتقد الأخ المنكه بطعم الأبوة بعطفه وحنانه. وجداه ودعاه كأنها يفارقان قطعة من جسداهم، رغم أنهم بدوا متماسكين، لكنهم للمموا جراحهم وضمدوها وجعلوا من طريق الوداع طريقاً مخفوقاً بالأمل؛ لأن هذا القرار كان خياره، ولأن وضعه النفسي ساء كثيراً، وحياته توقفت، ولأنه سيكون بمكان آمن وبخير وسيعود، نعم... سيعود، فقط سينتهي دراسته ومن ثم يعود، لن يصبح مهاجرًا، حتمًا لن يتخلى عن أحلامه ولا عن انتبائه لأهله، كانوا طوال الوقت يتحدثون بتلك الأحاديث.

اتصلت سمر بأخيها عدنان الذي يقيم في ألمانيا منذ سنين لتطمئن على أسر، فطمأنها وأعطاهما الهاتف لتكلمه، حدثته لبضع دقائق ووقف عبد الله بجانبها يلوح لها بيده أن تختصر الحديث ليكلمه هو، ومن ثم ندين والصغير يزن. جلسوا على طاولة العشاء بصمت.. تناولوا طعام العشاء بغصة لونوها بلون الرضا، أملين من الله السلام لقلوبهم ولوطنهم. لم ينم أسر هذه الليلة، الليلة الأولى في منزل الغربة، عقله لم يهدأ، أفكار كثيرة مبعثرة هنا وهناك، مشاعره مختلطة! حزن وفرح ووحشة ولهفة، خليط من كل شيء.

الآن هو هنا، أراد بقرارة نفسه أن يكون هنا في بلد آمن، مستقر ومتطور، يضمن فيه مستقبله، لا يحجم، لا يؤطر، انتابه خوف عميق، أتراه قرار صائب؟ فكر بأمه وملامح الحزن التي حاولت أن تخفيها.. كم أتعبت! أبيه، انكساره لأول مرة بدعاه، أي صعوبة تلك، وأي عذاب ذاك في أن يودع الآباء أبناءهم، والأبناء أوطانهم. ثقل كبير، ومرارة أكبر.

لبث يقوي نفسه التي وهنت وانزوت داخله كطفل مكور على نفسه بحزن على ما حل بهم، هو الذي لم يتخيل يوماً أن يذهب بعيداً عن أمه وأبيه... أن يرى وجوههم بتلك الملامح التي أحرقت فؤاده، أن يترك مكان مولده، ومكان طفولته ومرأته وشبابه وأحلامه وطيشه وصحبته وأسرته وجده وجدته، وأماكنه السرية التي يذهب إليها ليرتاح، إلى أين يذهب الآن؟

كل شيء تغير بغمضة عين، لكن في النهاية هذه إرادتي، تلك البلاد أصبح العيش فيها أمراً في غاية الصعوبة، كل شيء على شفا حفرة، لم أكن أريد سوى بعض الاستقرار والثبات.. في النهاية هذا الوقت الذي مضى دون جدوى فقط في مصارعة الخوف والقلق والبكاء على الوسادة هو عمري، أيام نفدت من رصيدي ولن تعود، ملأ رثتيه بالهواء وأخرجه زفيراً طويلاً، الآن كل شيء يختلف، يجب أن أحارب لكي أصل وأحقق مبتغاي، أغمض عينيهِ وصلّى الله أن يكون على قدر المسؤولية، لكي يكون كما وصاه أبوه الذي قال له قبل أن يسافر بيوم كلمات لم ينساها قط.

كان بغرفته يرتب أغراضه وحقيبه، أشياء لا يستطيع التخلي عنها، لاح له أن كل شيء يمكن أن يتخلى المرء عنه إذا اضطر الأمر، فقط نفسه إذا خسرها لا تُعوض ولا تُستبدل، في النهاية عالم المرء هو ذاته، كان متحمساً جداً، أخيراً سيبدأ طريقه الذي حلم به، سيسجل بأفضل الجامعات

وسيحصل على فرص وفيرة للعمل تفتح آفاق كثيرة أمامه، لا يسعه أن يرى الأفق مسدود، موته أهون، أغلق حقيبته وجلس على السرير، ياله من عنيد وصعب المراس أبي، ليت يقنع أن نذهب جميعاً، هنا تكمن السعادة حقاً، الثغرة الوحيدة المنخصة عليه الأمر تزول، كان يعتقد أن كل شيء ممكن أن يكون حسب مراده، لكن الحياة مليئة بتلايف كثيرة وطرق عديدة قد لا تشبه ما نريده وما نخطط له.

واسى نفسه بأن الأمور الآن اختلفت وتطورت والله الحمد، طوّر الإنسان آليات كثيرة وتقنيات رهيبه تجعلك تتواصل مع شخص بأقصى الأرض وأنت جالس على أريكتك، ستهون أيام الغربة وغضي، المهم أن تمضي بفائدة وإنجاز، يوماً ما ستستقر الأوضاع بهذه البلاد ونحيا بها بسلام، ربما ليس بعيد، ستكون هذه الفترة ذكرى ليس أكثر، أمي وأبي وأخوتي سيكونون بخير... صمتت أفكاره وتنهد، صرف عن ذهنه مخاوف جمة ونهض من مكانه محاولاً التركيز على الآن، دخل عليه أبوه فابتسم عندما رآه، فجأة انقضت العائلة من حوله، كانوا يتحاشونه، لا يدري لما كل هذا؟! أمه أبداً لم تحب ما آل إليه الوضع رغم تشجيعه على السفر، كانت تفكر بعقلها ليس بقلبها، أي أم تريد أن يغيب ابنها من أمام ناظرها! لكن الآن المهم هو مستقبل الولد واستقراره، هنا تكمن الأولوية بعدها تحل الأمور، لا بد من أن تحل، لكن مهما يكن قلبها سيتألم كثيراً في لحظات الوداع التي اقتربت، لذا بدأت تهرب منها..

ندين كانت حانقة على أخيها بداخلها، تريده أن يبقى وأن ينتظر مثلها، رغم مرارة الصبر ستنهي المهزلة، فقط عليه أن ينتظر قليلاً، نعم سيجد بلداً أكثر استقراراً وأماناً وتطوراً من بلاده، لكن سيكون في النهاية غريباً بلا روح، روحه هنا في بلاده ستبقى بين أهله وناسه وصحبته... تذكر وضعه المأساوي في الفترة الأخيرة وحالته النفسية ومزاجه المنخفض دائماً، فتور الحياة بداخله، يخف حنقها تقول: من حقه أن يعيش خياره أيّاً يكن، العديد من أصدقائه سافروا في النهاية وشجعوه على هذه الخطوة التي يرى فيها نجاته.

يزن لا يعي تماماً ما يحصل، لكن حتماً سيفتقد لألواح الشوكولاتة ورقائق البطاطا المقلية واللعب في البلاي ستيشن والحمل على الأكتاف والتوبيخ المتكرر عند دخول غرفة أخيه والبعثة لأغراضه، هذا أخوه الكبير عالم يرنو إليه بشغب وحب طفولي وفضول.

عند والده بدا الأمر مختلف بعض الشيء ابتسم عندما رآه، حاول أبوه أن يرد الابتسامة بالحماسة نفسها والصدق، لكن ثمة ألم في القلب لم يدعها تكتمل فظهر على محياه شبه ابتسامة أو ربما ظلها، وضع يده على كتفه، مسك كف أبيه، أوماً له الأب بالجلوس وجلس الولد أمام أبيه، بدا الأب كمن يريد أن يخبر بالحقيقة أو يوضح شيئاً مبهماً، قال له وهو ينظر محدقاً بعينه بشكل مباشر:

آسر بني، أنت غداً ستترك بلدك وأسرترك مرغماً، لا أحد يختار الغربة في النهاية، إنما يقهر عليها عندما يكون الخياران أحلاهما مر، لذلك أنا هنا لأطلب منك الطلب الأخير قبل أن تسافر. قال آسر: أوامرني يا أبي.

قال الأب: أريدك أن تحافظ على نفسك في ذاك البلد الغريب عنك ربما بكثير من الأشياء أو في كل شيء، أريدك أن تتمسك بمبادئك وقيمك التي تربيت عليها مهما حصل ومهما جارت عليك الأيام. بني كن مثلاً يحتذى به ولا تكن عبدة لمن اعتبر، عكس الصورة الجميلة لبلدك ولأهلك ودينك. أنت ستكون في بلد أكثر أماناً وأكثر رفاهية وحضارة، لكن اسمك سيكون غريباً، والغريب دائماً مدقق عليه، عكس الصورة الجيدة لك كإنسان عربي وكإنسان مسلم، أنعي معنى أن تكون مسلماً في وقت يشوه فيه الإسلام ليظهر عكس حقيقته وليظهر دين عنف وهو دين سلام!

هذا يعني أن مسؤوليتك مضاعفة عشرات المرات لتظهر المعنى الحقيقي الصادق الذي يرتبط بالسلام ويدحض الإرهاب التهمة السمجة التي يلصقونها به، دع من يراك يعرف معنى أن تكون مسلماً حقيقياً راقياً مسالماً وأخلاقياً ذا أمانة وصدق كما النبي عليه الصلاة والسلام، أليس هو من قال: "أقرِّبُكم مِنِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنُكم أخلاقاً" أليس هو من لقب بالصادق الأمين؟

مللنا وسئمنا بني من فكرة أن ينظر إليك سلباً وشزراً فقط لأنك مسلم، صارت اليوم المسؤولية على عاتق كل مسلم أكبر، ليظهر دينه الحقيقي الذي هو دين محبة وسلام وعمل، ولا يجعل من شخص متطرف أو متعصب يمحي أو يشوه هذا المعنى بجهله وحقاقته وتعصبه.. تنهد

وصمت لثوان .

اجعلنا دائماً نفتخر بك، نهض من مكانه الذي يقابله واقترب منه أكثر، وضع يده على كتفه، وقال: إنه دراستك، لن أوصيك بدراستك لأنني أعلم جيداً مقدار حبك للعلم، مقدار طموحك الكبير، ولأنني أعلم أردت لك السفر لتحظى بفرصة أفضل تناسب ما تطمح له، وتجعلك تسير في طريق تنسجم معه ومع ما يقدمه لك.

بني طريق المعرفة أهم وأعظم الطرق في الحياه وأثرها، وخاصة إذا سخرت هذه المعرفة لنفع النفس والناس، والارتقاء بالمجتمع، صدقني هكذا بُنى الحضارات، انظر لليابان هذا البلد الذي أسس حضارة عظمى بناها بالعلم بعد حرب قاسية عاشها اليابانيون، العلم والأخلاق إذا اجتمعوا يحققون المعجزات، حتى ألمانيا البلد التي أنت ذاهب لها الآن عاشت حرب طاحنة وقامت بأعجوبة، نحن أمة ينقصنا الوعي والعمل بصدق لندرك جوهره ما نحمل بدل أن نرخص من أنفسنا هكذا.

حقق حلمك... ثم عد، نحن والبلد نحتاجك ونتظرك، استودعك عند الرحمن الرحيم، ثم التفت مقاوماً عبرته وخرج من الغرفة.

كلماته ما زالت تصدح برأس أسر الذي شعر بأن على كاهله حمل ثقيل، وآمن بأنه سيكون قادراً على ذاك الحمل، سيقدم ما يستطيع دائماً من هذه اللحظة إلى اللحظة التي سيعود ويقف أمام أبيه مجدداً. يا إلهي، أعني أن أكون على قدر المسؤولية وألا أسقط ولا أهزم، وإن سقطت اجعلني أقوم مجدداً وأتابع المسير، كن رفيقي في السفر، وسندي في هذا الطريق. نام بعمق بعد تعب شديد.

كعادتها الأيام تمضي رغم الغربة، ورغم الفقد، ورغم لوعة الاشتياق، ولا تنتظر (هذا الحزن لن يدوم، غول الخوف القبيح لن يعبر محيط الزمن تجاهنا، سيغرق، وسيضيع، أرواحنا المنهكة سترتاح، وقلوبنا المتفحمة ستشفى، وسيولد لنا قلب جديد.. لله ما نحن فيه من تعب، ومن خوف، ومن حرمان، ومن تشرد، ومن لجوء، ومن حرب)

آسر

قليلًا من السكينة

(ندين)

كيف ستمنح روحك قليلًا من السكينة في هذا العالم المجنون، ما السبيل؟

السكينة كانت عندما كنت طفلة في السابعة من عمري، أستيقظ باكراً بعد نوم عميق لمدة عشر ساعات متواصلة، أجهز نفسي مع أمي ثم أذهب لمدرستي القريبة من المنزل، أنصرف بعد نهاية ساعات الدوام المدرسي، أستمتع بطريق العودة حين أشاهد الأطفال ينبعون من كل حذب وصوب في وقت انصراف الطلاب من المدارس كأنهم طيور كانت مقيدة وفُكَّ قيدهم للتو، يركضون مسرعين نحو منازلهم لتلتفت العائلة بدفء على وجبة الغداء، كنت مثلهم أطيّر إلى المنزل بسرعة، تفتح لي أمي الباب فألج مسرعة وأشم رائحة حساء شهوي أو حتى طبخة لذيذة، كنا نأكل طعام الغداء ثم ألعب قليلاً مع أسر، وأستلقي بعدها لأشاهد مسلسل الكرتوني العظيم.

كانت أكبر مخاوفي وأنا في السابعة أن أفقد أمي وأبي أو أخي أسر، أخاف أيضاً من الضياع، أن أتوه عن المنزل، أو تنساني أمي في أحد الأماكن التجارية وهي تتسوق، المهم، كانت مخاوفي طفولية، قليلة، محدودة وغير ممتدة ولا مؤثرة، فغالبًا كان شعوري الاطمئنان، لكن حدث أمر غريب، بدأ يسرق هذا الاطمئنان. صار حدث جلل في المدرسة التي أدرس فيها زعرعها، كنت في العاشرة حينئذ، زعزعني أيضاً يومها وأضفته للائحة المخاوف الفطرية، تحرش المستخدم ذو الأربعين عاماً تقريباً بطفلة في الصف السادس، تبلغ الحادية عشر.

تجمعت ثلاث فتيات وأنا الرابعة بينهم يتهامسن، كانت الأولى فتاة جريئة جداً بالنسبة لفتاة تبلغ العاشرة، كأنها امرأة صغيرة، تتحدث عن النساء والزيارة الاجتماعية وعلاقة أمها بخالتها وكرهها لعماتها، وزوجات عمها لأنهم يغارون منها ويحسدونها كما تظن دائماً، تحكي عن وقوعها بالحب وأن ذاك الطالب الطويل ذو البشرة السمراء يحبها وغيره ينظر إليها، تحكي أيضاً حديثاً لم نفهمه جيداً اسمه الدورة الشهرية عند النساء، المهم أن أحاديثها كلها تدعو لاهمرار الوجنتين، والشعور بالدهشة والخلج بالنسبة لنا، المعلمات لم يحببنا، اعتقدوا أنها جريئة فوق اللزوم،

وعاقبتها كثيراً عندما سربت إحداهن إليهن فئات أحاديثها، ذات وقت طلبوا أهلها للقдом للمدرسة ليكونوا على علم بما يحدث مع فتاتهن تلك، لم يأت أحد في المرة الأولى، ثم جاءت أمها في المرة الثانية، وعندما علمت بما يحدث وبخت المعلمة وقالت إن ابنتها مؤدبة أكثر من الأدب نفسه ولا يعقل أن تنفوه بتلك القصص، ثم انصرفت مسرعة للقاء جاراتها ثم أخواتها، ليتحدثوا أمام بناتهم الأحاديث ذاتها التي كانت ترويها ابنتها، وبالتالي يقلدن ويتحدثن بما يشاهدن سواء أحاديث تافهة أو ممارسات قيمة، هذه الطبيعة البشرية، الميل لتقليد ما نشاهد من الإنسان الأول الذي كان يقلد رئيس القبيلة دون أن يعي! هكذا بفطرته، إلى أشخاص تصبح تشبههم بلا وعي لأنك تحاطهم ويؤثرون بك، خاصة بما يتعلق بالأبوة والأمومة.

كانت الفتاة الثانية فتاة هادئة زيادة عن اللزوم ومنقادة تسير مع الجميع، والثالثة مجتهدة لدرجة تجعلك تشعر وكأنك تقف أمام عالمة صغيرة، والرابعة فتاة عادية بسيطة لا شيء خاص يميزها سوى خجل قليل أحياناً، كانت هذه الفتاة أنا؟!

هكذا حدث لا يتكلم فيه إلا من يجرو، لذا اقتربت الفتاة الأولى وهمست تعالين اقتربن، وفعلاً اقتربنا أكثر وكلنا أذان صاغية بل تحولنا لأذان حقيقية تنبض نبضاً قوياً من الخوف.

قالت: يجب علينا الانتباه يا فتيات من الآن وصاعداً، إياكن أن تقتربين من غرفة المستخدم وزوجته، حتى لو اضطررنا لشراء حاجة ما أو مثلاً أردنا السؤال عن شيء ما لا نقرب منه، الموضوع مخيف جداً!

مضى الأسبوع الأول بعد الحادثة بقلق بالغ يبدو على بعض الفتيات، فيما يبدو أقل على فتيات أخريات، المستخدم أنكر تماماً، والفتاة اختفت فجأة، ربما نقلت لمدرسة أخرى بعدما بدا عليها شحوب وذبول واضح، انطوى الأمر كما تنطوي آلام كثيرة دون أن يعلم بها أحد، ربما كانوا أهلها لا يجرون، أو يخافون، أو حتى لا يقبلون من الأساس أن تدخل فتاتهم بتلك المعمة؛ لأن الناس سيتحدثون، والفتاة ستصاب بعقدة نفسية رهيبة، على أساس أنها لم تصب بها منذ البداية، وهم بغنى عن تلك المعمة، فقط ذاك الحيوان البشري إن كان فعلها حقاً لن يختلف عليه شيء؟!

بدأت أشعر حينها أن الأمر يبدو معقداً جداً، كذبوا علينا!

الدنيا حلوة والناس جميعهم لطفاء، هذا غير حقيقي، ثمة أناس أشرار جداً مثل الوحوش الذين يظهرون بأفلام الكرتون، بل هم أبشع وأقبح، وثمة أيام في هذه الدنيا لا تكون فيها حلوة، بل مرة كالعلقم، لا شك أن هذا بفعل أولئك الوحوش، ورفقائهم؟!

بعد هذا الحدث الذي انتشر فجأة وكنتم فجأة، وخاصة بعدما صرن الفتيات اللواتي أنتجن من أمهات ثرثارات يضخمن الأمر وينشرن الذعر، ويتكلمن عن قصص غريبة قد تصيب الفتيات تحديداً مثل السرقة والخطف والاعتصاب وبيع الأعضاء، بدأت أشعر بالخطر يهددي؛ أولاً لأن الحياة خطيرة وهذه حقيقة عرفتھا من جديد، وثانياً لأنني أنثى.

فأنا كائن مطموع به، وبذات الوقت ضعيف، لا أستطيع الدفاع عن نفسي. أمي بدا لها التغير الذي طرأ على شخصيتي، بدوت أكثر خوفاً وذعراً وأقل مرونة، كنت أطرح أسئلة لم أكن أنطرق لها من قبل، أمي كانت تحاول أن تحتويني، لكن ربما شعرت أنها تغيرات طبيعية لفتاة مثلي اقتربت من الربع الثاني عشر من عمرها، أخفيت عليها القصة التي حدثت منذ عامين في مدرستي، أخفيت عليها حلمي أو كابوسي، عندما رأيت المستخدم يجهز المشواة ليشويني بعدما خطف أسر وشواه، يا لها من فكرة مضحكة الآن! أخفيت دموعي قبل النوم من مخاوف طفولية ومجنونة! أخفيت عليها خوفي الدائم عند خروجي من المنزل من أن أتعرض للسرقة أو التحرش أو الاعتصاب أو حتى القتل أو بيع الأعضاء.

كنت أسير بالشارع بخوف وحذر، لم أر أحداً يقويني كفتاة صغيرة وجيلة ولطيفة كما يدعون، لا أمي ولا أبي ولا جدتي ولا جدي ولا عمي أو عمتي ولا خالي أو خالتي، كلهم كانوا يخافون علي ويحذرون من ضرر قد يمسني، لا أدري لماذا، ربما بسبب ما عرفت مؤخراً عن الحياة، أمي لم أعد أطلعها كما السابق على ما يحدث لي وما أشعر به بالتفاصيل، خاصة مخاوفي الجديدة، ربما لأنني شعرت أنها ستخاف مثلي أو ربما خفت منها ومن ردة فعلها.

تبددت مشاعر السكينة بداخلي مثلما تتبدد غيمة بيضاء كبيرة في بحر السماء، بدأت أكبر، جسمي تغير، بدوت ممتلئة أكثر، واكتشفت مشاعر وأحاسيس وتجارب جديدة في عالم بدا مختلفاً جداً عما كان عليه وأنا طفلة، أنا والحياة تغيرنا معاً، كبرنا معاً، واختلف كل شيء وأول هذه

الاختلافات بات بعطش دائم لشيء ما أحججه ولا أدري ما هو، ربما ذاك الحال من الاستقرار والهدوء والسكينة الذي كان يلفني وأنا طفلة في التاسعة، ربما حاجة ملحة لسلام داخلي كبير، لطالما ألمني شيء بداخلي وعكر مزاجي لسبب غير واضح لكن قد يكون عميقاً، لطالما استعرت قلبني نار لم أعرف كيف أخمدتها، مخاوف متراكمة ومشاعر قلقة مبعثرة لطفلة ما أجادت التعبير عن نفسها، أو طلب المساعدة من أقرب الناس.

في مراهقتي تعقدت الأمور أكثر، فأنا الآن أتأرجح بين عالم الطفولة وعالم النساء، نعم عالم النساء القائم على التفحص والنظرات والقياسات واللغو والانتقادات وأحاديث خاصة كثيرة جداً لا يجب أن يسمعها الرجال، عالم الأحكام المطلقة، والصباحات الزاخة والسهرات الطويلة، بحديث المرأة عن المرأة غالباً، وعن الرجل وعن الأطفال وعن الحمل وعن الولادة وعذاباتها واستمتاعها والأمومة وأحاديث ومواضيع لا تنتهي.

وكم تكون المهزلة كبيرة عندما تكونين أنت المادة لحدثهن ولأحكامهن ولانتقاداتهن التي تغمر أصغر تفصيل، كنت أنظر لشكل جسمي في المرأة هل ياترى مناسب بنظرهن، أم أنني ممتلئة في هذه المنطقة أكثر من اللازم؟ وجهي كأنه غير متورد مثل تلك الفتاة التي مدحتها صديقة أُمِّي البارحة، وقالت: ما بال ندين وجهها شاحب اليوم، ابنة أخي بعمرها رأيته منذ يومين وجهها كأنه وردة متفتحة من نصارته، فئاتك هذه لا بد من أنها لا تأكل جيداً وتسهر. أنظر إلى أنفي كأنه كبر فجأة ليتنه كان أصغر، شفتي ليتهم ممتلئتين أكثر، ما هذا الشعر على يدي، لم أحبه مطلقاً، ستعلمني أُمِّي كيف أنتزع به تلك المادة المؤلمة، المهم أن أبدو مثالية وجميلة ورائعة؛ لكي يعجب بي ويحبني كل من يراني، أقربائي وصديقات أُمِّي وصديقاتي أيضاً.

نعم صديقاتي اللواتي بت أفضل بالتواصل معهن مؤخراً، أحاديث المراهقات وحماسنهن واهتماماتهن، ومغامراتهن، كلها كانت بعيدة عني كل البعد، أستمع وأشعر بالحنج تارة وبالإثارة تارة، وبالامبالاة تارة وبالنقص تارة أخرى!

أعود بالنهاية لدفاتري المزينة بالورود وأفلامي الملونة، وكتبي التي ابتاعتهم لي أُمِّي من المكتبة وأغوص بهم بحب كبير يغنييني عن كل الحكايا، ويكفييني عن كل الصداقات، هنا أجد

ذاتي وأعبر عنها بصدق من خلال قلمي ودفاتري وكتبي، كنت أبدو أنني مغرورة، لكن غالبًا هذا الانطباع يزول بعد فترة لتخبرني إحدى صديقاتي بأني عكس ما أبدو عليه، قاعدة مؤخرًا تكونت في ذهني دونها على دفاتري، ليست الأشياء كما تبدو عليه.

مرة فوجئت بالحنان الذي ظهر من تلك المرأة التي لطالما بدت قاسية، وعندما سمعت صوت الجارة التي تبدو مهذبة وأخلاقية كيف تشتم وهي غاضبة، ورأيت رجلًا غنيًا جدًا لكن روحه فقيرة رغم كل ما يملك، أدركت أن المظاهر خداعة، وكلنا متقلبون، والذين يوهونا بالمثالية هم في الحقيقة مزيفون!

أصابني خيبة أمل كبيرة جدًا بالعالم الذي لا يحب الإصلاح بل ويسعى للفساد والكذب.. على سيرة الكذب، أُمي كذبت عليَّ عندما قالت الصدق قيمة عظيمة يجب على الكل أن يكونوا صادقين، لا أحد يكذب يا فتاتي الحلوة، هل يعقل على الإنسان أن يكذب، هل يتجرأ؟ لكن رأيت صديقتي تكذب على أمها أمامي، والجارة تكذب على زوجها أمامي، وسائق التاكسي يكذب، والأب يكذب، حتى الأستاذ في الجامعة يكذب.. لماذا الناس يكذبون؛ لأنهم ببساطة يخافون، كلنا نخاف من أنفسنا، ومن الآخر، الصدق يعني الحقيقة، ويعني البياض، والحقيقة لا تناسب الجميع على ما يبدو، مرة قالت لي صديقتي: أنت غبية، لماذا! لأنني قلت الحقيقة، وأدخلتني بمشكلة كنت غنية عنها!

أيا ترى أنا الغبية أم الناس، أنا الخطأ أم المجتمع، ربما كل ما تعلمته عن الحياة على يد أُمي وأبي لا يجدي نفعًا، كله غير واقعي ومثالي جدًا، لذا غير موجود، بدأت الهوة بيني وبين الناس تكبر وبدأت أغرق في ذاتي أكثر، كنت أنا وذاتي مثل القاضي والجلاد، دائمًا أجلدها وأنتقدها وأطلب منها الكمال فتتقاعس أكثر عن العمل، أؤجل مهامني وواجباتي، أهرب من ذاتي إلى صديقاتي وقريباتي وأغرق في الغربة أكثر، لا شيء ينسجم معي، لا شيء يهدئ من روعي، لا شيء يمنحني الثقة لأكون أفضل كما أنا، لا شيء يرضيني.. أصبحت عصبية لأنفاس الأسباب، ربما لأسباب وهواجس كثيرة بداخلي، لا أحد يفعل بفعل الصدفة؟!

نعم كثيرة حولي أراها تحصيل حاصل، أريد شيئًا مفقودًا لا أعرف ما هو، وبذات الوقت

أخاف، أخاف من أن أبدو غير جيدة أمام الآخر خاصة أمي وأبي، أخاف أن ينتقدني الناس، أخاف أن أفشل، أخاف أن أفقد عزيزاً عليّ، تبددت السكينة بداخلي ليحل الخوف، وتحاربه حاجة كبيرة ليزول، حاجة تقاومه، وتنبذه، وتكرهه، وتحفیه، ولا تعرف كيف تقبله.

عالمي الداخلي كان يشبه بحرًا هائجًا، يشبه شخصًا غريبًا نائهاً، يشبه وردة مقتربة من الذبول لكنها تقاوم، عالمي الداخلي كان يشبه مدينة قاحلة تحتاج لمطر غزير يعيد إحيائها من جديد رغم أنني كنت أبدو عادية جدًا من الخارج ومبتسمة أحياناً كثيرة، لكن دائماً كان عقلي لا يهدأ.

مضت السنوات وبدأت أعد من الشباب، لم أعد صغيرة أو فتاة مراهقة و متمردة لا شيء يعجبها، كنت أعتقد نفسي الآن بعد نجاحي في السنة الثانوية الثالثة ودخولي للجامعة بمعدل جيد جداً وتسجيلي بقسم أحبه ربما حفيذة أفلاطون أو آينشتاين، المهم أنني ذكية وخارقة وأعرف الكثير، دائماً أتابع أغلب الأحاديث التي أسمعها بأني أعرف مع هزة برأسي تدل على العبقرية.

كنت في بداية السنة الجامعية الأولى بدأت برأس مرفوع وثقة كبيرة وعلاقات صداقة هنا وهناك رغم أنها سطحية، ونظرات إعجاب من هذا وذاك، خاطبين كثر وأحاديث بدأت تقتحم حياتي عن الارتباط والزواج، وعالم مزدحم بالدراسة والمواعيد الاجتماعية والعائلية والهروب الجيد من الذات، لا وقت لذلك العالم الداخلي لا وقت للتحليل والتفكير والتأمل في شعور فطيع بالحماس وكأني سأقتلع شجرة، وشعور معاكس بالانطفاء وكأني حشرة ميتة مرمية على طرف الطريق، لا وقت لفهم كل هذه المبالغة في الفرح والحزن، لا وقت لفهم المبالغة في التعلق أو التخلي، أو لتفسير اللاتوازن، لا وقت للصديق القديم الوفي جداً (الخوف) الذي يقف جانبي ويلعب بعقلي كيفما يجب ووقتها يجب، لا وقت لتفسير هذا الخواء الروحي رغم أنني أقيم عباداتي أحياناً كيفما يكن.

لا وقت للبحث في عالم كبير واسع المدى هو عالمي الحقيقي، فأننا الآن كبيرة وناضجة وجميلة ومرغوبة وأفضل من الكثيرين وأستحق كل شيء جميل، وأنا مستقلة على فراشي صباحاً متدمرة من الاستيقاظ باكراً، لا وقت لديّ لعالمي الحقيقي، مشغولة، مشغولة جداً في عالمي المزيف الذي ابتلعني، ابتلعني جيداً.

عندما بدأت الحرب، كنت فتاة تبلغ التاسعة عشر ربيعاً ونصف، بعد ستة أشهر سأحتفل بعيد ميلادي العشرين، وقتها أمسى في داخلي وحش مضطرب يجوع ولا شيء قادر على إشباعه، يغضب ولا شيء قادر على تهدئته.. الألم تضخم أكثر ودواؤه ضائع، وبعد كل ما رأيت وذهلت به، النار اشتعلت بداخلي لدرجة كادت أن تلتهمني، فبت جثة من خوف، روح من قلق، ذات من اضطراب، ولا أحد هنا غيري يستطيع مساعدتي!

ذات يوم وقفت في وجهي وصرخت ندين استيقظي، مسكت بيدي كفتي وهزتهم بعنف وصرخت بعالم ذاتي صرخة تردد صداها في أذني، ما هذه أنت، ما هذه حقيقتك؟! في عاداتنا وإراثنا التاريخي والعائلي والديني إذا رغبت شيئاً بشدة نطلبه من الله، وما نطلبه من الله يجاب، إن كان خيراً لنا، أو يؤجل لأن في تأجيله خير أيضاً، أو قد يكون طلبنا بوجهة نظرنا الضيقة جيد لكنه سيء لنا فيترك الله طلبنا ويعوضنا بشيء أجمل مما نعتقد، المهم، أنه يسمعنا ويشعر بنا أكثر من أي أحد آخر، هكذا أو من.

طلبت من الله... الأمان والسكينة والسلام لروحي في خضم الحرب، كنت أترنح كطائر جريح لا أريد شيئاً سوى الأمان وقليلًا من السكينة لأكون أسعد مخلوق على الأرض، أرى كل من يعيش بأمان ويستيقظ بأمان وينام بأمان ويحلم بأمان أنه أسعد مخلوق، وكل همومه ترهات يتوهمها من فرط أمانه، أقول في الصباح يا رب أعد الأمان، أقول وأنا أسمع صوت اشتباكات قريبة يا رب أعد الأمان، أقول وأنا محتبة في الممر الداخلي للبيت كالجرذ الخائف المضطرب الشبه ميت بسبب قذيفة نزلت قريب من المبنى وبحق يا رب، يا رب.. أعد الأمان. أطلب من الله الأمان... والسكينة... والاطمئنان... المعادلة الثمينة للحياة الحقيقية التي سرقها الحرب كما كنت أظن؟!

لا شك بأن الحياة بالخوف كارثة حقيقية قد لا تتمناها لعدوك، ولا شك أن الأمان نعمة كبيرة رائعة باهظة الثمن، لكن أتكفي أن تكون آمناً لكي تمتلك السلام وتحيا به، أوليست السكينة والسلام ابنتا السعادة؟!

صوت خبيث بداخلي كان يهمس بأذني ويقترب مسافة زائدة عن اللزوم مني لدرجة أشعر

بحشريته وثقله عليّ، إنه صوت الحقيقة، لا أحد يجبه، وثقيل على الجميع، من ضمنهم أنا. كان يهمس بأذني (كنت آمنة لما لم تملك لي السلام وقتها، لما لم تكوني ممتنة وسعيدة؟!) أخذ نفسي من يدها أجلسها على كرسي أمامي كالمتهم والمحقق، بيد أن هذا المحقق يعتمره الغضب والحنق على هذا المتهم، وبصوت عال يشبه الصراخ أصرخ في وجهة ذاتي، أجيبني على هذا السؤال، هيا؟ تبكي ذاتي، تنكمش على نفسها وتأخذ وقتاً طويلاً، طويلاً جداً، تفكر وتذكر وتحلل ثم تطلب مني أن أمنحها الوقت؛ لتعرف ماذا تجيب أو بالأحرى لتبحث عن الإجابة.

أقدار كثيرة توجد في الحياة لتقدم لك مغزى ما ومعنى جديداً ودرساً مختلفاً، ليس عليك سوى أن تعي وتدرك وتفهم. بيت القصيد أن الإنسان الطبيعي يمر بمراحل متعددة لا بد منها، وكل مرحلة تنطوي على حالة وعي واتزان معين مع نفسه ومع رؤيته للعالم. وأنا جاءت مرحلة بحثي عن ذاتي واكتشاف عالمي الداخلي بوجود الحرب.

قرأت مرة أن نسب الانتحار مرتفعة في دول تدهشك بتقدمها وحضارتها وأمنها، دهشت انداهشاً كبيراً؛ لأنني شاهدت التقدم العلمي والحضاري فيها، ما الذي يجعل الناس تنتحر في دولة عظيمة كالإيمان مثلاً، التي أبي معجب بحضارتها لدرجة كبيرة، جعلته يحدثنا عنها دائماً ليزرع فينا الأمل؟! وما الذي يجعل الناس تقاوم لتحيا في بلاد كسوريا والعراق ولبنان وفلسطين واليمن وليبيا، فقط شيء واحد (الإيمان) ما الذي يجعل قيمة للحياة؟ ما الذي يدفعك كل يوم لتنهض من فراشك وتكرر اليوم السابق بحذافيره دون ملل أو كلل؟ ما الذي يجعلك تقاوم رغم الخيبة ورغم الصدمات والألم؟ ما الذي يدفعك للاستمرار دائماً، وأخيراً رغم كل شيء؟ إنه الإيمان.. الإيمان بفكرة ربا، أو معنى، أو قضية، أو الإيمان بالذات أنها تستطيع، أو أنه في الحقيقة الإيمان بالله القدير جل علاه.

أنا كندين، ما الذي يدفعني للاستمرار في هذا الجحيم من الفوضى والخوف؟ لما كنت غيبة فوق العادة واخترت البقاء وسط الحرب رغم أن الفرصة وانتني لأنجو مثل أخي أسر، ريثما الأمور تهدأ وتمنحنا يد الله بعض السلام؟ كنت مؤمنة بثلاث قضايا مهمة جداً:

القضية الأولى: مؤمنة بفكرة أن الله لم يخلقني ليعذبني، وجودي قائم على الحب وليس

العذاب، وإن كان ثمة عذاب فهو من نفسي حتماً وليس من الله.

القضية الثانية: عمري واحد وموتي واحد، تجربة الولادة عشتها مرة واحدة حين ولجت إلى هذا العالم الكبير من رحم أمي، وموتي واحد حين سألج إلى عالم جديد بعد تجربة حياتية أنا مسؤولة عنها تماماً، ومثلما لولادتي كان وقت محدد لم يثنه شيء، كذلك موتي له موعد محدد، سواء كنت هنا أو هربت سيدركني سواء في قلب الأمن أو خضم الحرب.

القضية الثالثة: الوطن يستحق ألا يترك عند أول محنة، الوطن يستحق المحاولة مجدداً.

ما معنى الوطن بعيداً عن دروس القومية؟

الوطن: البيت، والأم والأب، والأخوة، والمدرسة، وبيت الجد والجدّة، واجتماعات العائلة والأصدقاء، والعمل الذي تحبه وتنتفع به وتنفع..

الناس متشابهون بلامح ولون ولغة ولهجة مشتركة، ودم مشترك، والأرض المشتركة، والبقعة الجغرافية التي تتحملك وتحملك، وتعايشها وتعيش بها وتعيش لك بكل حالاتك وحالاتها، والتراب الذي يحتاجك وأنت تحتاجه، المكان الذي يشعرك بالقبول والثقة والأمان.

وأنا اليوم اخترت البقاء بوطني رغم ضعفي لأقوى به وأقويه، ولست أفضل من اللذين اختاروا الهروب من الحرب مضطرين.. لا أحد يتمنى أن يترك وطنه، وإنما كل أحد يعيش خياره الذي هو قادر على دفع ثمنه، وفي النهاية هدفنا كلنا وطن ينعم بالاستقرار والأمان والسلام لنكون على أرضه أحياء لا أشباه أموات.

في عمقي... ربما تمّن ساذج... أو ربما وهم لفتاة عاطفية بدت مضطربة... لكنه موجود رغم كل هذا العبث والقتل والخوف والفوضى والفساد، سيعود السلام.

سترم الجروح، سترأ الأرض، وسينفض الوطن وسيفنى. نحن لسنا أولاد حروب... نحن أولاد السلام. رغم ذلك كانت الحرب مستمرة وأطراف القتال لا يملون، الخوف كسا المدينة والأسى تغلغل بسكانها، واقع متردّد على كافة الأصعدة، كنت وقتها مكتئبة ويائسة بكل ما تنطوي عليه تلك الكلمات.

في تلك الفترة، أمني لم تعد تحتمل، وضعها الصحي ساء كثيراً وكأن جسدها أبى إلا أن يترجم تلك الآلام التي مرت بها، أصابها انهيار أودى بها للمشفى، ونحن كنا عاجزين، نريدها بخير، بخير فقط، أبي أخبرها بأن تسافر هي أيضاً فالطبيب أوصى بذلك، نفسيته بحاجة ماسة للابتعاد، بعيداً عن أماكن الإضطراب والقلق.

وكان حيث يقيم أسر مكان ملائم لها ففيه ابنها وأخوها، جهز أبي سفرها بسرعة وكأنه حلم، سافرت هي ويزن على مضض، إما أن نلحق بهم، أو يعودوا هم ريثما تتحسن الأوضاع. أنا لسبب ما بقيت مع أبي، لم أشأ أن يترك وحيداً، وهو أيضاً لم يشأ أن يترك والداه؟! صرنا كعائلة نصفان كل أحد منا على جانب من هذا الكوكب. مضت الأيام بعد سفرهم بوتيرة بطيئة، كنا نعيش مراقبين للأوضاع، وكأننا خارج المكان والزمان، نريد أن يستقر الوضع فيعودوا، وتصبح تلك الأحداث من الماضي، وأمني تريدنا أن نخرج من تلك البلاد بأقرب وقت ونأتي إليهم، معادلة متناقضة؟

يرن الهاتف.. صوت جدي، أهلاً جدي كيف حالك؟

بخير جيبتي وأنتِ؟

أجيها: الحمد لله، أنهى دراستي وأتي إليك.

أجابت: أنتظر، جديك جلب لك الحلوى التي تحبينها، لا تتأخري..

جدي وجدي الذين نسكن معهم في المبنى نفسه، كأنهم لا يخافون لا يقلقون، أو ربما بعدما مروا بتجارب كثيرة دعكتهم جيداً في هذه الحياة أصبحوا لا يبالون، وربما أنا أبالغ في قلقي وأجعل مخاوفي تسيطر علي، بكل الأحوال وجودهم له فضل كبير بشعوري ببعض الاطمئنان، أبي لم يستطع أن يتركهم فجأة ويسافر رغم وجود عمي وعمتي، لكن ثمة رابط كبير بينه وبين أمه وأبيه ليس من السهل التخلي عنه بهذه البساطة، سافر عمي الكبير في العام الماضي وبقي عمي المتوسط وأبي الابن الصغير، وعمتي أصغر الأخوة ومدللتهن هديل.

جدي وعمتي يحبون أمني وتحبهم، لكن في الحرب، شيء غريب جعل أمني تتغير وجعلهم لا

يقبلون هذا التغيير، كانوا يريدون منها أن تكون أكثر صبراً ومرونة وتوازناً، لكن أمي لم تستطع. أحياناً يتحدثون عنها أمامي ويلقون باللوم عليها فأشعر بالانزعاج، لكن أخجل أن أجادلهم كثيراً، أقول جملة أو اثنتين أدافع بها عن أمي وحققها بأن تختار الأمان، ثم أرى عدم جدوى كلامي بالنسبة لهم فأصمت، لا أخبر أمي أحياناً لكي لا أزيد الطين بلة، وأحياناً أرمي الطين والبلل وأحدثها بكل شيء في لحظة غضب، ربما لأنني لا أجد أحد يهتمني في أسوأ حالاتي مثلها، حتى وإن كان غضبي من نفسي أو منها ربما.

اشتقت لها بعد فترة وجيزة من سفرها، اشتقت لأسر ومشاجراتنا التافهة على كل شيء، اشتقت ليزن وحر كاته البريئة، اشتقت لالتفافنا مساء حول الطعام وأحاديثنا التي لا تنتهي، اشتقت للنوم العميق، اشتقت لمدينتي قبل الحرب، اشتقت لحمام طويل بهاء ساخن غزير غير مقنن، والنوم بدفء وعمق، اشتقت لكل شيء قبل أن تنقلب حياتنا رأساً على عقب.

في صبيحة اليوم التالي

بعدما نهضت واحتسيت قهوتي وأنهيت أعمالي في المنزل، أحضرت كرسيًا وجلست على طرفه وبحماسة رفعت ساعة الهاتف الأرضي، ضغطت الأزرار أنتظر صوت الرنين، بعد ثلاث رنات ألو، هل يمكنني التحدث مع الآنسة بسمه؟

ثواني، ثم يظهر صوتها، ألو من معي؟

بخجل وارتباك آنسة بسمه، أنا ندين.

- أهلاً وسهلاً بالغالية ابنة الغالية ندين، كيف حالك؟ ما أخبارك؟

- الحمد لله بخير.

- ما أخبار الدراسة؟

- لا بأس أحاول جهدي بهذه الظروف الصعبة.

- كيف حال والدتك وأخوتك، ما زالوا مسافرين؟

- الحمد لله بخير، نعم ما زالوا مسافرين.

- وأنت وأبيك، ما زلت مخططين للسفر لعندهم؟

- أيضاً نعم، يعني ربا، لا ندرى بعد بصرحة.

- أرجو من الله أن يرشدكم للخير.

- آمين شكراً خالة.

بسمة كانت آنستي في المرحلة الثانوية، وأصبحت صديقة لأمي، لذلك غالباً ما يبدأ حديثي معها بآنسة، ثم الألفة تدفعني لأقول لها خالة وكأنها أخت أمي فعلاً، في تلك الأيام، قفزت في تفكيري فجأة فكرة التواصل معها ورؤيتها ربا لأنها مرتبطة بذهني بالمرشدة، وكنت بحاجة لمن يرشدني، وهي فعلاً كانت مرشدة تربوية في مدرستي، لكنها لوعيتها وخبرتها الكبيرة في الحياة، صارت مرشدتي في الحياة عموماً.

كم كنت أرتاح لفكرها وأخلاقها وأثرها الجميل أينما حلت، أمثالها نادرون في هذه الحياة.

بعد حديث بيني وبينها عن الوضع العام دام ست أو سبع دقائق على الهاتف لاحظت من خلاله أنني لست على ما يرام، نسقنا لقاء بيننا في اليوم التالي، فأنا اتصلت لهذا الغرض، كنت بأمس الحاجة لكي ألتقي بها، حيث إنني بعد سفر أسر ثم لحاق أمي ويزن به وزواج حنين، شعرت بفراغ كبير في روحي وأيضاً حياتي رغم التواصل الدائم معهم، كانت تمر عليّ أوقات أجد نفسي نادمة لأنني فعلت الأفاعيل لكي لا أسافر خارج البلد وصممتُ على هذا، وأقنعت أمي بعد محاولات عقيمة أجدت نفعاً أخيراً أن أبقى مع أبي.

هذا الفراغ الذي أوجده غياب من أحب عن ناظري كان أثره قاسي عليّ بشدة؛ لأنه صادف اشتعال المعارك، فبت أحارب الغياب والحرب معاً، الغياب كنت أدأويه بكثرة التواصل معهم، وبالمقابل أمي كانت لا تدع فرصة إلا وتكلمني فيها، لكن أنا كنت أحتاج لوجودها جسداً وروحاً أمامي، وحين بعد زواجها انشغلت وابتعدت، وأنا أيضاً انشغلت وابتعدت بفعل

الظروف والحياة.

الجميل بعد فترة من الغياب، تتعلم كيف تكفي بذاتك وتصادقها وتفرغ لها، لكن الحرب لم أجد لها دواء، وخوفي الدائم لم يعرف الشفاء، لذا هربت من نفسي وهرولت للحديث مع الحالة بسمه التي كنت دائماً أذكرها عند حاجتي لفهم شيء ما غامض عن الحياة!

عاد أبي مساءً، وأمضينا أمسية لطيفة مع جدِّي.

في ظهيرة اليوم التالي، سرت في الشارع بحماس ووجل باتجاه منزل الأنسة بسمه، قطعت الشارع بعد أن التفت يميناً ويساراً عدة مرات، ما زالت فوييا قطع الشارع تحيط بي رغم أنني ما عدت طفلة، دخلت المبنى وصعدت الدرج، وصلت أمام الباب ووضعت يدي على الجرس فأظهر صوتاً غليظاً لم أكن أتوقعه أرعبني بعض الشيء خاصة أنني جاهزة لتلقي الرعب، فتحت الباب الأنسة مبتسمة.

إلقاء التحية ثقافة، فالابتسامه فن، والمصافحة فن، والقبلة فن.. البعض خبىرون بها لدرجة تشعرك بأنهم ألقوا عليك باقة ورد بسلامهم، والبعض جاهلون بها لدرجة تشعرك بأنك تصافحت مع الهواء أو ارتطمت بحجر.

المحيا الطيب والحضور المحب لامرأة في نهاية العقد الخامس من العمر تعرف كيف ومتى تبسم، وكيف ومتى تتكلم، ولا تمل من الاستماع لحديثك باهتمام صادق، أسباب كفيفة لتجعلني أحب هذه الإنسنة ولا أمل أنا أيضاً من الاستماع لها، أنا التي لا أجيد فن الاستماع جيداً، لكن مع مثل تلك الشخصيات يبدو الأمر مختلفاً، فثمة شيء يجبرك على الاستماع، لأن ما ينطق به ثري وعميق وحقيقي وملهم.

يمضي الوقت دون أن أشعر فأستأذن للرحيل وأودعها على أمل لقاء آخر. وأنا في طريق العودة أجلس في سيارة الأجرة بجانب النافذة وعقلي وقلبي مشغولين بما سمعا من كلام وإجابات على أسئلة كثيرة تحدثنا عنها معاً.

سألتها: لماذا قدرنا أن نحيا بالحرب!؟

قالت: الحرب امتحان لمن يحيا بها، مثلها مثل أي امتحان أو تحدي يمر بالمرء، لكي يرقى بذاته أو يتطهر من آثامه..

ندين صديقي لو كنت اطلعت على التاريخ لوجدت أن الحروب جزء من الحياة نفسها، عودي إلى البيت وابحثي في تاريخ البشرية وغوصي وتأملي، حروب وأوبئة وزلازل وفيضانات عايشها الإنسان واستمر، أشخاص كثر خاضوا الحروب وعاشوها، وما زالوا يخوضون معاركهم مع الحياة، وأشخاص أيضاً خاضوا الحروب وخسروا عند أول معركة وما زالوا يخسرون أمام الحياة.

- لكن ما الجدوى؟ هل خلقنا فقط لنمتحن، ولتتعذب؟ وأنا أدرك جيداً لم نخلق لهذا، لكنني كنت أريد دائماً أن أؤكد ما أؤمن به لنفسي، لتثبت في وقت يصعب به الثبات.

- نظرت إليّ بشفقة، قالت: انظري، بالنسبة إلى أننا خلقنا لتتعذب فهذا خطأ، لا أعتقد غاية وجودنا العذاب، ربما هكذا يخبرك الأنا

لكن أعتقد غاية وجودنا الحب أو الرحمة..

- ابتسم وأقول وأنا أؤمن أيضاً.

- أتعرفين يا ندين؟ بسؤالك هذا وبحالتك هذه تذكريني بنفسي، كنت مثلك لا أمل من السؤال والبحث عن المعنى وراء كل شيء، وكم هي ممتعة رحلة الفهم والبحث عن الذات والحياة..

- أتتهند.. نعم ممتعة لكنها شاقة، شاقة جداً، خاصة في خضم الحرب.

صديقي إلهنا الذي خلقنا ونحن صنعته، يعرف تماماً مدى طاقة كل واحد منا، ولا يُحمِله ما لا يطيق. أنت اختبارك اليوم أنك في بلد تستعر فيها الحرب وهذا استحقاقك حقاً، وغيرك يُختبر بالمرض، وغيرك بالفقد وغيرك بالفشل، و... إلخ.

من الغباء يا بنتي أن نعتقد أننا فقط من نعاني والبسيطة كلها تنعم بالسعادة، كل منا يعاني بقضية ما لمرحلة ما، ولمدة ما؟!!

والفالح من يثبت ويتجاوز ويفهم، ويتعلم كيف يمضي بأقل الخسائر، إما أن ترتقي أو تهوي، على حسب استجابتك وفهمك للرسائل وعملك.

تعليمي أن تقبلي بكل ما يمر وتعملي وتحسني، تعلمي أن تسلمي وتسمحي له بالمرور وتفهمي الرسالة، حينها سيمر بسلام، لا شيء يبقى للأبد، من المؤكد أنك تعرفي قاعدة "هذا الوقت سيمضي" كل شيء سيمضي حتماً. أرجوك يا ندين، لا تسيري مع القطيع الكل يشكي، الكل يتذمر، ولا أحد يبدأ بنفسه بإصلاحها لكي ينصلح الجميع، كمية السلبية والتشاؤم والسخط مخيفة في المجتمع، لا أحد يريد أن ينطق بالخير، ربما تقولي لي هذا من حقهم في واقع كهذا، نعم ربما هكذا واقع سيئ لا يجعل أحداً عمتن، لكن على الأقل لا يزيد الخراب خراباً، ماذا سيستج من السخط غير مزيد من السخط!

قلت: الخوف بات كظلي ما عاد يتركني.. ماذا أفعل له؟ كيف أهرب منه؟ لا أدري!

قالت: يبدو أن مناعتك منخفضة.

نظرت نحوها باستغراب.. لم أفهم!

تابعت.. البعض يشق النافذة قليلاً فيصاب بإنفلونزا ونزلة برد، والبعض يمشي تحت المطر ساعات ربما ولا يصيبه شيء، المناعة القوية تصنع الفارق، وهي تهز برأسها.

معك حق قلت..

وضعت يدها فوق يدي ونظرت إليّ.. شعرت بها رغم إطراقي، قالت: الخوف وهم، الخوف فكرة غير موجودة وتوقع سلبي تعيشه قبل وجوده، الحياة بالخوف موت حقيقي، الله لا يحب لك، فغالباً قرن اسم المؤمنين بكتابه بلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إياك أن تتركه بسيطر عليك يا ندين، ما الذي تخافينه؟ الموت.. أقصى مخاوفنا هو الموت، رغم أنه موعد لا بد منه سنلاقيه جميعاً يوماً ما، المهم أن نكون عندما وهبنا نعمة الحياة، عرفنا كيف نعيشها بمعنى وإحسان، وعملنا عملاً نستطيع أن نموت بعده مطمئنين. الخوف لا يحل أمره إلا بضده، الشجاعة والقوة والمواجهة، والشجاعة لا تلبس إلا أصحاب الإيمان القوي بأن الضار والنافع هو الله، والعمر

واحد.

أتدريين يا بنتي أدركت تمامًا أن الحياة لا تصلح إلا لأولئك الشجعان الذين يواجهون أقدارهم بصدر مفتوح وعمل ويقين بأنهم في النهاية سينتصرون. رفعت نظري تجاهها، وقلت بصوت منخفض: لكنني اكتشفت أنني جبانة.

ابتسمت وقالت: تقبلي ضعفك مثلما تقبلي قوتك، أنتِ أشجع مما تتوقعين، ثقي بي.

قلت: من أين آتي بالشجاعة؟ من أين أستمد القوة؟ أشعر بأنني هشة جدًا من الداخل، أضحك على نفسي عندما أدعي القوة، لست قوية ولست شجاعة ولا حتى قادرة على المواجهة.. حتى من ذاتي أهرب، من أين لي القوة؟

من القوي، استمديها من مصدرها، من القوي.

تأملت كلامها واستحوذ عليَّ كشيء أريده وأبحث عنه وألقي على سمعي بلحظة، وأخذ مكانة في قلبي مباشرة.

لا أدري إن كان كلامها فقط كلام، ولا أدري إن كان فقط مسكن، لكن الشيء الوحيد الذي أدريه أنني ممتنة لوجودها الآن.

ولأن ندين التي بداخلي عنيدة ومتمردة جدًا، ولا تعرف أن تقبل دون أن تجرب، وتؤكد، قررت أن أجرب معنى أن أكون شجاعة وأواجه أقداري، قررت أن أعلم الرضا والقبول والإحسان لعلني أجد بداخلي شيئًا يشبه السلام.

هذه النفس المتمردة، العابثة والمجنونة والمتناقضة، كيف أروضها وأعلمها الرضا، كيف سنتعم بالسكينة والاطمئنان!

في طريق العودة..

طلبت من السائق أن يوقف، حبذت أن أكمل طريقي مشيًا على الأقدام، أريد أن أتفهم وأن أبحث عني في الوجوه، أن أقرأ كلمات الله في الكون، بحماية تقف على الغصن، بسماء واسعة

وسع الكون، بغيمة بيضاء كحلولى طازجة، بأشعة شمس تخلق نوراً أمامنا وربها بداخلنا، بمدى واسع بعيد.

برجل كبير مثنى الظهر يتكى على عكازه ويقاوم.. وشابة جميلة وجهها يسبح الله ويرى بعضاً من جماله.. ورجل بجسد قوي وكفين عريضتين مفتوحين للعالم ليتلقى ضربات وأحضان في آن معاً.. بطفلة يقفز القلق والدهشة من عينيها من منظر كون فسيح رهيب مفرداته أكبر من إدراكها فتختبئ ممسكة بشدة على اليد التي لن تفلتها.

بامرأة تحمل بطنها معجزة أخرى قادمة للكون، تحملها بثقل وتخطو خطوات بطيئة وكأن نفسها مثقلة أيضاً. وجوه، وجوه كثيرة ومختلفة وعميقة وأثرة ومؤثرة وغامضة ومبهمة وشفافة، كل وجه خلفه روح، كل وجه، حتى تلك النملة التي تسير على طرف الرصيف مستعجلة ومتناهية في الصغر خوفاً من قدم عملاقة تسحقها، فيها روح. كل شيء تلبسه روح، روح من الله...

في الحروب يطغى الخوف والشك على الناس، فتكون القلوب مقفلة والأبواب لا تفتح بسهولة، والإجابات تبدو تائهة عن الأسئلة التي تبحث عنها بتوق وبشغف وبلهات نحو الحقيقة. في الحروب يبدو الإنسان ناقصاً ومنطوياً ومفتقراً وتائه الروح وخاوياً، ينتظر ولا يعلم سوى فن الانتظار، فينتظر السلام ويده السلاح، رغم أن بينهما حرف فقط يغير المعنى بين هاتيك المفردتين. وكذا القلب حال واحد يقلب معنى بداخله، مثل ذلك الحرف. كم تبدو الأشياء بسيطة وسهلة ومتاحة عندما تكون بعيدة، وكم الحصول عليها يحتاج لجهد مضنٍ.

في الحروب، تصبح السعادة خدعة تغلف التعاسة بغطاء رقيق، في حين نجد أن الغريب -اعتقاد الإنسان أنه- ليس من حقه أن يكون سعيداً وكافياً ومتوازناً ومطمئناً.. ليس من حقه أن يضحك بكثرة؛ لأن ضحكه هذا سيجر ألاماً كبيراً، فيحرم من لذة الضحك، ورسالة الألم.

فيغدو الألم صديقاً، وقريناً يلتصق به؛ لأنه احتواه بإيمان مطلق، ووثق أنه هو المعتاد، ليس السكينة والسلام.

محرومون أولاد الحروب من الأمن ومن الأمان ومن السلام ومن الكفاية ومن الثقة، من

أشياء لم يحيوها، فباتوا يعتقدون أنها وهمًا، لا يجرؤن على المطالبة به أو البحث عن سبله، وأشد الحروب وطأة على النفس.. وأفساها على الروح تلك التي يخوضها المرء بداخله، مع نفسه، أصعب الحروب وأقساها. ثمة أمور كثيرة تغفلت من الإنسان عندما يخاف وعندما يقلق وعندما يشوش، وثمة أمور أخرى لو أدركها يشعر وكأنه عاش بسحر.. عندما يسلم نفسه للقدير ويطمئن.

في تلك الليلة نمت بعمق، كطفلة متعبة ومنهكة، لكنها خاضت يومًا سعيدًا. في اليوم التالي ذهبت للجامعة لأجلب بعض المحاضرات وأسأل عن بعض الأمور التي تخص الدراسة، وهمت بسرعة للبيت كعادتي. مررت لبيت جدي قبل صعودي للمنزل، طرقت الباب بهدوء لكي لا أزعج أحد، ربما يكون جدي نائمًا، أو جدي تصلي، لم يرد أحد عليّ، وإذ بالمرأة التي تساعد جدي تفتح الباب، رأني فحييتني بابتسامة عريضة، أهلاً نادين، مدت يدها وصافحتني، ثم جذبتني نحوها وقبلتني، هي دائماً مبادرة وحيوية، كانت ترثدي بنطالاً أسوداً مصنوعاً من الكتان رفعتة عند حد يغطي ركبتها، وكنتزة قطنية لونها باهت يميل للطحيني، كانت رافعة أكمامها أيضاً لحد الكوع، من الواضح أنها ستبأشر العمل، فهي تأتي بشكل أسبوعي للمساعدة بأعمال التنظيف، جدي ترسل جدي إلى عمله حتى لو كان في المنزل منتهياً من العمل، تقول له بنزق: اذهب حيث تشاء ستأتي سمية لتساعدني اليوم، يبدو لي أنها تغار على جدي منها فهي شابة وحيوية. جدي تحب جدي إلى الآن ما زلت ألاحظ جبهها وأضحك بداخلي. المرء لا يكبر على الحب على الإطلاق!

دخلت مع سمية إلى غرفة الجلوس، أغراض مبعثرة هنا وهناك، من الواضح أنها بدأت بتنظيف تلك الغرفة، جاءت جدي من المطبخ، أهلاً نادين، أهلاً يا روحي، تعالي افطري معنا، حاتك تحبك، حضرت الفطور لنفطر أنا وسمية قبل أن تبدأ العمل، تعرفين يا ندين اليوم هو الخميس والأعمال لفوق رؤوسنا، قلت: صحيح.

قالت سمية بحماسة: لا تحملي هم الأعمال وهنا سمية يا خالة، لن أخرج من المنزل اليوم إلا وكل شيء يلعب كالذهب، قالت لها متهجة: رضي الله عنك يا سمية، لذلك لا أستطيع التخلي عنك، لا أحد يعرف طريقتي في التنظيف ويريجني سواك، أطلقت سمية ضحكة عالية، ثم قالت: لكي تعرفي يا خالة كم أنت محظوظة بي.

ولجنا المطبخ لتناول الفطور، قالت لي جدتي: ماذا ستفعلن اليوم؟ "ونحن على طاولة الطعام"
قلت: لا شيء، دراسة وبحث وترتيبات المنزل المعتادة، لكن أهم شيء أنجزته هذا الأسبوع
زيارتي للآنسة بسمة أظنك تعرفينها؟

سمية كانت تأكل وتتابع الحوار، يا إلهي، يا جدتي كم هذه المرأة رائعة وناضجة وواعية
وحكيمة.. ذهبت إليها بحال ورجعت بحال آخر هزت جدتي رأسها بابتسامة قائلة: شعرت
أنك لست على ما يرام في اليومين الماضيين.

قلت لجدتي: نعم حقيقي، كنت لست على ما يرام.

قالت سمية: لماذا يا روجي!

والله أنت يجب عليك أن تكوني بأوج سعادتك وراحة بالك، يا صغيرتي انظري، لا زوج،
ولا أولاد، وببداية حياتك وصباك ولا مسؤوليات، هداك الله.. يجب عليك أن تقفري بدل أن
تمشي في هذه الفترة، عيشي شبابك، عيشي حياتك يا بنتي، لا تنتظري لتنتهي الحرب، ارميها جانباً
وامضي، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. يا روجي عيشي، عيشي وارمي كل شيء وراء ظهرك.
نظرنا لبعضنا أنا وجدتي وضحكنا، أي امرأة تلك سمية.

قالت جدتي: والله أنا أحبها لسمية لأنها متفائلة ونشيطة ونظيفة، لا أرى أحد مثلها في
النظافة.

ضحكت وقالت: حبيبتي يا خالة.

أنهينا فطورنا ونهضنا لكي نتابع أعمالنا، تحركت سمية بنشاط وبدأت بتنظيف الصالة، كانت
تجر الكرسي والطاولات إلى نهاية الغرفة، وتجلب السلم لتصعد درجاته لتنظف أعلى الجدران،
وأنا وقفت أمسح الغبار عن بعض الأظقم الزجاجية المقدسة عند جدتي، فهذا من التشيك وذاك
من لبنان، وتلك الصحون من الشام، وهاتيك من المدينة المنورة.

أطقمها الزجاجية جمعتها بحب وشغف من كل مكان في العالم، قلت لسمية: لم يسبق
وسألتك من قبل هل أنت متزوجة أو لا؟ ابتسمت بخجل، كنتُ عندما تأتين في المرات السابقة

أكون مشغولة بدراستي وامتحاناتي فلا نتحدث كثيرًا، قالت: نعم.. نعم يا حبيبتى، أنت على حق، فأنا ألاحظ عليك كم أنت مشغولة بنفسك، وتحين الانكباب على الدراسة والعلم، أشعر وكأنك بعالم آخر، يا رب يراتح بالك يا حلوة.. ضحكتُ مندهشة بتقييمها.

كانت تميل بجسدها يمينًا ويسارًا تنظف بكل قوتها، قالت: نعم متزوجة وعندي خمسة أولاد يا روجي، خمسة بعيون الشيطان..

قلت لها: فليحفظهم الله لك.

قالت: سلمت يا روجي.

صمتنا قليلًا، قلت لها: كم أعمار أولادك؟

قالت: الكبيرة عمرها أربعة عشر عامًا، وأختها أصغر منها بعامين، والأخت الثالثة بعام، وصبيان الله يحفظهن واحد عمره سبع سنوات والصغير آخر العنقود عمره ستان ونصف، والله يا ندين أركض ليلاً ونهارًا من أجلهم، فهم يحتاجون لكل شيء كما تعلمين، أطفال يطلبون كل شيء، أخفضت من صوتها، وأنا لا أحرهم شيئًا.

قلت لها: فليباركك الله، في النهاية أنت أم.

قالت: نعم، ليس أحد مثل الأم، يكذب من يقول أن ثمة أحد يوازي الأم بحنانها وعطائها، صمتت قليلًا ثم بدت على ملاحظها معالم الحزن، لكن أتدريين ماذا؟ ثمة أمهات لا يستحقن أن يسمين أمهات، أعرف لك امرأة تركت أبناءها الثلاثة ومضت، قالت: أنا لم أعد أحتمل الفقر والحرب، كنا نصبر على الفقر وجاءت الحرب. وزاد الطين بلة أن زوجها تغير بعد الحرب فبدأ مكتئبًا وعابسًا لا يلقي لها بالًا ولا يهتم لأمرها كأنها غير موجودة. في ليلة ليس فيها ضوء قمر تركت الزوج والأولاد وذهبت، قالت له: ربّ أولادك بنفسك، من حقها عليه ولؤمها منه، هذه ليست أمًا، حتّا ليست أمًا ولا تعرف الرحمة، من ترك زوجها وأولادها ليست أمًا.

قلت: معك حق، لكن لا نستطيع أن نحكم دون أن نعرف القصة كاملة، علا صوتها وانفعلت بطريقة أضحكنتني لكن ضبطت نفسي فهذا ليس بلاتق، وأشارت بيدها، حبيبتى أنا

التي تعرف، المرأة قريبتني، قلت لها: آه، يبدو أن معك حق، صرت أستخدم تلك الكلمة عندما أجد أي حوار بدأ يصعد إلى درجة الجدل مع أي أحد..

كنت في الماضي أكثر إنسانة مجادلة خاصة في فترة مراهقتي، أجادل وأخالف على كل كبيرة وصغيرة، الآن لم يعد لي طاقة وكأني كبرت مئة عام، لم يعد لدي طاقة على الجدل ولا كثرة الكلام في غير جدوى فقط لإثبات أنني على حق.

لم أعد أؤمن أنني على حق دائماً، أو أن هناك شيء حتمي يجب عليّ اعتناقه بشكل أعمى وإيمان مطلق.. كنت أحمّل مع صفة العند كثيراً من الإصرار على إثبات وجهة نظري، لكن الأمر اختلف الآن، خاصة إن كان النقاش بيني وبين امرأة لا تربطني بها علاقة وثيقة.. ربما تحاول أن تمنع أحداً ما مقرباً لديك بشيء لأنك واثق بأنه سيحتملك وسيحتمل أفكارك ويفهم وجهة نظرك التي بالنهاية تنبع من نية صادقة بأنك في النهاية تريد له الخير حسب وجهة نظرك، لكن إنسان غريب عنك أو علاقتك به سطحية أو حتى وثيقة إن لم يكن مقرب جداً وله أفق واسع لن يستطيع تقبل أن تخطئه وتجادله أو حتى تنصحه أو تثبت له وجهة نظرك، لن يحتمل ذلك.

الإيمان شيء ينبثق من داخل المرء وهو مسؤوليته، لا يفرض على أي أحد مهما كان وأياً كان، حتى الطفل الصغير لا تستطيع أن تفرض عليه فكرتك، تقول له وهو بعمر السنتين اعمل كذا يقول ببساطة: لا، نعم يقول لك هذا الكائن الصغير الحجم، اللطيف الوجه لا، بكل ثقة وتمرد، هنا تكمن الحرية التي خلّقنا بها، بأن نقول لا على ما لم نقتنع به، لكن ربما يكون الإنسان يقول لا وهو بقمة الخطأ وأبعد ما يكون عن الصواب، كيف لنا أن نقول هذه حرية؟! نعم هذه حرية، وهو في النهاية يدفع ثمنها، سواء على الصواب أو على الخطأ.

قالت سمية: كم الساعة الآن يا ندين؟

قلت: الثانية.

قالت: من الجيد أنه ما زال معي متسع من الوقت، بقي ساعتان.

قلت لها: جيد إذاً.

قالت: أريد أن أمرّ على السوق لأشتري بعض الخضراوات ثم أذهب لأطبخ للأولاد، ثم أجلس معهم وسأذهب مساءً لزيارة جارتني فهي مريضة أريد أن أطمئن عليها.

وهي تحكي عن جدولها اليومي المزدحم شعرت كم هي امرأة مكافحة، ساورني فضول تجاه زوجها، أترأه ماذا يعمل!

شعرت بالحياء أتراني سأخرجها بهذا السؤال! صمتُ، لم أستطع أن أصمت أكثر، وقلت لنفسني: ليس بالأمر المخرج، فهي ليست من النوع الكتوم على ما يبدو، مرة أنت امرأة لتساعد أمي كانت كتومة وغاضبة بشكل فظيع، لم تجب عن اسمها ولا مكان سكنها، ولا شيء عنها أبداً، كانت عابسة ومتجهمة طوال الوقت، تحاول أن تنهي عملها بأقصى سرعة حتى لو لم يكن بإتقان وتريد أن تذهب، وقتها كنت أساعدها بصمت تام لأنني إن تكلمت يمكن أن تنفجر عليّ بأي لحظة، حتى هي لم تسأل شيئاً.

أمي وقتها قالت، لم تعد تريد التعامل معها، كأنها لا تريد هذا العمل ومجرة عليه، ربما تتساءل من يريد هذا العمل أصلاً!

ربما لا أحد يريده، لكن ثمة أشخاص يؤدون أي عمل يقومون به ما دام وجب عليهم بحب، يعملون أي شيء يقبل، بغض النظر عن عملهم، ربما ليس هو العمل الذي يحفزهم، تكون أرواحهم مليئة بالبساطة والحب فتنسكب على العمل أيّاً يكن، مثل سمية مثلاً، تشعر وكأنها لا تأبه بكل التصنيفات التي يطلقها المجتمع على أنواع العمل، هي عندها مهمة تؤديها كما يجب، تأخذ أجرها وتمضي لمهمة أخرى، تشعر وكأن مهام هذه المرأة لن تنتهي أبداً. جدتي تحبها وتحب العمل معها، لأنها على حد قولها تعمل بإخلاص وامرأة صالحة تعيل أسرتها ولا تشتكي، ولا تحاول كسب العطف أو الشفقة من أحد، وهذا جلي.

عدتُ فسألتها: ماذا عن زوجك؟

قالت وهي تجر كرسياً وتمسح تحتها برشاقة: زوجي أصيب في الحرب، وقعد عن العمل، لكن الآن يريد أن يعمل بوضعه هذا وأولاد الخير سيؤمنون له عمل، أنا سألت له عن عمل بوضعه هذا بذلت جهداً وأنا أحاول من أجل هذا الأمر، ووعدي أصحاب الخير بنهاية هذا الشهر،

أتدريين لماذا أنا أريده أن يعمل؟

لكي يشعر بأهميته، العمل جيد أيًا يكن، يشعر المرء بوجوده، أي عمل لا يهم، فقط أن يتحرك المرء ولا يجلس عاطلاً، وأنا لا أخفيك صرت أشعر بزوجي بالأونة الأخير، أنا أفهمه من نظرة، شعرت وكأنه يحسب نفسه عالة على الجميع! تعرفين كيف شعرت به؟

بدا مؤخرًا صامتًا ومنزويًا وأدنى أمر قادر على إغضابه، لا يحتاج الأمر لاثنين لفهمه، إنه حزين على وضعه، ويراني أعمل ولا أف من أجل العائلة فصار يشعر بالخزي، أتدريين ماذا؟

قبل إصابته كان رجلاً بطول وعرض وشهامة وكرم، والله لا يأتي ليلاً إلا وهو محمل بكل الأطياب، أقول له وفّر يا رجل هذا تبذير، يقول: لا تحملي همًا. ويجبني ويقدرني وإن كنا فقراء ليس بعب، المال يأتي ويذهب، المهم الصحة، الصحة إن ذهبت لا تعود، وهو صحيح أنه فقد ساقه من الركبة إلى القدم بالحرب لكن وعدنا الطبيب بأنه سيحصل على ساق صناعية ويستطيع الحركة مثله مثلنا، لذلك أنا دائماً أطمئنه، أقول له: الحمد لله، قدر الله، ماذا تفعل! تبكي وتسخط إلى متى؟

إبقى عشرين عامًا على هذا المنوال لن يتغير شيء ولن تعود قدمك.. الحمد لله أن أبقاك لنا يا رجل، ماذا كنا سنفعل بدونك! هيا قل الحمد لله، يضحك من كلامي ويهدأ، وأنا أضحك لأنني أضحكته أخيرًا، وأشعر بأنني صرت بحال أفضل.

يا روجي إن لم أقف أنا بجانبه بهذا الظرف فمن يقف؟!

أي نعم صرت أعمل بهذا العمل ربما ليس جيدًا أمام الناس والمجتمع، لكنه مربح ولا يحتاج لرأس مال سوى العافية، الله يحفظها يا رب، أتدريين لذلك أركض على أولادي مثل المجنونة، وأقول لهم: تعلموا مهنة وادرسوا.. لا تعلمون متى تحتاجون الشهادة أو المهنة، أتمنى أن يصبحوا أطباء ومحامين ونفخر بهم أنا وأبوهم، الدراسة غير، تبقى غير، تعمل قيمة للمرء، لو كانت معي شهادة كنت عملت بها.. حتى المهنة جيدة بل أفضل من الدراسة أحياناً مربحة أكثر، تصفيف الشعر، أو الخياطة، أيًا يكن المهم عمل لا يحتاج المرء به لإنسان، صمتت.

فجأة علا صوتها، فقالت: خذي هذه النهفة عن المتعلمين، مرة ذهبت لأساعد امرأة، لا أراك الله كم هي بخيلة، رباه كم هي بخيلة، لا يخرج منها القرش إلا بمعاناة وصعوبة، كانت تريد تعزيل منزلها وكانت موسوسة في النظافة، أنهى العمل فتقول: كأن تلك المنطقة لم تلعم كفاية؟

أضبط نفسي وأعيد المسح، وبيتها كان نظيفاً من الأصل من شدة وسواسها، فهي لا تتيح له الفرصة لكي يتسخ، ضحكت بصوت عالٍ فأضحكتني، تابعت، اسمعي يا ندين ماذا قالت لي في النهاية، أنهيت عملي وأخيراً، بعد يوم شاق، وأنا أصبر نفسي أنني في النهاية سأحصل على مال جيد بعد تلك المشقة، وقفت أمامها بعد أن صار المنزل يلعم كالذهب، فقلت لها: كل شيء صار نظيفاً سيدتي علي الذهاب إن سمحت.

قالت: شكراً لك، عملك نظيف الحقيقة، وأخرجت من جيبيها حزمة صغيرة من المال وأعطتني إياها، أخذتها وعددتها، شعرت أنها ليست بالكافية، فأنا بذلت جهداً كبيراً اليوم، قدماي تورمت، قلت لها هذا الكلام وبدأت تجادلني وتفاصيلني، وأجادها فقالت في النهاية بعدما أعطتني ما أريد عندما رأت إصراري وشعرت إني تعبت وأستحق، قالت بضحكة هازئة: أتدريين يا سمية أنك تربحين المال أكثر مني، أنا مدرسة اللغة العربية القديرة وصاحبة الشهادة!

صمتت.. وكأنها ابتلعت شيئاً تود أن تقوله ثم استطردت لكن مع هذا بالهناء والشفاء لك. خرجتُ من عندها أضحك من كلامها ومن تصرفاتها الغريبة، قلت في سري وأنا أقتل نفسي ليتعلم أولادي.. حتى التعليم وأفضل الشهادات لم تعد تفيد المرء ليعيش بكفاية في هذا الزمن.

هززت رأسي موافقة، للأسف، قالت ملوحة بيدها: دعينا من التعليم والعلم والمتقنين وعقدهم، كلهم معقدون حاشاك طبعاً حبيبتي، ضحكت، قلت في نفسي ربها هي تقصدي أنا بالذات.

قالت لجدتي في آخر مرة أتت لمساعدتها دون أن تعي أنني هنا، يا خالة، والله ندين مثيرة للشفقة، لطالما تأخذ بيدها كتبها وتمضي وتشعرين بأنها بعالم آخر غير عالمنا، ما قصتها؟ لا تشبه باقي الفتيات بعمرها! لا بحديثها، ولا اهتماماتها.

قالت لها جدتي بفخر: هذا ما يميزها، أجابت سمية على عيني ست أم رائد، لكنها تحتاج لأن

تخرج وتلتقي فتيات بعمرها وتذهب للأسواق وتزين وتسلّى مثلها مثل الباقي، كثرة الدراسة والقراءة تعقد المرء بعد أن يكون بسيطاً، كلامها لم يعجب جدتي فلا يحق لأحد أن يتجرأ على حفيديتها، فقالت: أكملّي عملك.

بعد العصر بقليل أنهت عملها وهرولت مسرعة للخروج وهي تحكي عن مواعيدها التالية، راجية ألا تتأخر قلت لها وأنا أودعها جدولك اليوم مزدحم، أعانك الله.

قالت أي ازدحام ذاك يا حبيتي، اليوم أفضل من البارحة، كل يوم مليء بالأعمال، لا يرتاح الإنسان سوى في قبره، يرقد ولا ينهض، تنهدت وهمت برحيل.

تساءلت في نفسي؟ لما لا تحصل تلك الفئة البسيطة من الناس الذين يخوضون الحياة بقبول وعمل وعطاء وجهد على جوائز الأوسكار؟ فهم يستحقونها بجدارة.. لما لا يشهرون ولا يكرمون، بل يهانون أحياناً! في الخفاء وبعيداً عن الأضواء وفي الأماكن المنسية، ثمة أناس حقيقيين، عظماء، مدهشين... أكثر بكثير من أولئك الذين يسلط عليهم الضوء.

أنهت أعمالي مع جدتي وصعدت للمنزل، أنهيت دراستي ثم صنعت لنفسني مشروباً دافئاً فالطقس بارد بعض الشيء وجلست أدون في مفكرتي. الحياة متناقضة وتبدو لوهلة غير منطقية وغير عادلة، وملئمة بالفوضى، لكن هذا بوجهة نظرنا المحدودة، فكل شيء منظم في الكون وعادل ومنضبط، إن كان ثمة فوضى فهي حتماً بداخلنا، بعالمنا نحن.

الناس بفوضاهم وعدم انتظام عوالمهم الداخلية وتأجج وتخبط مشاعرهم، يطلقون الأحكام ويصنفون ويعبثون، لكن كل هذا وهم وفقاعة كبيرة. الحقيقة أعمق من ذلك بكثير، نحن ننبر بالقسور، ونرى سطحية الأمور، ونصنف على اعتباراتنا المحدودة؟!

فلا الفقير فقير حقاً، ولا الغني غني حقاً، ولا المجنون مجنون حقاً، ولا العاقل عاقل حقاً، ولا المسؤول مسؤول حقاً، ولا العاقل عاطل حقاً، ولا الشريف شريف حقاً، ولا العاهر عاهر حقاً، ولا السعيد سعيد حقاً، ولا الشقي شقي حقاً.

تلك أوهامنا عن الآخر، وأحكامنا المطلقة، وإسقاط لفوضانا الداخلية، فنحن في النهاية

مزيج من كل من السعادة والشقاء والخير والشر والفقر والغنى والكره والحب والشرف والدناءة والإيمان والفجور والخوف والأمن.. نعيش حروباً حقيقة داخلنا كل يوم لنشكل لوحة تشبهنا فيها بصمتنا المختلفة، فيها نحن، نحن الحقيقيون.

وحدة

(ندين)

نهرب من الوحدة باستمرار، نتزوج لأننا في نهاية المطاف نخاف من الوحدة، ننجب الأطفال لأننا لا نريد الوحدة، نتعرف على الجيران لكي نحارب الوحدة، نجلب الأصدقاء لأننا لا نقوى على الوحدة، نفتتح أحاديث عابرة مع الغرباء لكي لا نشعر بالوحدة، وكم نحن وحيدون بذواتنا رغم ذلك؟!

لا أحد يستطيع أن يحمل عنا بعضاً من الألم في جسدنا أو في أنفسنا، لا أحد يستطيع أن يحارب معنا أفكاراً في عقلنا نريد أن نصرّفها عنا لأنها قد تهلكننا، لا أحد يستطيع أن يخترق وعينا ويرى لا وعينا، لا أحد يستطيع مشاركتنا أحلامنا وكوابيسنا، لا أحد.. لا أحد مهما كان يحبنا ومغرمًا بشنايا أرواحنا له أن يتبرع ويقضي معنا أول ليلة في ذلك الصندوق الترابي بعد أن تفيض أرواحنا.

أترى كم نحن وحيدون! وكم هي ساذجة محاولتنا لنحارب الوحدة؟! لكن لما شعور الوحدة واهٍ في أحدهم، بينما ثمة من يرى بعضاً من فتاته فقط؟ وثمة من يختار الوحدة ويطلبها، فتكون خلوة أو عزلة أو حب للذات.

ممن نهرب بالتحديد؟ من الفراغ الذي يملأ اللحظة الراهنة فيشير لمكان ترى نفسك أصعب من أن تواجهه؟! أم من هالة الوحدة في ذهنك، أم أنك تهرب من نفسك، من أفكارك، من عقلك؟ ما الذي يجعلنا نهرب من أنفسنا إلى الآخر بأي ثمن؟

نعم في النهاية الإنسان كائن اجتماعي ووجود الناس من حوله حاجة أساسية، لكن تجربته كإنسان فردية، وفريدة، ومتفردة أساسها هو، هو فقط. والوحدة أو العزلة قد تصبح حاجة ملحة لمن يريد أن يفهم ذاته، يشهد على حقيقته؟

يقول عالم النفس كارل يونغ: (سيقدم الناس على فعل أي شيء، مهما كانت سخافته، حتى يتجنبوا مواجهة أرواحهم)

في أيام وحدتي

كنت أستيقظ صباحاً أجلس على سريري لدقائق كأنني آلة تحتاج لإعادة التشغيل، لا شيء يدفعني للحياة، أمشي ببطء أغسل وجهي وأحياناً لا أغسله، أذهب للمطبخ أمارس طقسي النهاري الذي أحب، أستنشق رائحة القهوة وأنا أصنعها، القهوة صديقتي الوفية دائماً، تعرف جيداً كيف تحتويني وأعرف كيف أحتويها، لحسن حظي أنني كائن بيتوتي، فالبقاء في المنزل لم يكن عبئاً على الإطلاق، دائماً هناك شيء أفعله بداية من الأعمال الروتينية للمنزل وأوقات الدراسة والبحث وما يتصل بهما من الأعمال التي لا تنتهي، نهاية إلى الجلوس على الأريكة وقراءة كتاب، عندما أشعر بالضجر أخرج من المنزل قليلاً لأمر ما وأعود بسرعة كالعادة.

هذه الأيام المثالية، أيام أخرى غير مثالية طبعاً، تبدأ بالكسل والكآبة لدرجة أنني لا أطيق أن أرفع ساعة الهاتف إذ أرن، في الليل لا أنام، أو أنام قليلاً وأستيقظ، المهم ألا أنام بعمق! يا إلهي، كم اشتقت للنوم العميق.

أبي أراه ليلًا، أحضر له العشاء يضطر لابتلاع طعامي في كل الأحوال أو نأكل طعام العشاء مع جدي وجدتي. كم كنت أفقد نعمة الطبخ اللذيذ الذي تصنعه أمي، بعد العشاء نستلم الأجهزة الذكية للتواصل مع الجزء الآخر من العالم الذي يحتوي على أحببتنا، أمي.. آسر.. زين.. نتكلم بأشتياق تارة ونفعل تارة ونهدأ تارة أخرى ونضحك ونبكي، وتجمعنا هذه الشاشة الذكية الحمقاء؛ لأنها لا تجعلنا نعبرها لنكون بقرب من نحب بحق.

فترة وحدتي هذه جعلتني أغوص في معانٍ كثيرة كانت لا تشغلني في السابق، ربما لا تلتفتني، وكان الخلوة والعزلة باب رهيب لترى الحياة بوجهها الآخر الهادئ والصامت والمفعم بالسكون والأسرار والألغاز، على عكس الاختلاط بالناس الذي يجعل الحياة بعينك صاحبة وصارخة ومليئة بالضجيج والأفكار المبعثرة.

نعم حقاً، صرت أفكر بالموت، بدأت أفكر بتلك الحقيقة الصماء التي نهرب منها دائماً ونرتجف عندما تذكر تلك الكلمة ونقل دائماً بعيد الشر، أي شر ذاك الذي هو لا بد منه؟ ولماذا نخاف دائماً من شيء مثله مثل الولادة! مع فارق أن في الولادة نكون صفحة بيضاء، وفي الموت تمتلئ تلك

الصفحة! ربما إننا لا نخاف من الموت بحد ذاته، نخاف من فكرة الغياب! غياب من نحب، غيابنا عن أحببتنا والألم الذي سنتركه خلفنا، نخاف من فكرة العيش بلا معنى والموت بلا أثر، نخاف مما بعد الموت! من فكرة أن نقف مباشرة أمام أعمالنا وأفكارنا ومشاعرنا وحقيقتنا وعالمنا الأصلي بعري تام، نخاف من فكرة أن نحاسب وأن ندفع الثمن وأن نكون نستحق العذاب، وأن نواجه الخالق أخيراً بشكل لا يليق.

تساءلت؟

لماذا لا نتحضر للحظة الموت ونتذكرها دائماً علناً نحيا بيقظة، فنفكر بأثر أعمالنا؟! لماذا لا نفكر أنها انتقال لواقع أجمل وأطهر وأصدق وحقيقي أكثر فيزيد إحساننا؟! عندما تفكر بحقيقة الموت كم تزهّد في الحياة.. ما قيمة كل شيء إن كنا في نهاية الأمر سنموت! وبذات الوقت يتنبأك إحساس عكسي بالضبط، لماذا لا أحيّا بكل ما أملك وبكل ما أستطيع وأسرق معاني الحياة بكافة التفاصيل إن كنت في النهاية سأموت؟!

كتب فيكتور هيجو في رواية البؤساء (الموت ليس شيئاً رهيباً... الشيء الرهيب هو ألا نعيش).

أنفاسك.. خفقان قلبك.. رمشة عينك.. قطرات عرقك.. نظرتك.. لمستك..

أشياء صامته تدل على وجودك الذي تحاول سحقه كل يوم بجهلك معنى أن تحيا وأنت تعيش!

الزمن..

ذاك الوجه المخادع للعمر والذي يطلبك بملامح تخونك كل يوم بتجعيدة في وجهك، وبحة في صوتك، وشعرة شائبة في رأسك، تفاجئك وأنت تتفقد هذا الجسد الذي تسكنه روحك أمام المرأة، تتساءل؟ أين الطفل الذي كنت أراه منذ سنوات ليست ببعيدة؟ أين المراهق الذي كبر فجأة منذ أشهر فقط؟ أين الشاب الذي لمستته في مرآتي منذ أيام؟ رباه، كيف لجسدي أن يشيخ وأنا لا أزال طفلاً؟! والروح، هل هي أيضاً تشيخ وتخون مثل الجسد؟! الروح، هي المعادلة الصعبة

جداً، السر العظيم جداً، المعنى الحقيقي لوجودنا، أوليست أرواح المقهورين كهلة حتى لو كان جسدهم فني؟! أوليست أرواح العاشقين ثملة حتى لو كانوا أتقياء لم يعرفوا السكر؟ كم أنت محتاج لأن تعتني بروحك!

قرأت للدكتور مصطفى محمود مقالة كتب فيها:

(نخلط دائماً بين النفس والروح فنقول: فلان طلعت روحه، ونقول: فلان إن روحه تشتهي كذا، أو إن روحه تتعذب، أو إن روحه توسوس له، أو إن روحه زهقت، أو إن روحه اطمأنت، أو إن روحه تاقّت واشتاقّت، أو ضجرت وملت، وكلها أحوال تخص النفس وليست الروح).

التي تخرج من الميت عند الحشجة والموت هي نفسه وليست روحه، والتي تذوق الموت هي النفس وليست الروح.. (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، النفس تذوق الموت لكن لا تموت، فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن، والنفس موجودة قبل الميلاد، هي موجودة بطول الحياة، وهي باقية بعد الموت، وعن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها، يقول الله: إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد، وأشهداها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد أباه على الكفر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

فذلك مشهد أحضرت فيه الأنفس قبل أن تلبس أجسادها بالميلاد.

ثم إن الروح لا توسوس ولا تشتهي ولا تهوى ولا تضجر ولا تمل ولا تتعذب ولا تعاني هبوطاً أو انتكاساً، إنها كلها من أحوال النفس وليست الروح.. والروح دائماً تُنسب إلى الله، وهي دائماً في حركة من الله وإلى الله، ولا تجري عليها الأحوال الإنسانية، ولا الصفات البشرية، ولهذا توصف الروح بأوصاف عالية. أما النفس فهي دائماً تنسب لصاحبها.

أقف أمام المرأة أتأمل نفسي وأنظر بملاحمي كأن هناك فجوة عميقة بين نفسي وجسدي...

لوهلة شعرت أنني كبرت وأنا ما زلت في العشرينيات، لكنني اعتقدت أن في تلك اللحظة نفسي كانت عجوزاً، لماذا؟! لأنها تعيش خيبة كبيرة من كل شيء وإعادة نظر جديدة لكل شيء، رमित كل ما أعرفه سابقاً، كل ما تعلمته وبدأت بمرحلة بسمونها الشك. ألم يقل ديكهارت: أنا أشك إذاً أنا موجود، أي معرفة تلك التي تجعلني جاهلة بأهم شيء يجب أن أعرفه.. نفسي، معنى حياتي، فهم عواطفني أي هراء هذا!

تعلمت الأدب والحساب والفيزياء واللغة، والعلوم، لكنني لم أتعلم أن أفهم الحياة، أن أفهم حقيقة نفسي، معنى وجودي؟

ربما الآن حان الوقت لأنتفرغ لنفسي ونفسي فقط. بدأت أبحث بين صفحات الكتب وبين مواقع شبكة الإنترنت المختلفة، وبين ملامح الناس وكلماتهم، وبين أصوات الطبيعة وألوان السماء المختلفة كل يوم عن نفسي. أتعرف على نفسي كل يوم.. وسأبقى هكذا دائماً لا أعرفني، وأكتشف أشياء جديدة بداخلي من أنا؟ لماذا أنا موجودة؟ ما معنى وجودي؟ هل أنا حقيقية أو أنني وهم؟!

ماذا أريد؟ ماذا يجب عليّ فعله؟ إلى أين سينتهي بي المطاف؟ أسئلة كثيرة جداً جداً لا تهدأ في رأسي..

بدأت بالقراءة، كنت أقرأ وأبحث بنهم، أطلعتُ على الأدب العربي والإنجليزي والياباني والهندي.. قرأت القرآن دائماً كم كنت أحاول أن أفهمه وأطبقه.. من أنا؟ لماذا أنا هنا؟ لماذا كل هذا الألم والسعادة والنشوة والخيبة والخيال والواقع والحقيقة والوهم؟ أنا مشاعري؟ أم أنا أفكاري؟ أم أنا معتقدي؟ أم أنا أعمالي؟ أم أنا روح مسيرة؟ لا أملك شيئاً. أنا.. أنا شخصية واحدة أم عدة شخصيات، وأنا.. مزيفات؟ أنا.. أنا، أو أنا هم؟ أو أنا وهم، أنا؟

كم كنت أحاول أن أحافظ على عقلي كي لا أجن، كم كنت أحاول أن أحافظ على روحي كي لا تنطفئ مثلما أطفأت الحرب هذه المدينة.. علمونا الفراغ هو العدو الأكبر للإنسان؛ لذا عازمت أن أشغل نفسي دائماً بأي شيء، أي شيء.. لكن المشكلة الحقيقية كانت ليست بمعاشية الفراغ، المشكلة كانت بأيام تكون مزدحمة بالأعمال التي تؤديها بلا شغف، أو ذرة حماس.

كنت أضع كأس عصير طازج على الطاولة أمامي وأجلس ومقابلتي الحاسب المحمول، أرى فيه صورة حنين وجهها شاحب وحول عينيها هالات سوداء تجعلك تشعر بأنها لم تنم منذ يومين، وأنا في المقابل استيقظت صباحاً وقررت اليوم بالذات أنني لن أسمح لشيء يعكر سلامي الداخلي.

خاصة وأنا أخوض تجربتي الأولى في محاولة خلق السلام بداخلي رغم كل شيء لذا بدأت يومي بابتسامة أجبرتها أن تكون صادقة رغم كذبها، رتبت شعري وبدلت ملابسني وتعطرت ورتبت المنزل ودرست وتناولت وجبة صحية وشهية بمكونات بسيطة. نزلت إلى بيت جدي وجدتي ألقيت عليهم التحية، اطمأنت عليهم وتحادثنا قليلاً، منحتهم حضناً كبيراً وقبلات ثم استأذنت لأذهب وأكمل دراستي..

حنين اليوم خطرت لي منذ الصباح لذا قلت لنفسي فلتشاركني هذه الصديقة المغفلة تلك التفاصيل اللطيفة بعد فترة انقطاع لا بأس بها بيننا، وبمجرد أن رأيتها وبدت سحتها مرعبة بلغتني أنا وهي، قلت لها: تباً لك ولصباحاتك المغفلة مثلك، ما هذا الشحوب والشعر المنكوش هكذا تفعل الأمومة، يا رباه وانفجرنا ضاحكتين، ظلت تسخر مني دقائق لأنني أضع أحمر شفاه لونه غامق، تقول لي: يا مجنونة، صحيح أنا سحتني تبدو مرعبة وشعري منكوشاً لكنني أعقل من أن أضع هذه اللون الدموي منذ الصباح الباكر، هذه ألوان ليلية يا جاهلة بالموضة وأدوات التجميل.

أقول لها بضحكة: اخبرني، من الأصل أنا لا آبه بالموضة ولا بمروجيها أفعل ما أحب وما يناسبني، أصلاً يا حبيبتني، هذا لون الورد الجوري وليس دمويًا، ثم أنقبض؟

في الآونة الأخيرة كنت أشعر بمشاعر غريبة ومتناقضة، أكون في قمة سعادتي، ثم ما لبث أن أصبح في قمة حزني، أو أن يخالطني شعور بالذنب مجرد أن يتتابني شعور بالسعادة، أتمنى ألا أكون قد جنت، هذا المهم.

قالت لي حنين: كأنك تغيرت في الفترة الأخيرة، ما القصة؟ أخبريني؟

تهتمين بنفسك أكثر، تبدين أكثر حماسة ونشاطاً، أفكارك جديدة نوعاً ما، الأمل بداخلك

يكبر رغم ذلك الواقع المأساوي للبلاد، لا أريد أن أحبطك عفواً أشارت بكف يدها المفتوح تجاهي، حاولت أن تعدل مفرداتها مازحة تقلدني، الواقع سيتحسن حتماً يوماً ما، سيصبح جيداً ربما قريباً، دعك من هذا، هيا أجيبني ما القصة في تلك التغيرات؟! وقعتٍ بالحُب أخيراً؟! تقول متسائلة.

أبتسم وأنظر إليها، أقول: وقعت في حب ذاتي.

تخميني أي حب ذلك الذي تتحدثين عنه، أنت من الأصل تخمين نفسك وتقدسيتها وتصلين للغرور أحياناً، أهز برأسي متابعة لكلامها أقول لها: أفيضي أكثر، وماذا أيضاً؟ تضحك وتقول: نعم هذه الحقيقة سواء أعجبتك أم لا فلا تستغفليني وتقول لي وقعت في حب نفسي التي أنت كنت تخمينها من الأساس!

أضحك من ردة فعلها، فهي صادقة حتماً، حنين باتت تعرفني جيداً، وأنا أعرفها جيداً وأعرف أنها عندما تجربني بشيء عني لا تجاملني أو تتملقني.. أجيب: نعم كنتُ أحب ذاتي في الماضي، أو أحب نفسي هكذا كنت أعتقد، لكن ذلك لم يكن حباً على الإطلاق، كان غرور وسفء، الحب الحقيقي تجاه نفسي أعيشه الآن؛ لأنني ما عدت أَرْضِي لها أن تعلق بها لا يليق من الشر والآثام والته واليأس، ما عدت أَرْضِي لها أن تقع في شرك الغرور، أن تعيش حالات دراما لا جدوى منها، أن تشعر دائماً بالخوف أو العار، أو الذنب، أن تحيا بلا معنى؛ فقررت أن أبحث عن معنى لحياتي، قررت أن أكون لأول مرة ممتنة وراضية بلا شروط! رغم أنني في الحقيقة أحاول وأفضل وأشعر بتعب شديد وأجاهد في هذا السبيل، لكنه يستحق.

تقول حنين: جميل، جميل جداً أن يحب المرء نفسه على طريقتك تلك، إذًا ليترك تعليميني عندما تتعلمين، كيف سأكون ممتنة بلا شروط؟ في واقع قبيح كهذا، في ظروف قاسية كنتك الظروف، بئس للحرب، بئس لأولئك الذين لا يملون من القتال رغم أننا مللنا من كل شيء.. أتدريين؟ السعادة مفهوم مطاط، هناك من يسعد لأبسط شيء، وهناك من لا يسعد إلا بأشياء مصرية. بيد أن من حق كل أحد أن يعيش سعادته بوجهة نظره أيًا كانت، ومن واجب أي أحد أن يفهم جيداً أن من حق نفسه عليه أن يسعداها بطرق سليمة طبعاً - غمزت بعينها - ابتسمت ابتسامة عريضة

ثم استطردت، أنت قوية يا فتاة لا يستطيع شيء أن يهزمك.

أنشأتُ أسرح بكلمتها تلك، قوية، هل أنا فعلاً قوية أم أنني أدعي القوة وأستجديها من القوي؟ هي لا تعرف شيء! صرفتُ عن ذهني الفكرة وأجبتها. السعادة التي كنت أقصدها، ليس معناها الحالة المزاجية المرتفعة طوال الوقت، والرقص على موسيقى صاخبة، والقهقهة العالية رغم كل شيء.. هذا ضرب من الجنون، ربما يخيل إلينا لسنا سعداء؛ لأننا نجد السعادة أقرب إلى هذا المعنى، السعادة التي بثُّ أنشدتها، هي حالة اطمئنان وسلام وقبول رغم كل شيء، وهذه الحالة ليست بسهولة المال، تحتاج إلى وعي عميق وجهد يُبذل للحصول عليها، أن تطلبي السلام الداخلي سهل، وأن تحيي به ليس سهلاً على الإطلاق.

قالت: نعم صدقتي، كلُّ فكرة مفيدة الحديثُ عنها سهل لكن تطبيقها صعب، لكن ليس مستحيلاً.. ربما المسألة بالإرادة، بالإرادة فقط تتحقق المعجزات، أن يريد المرء شيئاً ما وأن يتوق له وأن يبذل جهداً في سبيله وأن يضاعف جهده ويتجاوز الصعوبات ويهزم اليأس، وأن يحصل عليه أخيراً، صفقت بيديها بصوت خفيف وحماسة، يا للروعة أن يصل المرء أخيراً إلى ما يريد ابتسمتُ لها.

أعرفين، من فترة وجيزة سمعت صوتاً بعيداً أخافني لأنني كنت مستغرقة بالكتابة وظهر فجأة، فكرت يومها تفكيراً ربما سخيماً لكن، لعنت بداخلي مراراً من اختراع الأسلحة، وخطر لي لو سخر الإنسان قدرته وذكائه للخير وخدمة الإنسانية مثلما سخرها للشّر لكانت الحياة جنة حقيقية. لو بذلنا طاقة للحب بمقدار ما نبذل طاقة للكراهة، لو بحثنا عن نقاطنا المشتركة بدل بحثنا عن نقاط اختلافنا لكان كل شيء مختلف.

تحبيب حنين: ليت الناس يفكرون بطريقتك تلك، لما كانت حروب أصلاً.

أضحك، دعك مني الآن، صحيح أخبريني كيف حال لوليا حبيبتي، كأنها نائمة صحيح؟!

تقول: نعم نائمة والله الحمد؛ لأنها لو كانت هنا لما أتاحت لنا الفرصة لتتكلم خمس دقائق متواصلة...

في مساءات إحدى الليالي وأنا جالسة مع أبي نتناول العشاء، كانت تطرق في عقلي فكرة منذ الصباح أننا كيف نستطيع التعود على كل شيء مع الوقت؟ كيف استطاع أبي مزاولة حياته بغياب أمي رغم تعلقهم الشديد ببعضهم وحتى غياب أخوتي؟ كيف أستطيع اليوم أنا بعد سنوات عديدة من الحرب أن أشاهد الأخبار دون أن أتاثر وأبكي مثلما كنت أفعل في بدايات الحرب؟ كيف وكيف؟ أشياء كثيرة تؤلمنا في الفترة الأولى، ثم نتعاطى معها باعتياد أو ربما يؤس أو ملل لأننا لا نملك سوى أن نعتاد.

يقول ديستوفسكي: (بكوا في أول الأمر ثم ألفوا وتعودوا أن الإنسان يتعود على كل شيء يا له من حقير)

طرحْتُ تلك الأفكار التي تراودني على أبي ونحن على طاولة العشاء، نظر إليَّ باستغراب ثم ابتسم، وقال: كبرت يا ندين، بشكل ملحوظ في الفترة الأخيرة، ربما نضجت. أنظر إليه وعلى ثغري ابتسامة عريضة، سيدي بعد أربعة شهور أصبح في الثامنة والعشرين من عمري، ثمانية منها في الحرب! هل يعقل كم أخذت منا هذه السنوات؟ كم أثرت بنا؟ كم غيرتنا؟ كم هزبتنا؟ كم وكم...

أترانا يا أبي كنا ساذجين عندما اعتنقنا الأمل؟ صحيح أن وتيرة الاشتباكات خفت قليلاً والأوضاع تتأرجح بين الهدوء والقتال لكنها مستمرة، إلى متى لا ندري، أسر مضى على سفره ثلاثة أعوام، وأمي ويزن عام كامل، وإنهائي لرسالة الماجستير بات قريباً بعد عمل مضن ومجهد في ظل تلك الأوضاع، وصارت كلمة حرب مقبولة ومتداولة ومستهلكة، شيء لا يعقل، أترانا تعودنا كما يقولون؟ قال: أحياناً ليس ثمة خيار أمامك إلا أن تعودني وأن ترضي وأن تسلمي. فاجأني جوابه وأثار حنقي، قاطعته منفعة: لماذا يجب أن تعود وأن نستسلم؟ ألا يعتبر هذا من أنواع الاستكانة والجبن والرضوخ؟ ألا يجدر بنا أن نُصلح ونحاول ونغير، أن نفعل أي شيء غير أن نتعود ونستكين؟

قال لي بهدوء: اسمعي جيداً ندين، تأتي أقدار بالحياة تحتل منك أن تنفعلي وتقاومي ولا تقبلي وتغيري وهذا جيد جداً، وتأتي أقدار أخرى لا تحتل منك سوى أن تقبليها وتستسلمي لها فقط

وتقدمي ما تستطيعين ضمن نطاقك... والذكاء بل الحكمة أن تميزي بين ما يستحق الانفعال وما يستحق الصمت والتسليم.

شعر أنني لم أقبل ما يقول، نظر نحوي نظرة متأملة، ثم قال لي: ستفهمين يوماً ما شفرة أقدارك التي أردت فهمها، وستشكرين الله عليها لاحقاً؛ لأنها خدمتك كثيراً بقدر ما أملك.. الأمل معلم جيد، وكلما فهمت رسالته أسرع لا يطيل المكوث.

كتبت في تلك الليلة على مدونتي

من نحن لولا تمردنا وغضبنا ورفضنا لما لا يشبهنا؟ من نحن لولا بصمة عدم قبولنا لواقع لا يمثّلنا؟ لكن هل هذا يكفي؟!

من المؤكد أن التسليم والجلوس جانباً ليس منطقيّاً.. والرفض وعدم القبول والغضب فقط ليس منطقيّاً أيضاً، أين المنطقي إذا؟!

أن نرفض وأن نعمل ما نستطيع عمله، وأن نجلس جانباً بتسليم، لا أعتقد أن الله أوجدنا فقط لنجلس جانباً ونُسَلِّم! وجودنا قائم على العمل، وفي النهاية نحن ندفع ثمن أعمالنا ونعيش خياراتنا شئنا أم أبينا، هذه الحقيقة.. لكن! هل يعقل أنني اخترت الحرب؟ اخترت التشتت والخوف؟ حتماً لا، ندين أنت لم تختاري الحرب حتماً، هذا قدر استحقاقه في النهاية، لكن اخترت تعاطيك مع فكرة الحرب، عشت خيار أن تبقي، عشت خيار أن تأملّي بأن هذا الوقت سيمضي وأنت على الجانب الآخر تحاولين أن تفهمي وتعملي وتنجز، عشت خيار أن تبقي مع أبيك وتبتعدي عن أمك وأخوك، في النهاية أنت من اخترت... يقول شمس الدين التبريزي والرومي في إحدى قواعدهم الأربعين:

"لا يعني القدر أن حياتك محددة بقدر محتوم لذلك فإن ترك كل شيء للقدر وعدم المشاركة في عزف موسيقى الكون دليل على جهل مطلق إن موسيقى الكون تعم كل مكان، وتتألف من أربعين مستوى مختلفاً.. إن قدرك هو المستوى الذي تعزف فيه لحنك.. فقد لا تغير ألتك الموسيقية، بل تبدل الدرجة التي تجيد فيها العزف"

مفاهيم جديدة تعلمتها بعد بحث طويل في فهم معنى الأقدار:

أولاً: نحن المسؤولون تماماً عن حياتنا ونملك سعيينا فقط لكننا لسنا مسؤولين عن النتائج فهي ليست من تخصصنا.

ثانياً: نحن نعيش ما نستحقه تماماً وفقاً لنوايانا وأعمالنا، وهذا ما يصنع أقدارنا.

ثالثاً: في الأمور الخارجة عن سيطرتنا وإرادتنا وإدراكنا، الله يختار لنا الأفضل دائماً تحت أي ظرف بحكمته ورحمته تحيط بنا رغم كل شيء حتى ولو بدت الأمور عكس ذلك. قرأتها وفهمتها وعاشتها وأمنت بها.

في هذه المدينة المضطربة، الكل يلوم الآخر، الكل يشتم الآخر، الكل يرى الآخر عدواً له فقط لأنه مختلف عنه، انهارت كثير من العلاقات بسبب الاختلاف، الاختلاف في الرأي؟!

أيعقل كم من المفاهيم الكثيرة المشوهة غرست بنا! أيعقل كم تلاعب بنا وعي جمعي مجتمعي جعلنا نسير بعقلية الجلال والضحية في آن معاً، جلا دون لغيرنا وضحايا مع أنفسنا!

من منا لم يمر بلحظات اعتقد فيها أن شخصاً ما أو أشخاصاً عدة سبب في تعاسته؟ من منا لم يعيش حالة أن ظرفاً ما يقيدته؟ في النهاية لا نلوم أنفسنا ولا نحمل ما يحصل لنا على عاتقنا، فقط نعلقه على أوهام نخلقها لنعتقد أننا بريئون، بريئون تماماً من كل ما يحدث... وننتظر وقد يمضي عمر كامل ونحن ننتظر.. والحل أن نتغير، لا أن ننتظر.

أغلقت دفترتي... أخذتُ زفيراً طويلاً، خرجتُ من غرفتي وألقيت نظرة على أبي، إنه نائم بعدما نزل واطمأن على جدي وجدتي، خلد للنوم مطمئناً. سألتُ جدتي صباحاً وأنا أحضر القهوة لتحسينها معاً ريثما ينهض جدي بعدما لامت أمي؛ لأنها سافرت وتركت أبي وحيداً على حد قولها، سألتها: برأيك لماذا أمي سافرت؟ هل هي لا تحب أبي وغير مبالية به؟

صمتت قليلاً، ثم قالت: لا.. لا أظن، أحياناً أرى حبها يظهر من عينيها ولا شيء يخفيه، سرني جوابها؛ لأنها رغم استيائها من شخص ما، أي شخص سواء يعني لها أو لا، فيها سمة جميلة أتمنى أن أرثها منها، أنها عادلة وغير متحيزة رغم أن المرأة دائماً توصف بعاطفتها وتحيزها، قلت:

إذاً ما الذي جبرها على السفر برأيك؟

قالت: أمك يا عزيزتي وحتى عممتك هديل ونساء هذا الزمن أغلبهم لا يعرفن معنى الصبر.. وضعتُ القهوة أمامها وكأس الماء وجلستُ بجانبها ويدي فنجان، أحديث الصباح مع الأمهات والجذات والخالات والعلمات في غاية المتعة والحب، حينئذ دائماً تحسدني على وجود جدي وجدتي، تقول لي: لا أحد يحبك بصدق بعد أمك وأبيك مثل جدتك وجدك، جداها لأبيها توفروا مؤخرًا وجداها للأمها منذ زمن بعيد.

تابعت جدي حديثها وأنا أصغي لها.. نحن مررنا بمصائب وكوارث لا تعد ولا تحصى وكنا نقول: سنصبر وستمضي وفعلاً تمضي، لم تكن نهرب أو نسخط بسرعة، أبناء هذا الجيل جيل السرعة، يريد كل شيء بكيسه زر، خاصة بعد ظهور تلك الأجهزة الغبية، أحب أن أسميها غبية وليست ذكية؛ لأنها تجعل الإنسان يسهو بها كالغبي، أثارت ضحكتي.

قلت: لكن يا جدي، صدقاً هذه الأجهزة بقدر ما هي غبية كما تقولين فيها كم كبير من العبقرية، أعتقد استعمالنا لها هو الغبي فأنا وجدت معلومات على شبكة الإنترنت بمحركات البحث فادتني في دراستي أكثر من كتب الجامعة نفسها، وقرأت كتباً كثيرة لم أقرأها في المكتبة، هي عظيمة جداً لمن يحسن استخدامها.

قالت: ومن يحسن استخدامها من هذا الجيل؟ كلهم يسهون عليها مثل الحمقى، حتى أنت التي تنظرين بالأمر، تسهين عليها أحياناً وأتكلّم معك ولا تجيبين من أول مرة.

أطلقتُ ضحكة عالية واقتربت منها أقبلها فضحكت، قلت: أنت اليوم مزاجك ليس على ما يرام، حتماً هذا جدي أزعجك، وما لنا سوى هديل تأتي وتعرف كيف تعدله وتتكلّم مع جدي لكي يدعك وشأنك.

دخل أبي بعدما سمع ضحكنا وبعضاً من حديثنا، قال: من يتحدث عن أبي؟ إنه من أفضل الرجال.. نظرت أمة له شزراً من طرف عينها وقالت: تضرب أنت وأبوك، عدنا للضحك من جديد بصوت أعلى، جدي اليوم حانقة على جدي كثيراً ما أدراني ما فعل لها، قلت لأبي.

قال جدك لا يفعل إلا الجميل، هيا أخبريني يا أمي ما السبب الحقيقي وراء غضبك من الجميع اليوم؟ جلس بجانبها وأمسك يدها، راقبتهم من بعيد وأنا خارجة لتوي، كم بدا مظهرهم مليء بالود.

جدتي امرأة أعظم إنجازاتها عائلة من حب وتماسك، كيف كونت تلك العائلة وضممتها إلى بعضنا البعض في هذا الزمن الذي تباعد الناس فيه، ووضعوا بينهم الحدود؟! ترى عمي منزعًا من أبي تظل تقنعه أنه يحبه ويساعده وقال عنه كل خير في غيابه لينسى في النهاية زلته، وتفعل الشيء ذاته مع أبي وعمي الثاني وعمتي هديل توحدهم دائمًا وتبذل خلافتهم..

إن الحياة أشغلتهم تعود وتجمعهم في بيتها من جديد، تقول: بيتي مفتوح استغلوا وجود أمكم وأبيكم غدًا سنصبح ذكرى، ذكرى عابرة.. تذكرونا وتبتسمون لا تدعوا الحياة والمشاكل تأخذكم من أحبابكم فالعمر يمضي بسرعة أكثر مما تتصورون، أتمنى أن يعود بي الزمن وأرجع طفلة أجلس بين أمي وأبي وأخوتي، كلهم ذهبوا ولن يعودوا، وسنلحق بهم.

تغفر أخطاء الجميع رغم أنها تذكرهم بها لكي لا ينسوها ويكرروها على حد تعبيرها، وتطالب بحقوقها، وتعطي حقوق الآخرين، وتساعد الناس بالسر والعلن، ولا يخيب أحد جاءها ليطلب طلبًا، تحب الله وتحب أفعاله، لذا كانت دائمًا تقول فلنصبر ليأتي الفرج، وصبرها دائمًا يثمر، أعتقد أن الله يحبها أيضًا.

أما جدي فهو رجل مختلف عن جدتي، له قدرة كبيرة على الصمت، لا يتحدث إلا للأمر الضروري، ولا يحب الزن والكلام في غير موضعه، لا يطلب ولا يعاتب إلا للضرورة، ولا يأمر ولا ينهي، وعندما يكون غاضبًا وهذا نادر يكون عكس نفسه بطريقة غريبة! ثم ما يلبث ليعود لطبيعته الهادئة مجددًا.

يقرأ القرآن دائمًا بعدما ينهي أعماله، ينام باكراً ويستيقظ باكراً ولا أحد يجزؤ على تغير روتينه مهما كان، يذهب إلى محله التجاري صباحًا يقرأ بعض الكتب ويتحدث مع أصدقائه أو ربما معارفه، ليس له صديق مقرب سوى مصحفه، يصلي في المسجد، وجهه يشع نورًا، يستم ابتسامته عريضة عند دخوله للمنزل مساءً، يحب أحفاده كثيرًا وهم يحبونه لكن ليس أكثر من جدتي مهما

أغراهم بمزيد من الحلوى، فقط جدتي تستطيع أن تحترق عالمه وتتكلم وتأمّر وتنتهي وتضرب بقوانينه عرض الحائط سواء أعجبه أم لا.

أبي نشأ في كنف أم وأب متساكين، أم قوية فعالة، وأب هادئ حكيم، فورث صفاتها معاً ليصبح رجلاً قوياً وحكياً، ربما أنا أجزء أن أسميه حكياً لأنه أبي، والفتيات دائماً يعجبين بأبائهن، فأمي ربما تراه يتسم بالبرود وغير مبالٍ أحياناً، لا أدري إن كانت اللامبالاة من الحكمة في كثير من المواقف!

أصعب القرارات التي شهدتها على أبي عندما قرر أن يبقى في مدينته، رغم الحرب ورغم الألم ورغم سفر عائلته وزوجته وابنه المدلل الصغير وابنه الكبير. كنتُ أتساءل دائماً.. أي ارتباط هذا بالأرض والأهل يجعل المرء مثل شجرة ذات جذور صلبة ممتدة صعب اقتلاعها رغم كل الظروف؟ أي عاطفة نبيلة زرعت بهذا الرجل جعلته أصيلاً هكذا لا يتخلى عن أهم سبب لوجوده وهم في أمس الحاجة له حتى لو لم يبينوا؟ الآباء يبقون آباء ليكبر أبنائهم ويشيخوا هم، حينها يصبحون أبناء، أبناءً لأبنائهم وآباء لهم في الوقت ذاته.

قالت أُمِّي لأبي قبل أن تسافر: لستُ قلقة عليك؛ لأنك في حضن أمك وأبيك وولد مثلك بار لأهله ولأرضه لن يضيع، بكت واقتربت منه وحضنها ومسح يده على رأسها.. وأنتِ لن تضيعي، وأسر لن يضيع، ستنتهي هذه المهزلة ونعود معاً ببال مرتاح، في النهاية أنا لا أستطيع أن أحملك على شيء لا تطيقينه، وأنا إنسان أشعر جيداً وأفهم معنى أن يخاف المرء وأن يحيا بالخوف وأن يقبله أخيراً ليمر.

لذا عيشي تجربتك كما اخترتِ أنتِ، وهذا بيتك سيمتلي مفتوحاً لك، وإن لا سمح الله حصل الأسوأ ربما نحن نأتي إليك وأستعد هذا.. سمر، أنا رجل بدأ بهرم لا أريد أن أصرف سنين حياتي الباقية في دولة لا تعرفني ولا أعرفها، ليس بيننا رصيد ذكريات مضحكة ومبكية، ليس بيننا أصدقاء وأهل وأماكن أهرب إليها.

أتدري لما دعمتُ أسر للنهاية رغم أنني شعرت بجزء مني يتخلى عني بسفره؟ لأني لا أريد أن أكون عائقاً بين امرئ وأحلامه، وما بالك إن كان هذا المرء ابني، ولو على حساب نفسي، هذه

حياته وهذه خياراته وأنا قدمت ما أستطيع كأب والباقي عليه أن يواجه الحياة ابتداء من الألم الكبير الذي عاشه في الحرب وأنا لا حول لي ولا قوة.. أتعرفين، أتعرفين ماذا؟ تستطيعين أن تقدمي لابنك كل شيء، حب وحنان وقبول واكتفاء مادي ودعم نفسي وكل المؤهلات ليكون راضياً وسعيداً، لكن لا تستطيعين أن تقدمي له السعادة ذاتها والرضا ذاته، رغم أنك بالنهاية هذه غايتك بكل ما تقدمينه لأجله، وإلا لو كان الأهل يستطيعون ذلك، لما بقي إنسان شقي على وجه الأرض بفضل والديه.

نظرت له بحب، أنت أفضل زوج وابن وأب، عندما أرى ندين تشبهك بطباعها، أفتخر وأحبها أكثر، وكنت أتمنى أسر أن يكون مثلك لكن مورتاته ذهبت لأمه بتطرف، قال وما بها أمه، هل يوجد أروع من ذلك بابتسامة، سمر لا تقلقي عليه في النهاية هذا جزء من رحلته سيغنيه وينضجه، الخوف يجعلنا أقوى عندما نتجاوزه، في النهاية كلنا ضعفاء، هشين جداً، لولا القوة التي نستمدّها من الله.

كان حديثهم الأخير ودياً ولطيفاً وبعيداً عن اللوم والغضب والحق مثل المرات الماضية.. ربما أرادوا أن يودعوا بعضهم بذكرى جميلة يحملونها معهم لأيامهم القادمة التي سيواجهونها لأول مرة وحيدين بلا شريك.

هذا الرجل الذي اسمه أبي أحبه جداً رغم أنني أختلف معه ولا أفهمه أحياناً، لكن حتماً سأفهمه يوماً ما، عندما أكبر وأصبح أماً وأفهم معنى الوالدين كما يخبرني دائماً.

ماذا يجدر على الإنسان أن يتعلم من الحروب؟ ربما يتعلم قيمة الأمن وقيمة الأمان، قيمة الوطن وقيمة الأهل وقيم الحب والاحترام والسلام والقبول ونبذ الاختلاف والخلاف والبدء بإصلاح النفس قبل مطالبة الآخر بإصلاح نفسه، والامتنان لنعم كثيرة نعتبرها تحصيل حاصل، وأخيراً نتعلم كيف تواجه الخوف.

قال إرنست همنغواي في روايته لا تزال الشمس تشرق على لسان أحد الأبطال:

(إن الحرب بلاء منيت به الحضارة الإنسانية، وإنه كان من الأجدى تجنبها)

ربما كان من الممكن أن يتجنبها الإنسان لو فكر بطريقة وين داير الذي كتب في أحد كتبه:

نفهم الحكمة في هذه الملاحظة كالتالي: عندما تحكم على الآخرين، فأنت لا تقوم بتعريفهم، وإنما بتعريف نفسك كشخص يصدر الأحكام على الآخرين، نحن عاجزون عن فكرة (العدو)، وبالتالي عاجزون عن فكرة القتل وشن الحرب على أي أخ لنا في الإنسانية، كما يجب الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين أن يقولوا (ليس هناك شجرة تملك أغصاناً غبية إلى درجة التصارع مع بعضها البعض)

تكشف دراسة تاريخ البشرية أننا كنا في حرب مع كل غصن من أغصان الشجرة ذاتها لأكثر من خمسة وتسعين في المئة من التاريخ المدون. هذه نتيجة إقناع الأنا المزيفة أننا منفصلون، وأنها في حاجة إلى القتال والسيطرة، وإفناء (الآخرين) الذين يعيشون على الضفة الأخرى من النهر، يتكلمون لغة مختلفة ويدينون بدين مختلف أو لديهم تقاليد ثقافية مختلفة..

إن التنافس والقتال والاستغلال والحقد والصراعات من الأوصاف التي تتبع جميعاً من الذات المزيفة التي تخلقها الأنا المزيفة عندما نسمح لها أن تقنعنا أن علينا المحافظة على وهم انفصالنا.. إن الطموح هو في أغلب الأحيان رغبة قوية في التفوق من خلال الحكم على أنفسنا أننا متفوقون على الآخرين. الحقيقة هي إنهم (نحن)، لكنهم يضعون قناع (هم) عوضاً على أن ننتبه إلى اتحادنا رحنا نركز على اختلافاتنا التي تقنعنا بها الأنا المزيفة).

الساعة الثالثة فجراً..

سمر تجلس في الفراش لا تستطيع النوم، يزن نائم بجانبها، وآسر ينام في غرفة أخرى، تفتقد لزوجها عبد الله، وتفكر في ندين ويشغل بالها التأخر الدراسي ليزن في المدرسة، تتذكر الأيام الماضية وجمعة العائلة وبيت أهلها وبيت حماها وتذكر شوارع المدينة طرقها وحدائقها ومحالها وناسها وتشعر بالحنين.

تفتح هاتفها الجوال لترى إن كان عبد الله متصلاً لتبث له ما يقلقها، فهو كان وما زال الملجأ

الوحيد لها في هذه الحياة حيث إنه أقرب إليها من أمها وأبيها وحتى نفسها، لذا اختارته الحياة لتمتحنها بغيايه رغم أن هذا الغياب قد رمم بلقاءات عبر الشاشة قد تفي بالغرض أحياناً. لم يكن عبد الله متصلاً، نهضت من فراشها وخرجت إلى الصالة وارتقت على الأريكة بسئم، التقطت جهاز التلفاز لتشاهد شيئاً ما لتهرب به من أرقها الذي بات مصاحباً لها منذ عدة سنوات، وإذا بصوت أنين يخرج من غرفة أسر، نهضت واتجهت نحو الغرفة لتطمئن عليه، فتحت الباب بروية واتجهت نحو السرير، فإذا بأسر محمر الوجه تعتليه حرارة واضحة وبات كأنه في حالة هذيان، اقتربت بلهفة ولمست جبينه الحرارة واضحة والعرق يتصبب منه وهذيانه واضح أيضاً!

توترت وشعرت بالارتباك، ماذا تفعل؟ ركضت نحو الهاتف واتصلت بأخيها مرة تلو الأخرى لا أحد يجيب، يا الله ماذا أفعل؟

ذهبت مسرعة للغرفة الأخرى لتوقظ يزن لكي تطلب سيارة أجرة تسعف ابنها إلى أقرب مستشفى، وفي هذه الأثناء رن هاتفها، المتصل عدنان أخوها، ردت بلهفة حارقة والدموع تملأ عينيها، عدنان أرجوك تعال أسعف أسر، لا أدري ماذا أصابه يهذي وحرارته مرتفعة جداً. في اليوم الذي يليه، الساعة السابعة مساءً...

بعد محاولات عدة للاتصال بأمي وهي غير متصلة والهاتف لا يستجيب بدأ القلق يتسلل إليّ وبدأ الخوف يتربع على مكانه الذي هو موجود أصلاً في داخلي، يا ترى ماذا حل بهم؟ أترى ثمة مشكلة ما حصلت معهم؟ يا إلهي، أيعقل أنه حدث مكروه لأحد منهم؟ أقول لنفسي اهدئي اهدئي أيتها الساذجة ماذا سيكون جرى لهم! الحمد لله هم في بلد حضاري، وإن كان ثمة مشكلة فمن المؤكد سيجدون لها حلاً ما؟ فجأة يتدخل عقلي تبّاً لك وللحضارة تلك ماذا ستفعل امرأة وحيدة مع أبنائها وعائلتها منقسمة بين الشرق والغرب يحضارهم تلك، قلبي يهدئ من روع الاثنين، الله معهم ومعنا في آن معاً، كفى، كفى، اصمتا، ستتصل وكل شيء سيكون بخير.

في الثامنة والربع يرن الهاتف أُمي المتصلة، أوه ماما أرجوك طمئيني كيف حالكم هل أنتم بخير؟ تتكلم بصوت متعب هادئ، الحمد لله لا مشكلة نحن بخير، طيب لماذا لم تتصلي من البارحة؟

كنت مشغولة قليلاً، وآسر تعب ونقلناه للمستشفى أنا وخالك.

ما به آسر ماذا جرى له؟

وعكة صحية خفيفة لا تقلقي ولا تخبري أباك كي لا يتضايق.

المثير للسخرية نحن النصفان الذين أحدهما بالشرق والآخر بالغرب نخفي بعض الأمور على بعضنا البعض لغاية واحدة وهي الحب، وربما الشفقة؟! ثمة آلام أصعب من أن تُحكى وتُروى وتُقص وتُوصف، أصعب من أن تُكتب.. ثمة آلام تعجز الكلمة أمامها فلا تجد معنى يفسرها.. كيف للأبجدية أن تختار المعاني والحروف لتصف ما تفعل الحروب بالشعوب؟

كيف للأدب أن ينصف الحقيقية عندما يروي آلام عائلة تسكن خيمة؟ كيف لنا أن نصف شعور أم تكلّي وطفل محروم ولاجئ متعب وإنسان فزع ووطن يحتضر؟!

مر يومان ظللت أحارب بهما القلق وأستجدي النوم ذاك الصديق الوفي الذي خان خيانة عظمى في الأشهر الماضية، أذكر في أيام مراهمتي عندما كان أحد ما يسألني عن أجل شيء في الحياة بالنسبة لي؟ كنت أضحك ثم أجيب بسرعة وبشكل متتال: النوم ثم النوم ثم النوم.. أهو ذا بدا فعلاً حالة جديرة بالتقدير والاحترام! ليس فقط على سبيل الضحك، بل قد يكون على سبيل النحيب عندما يصبح غاية التمني، ليس ثمة شيء أقسى على الإنسان من أن يُجرّم النوم ويظل فكره مستيقظاً، عقاب مؤلم حقاً للنفس والجسد.

الساعة السادسة صباحاً.. وأنا أتقلب في الفراش وجدت أن لا جدوى من الانتظار أكثر، صديقي خان ونسي وغاب لذا الأجد بي ألا أنتظره عله يياغتني فجأة دون استئذان، ويرأف بعينيّ المتعبتين، نهضت من فراشي بتململ وبطء وذهبت إلى المطبخ، شربت كأس ماء وجلست على الكرسي، الساعة أمامي تستمر عقاربها بالحركة لا تتعب ولا تقف ولا تعتذر ولا تأخذ إجازة ليوم واحد على الأقل، لا تنتظر أي أحد. مضى على الحرب في بلادي ثمان سنوات والساعة طوال هذه المدة لم تقف أو تنتظر.

عمرك الحقيقي ليس سنوات يضيفها الوقت لتاريخ ميلادك.. عمرك الحقيقي ليست الأيام

التي تحياها بل الأيام التي تحيا فيك..

اللحظات التي دمرتك واللحظات التي أعادت بناءك.. الضحكة التي أخبرت قلبك بأنه ما زال حي..

الدعة التي أطفأت لهيبه وأيقنت بأنه مات.. اليأس الذي اغتال روحك دون رحمة..

الأمل الذي أعاد إحياءها من جديد؟! عمرك مزيج من فيض مشاعرك، التي قدر لك أن تحياها مرة مختاراً ومرة مسلوب الإرادة؟

مزوجة بالتعب أرمي بنفسي نحو الأريكة بعدما قطعت صباحاً مسافة ساعة ونصف سيراً على الأقدام، عندما أكون بحاجة للهروب من ذاتي ومن وساوسي ومن أوهامي أخرج وأسير على أقدامي، أمشي فوق هذياني الأحقق.. كم هو عالمي الداخلي عميق وغامض.. أجاهد كل يوم لأفهمني ولأستوعبني ولأحضنني أنجح ثم أخفق ثم أنجح، ثم أخفق من جديد..

كلما شعرت نفسي فهمتني، كلما وجدت نفسي عاجزة أمام ذاتي، نحن مخلوقات عجيبة، فينا تنطلي كل التناقضات في آن معاً، والحياة تشبهنا أم نحن من نشبهها لا أدري!

أيها الرحيم...

تبتدد كل معاني الوحدة والخوف والغربة عندما أكون بقربك فتغدو أنساً وسكينة ورحمة، لم تعد ثمة وحدة، بل هي عزلة حبيب بمحبوبه..

ما دمتَ تسمعني فلتصم كل الآذان عني، لا يهم.. ما دمتَ تشعر بي فلينجي العالم كله إحساسه عني، لا يهم..

ندين

السند

(محمد)

يسمى الشيء الذي تتكىء عليه عندما تميل السند، يسمى الشيء الذي يحملك قبل أن تسقط السند، ثمة فارق كبير بين أن تكون أنت السند أو أنت الذي يحتاجه، لكن مهما عشت دور السند وكنت على مستوى شجاعته تأتي لحظات تشعر بها أنك أنت الذي بحاجة لمن تستند عليه هذه المرة رغم أنك لطالما كنت السند.

بعدما توفي والده خاضت أمه لمحمد تجارب كثيرة وعاشت معاني جديدة من معاني الحياة، وجدت نفسها شابة أرملة بلا شريك، ووجدت بحضنها أربعة أطفال بلا أب، ووجدت أهل زوجها وأهلها غير قادرين على المنح أو العطاء أو حتى المساعدة إلا نادراً، ببساطة لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وهم لا يملكون ما كانت بحاجة.

أهل زوجها مساكين وطيبون إلى حد السذاجة وبسيطون جداً، مردودهم المادي ضئيل بالنسبة لعائلتهم الكبيرة المؤلفة من الكبار والصغار ومتدرجة بالأجيال، حتى حمزة ابنهم المتوفي كان يقتطع من راتبه جزءاً بسيطاً ليقدمه لهم، يقول لزوجته فاتحاً ذراعيه هذا واجبي في النهاية، أليسوا أهلي؟ تشعر زوجته ببعض الغيظ فتكتمه أدباً منها، نعم.. نعم أهلك، وواجبك..

يقول لها: أعلم أنك مُغتَاظة؛ لأن أعباءنا المادية ازدادت في الآونة الأخيرة، لكن ثقي تماماً، عمل كهذا لا أخسر فيه بل أربح، إيه أربح، أنا واثق، سأبقى أفق معهم لآخر يوم في حياتي، وأنت ستبقى أصيلة وتعرفين معنى أن يسند الولد أهله وستشكريني عندما يكبر الأولاد ويعاملونا مثلاً نعامل أهلنا، ومع كل هذا نحن مقصرون، مقصرون جداً.

تبتسم بوجهه ابتسامة يشوبها الحزن: حمزة أنا لست ضدك بسأم، هذا واجبنا حقاً، لكن أنت بتصرفك هذا تدفع أخاك حسن للاتكالية أكثر، أنا أقدر أنه يدرس لكنه شاب بطول الحائط وعرضه فليعمل، فليعمل وليساعد عائلته، أليس هذا واجبه أيضاً، واجبه مثلك مثله بل هو محتتم

عليه الأمر والمسؤولية أكثر منك، إنه عازب بلا مسؤولية، أنت مسؤول عن زوجة وأربعة أولاد! ما هذه الاتكالية والحماقة يا إلهي؟

يلتفتُ إليها ويرمقها بنظرة قاسية، من وجهه يبدو أنه غاضب ومتعب ولا طاقة له بأحاديث غير مجدية، فيختصر الكلام الكثير بداخله بوضع كلمات يلقيها على مسامعها: هذا أنا وهؤلاء أهلي، ربما نحن مليئون بالعيوب والنقائص لكننا مثل الجميع، إن رأيت ما يعجبك قدره، وإن رأيت ما لا يعجبك تجاهليه وغمضي طرفك وحاولي دائماً ألا تتدخليني وبينهم لنكون سعداء ومرتاحين مثلاً أنا لا أ تدخل بتفاصيلك الكثيرة بعلاقتك بأهلك، وصلتك الفكرة. تهر برأسها يبطء بملامح مختلطة من الحجل والأسى على أنها موافقة.

لم يكن نبأ وفاته بأخف وطأة عليهم منها بل أشد وطأة، كانوا يحبونه كثيراً ويقدرونه بل يقدسونه أحياناً. جلست وحيدة أخيراً مع نفسها وأمام نفسها بعد وفاته بشهر كامل، تذكرت الأيام الماضية بقساوتها وبثقلها وببطئها وبسوادها الكالِح، ليس ثمة مفر، واقع جديد، لا أحد يستطيع أن يغير شيئاً، أفضل ما قدمه لها أهلها رأيهم، إنك صغيرة والعمر أمامك لا تقتلي نفسك بالحزن، كله لحكمة بالغة ربما يعوضك الله بأفضل منه، ما زالتِ شابة ومرغوبة، أولادك لست فقط أنتِ المسؤولة عنهم، دعي جدتهم تأخذهم لبيتها وتقوم بتربيتهم، في النهاية هم أولادهم، تقول أمها، ثم تلتفت لأخواتها أليس كذلك؟ أليست هذه الأصول والتقاليد؟

يا بنتي، نحن مهما كنا نحبك ونحبهم، مشيرة بكفها نحو أحفادها الذين يلعبون في الغرفة المقابلة، في النهاية سيقون أولادهم ويحملون اسمهم، أنت لا تستطيعين على حمل تلك المسؤولية والهم، تدمع عيناها وتحاول إخفاء وجهها ملتفتة لكي لا تراها ابنتها التي تجلس أمامها جامدة تماماً تستمع فقط دون حراك.

تنطق أختها الكبيرة، كلام ماما كله صحيح وواقعي وأنتِ ما زلتِ شابة والمسؤولية عليك كبيرة، دعي أهل زوجك يتولون الأمر، هيا ارمي الحزن وانضحي لأكل معاً، ما بكِ لا تتحركين، تعزها أختها الصغرى لكي تدعها وشأنها ثم تجلس هي بجانبها، تلف ذراعها حول كتف أختها وتبكي معها بصمت دون أن تنبس ببنت شفه.

عند أهل زوجها بدا الأمر مختلفاً، فكانت هي تواسيهم بدل أن يواسوها وكانت هي قلقة عليهم بدل أن يقلقوا عليها؛ لأنهم يبدون شبه منهارين، أبوه وأمه وأخوته، ينظرون لأولاده ويكون أكثر ويغوصون بالأسى أكثر وأكثر، عمها قال لها بانفعال وهو يحتق بالعبرات: هؤلاء الأولاد أمانة في عنقك ونحن بإذن الله لن نتخلي عنهم ما حيينا ولو اضطر الأمر أن أعمل دون توقف، فقط ليكون أولاد حمزة بخير، هؤلاء أولاد الغالي، أولاد الغالي لن يحتاجوا شيئاً وأنا حي، نظرت إليه بامتنان يلفه حزن عميق وعيناها تفيض من الدمع، يكفي أن تساعد نفسك عما، فهو مريض وعمله يشكل عبئاً عليه، كيف له أن يعمل من أجل أحفاده؟ مسحت بكفيها دموعها، لا أحد يستطيع لومه فهو يمتنى لو يستطيع أن يقدم روحه لأبناء ابنه رغم قلة حيلته وهذا حقه. ليس ثمة أصعب من أن يشهد الأب منية فلذة كبده.

حماتها قالت لها بعد عشرين يوماً: لم تكن تستطيع الحديث بهم ولا الحياة بشكل طبيعي، ابنتي هؤلاء الأولاد مثلما هم أولادك هم أولادنا، لنا فيهم الحق مثلك لن نتخلي عنهم أنا متأكدة، اختنقت بعبراتها، قلبك لا يطاوعك، أعرف.. أعرف أنك صغيرة والحياة أمامك لكن، لا.. لا أنت فتاة أصيلة كما كان يصفك حمزة، أه يا حمزة، أي هم كبير تركت من بعدك، أي ظهر كسرت، أي قلب حرق!

قال محمد: أمي، أبي مات أليس كذلك؟ لن يعود مجدداً؟

نظرت لابنها البكر مندهشة من هدوئه واتزان، كان جالساً على الأريكة مقابلها نهضت وجلست بجانبه وضمت رأسه لصدرها، نعم بني، أبوك توفي، ولن يعود إلى هنا، لكن ذهب إلى مكان وزمان كلنا سنذهب إليه في النهاية، طريق موحد يسير نحوه الجميع، مع فارق بالتوقيت ليس أكثر.

هذا يعني أنني سأراه؟

نعم ستره عندما تعيش في الحياة وتحقق أهدافك وأحلامك ويفرح أبوك بكل خطواتك وإنجازاتك ويرافقك بكل الرحلة وأخيراً، ستصبح رجلاً عجزاً بعمر أجدادك ثم تنتقل لرحمة الله وهناك سنلتقي كلنا في عالم أجمل، عالم ليس فيه سوى الجمال والسعادة.

أأنت متأكدة أمي؟

نعم متأكدة..

لكني سأشتاق له.

نعم وأنا سأشتاق له أيضًا، سأشتاق له جدًا لكن أتدري، ثمة خبر رائع!

ما هو؟

أبوك جسده فني لكن روحه لا تفنى، كلنا هكذا، لذا فإنه يرانا ويشعر بنا ويفرح لفرحنا ويحزن لحزننا، الروح تشعر جيدًا يا بني ولا تفنى أبدًا..

يعني هو الآن معنا؟

نعم، معنا ويشعر بنا وأفضل شيء نقدمه له أن يرانا سعداء وأن نكمل طريقه ونحقق له حلمه بنا.

أي كان يحلم أن أصبح طبيبًا، ويحلم أن نتقل لبيت أكبر، وكان يحلم أن يساعد جميع عائلته فلا يحتاجون أحدًا، كانت أحلامه كثيرة وفيها خير كثير للناس، ليته حققها قبل أن يذهب، ترك كثيرًا من الأحلام.

لكن يا محمد، ترك أبوك ثروة كبيرة قبل ذهابه.

نظر باندهاش، أين هي؟

أمامي، أنت ثروة حقيقية أنت وأخوتك، إن ترك المال فقط سينتهي المال وسيغيب أثره، بينما إن ترك إنسانًا فالإنسان إن عمل بحق وصدق، يحقق المعجزات.

لبث يفكر في كلامها، صمت كبير لقه وتأمل مبهم غاص به بدا لا يفهم كثيرًا ما تريده الحياة منه، لكن هو فهم بعضًا من كلام أمه بشكل جيد بل شعر به مؤخرًا، فكر أن أمه بدت تتحدث بمصطلحات أبيه وكأنها باتت تشبهه فقط على هيئة امرأة، أم أنه بدا له ذلك من فرط اشتياقه.. لا يدري.

شظية واحدة قادرة على إنهاء حياة أبيه بكل ما يحمل في جعبته من حساسة للعيش.

البشر حتمًا باتوا بحاجة لأشياء تحيي بسرعة هكذا، أكثر من حاجتهم لأشياء قادرة على إنهاء الحياة بتلك السهولة والسرعة والخفة.

ما بال الإنسان يبدو أكثر وحشية كلما تقدم في العمر! ما بال هذه الحياة تبدو وكأنها حيوان مفترس يكشر عن أنيابه عامًا بعد عام!

أبي أخبرني أن الحياة صعبة لكن ليس بذلك المقدار الضخم الذي يجعلني أبحث عنه ولا أراه.

بقي في حضنها دون أن ينبس بكلمة واحدة، فقط شهق بعد صمت طويل، ثم انساب دموعه بغير روية، شدته نحوها أكثر وضمته بشدة وكأنها تريد أن تقبض عليه بروحها كي لا يذهب هو أيضًا.

بدت الصدمة قاسية على ابنها البكر كثيرًا، لأنه أكبر أخوته وأوعاهم، كلما يكبر الإنسان تتعقد الأمور ربما.. الطفولة نعمة، من الجيد أن أخوته صغار وليسوا مراقبين مثله، ربما كان العبء عليها أكثر.

نام الأولاد واطمأنت عليهم وعادت لسريها تحاول أن تسرق النوم، لم تستطع فكرت يجب أن أعتد على الله ثم على نفسي هذا الواقع،

هذا الموجود، هذه الحقيقة. توصلت لهذا مؤخرًا بعدما خذلت كثيرًا ومن الجميع، ثم فكرت كيف أطلب ماء من دلو فارغ!

من لا يستطيع مساعدة نفسه كيف له أن يساعدك؟! أو أليست حماقة كبرى أن أعتد على أهل زوجي الذين لو كان عندهم شيء ليقدموه كانوا قدموه لأنفسهم بدل أن يعتمدوا على ابنهم المتزوج ولديه أربعة أطفال.. عندما كان حمزة حي يرزق كنا نخوض جدالات عقيمة بأن هذا واجبه وأنا لا أنكر، لكن لأمه وأبيه وليس لعائلة بأكملها، نعم عمي وعدني أنه لن يتخلى عنهم وأنا مدركة لحبهم للأولاد، لكن هل الوعود تكفي؟ هل ما يقدمه سيسد رمق جوعنا؟ أنا متأكدة أنه لن يقدم شيء، الكلام والوعود أسهل شيء على المرء؟ لا أعلم ماذا أقول، بدا كل شيء مثير

للاشمئزاز. أستغفر الله ماذا يجري لي يا الله، وضعتني في اختبار صعب، أعني عليه.

نهضت من السرير، حملت كأس ماء بجانبها وشربت منه قليلاً واقتربت من النافذة المطلة على الشارع، رفعت بصرها نحو السماء، بدا القمر بدرًا والسماء صافية، تحب السهر مع حمزة على ضوء القمر كانت، وتحب الليل والاستماع لحديثه الذي لا يمل على الإطلاق، كانت هي مستمعة جيدة وهو متحدث رائع، شيق، لبق.

أحلام كبيرة حلموا بها ومخططات كثيرة خططوا لها وكلمات كثيرة تناثرت من أفواههم بعدما عبرت من أفئدتهم أي رجل كحمزة؟

تذكرت كلام أمها وأخواتها اللواتي لم يجدن عزاء في محتتها إلا زواجًا آخر ينسبها هموم الأول، والأولاد تتقاسمهم.. الصغار معها، والكبار عند بيت جدهم لأبيهم، ما أسهل وضع الحلول عندما لا يتعلق الأمر بالشخص نفسه، شعرت نفسها ضائعة، كلام ونصائح أهلها مصيبة أخرى.. هم أيضًا لا يمكن أن يقدموا شيئًا أو يمنحوا المساعدة فهم غير مسؤولين عن الأولاد أصلاً رغم حبهم لهم، لكن الحب لا يكفي، وهم وجدوا من الظلم لها وهي ما زالت شابة في الثلاثينيات من عمرها أن تدفن نفسها من أجل أولادها على حد تعبيرهم.

صلت بصوت حانق مليء بالقهر والغضب.. فليأخذ الله من قتله، فليعذبه، فليحرق قلبه بأغلى ما يملك.. لا أعرفه لكنك تعرف يا الله، هذا الخسيس المجرم الذي شرد عائلة بأكملها. فليلعن الله الحروب وأصحابها وكل الأطراف، فليحترق الجميع.

كانت غاضبة جدًا، بداخلها نار مشتعلة، غير متوازنة، ومنهكة جدًا حد التعب.

وجدت نفسها أمام معركة كبيرة تخوضها وحيدة لحماية ورعاية نفسها وأولادها في آن معاً، حتمًا لا يمكن أن نسميه لسوء حظ بل لحكمة ما؛ لأننا لو رمينا كل شيء على عاتق سوء الحظ لوجدنا وجودنا أصلاً على كوكب يعاني من الاحتباس الحراري والكوارث الطبيعية والحروب والأمراض أيضًا -سوء حظ- وهذا محال.

مضى على تلك الذكريات المؤلمة سنوات، نضجت فيها وتوازنت وتصلحت مع الألم وتقبلت

ما جرى، أرخت قبضتها أخيراً معلنة السلام.

الساعة السابعة مساءً، المدينة شبة ساكنة وأخبار الحرب صارت مملّة ومبتذلة ومكررة وغير مجدية رغم أنها تبث القليل من الكرب في القلوب كمجسد مريض ألف الألم وملّه في آن معاً.

في إحدى غرف المستشفى ذات اللون السماوي الهادئ في وسط المدينة، كانت ليلي مستلقية على السرير ويدها موصولة بالأنابيب التي تمرر الدواء لجسدها المتعب، يفتح الباب عليها محمد ببطء كي لا يزعجها، يسير باتجاهها بخطا ثابتة ثم يجلس على الكرسي بجانبها ويضع يده فوق يدها، ويهمس: أمي كيف أنت الآن؟

كانت مغمضة العينين ما إن سمعت صوت ولدها فتحت عينيها والتفت نحوه، وقالت والتعب يبدو على سحتتها: أنا بخير لا تحمل همي، أنا جيدة، مرّ الطبيب مرة أخرى منذ قليل وطمأنني أن كل شيء بخير، يهز رأسه موافقاً نعم أمي، استأصلوا لك المرارة وانتهينا، الحمد لله نجحت العملية.

الآن عليك أن ترتاحي ولا تحملي عبء أي شيء هذا ما قاله الطبيب.

تقاطعته أمه قائلة: أخبرني كيف حال أخوتك، أين هم؟

يجيبها ألم أخبرك ألا تحملي همنا، أرجوكِ كفاك قلقاً، الحمد لله كلهم بخير، مرتت على المنزل قبل مجيئي إلى هنا والأمور جيدة، يقترب منها أكثر ويشد على يدها وبصوت خافت يقول لها: أمي أصبحنا كباراً ما عدنا أطفالاً كفاك خوفاً علينا.. أختي صبية تستطيع إدارة المنزل بغياك وأخوي شباب أصبحوا والحمد لله، ألم يحن الوقت لكي تتنفس الصعداء وترتاحي وتسترخي أخيراً، تبسم وتخرج دمعة مباغته من طرف عيناها، الحمد لله يا بني، الحمد لله.

يمر بضع من الوقت ومحمد بجانب والدته يحدثها تارة ويصمتان تارة أخرى، يحاول التخفيف عنها ومساندتها كما يفعل دائماً باعتباره الولد البكر الذي صنعت منه الحياة رجلاً منذ الصغر.

سنوات عدة مضت أثبتت أنه كان وما زال رجل أمه الذي منحها إياه القدر بعدما سلب

منها رجلها الحقيقي، كانت أمه وصديقتها، يتحدثان عن كل شيء، يحسبان مصروف اليوم في آخر النهار ويخططون للغد، يحدثها عما جرى معه خلال يومه وتحديثه عن أحداث يومها وتخبره دائماً أنهم سينجحون أخيراً في تحقيق حلم أبيه.

غفت قليلاً ثم استيقظت فرأت الغرفة مليئة بأولادها الأربعة ملتفين حولها، اثنان بجانبها محاذين لرأسها واثنان عند قدمها، بدت صفرة وجهها تلمع من آثار العملية الجراحية، اقتربت منها ابتتها فرح قبلت جبينها وقبلت خدها ووضعت رأسها على صدرها، وقالت لها: لن أدع شيئاً يزعجك بعد اليوم أبداً يا ليل، ستبقين لولو حبيبتي ودولتي حتى لو كنت تحبين ابنك البار هذا أكثر واحد من بيننا -أشارت إلى محمد- نظر لها باستغراب وضحك.

قال: أي حب هذا، دك من المبالغة، الحب لكم والمسؤولية عليّ، ضغط همام على قدمها برفق، وقال لافلت النظر نحوه: نحن هنا، ماما البيت من دونك جسيم، الكل يلقي الأوامر عليّ، أرجوكم تعافى وعودي للمنزل، أنيري، نظر لهم يامن ممتناً ومتابعاً لأحاديثهم دون تعليق فهو أكثرهم خجلاً، قالت أمه لافته رأسها نحوه: وأنت يا يامن، كيف حالك في البيت من دون أمك؟ احمرّ وجهه، حالي جيد لكنني لست بأفضل حالاتي طبعاً بسبب غيابك، لكن أنا متأكد أن هذه المحنة جيدة من أجلك كي تتعلمي أن تعتني بنفسك أكثر.

قالت فرح: يسكت يامن ثم ينطق بالجواهر، فعلاً أنت بحاجة لإعادة النظر في علاقتك بجسدك الذي أنهكتيه من التعب.

تهز رأسها ببطء، نعم الحق معكم إنه لأمر مهم يجب أن ألثفت إليه، هيا انهضوا واذهبوا إلى المنزل وتابعوا دروسكم، الامتحانات اقتربت، عمليتي أتت في وقت غير مناسب، تعالت أصواتهم، ما هذا الكلام ماما، ما هذا الهراء، قال محمد: لا بأس، أنتم اذهبوا وتابعوا دروسكم وأعمالكم، وأنا أبقيت اليوم عند ماما.

أجابت فرح: أنا سأبقى واذهب أنت وأخوتك، رد لا.. لا، من الأفضل أن أبقى أنا اليوم، أنت أبقى غداً وأنا اليوم، هيا اذهبوا خذي أخويك واذهبوا.. استسلمت لما قال وودعوا أمهم وأخيهم الكبير وذهبوا إلى منزلهم متمنين السلامة والتأثر السريع للشفاء لوالدتهم، فهم قلقون

جدًا عليها مما جعل مخاوفهم الدفينة تظهر على السطح مجددًا، فقدنا أبانا لكن أمنًا لا.. لا نستطيع. يدق باب الغرفة بهدوء، يجيب محمد مستغربًا بعد ذهاب أخوته وأقربائه، من ذا الذي من الممكن أن يأتي في هكذا وقت اقترَب فيه موعد الزيارات من نهايته!

يقول: تفضل، يفتح الباب ببطء تظهر امرأة مهندمة المظهر، لطيفة الحضور، في أواخر العقد الرابع من العمر بيدها باقة ورود زاهية. ينظر إليها محمد ووالدته باستغراب مختلط بحياءَ طائنين أنه ثمة خطأ ما بزيارتها هذه؛ لأنهم لم يسبق لهم رؤيتها من قبل، لكن عندما استمرت في الدخول عند رؤيتهم واقتربت من السرير، تأكدوا أنها تعرفهم ربما، وقفت بجانب السرير في الطرف المقابل حيث يقف محمد ثم ابتسمت، وقالت: أنا والدَة تميم زميلك في العمل، موجهة كلامها لمحمد، ساورة الدهشة والسرور في آن معًا، وقال لها: أهلاً وسهلاً خالة تفضلي.. تفضلي، مشيرًا للكرسي بجانبها، جلست وشكرته ثم تابعت حديثها ملتفتة نحو السيدة ليلي التي هي الأخرى رحبت بها بإيلاء وحرمة برأسها.

لطالما حدثني تميم عن محمد وأسرته وكم أحببت التعرف عليكم، لذا عندما أخبرني أنك دخلت المستشفى لإجراء عملية قدمت لزيارتك والاطمئنان عليك رغم أنني تميت لو أنني أتيت في ظروف أفضل صراحة.

أومأت برأسها السيدة ليلي وبصوت منخفض: لا عليك، على العكس سررتُ بزيارتك. قالت لها: أشكرك وأنا أيضًا سررتُ برؤيتك، أخبريني كيف تشعرين الآن؟ أتمنى لك التماثل السريع للشفاء.

الحمد لله طمأننا الطبيب أن العملية كانت ناجحة، قال محمد، ويأذن الله في الغد أو بعد غد ستعود إلى المنزل.

ردت أم تميم: هذا جيد حقًا، فليعافيك الله وليقيك لأولادك بأتم الصحة والعافية.

أجابت ليلي: سلمت، سلمت ياعزيزتي، شكرًا لك.

قال محمد: كيف حال تميم؟ كان في الفترة الأخيرة يشكو من ضغط كبير في العمل، وبعض

التأجيلات في الدراسة.

ردت أم تميم: الحمد لله ابتسمت، تميم دائماً يستطيع حلها في النهاية أنا أثق به وبرفاقه، بالمناسبة ما تعملونه عظيم، أنا دائماً على اطلاع على عمل الجمعية، وزوجة الأستاذ ملهم صديقتي المقربة تخبرني دائماً بالجديد، فعلاً نحن بحاجة هكذا كوادِر شبابية فعالة في هذه الظروف نستطيع أن تقدم يد المساعدة للناس بحق وليس مثل بعض الجمعيات، شكل خارجي فقط وجهود مهدرة على لا شيء.

أجاب محمد: نعم سيدتي صدقت، بالنسبة لنا نحاول تقديم ما نستطيع، والجهود التي تبذل ليست بالهينة على الإطلاق.

كانت تستمع لهم ليلي بصمت وتشارك بكلمتين أو ثلاثة ثم تعود لصمتها... لكن غلبها التعب فنامت قليلاً، في فترة غفوتها جاء تميم سلم على محمد واطمأن على والدته واستأذن للخروج، بعد أن همس بأذن أمه فأومأت له بابتسامة وربتت على كتفه وودعته طالبة منه الاعتناء بنفسه.

خرج محمد مع تميم ليحلوا بعض الأمور في الخارج فيما يخص مبيت أمه في المستشفى وغيابه عن العمل لعدة أيام.

فتحت عينيها ليلي لتجد أم تميم حولها تغطيها برفق، سألتها إن كانت تحتاج شيئاً، أو مأت لها قائلة: لا.. لا حاجة لها، بامتنان.

جلست مقابلها قائلة بعد أن شعرت بأنها تبحث عن ابنها بنظراتها: لا تقلقي عزيزتي، محمد خرج مع تميم قليلاً وقال إنه سيعود، إنهم في البهو، خرجا تَوّاً من الغرفة.

لست قلقة يا أم تميم لكن محرّجة منك أخذنا من وقتك كثيراً.

ردت أم تميم: لا، أرجوك لا تقولي هكذا إلا إذا كان وجودي غير محبب سأذهب وقتها.

أستغفر الله، وجودك كالنسمة سعدت جداً بوجودك.

- كيف أصبحت الآن، كيف تشعرين؟

- الحمد لله، أشعر أنني أفضل..

- الحمد لله، لا بأس عليك يا ليلي.

قالت ليلي: ألم الجسد يشفى، لكن آلام القلب شفاؤها ليس بتلك السهولة مع الأسف، آلام القلب قد تعيش وتموت معنا دون أن نبرأ، وهي أقسى الآلام.

ردت أم تميم: الآن، ارمي كل الآلام جانباً وهيا انهضي لنا سائلة، الأولاد بحاجتك والآلام سنداويها بإذن الله..

أجابت ليلي: معك حق يجب أن ننسى ونتناسى لنستمر.

أحسنّت، الآن الأولوية لصحتك، أسأليني أنا، إياك أن تستهيني بها، لا شيء أهم من الصحة، لا الأولاد ولا الزوج ولا الأهل ولا العمل، صحتك تساوي الدنيا بما فيها، لا تجعل شيئا يقنعك بغير ذلك.

مضى الوقت وتآلفت السيدتان كأنهما تعرفان بعضهما منذ زمن، كانت ليلي بحاجة لمن تبته أوجاعها فقد مر وقت كبير تحيا بدور المستمع والمساند، والآن هي بحاجة لمن يسمعها ويساندها، والدة تميم كانت امرأة رحيمة تدرك معنى أن يحتاجها أحد فتليي احتياجه، ولأن المرأة لا تفهمها إلا امرأة مثلها، من أول لقاء بينهما بدا أنها قد تصبحان صديقتين.

المثير للدهشة أنها أصرت أن تبيت الليلة في المستشفى مع السيدة ليلي عندما لاحظت التعب على وجه محمد بعد أيام من القلق والتوتر. فقالت له: اذهب للمنزل وتفقد الوضع وخذ قسطاً من الراحة، وأنا أبيت الليلة هنا. حاول أن يثنيا عن موقفها ظناً منه أنه قد ينطلي على حرج لها، لم تقبل، أخبرته أنه لا حرج في الأمر وأنها مجهزة نفسها لذلك وأخبرت عائلتها وهذا يسعدها.

بعد أن رأى إصرارها شكر موقفها النبيل هذا ثم ودعها وخرج، وفي طريق العودة للمنزل اتصل بتميم وأخبره كم هو ممتن له ولأمه، وختم حديثه بضحكة قائلاً: على ما يبدو هن أيضاً ستصبحن صديقتين.

فتح باب المنزل وولج، نادى على أخته وأخويه لم يجبه أحد، الكل نائم من فرط التعب، وهو

أيضاً بحاجة إلى نوم عميق يغرق به علّه يرتاح قليلاً من عبء الأيام الصعبة التي مضت، نعم مرت ومضت، كان يتتابه شعور داخلي يشبه شعور الرضا والقبول والارتياح، ثمّة أمر كبير كان يحمل همه، الحمد لله مضى وانتهى، وأمه الآن بخير وستعود بكامل عافيتها لبيتها وأولادها.. شعر بالغبطة، سأل نفسه لماذا تلك المشاعر؟

أتراه لأنه شعر أنه وأخوته كبروا وتحملوا مسؤولية أمهم لوحدهم دون مساعدة أحد؟ نعم وحدهم فقط، هو سرٌّ جدّاً بعرض الأستاذ ملهم لمساعدته، وحتى أصدقائه عندما علموا أن أمه بحاجة لعملية جراحية، سرٌّ بموقفهم ومساندتهم له، وسعد أكثر؛ لأنه لم يكن هذه المرة ولأول مرة بحاجة إلى أحد. كم من الجيد ألا يحتاج المرء أحداً، كم هو مريح، نظر لأخوته وهم نائمون بالغرفة وابتسم متأملاً، تذكر كيف اجتمعوا وتحدثوا معاً دون أن تعلم أمهم وذهب كل واحد منهم لمخبئه السري وأخرج كل ما كان بحوزته من المال ووضعها على الطاولة، كانوا في يومها تنظلي على وجوههم ملامح حيرة وحزن، أرادوا أن يقدموا أي شيء لأهم لكي تكون بخير بعد أن رأوا ألها أمام أعينهم، كانت تتلوى من الألم، لا شيء يستطيع التخفيف عنها سوى أن تعمل تلك العملية التي أشاد بنفعها الطبيب ووجدها الحل الأمثل، شبخ خوف رهيب أثقل كاهلهم، أيعقل أن نفقد أمنا أيضاً؟

كانت فرح تخبئ دموعها عندما تعتليها تلك الفكرة وتقاومها بل ترفضها، أمها ستبقى معهم لا يفعل القدر هذا بهم، تتوسل الإله بقلبيها، ما عاد لنا أحد بعد غياب أبي إلا هي، ستشفيها حتّى، أنا أثق بك.. كانوا ثلاث شباب صغار وفتاة عاركوا اليتيم والفقر وأخيراً الحرب.

لكنك إن رأيتهم ما حسبتهم أولاد الفقر ولا أولاد اليتيم ولا أولاد الحرب.. حسبتهم أولاد الحياة.. أولاد السلام.

قبل الفجر بلحظات، السيدتان تتسايران، الأولى مستلقية على السرير والأخرى متكئة على الأريكة مقابلها، تحدثان تارة وتصمتان تارة أخرى، كان الحديث بينهما ينساب بسهولة تامة وكأنهما تعرفان بعضهما منذ زمن، ارتاحت ليلي لهذه المرأة من اللقاء الأول وكأنها تعرفها منذ زمن، تألفت وتفاهمت معها.

لحظة قدسية في حياة المرء حين يشعر أن ثمة من يفهمه تمامًا ويشعر به. فكرت، ربما هي بحاجة لمن تستند عليه الآن ولو حتى قليلاً بعدما كانت هي السند ولا تستطيع أن تميل؛ لأنها ببساطة قد تقع، امتنّت لتلك اللقطة الجميلة من تلك المرأة الغريبة، فعلتها وكأنها صديقة حقيقية. كم هو جميل أن يحظى المرء بصديق حقيقي رغم ندرته، ليتها تصبح صديقتها، من الجلي كم هي امرأة طيبة

بعد دقائق

أتعرفين يا أم تميم، قالت ليلى وهي تحاول أن ترفع نفسها بصعوبة لتتكئ، ثم همت أم تميم بمساعدتها: المرض أثره كبير على النفس.

تجيبها: نعم، المرض تجربة فظيعة قد تغير رؤيتك للحياة.

استطردت ليلى وأنا أخلع ملابسي وأرتدي اللباس الأخضر الذي يلبسونه للمريض قبل دخول غرفة العمليات شعرت شعوراً غريباً جداً، شعرت نفسي ذاهبة هكذا بلا أي شيء لأستقبل الموت، تصوري، لم أدع أولادي يشعرون بخوفي، لكن لوهلة كان قلبي يكاد أن يقف، ليست هينة لحظة دخول غرفة العمليات والتخلي عن كل شيء وتسليم الجسد المتعب للطبيب ليعبث به، الحقيقة كان الوضع خفيفاً وكأن المرء يتأرجح على حافة الموت.

قالت أم تميم: الحمد لله على سلامتك، بعيد الشر عنك.

لا.. لا، القصة أنني دائماً أهاب الموت ليس خوفاً منه بل خوفاً على أولادي ربما، كان هاجسي كيف لي أن أتركهم؟! تركهم أبوه منذ سنوات عديدة وجرحه لا يزال ينزف بقلوبنا، أنا لا يجب أن أتركهم.. فاضت دمعة من عينها.

نهضت أم تميم وأعطتها منديلاً من علبة مناديل ورقية كانت بجانبها قائلة: أرجوك لا تنفجلي، هذا يؤخر عملية شفائك.

قالت ليلى: أتعرفين، بعدما تصبحين أمّاً تصبح حياتك ليست ملكك، تصبح مرهونة بما

أنجبت، فلا تعودى تفكرى بطريقة فردية بتأتا، أوه كم مضى على وقت لم أفكر لبلى لوحدها، دائماً أنا وأولادى، أنا وأولادى، الله يحفظهم، تنهدت الله يحفظهم.

ردت أم تميم وهي تهز برأسها: أنفهمك جيداً.. تسرح قليلاً، ثم تتابع حديثها: كأن يا لىلى العلاقة الوالدية من أعقد العلاقات على هذه الأرض، أن تكون أباً أو أمًا، أو أن تكون ولدًا. ومن قال إن حياتك فقط هي مرهونة بهم وبوجودهم وضحتهم وسعادتهم وكل تفاصيلهم! حياتهم هم أيضاً مرهونة بك، هذا الولاء الجينى الذى يجمعنا مع آبائنا وأولادنا لغز عسير على الفهم، أترامهم الأولاد يشعرون بمحبة آبائهم لهم وحاجتهم ليكونوا بجانبهم خاصة عندما يكبرون! يجب أن يشعروا يا لىلى؟!

قالت لىلى: والدِّي يا سيدة أم تميم ربوا خمس بنات وشاين، كنا عائلة كبيرة نجتمع أسبوعياً ونلتف حول أمى وأبى نتحدث ونضحك ونبكي ونتبادل همومنا ونأكل الطعام مجتمعين، ثم نودع بعضها لنلتقى الأيام القادمة... بيت العائلة دائماً مليء بالزائرين وصاحب بنا وبأولادنا.. يأتي شخص ويذهب الآخر، تزدرد ريقها على رسلك على رسلك يا لىلى..

المهم، جاءت الحرب، كنا بعيدين عن مناطق التوتر والاشتباك، لكن زوجى ذهب برجليه إليها -رحمه الله- كان يريد أن يطمئن على أرض لنا هناك بعدما سمع بعمليات النهب والنصب الحاصلة في ذلك الوقت بعد أن عمت الفوضى، رحمه الله لاقى أجله، تنهد وتصمت وتدير وجهها وتغطيه بالوسادة المسندة رأسها عليها، تنتحب ألماً.. تنهض أم تميم تربت على كتفها وتناولها كأس ماء ترشف منه قليلاً ثم تعطيها إياه.

تقول أم تميم: أرجوك لا تنفعلى كل شيء يسير لصالحنا في النهاية، وعينا أو لم نعي ذلك، هذه الحياة أشبه بحلم ورحلة قصيرة سنعيشها ونمضي.

حاولت أن تستعيد توازنها وتقوي نفسها، نعم.. نعم صدقت، كلامك هذا جميل جداً، نعم هي حلم ورحلة سريعة، شيء لا يصدق، كيف تمر بنا الأيام ويتغير كل شيء، أشخاص هنا وآخرين توفوا وكثر من سافروا، خاصة الشباب كلهم يسافرون!

تقول أم تميم: نعم صدقت، لكن أخبرك بشيء، الشباب الذين هاجروا وسافروا فتنا بالخصارة والازدهار الذي رأوه، فجعل أغلبهم لا يجيئون العودة إلى وطنهم، طانين أنه غباء أو ضياع فرصة ذهبية لمستقبلهم، برأيي هم في وقع المفاجأة الآن، الانبهار بالجديد ليس إلا؟

لطالما كنت دائماً أتساءل: أي مستقبل يسعون إليه بلا نظرة حب وسعادة على وجه أمهم أو أبيهم وبلا لمسة حانية من يديهم خاصة بعدما كبروا وبات حبههم وحاجتهم لأولادهم مضاعفة؟ أي مستقبل يقيم هذا بلا روح العائلة واحتوائها ولحظة بر نقدمها لمن هم سبب وجودنا قبل أن تسرقهم المنية؟ ماذا ستقدم لهم الخصارة والازدهار عند وفاة أمهم أو أبيهم وهم لم يروا وجوههم؟ بماذا سيغنيهم المال عندما يكبرون ويشتاقون ويشعرون بالغربة بعيدين عن أحبابهم؟

قالت ليلي: نعم صحيح، معك حق، لكن يا سيدة أم تميم الوضع هنا أصبح لا يطاق، ومن الظلم أن تجبري شخصاً على البقاء في هذا المكان وأمامه فرصة أفضل، الله يعلن الحرب وما فعلت بنا، لا أحد يريد ما حصل، لا أحد يقبله، كلنا دفعنا الثمن وكلنا أرفقنا ومللنا وسرقت أجمل سنوات حياتنا، حسبنا الله، حسبنا الله على كل ما حصل.

جلس محمد يحدث أباه عبر الأثير صامتاً ويده ترسم الكلمات

أبي..

الآن يمكنك الاعتماد عليّ، أعتقد من الآن فصاعداً يحق لي أن أقول أصبحت رجلاً قادراً أن أحمي عائلته، لا تقلق، ما عدت ذاك الطفل اليتيم الذي يثير الشفقة في نفوس الجميع. مرت عدة سنوات يا أبي غيرت الكثير، طولي زاد بشكل ملحوظ، وصوتي أصبح يشبه صوتك، وأشياء أخرى كثيرة تغيرت بي، لكن حتماً هذا لا يكفي لأكون رجلاً، هاتيك ملامح ذكورة، وشتان بين أن يكون الإنسان ذكراً، وبين أن يكون رجلاً، من الصعب أن تكون رجلاً وبساطة جداً يمكنك أن تكون ذكراً.

لطالما أخبرتني وأنا صغير أن الرجولة صفة تعني المسؤولية والشهامة والمروءة والشجاعة والكرم.. كل من يراني من أصدقائك وأقربائنا يقول: الله يرحم أبك، أنت ابن رجل حقيقي تنظلي

عليه كل معاني الرجولة، أنا منذ ذلك الوقت عاهدت نفسي أن أكون مثلك، أراك في مخيلتي وأرى نفسي فيك.. ربما تسأل نفسك كيف ينبغي لي أن أسمي نفسي رجلاً؟!

اليوم أنا فخور.. لا، لن أقول فخوراً، لا أحبذ تلك الكلمة، ربما ممتن، نعم ممتن؟! لأنني نجحت بإدارة أزمة جديدة طرأت على العائلة أزمة مرض أُمِّي والاجتماع مع أخوتي لنخرج بحل والوقوف بثقة أمام الأستاذ ملهم وأصدقائي دون الحاجة للمساعدة أول مرة، مادياً، لا أنكر أن الحياة تهبك أشخاصاً يعيدون الطمأنينة لقلبك عندما تنهار أمامك كل السبل، معنوياً قدموا الكثير.

الحمد لله، أُمِّي تتأثر للشفاء والأزمة مضت، الأزمات لا تنتهي في هذه المدينة وفي منزلنا أيضاً.. أول محنة وأزمة قاسية مرت عندما وقفتُ أمام أُمِّي وأنا ابن الثلاثة عشر عاماً لا أملك شيئاً، وقررت بيع البسكويت في الشارع لأقدم ما أستطيع لهذه العائلة؛ لأساعد أُمِّي التي هي أيضاً عملت بعمل مجهد ومتعب؛ لكي لا تحتاج أحداً.. المهم الآن، وبعد مضي تلك السنوات نجحنا بالمهمة، حصلنا جميعاً على عمل جيد ومحترم، نبذل فيه وسعنا أنا وأخوتي.

لا شيء يبقى على حاله.

قلب الصفحات للوراء، توقف عن الكتابة وضع القلم جانباً وبدأ يقرأ كلمات كتبها قبل عام من تاريخ اليوم

أبي...

ماذا أقول لك؟ كيف أخبرك بما في جعبتي وأغوص في الأعماق هذه المرة؟ كيف أبداً؟ الكلمات التي تعبت بوجودني تريد السفر إليك؟ حتى لو كان من خلال الصمت.. أيها الغائب البعيد الحاضر القريب، أشعر إنني ابن المئة عام رغم أنني صرت في عامي الواحد والعشرين فقط، كبرتُ جداً يا أبي، فأنا ابن اليتيم وابن الفقر وأخيراً ابن الحرب.. وكل معنى من هذه المعاني القاسية رباني بحشية مختلفة حتى جعل مني ما أنا عليه اليوم.

ربما كانت وما زالت الحرب فوضى بشرية قدرة تخرج أسوأ ما في الإنسان أو تظهره على

حقيقته، أهكذا حقيقة الإنسان سيئة لهذا الحد يا أبي؟ أُويعقل أننا في سنين الرخاء كنا نتجمل وكنا نتواري؟ من أين خرجت كل هذه الوحشية التي تجعل الإنسان يقتل أخاه الإنسان فقط لأنه مختلف معه في الرأي؟ أي قباحة ورذيلة وشع وفقر روحي يجعل إنساناً يقتل أخاه الإنسان من أجل الاختلاف بالفكر أو المعتقد أو حتى المال، رباه، أشياء لا تعقل.

الفقر آفة.. وحالة تجعل الإنسان يشعر وكأنه بلا يدين وأحياناً بلا كرامة؛ بسبب شعور الحاجة وتعالى الآخرين عليه، لكنه ليس عيباً وليس قدراً أبدياً لمن يريد أن يتخلص منه ويسعى للغنى هكذا بت أؤمن.. لكن أتدري؟ أدركت مؤخراً أن الفقر الروحي أشد قبحاً من الفقر المادي، ومن روحه فقيرة لا تغنيه أموال العالم كله.. والغنية روحه لو فقد مال الدنيا يبقى غنياً، والمال يركع عند قدمه..

الفقر والحرب جعلوني أكبر، لكن اليتيم يا أبي جعلني أهرم. أتدري! الكل يتساءل لماذا لا أنوح وأشكي من الحرب وآثارها كل يوم؟ لما لا ألعنها ألف مرة مثلاً يفعل الآخرون وأولهم أمي؟ لما تعودت؟ لما لم أعد مستاءً؟ لما مشاعري تחדت؟ أتدري لماذا؟ لأن الحروب أشكال، ولأن الحرب الحقيقية هنا في داخلنا، واستسلامنا ورفع الراية البيضاء أو السير كمحارب في النهاية خيارنا.

أنا يا أبي، عندما كانت الحرب تشتعل ببدايتها، كنت في أعماقي مطمئناً؛ لأن أبي بجاني وسيحميني، لكن بعدما ذهبت، أصبحت عارياً، عارياً تماماً في وجه الحرب والفقر وصرت يتيماً، حربي الحقيقية في داخلي هي غيابك، والحرب الخارجية التي تجعل الحمقى يقتلون بعضهم حرب خارجية شكلية لم تعد تعنيني. متعب أنا من سير السنوات والأحداث دفعة واحدة تجاهي كموجة تبتلعني، متعب من ثقل المحبة على كاهلي المتمثلة بأخوتي وأمي، لكنني حتماً سألاقي راحتني، أنا على ثقة، بقدر بذل التعب ستبذل الراحة أمامي.

العالم يا أبي اليوم بدا مختلفاً كلياً عما كان عليه وأنا طفل صغير، أراه ويدي بيدك، نسير معاً، وأرى كل شيء من خلاله.. كنت زاهياً بك وفخوراً، أسير وكأن العالم كله مسخر لي إلى أن جاء موعد رحيلك، لا تحزن يا أبي، لن أقول غيابك كسرني هذه المرة.. تكفيني عزلتي الليلية المشبعة

بالحديث معك على الورق، أجل متنفس لي من قيود الحياة.

رُجُلِي العَصِيَّ على النسيان، كم أود أن تمتد لي يد اللغة تعيني، لعلي أستطيع أن أثبت لك كل معاني ألبي وسعادي وضعفي وقوتي وصدقي وهذيانِي عبر أثر الكلمات؟! ممتلئ أنا بكثير من القصص والحكايا والتأملات التي لو أخبرتك بها قد يبدأ الليل وينتهي وأنا أعبر نحوك من خلالها.

هذا العالم مليء بالتناقضات يا أبي..

يدهشك ويغريك لدرجة تجعلك تريد أن تتبلعه دفعة واحدة وتعيشه بكل تفصيلة من تفصيلاته لاهثاً لكي لا يضيع منك شيء منه..

ويرعبك لدرجة تجعلك تلفظه بقرف كأنه لقمة ذقتها ظناً أنها حلوى فإذا هي علقم.

أبي أخبرني أننا سنلتقي، أخبرني أنك بعالم جميل طاهر سريالي وكلنا ذاهبون إليه ذات يوم قدسي جماله...

الوجوه الجديدة التي أراها كل يوم تقريباً تعلمني الكثير وتعبث في داخلي أكثر! البشر حولنا يبدون مثل المعاني المختلطة المبعثرة التي تحتاج لترتيب دقيق وفهم أعمق.

كنت وأنا شاب صغير أسير في الشوارع أبيع ما بيدي للأخريين تحاصرني نظرات كثيرة، كل نظرة لها أثر ومعنى مختلف، ومع الأسف كلها تنصب على قلبي، لم أكن كبيراً كفاية لأمنع نفسي من كل هذا الصخب والعذاب، البعض كان ينظر إليّ باستحقار وكأنني جيفة، والبعض الآخر ينظر إليّ بشفقة وكأنني متسول مشلول لاحول له ولا قوة، وآخرون يسرون ويرطمون بي وكأنهم لا يرون أبداً؛ لأن رؤيتهم لأنفسهم أعمتهم عن رؤية الآخر، فتأت شتى من البشر، قوة البصر وضعيفة البصيرة.

لطالما كنت أعود إلى المنزل محمل بخيبات كثيرة ومثقل بشعور كبير بنقصي وضعفي، لكن الآن كل شيء اختلف.

قرأت عبارة أعجبتني يقول بها الرافعي: (مقامك حيث أقمت نفسك، لا حيث أقامك الناس، فالتاس لا تعدل ولا تزن)

المضحك يا أبي

إننا في زمن لا نقيم فيه تبعاً لأفكارنا ولا مبادئنا ولا حتى أخلاقنا ولا مسيرة حياتنا، الأمر أبسط من هذا بكثير، نقيم فيه تبعاً لقشورنا ولظهرينا ولملكاتنا.

لم يعد متعب أن تلفت الأنظار وتجلب الاهتمام والاحترام المشوه، فقط سر مع القطيع، البس ما يلبسون، المهم أن يكون من ماركة معروفة، وكل ما يأكلون، المهم أن تكون وجبة دسمة ثمناها باهظ وقيمتها الغذائية معدومة..

وتحدث كما يتحدثون، المهم أن تلوث عربيتك بلغة أجنبية لتثبت أنك مثقف، وأيضاً خذ سيلفي مثلما يأخذون

كلنا نسخ عن بعضنا البعض؟! أصبحنا هكذا!

أتدري يا أبي؟

هذا زمن التفاهة وزمن اللامعنى بامتياز.

كم من الجهد ستبذل لكي لا تصبح نسخة من الآخر، ولكي تهرب من هذه المهزلة الكبرى ولكي تحافظ على فرديتك، ولا تطالك آلة النسخ خاصتهم.

أمي كانت تقول لي عندما أعود وتلاحظ تعبي ونظرة الأسى بمقلتي: محمد، لا تحزن، الأيام دول وكل شيء يتغير وكل وقت سيمضي حاملاً معه أساه وفرحه ولكل زمان رجال وأنت رجل الزمن القادم.

أضحك

أخلق بها مذهولاً، رجل الزمن القادم، ماذا يعني؟

سأكون مثل الأبطال الخارقين الذين يقضون على الشر؟ تنظر إليّ وتضحك ثم تقول: ربما لن

نستطيع أن نقضي على الشر، لكن نستطيع أن نتمسك بالخير ما حيننا.

ابنك المخلص دائماً محمد

في اليوم التالي ذهب محمد وأخوته إلى المستشفى صباحاً بعد أن نظفوا المنزل وهيئوا به الأمور لتأتي أمهم ويكون كل شيء كما تحب، كانوا متحمسين لكي تعود إليه أخيراً، فاليبت بدون أمهم بات كثيراً بلا روح، عندما ولجت إلى الداخل احتفوا بها وغنوا لها أغاني لاستقبالها وهم يضحكون ويمرحون ليدخلوا عليها البهجة.

كانت سعادتها بهم لا توصف عندما قسى كل شيء بعالمها، كانوا لمسة الحنان، شكرت الله بقلبها أنها عادت سالمة وأولادها معها بخير، شكرت الله على وجودهم الذي بات العوض الجميل لها عن كل مآسي الحياة التي مرت بها.

انكأت على الأريكة وجلس على الأرضية بجانبها محمد قال لها: الحمد لله على سلامتك، لم تدريكي كم قلقنا عليك، الآن لديك مهمة واحدة فقط هي أن تعتني بنفسك، أناشدك يا أمي أن تجعلي الأولوية لصحتك.

قالت له: اطمئن اطمئن يا بني، الآن أنا أفضل بكثير، لا تقلق، شغلتم أنفسكم أنت وأخوتك بي في الآونة الأخيرة وقصرتم بدروسكم وأعمالكم، قال لها منفعلاً: وهل ثمة شيء أهم منك، ما هذا الكلام! مسحت على رأسه برفق، الله يرضى عليكم، قبل يديها وقال لها: الحمد لله مرت هذه الغمامة على خير وأنت الآن بصحة جيدة بيننا، سيأتي الطبيب في المساء ليرى جرح العملية ويطمئن عليك.

قالت له: إذا ساعدني لأستلقي على سريري أنام قليلاً قبل أن يحل المساء.

قالت فرح: حضرت لك حساء لذيذاً تناوليه واشربي دواءك ثم استلقي إن أردت.

ردت: دعيني أرتاح قليلاً يا فرح بعدها سوف أكل من حسائك وأشرب الدواء أيضاً، قالت لها: كما تحبين يا أمي، ساعدها محمد ويامن في النهوض ببطء كما أوصى الطبيب، وأدخلها إلى غرفتها لترتاح ريثما يحل موعد قدومه.

حاولت أن تتمدد بكل جسدها، أوَّه كم هي بحاجة لكي تسترخي، تسترخي تمامًا، فكرت ليتها تستطيع أن تستحم، أتراها متى تستطيع الاستحمام؟ أه الاستحمام والماء الساخن نعمة، نعمة كبيرة تستحق الشكر، كم يكون المرء ضعيفًا هشًا عندما يمرض، يبدو أنك كبرت يا ليل قالت لنفسها، كبرت ولم تعود كما كنت في السابق صبية قوية ونشيطة بل شعلة من نار، تنهدت هكذا هي الحياة لا شيء يدوم، لا الصحة ولا الشباب ولا شيء يبقى، عادت وراودتها فكرة مناقضة لماذا أتحدث مع نفسي كالعجوز!

بعضهن ما زالت فتاة رشيقة وهي بهذا العمر، ربما لم تتزوج بعد، ذهبت يا حمزة وذهب معك كل إحساسي بأني امرأة، نسيت نفسي بغيابك..

عادت وبررت لنفسها، من حقي أن أكبر بدل العام عشرة أعوام، حرب ومن ثم مسؤولية عائلة بأكملها بلا رجل، أصبحت أنا الأم وأنا الأب، امتلأت عينها بالعبرات، لكن الآن أنا متعبة، متعبة جدًا، متعبة من كل شيء..

مسحت عبرة على خدها، وشعرت بغصة كبيرة بحلقها، كم هو مؤلم أن يسير الإنسان وحده في الطريق، حدثت في الفراغ، باغتتها فكرة أخرى، شعرت الراحة تسري في روحها، ليست وحدها، معاذ الله أن يتخلل عنها، فهي وإن شعرت أنها لم تعد تحتل تأتي أشياء كأنها هدية من الله وتهون عليها المسير، وبكل حال لا يجب عليها أن تكون جاحدة، فالحمد لله أولادها كبروا في تلك الأعوام التي مضت، فلم يعدوا صغارًا، درسوا وتفوقوا وكانوا بفضل الله أولادًا يضرب بهم المثل، يكفي أنهم بهذا الوعي والتهذيب رغم أنهم فقدوا أباهم وهم في أمس الحاجة له، أو أليست تلك شهادة أهلها وأهل زوجها وحتى الأصدقاء والمعارف هذه بحد ذاتها نعمة تحسدها عليها أي امرأة، فكثير من الأولاد يربون بحضن أم وأب وتراهم أشقياء وتعساء وغير موفقين، ارتسمت على ملامحها علامات الرضا وظلت الأفكار تسبح في وعيها مختلطة بأخرى لا واعية، وباغتتها النعاس فأهدلت جفونها واستسلمت للنوم.

في الخارج كانت فرح جالسة مع أخوتها يتحدثون عن الأيام الماضية وأحداثها، كانوا قلقين على أمهم في الآونة الأخيرة، خاصة فرح فكانت متعلقة جدًا بأمها بعد غياب أبيها، كانت في

داخلها دائماً تصارع خوف فقدان أمها مثلما فقدت أباهما، شعر أخوتها بتوترها الذي زاد عن حده فحاولوا التهدة من روعها.

قال محمد: أراك في الفترة الأخيرة شاحبة دائماً وتخفي دمعك، ما بك! الحمد لله أمنا باتت بأفضل حال، قالت له محاولة إخفاء ما بها: لا، لست قلقة بعد الآن، الحمد لله، خرجنا بسلامة من تلك الأيام، لكن لا أدري، أجد نفسي لا أحتمل أن أرى أُمِّي تتألم وأنا غير قادرة على مساعدتها أو التخفيف عنها، كم هو مزعج أن ترى شخصاً تحبه يتألم!

قال لها: معكِ حق، كلنا كنا مستائين..

تدخل يامن قائلاً: نحن سبب مرضها لأُمِّي، فهي دائماً تحمل همنا! من الأساس تشعر وكأنها تخيا من أجلنا فقط!

هز رأسه وزم شفته محمد، وقال: صحيح يا يامن، وهذا الشيء بات غير صحي لها في الآونة الأخيرة.

قالت فرح بانفعال: لطالما قلتُ لها ارتاحي قليلاً، افعلي شيئاً من أجلك، استرخي وضعينا جانباً، لكن لا تستجيب، أتعرفون بعض الأوقات أنا من أذهب وأجلب لها لباسها لتخرج من المنزل وأغصها على ذلك فقط لِتَشْتَمَ هواءً نظيفاً وتعود، هذا الشيء السخيف إن داومت عليه يفيدها، حتى علاقتها مع الناس باتت قليلة..

قال محمد: المشكلة بعد الحرب الناس تفرقت وتباعدت، أصبحت زياراتهم رسمية

لكن أمنا تستحق منا اهتمام أكثر من ذلك

قالت فرح: ضحت بعمرها وشبابها من أجلنا ثم صمتت بأسى

قفر أخوهم الصغير مبالغاً حديثهم بشكل مفاجئ بعدما نسوا وجوده من الأصل، دعونا نحتفل من أجل شفاءها ونأكل كعكة وطعاماً لذيذاً حتماً ستفرح، التفتوا إليه مندeshين، قال يامن ضاحكاً مازحاً له: جلسنا نفكر كالحمقى وهذا الحل البسيط لم يخطر ببالنا قط.

حل المساء، كان كل واحد منهم منشغل بأعماله ودروسه، والأم نائمة بغرفتها إلى أن جاء موعد الطبيب، نهض محمد ويامن لاستقباله، رحبا به، ثم استأذنه محمد ليذهب ويوقظ أمه، كانت أمه جاهزة وبجانباها فرح وأخاهم الصغير همام

بعدما فحص الطبيب الجرح طمأنهم أن الوضع بخير، وبإذن الله تماثلها للشفاء سريع، لفت نظر الطبيب وجود الأم والأولاد دون رجل كبير بينهم منذ قدومهم للمستشفى، فسألهم عن والدهم ظنًا منه أنه قد يكون مسافرًا، فبدأ الأولاد له أولادًا متزينين ومسؤولين ومتلهفين على أمهم لكن أبوهم غائب.

قال له محمد: والدي متوفٍ منذ سنوات عديدة، منذ بداية اشتعال الحرب، شعر الطبيب بالحرج وتأسف جدًا وقال لهم: أنا لا أعرف والدكم، وتشرفت بمعرفة الوالدة، لكن أولاد مثلكم يشعر أمامهم أي إنسان بالفخر، انضباطكم في المستشفى وشعوركم بالمسؤولية ومحبتكم ولهفتكم على الوالدة كلها تنم عن تربية رفيعة وعن جينات راقية ورثتموها من والد رائع وأم جيدة كما يبدو، شعروا بالخجل والسرور بأن واحد من ذلك المديح المفاجئ

التفت إلى السيدة ليلي، وقال: من الواضح أي مجهود بذلت يا سيدة ليلي، أطرقت بصرها وقالت: لم أفعل شيئًا سوى الدعاء وبذل ما بوسعي، أرى أن كرم الله طغى في تلك المسألة، قال لها: ونعم بالله، تدخل يامن وقال: لكن يا دكتور، الوالدة في الفترة الأخيرة نست نفسها تمامًا وأهملت ذاتها وصحتها.

نظرت أمه نحوه بدهشة قائلة: ليس لتلك الدرجة يا بني، تابع حديثه يامن: لذا أرجوك يا دكتور، أخبرها ما نتائج إهمالها لصحتها التي دفعت ثمنها هي أولاً، أيد محمد وفرح كلام أخيه، كان الطبيب واقفًا فجلس وأرخى كتفيه، ثم رفع نظارته محاولاً تثبيته على أعلى أنفه وقال: انظري سيدتي، وأيضًا أنتم أيها الأولاد، أنا رجل أبلغ الأربع والستون عامًا، مرّ على رأسي الكثير من الأحداث والقصص بهذه الحياة الصعبة، ورأيت وعاشت الكثير من الناس، من معارفي وأقربائي ومرضاي، لا أستطيع أن أتجرأ بقول أصبحت حكيم الزمان، لكنني اخترت الحياة واختبرتني، وشاب شعري وبدأ ينحني ظهري، ووصلت لقناعة مهمة أنصح بها ابنتي وابني،

لديّ ولدان حمى الله أولادك، وأربعة أحفاد، دائماً أقول لهم وأشار بأصابعه بشكل متتالي.

أولاً: الإيمان.

ثانياً: الأمان.

ثالثاً: الصحة.

هذه القاعدة الذهبية للحياة برأيي، ومن بعد أن تتحقق تلك الأمور الثلاثة، كل شيء سهل وبسيط وربما تافه، نعم سيدي، تافه، انظري لي ما جدوى حياتك بلا إيمان، وكيف تستطيعين التحرك بلا صحة وأمان، قال محمد والابتسامة ارتسمت على شفتيه: إنها لحكمة عظيمة أيها الطبيب.

قال يا بني: الحرب التي جرت في هذه البلاد أكبر عظة، تعلمك معنى الأمان، تعلمك معنى التسامح ومعنى تقبل الآخر واحترامه، يا بني إن كنت دائماً تعتقد أنك على حق فلن تتعلم أبداً، والحياة أكبر معلم، نعم، معلم أفضل من كثير من الجامعات، أه كم دفعنا ثمناً باهظاً مقابل جهلنا وأنانيتنا.

لذا يا سيدي، أناشدك أن تعي معنى أن يفقد الإنسان صحته لا سمح الله..

الصحة نعمة كبيرة ستسألين عنها، جسدك هذا أمانه، الجسد يا جماعة أراه وكأنه بيت الروح كلما اعتنيت به كل ما خدمك أفضل لتؤدي رسالتك في الحياة.

والباب الأول للعافية أن تكون النفسية بخير.

حركت ليلي رأسها بأسى، قالت: تلك هي المسألة التي تفوق قدرتنا، أجابها الطبيب: نعم، ثمة أمور كثيرة قد تهوي بنفسيتنا في تلك البلد في ظل تلك الظروف، آثار الحرب قاسية، ونتائجها تهدد جبالاً بعلوها، فكيف بهذا الإنسان الضعيف!

لكن لا نملك سوى الإيمان كما بدأت حديثي للتو.. الإيمان بأنها مرحلة وستنتهي، قالت السيدة ليلي: لم يعد يهمننا إن انتهت أو لم تنتهِ أيها الطبيب، سرقت أغلى ما لدينا.

وفرّح تجلس بجانبها، أطرقت وملامح الحزن تكسو وجهها، قال الطبيب: لا.. لا، يا سيدتي، ما هذا الكلام، أرجوك لا تقولي هذا، أعلم جيدًا كم مصابكم كبير، لكن دائمًا ثمة حكمة ما وراء الأحداث تتجاوز إدراكنا وكلنا بحاجة ملحة لنرى نهاية هذا الكابوس المقيت، بلدنا جميلة وأهلها طيبون ونستحق أن نحيا بأمان وسلام وهذا أملنا بالله.

نهض من مكانه قائلاً: الآن أستأذنكم

رافق محمد الطبيب وشكره على نصائحه، فهو الذي تحدث عن حالة أمه بالتفصيل للطبيب وطلب منه أن يتحدث إليها علّه يخفف عنها.

فهي بدت في الفترة الأخيرة، منهكة جسديًا ونفسيًا وكأنها كانت تتدعي الثبات، فانهار كل شيء دفعة واحدة.

مضت الأيام الأولى بعد خروجها من المستشفى بطريقة روتينية، فكان الأولاد يستيقظون صباحًا يذهبون لمدارسهم ومحمد لجامعته وفرّح كانت دراستها أغلبها في المنزل، تقصدت المكوث بجانب والدتها هذه الفترة، بعد العصر يجتمعون على وجبة الغداء ثم يجلسون مع والديهم يشربون الشاي، أمهم تحب الشاي بعد الغداء أو قبله لا يهم، تحب بأي وقت، وتحب وقت تناول الشاي مع أولادها، بدت تتحسن بعض الشيء، لكن ظل شيء بها يبعث على التساؤل، كانت في الآونة الأخيرة كثيرة الشرود والتأمل والصمت، فأثار هذا قلق أولادها الذين حاولوا أن يحتوها ويقدموا لها ما يوسعهم من محبة واهتمام.

باتوا يتحدثون معها أكثر، يجلسون بقرىها أكثر، يحاولون استشفاف ما آل إليه الأمر بداخلها أكثر، لكن رغم ذلك لم تكن على ما يرام، في أحد الأيام في وقت المساء اقتربت مرح بحماسة وقالت لها: ماما اتصل طارق، وقال: إنه يريد أن يأتي لزيارتنا لكي يطمئن على صحتك هو ووالدته ما رأيك؟

أتدري يا ماما كم أحب حنانة وإنسانيته العالية، عندما كنا في المستشفى لم يتركنا، كان يأتي قليلًا كل يوم صباحًا ثم يظل على اتصال معي طوال اليوم، يا له من نبيل حقًا، كم أشعر بأني محظوظة بالارتباط به، إنه يشبه أبي -رحمه الله- يشبهه تمامًا برجولته وعنفوانه وحنانه وكرمه،

أتعرفين أمثاله فلائيل صديقتي يا ماما، في الأمس صديقتي نسرین كانت تحدثنی عن زوجها كم هو عصبي ومتشائم وسلبی، علاقتهم تكاد أن تنخرّب، بسبب عصبیته وشكایتیه من الأحداث دائماً، قالت الأم بعد صمت: ربما الأمر ليس بيده، فالأوضاع لا تطاق، قالت فرح: قلت لنسرین كذلك لأخفف عنها، لكن قالت: هذا لا يبرر كل ذاك البؤس الذي هو عليه، تقول تعودنا، لذلك من لا يتأقلم مع الظروف ويستغلها لصالحه فهو الخاسر، أحسستُ يا أمي أنها تشعر بأسى كبير، قالت

أتذكرين: البارحة كنا نحلم بالفستان الأبيض والزوج والأطفال، ها أنا اليوم أقف مندهشة كيف للإنسان أن يبالغ بخیاله ويتخیل ما يرغب به وكأنه المخلص له من كل العذابات، وهذا وهم، تصوري يا أمي كانت تتحدث لي وتبكي، أشفقت عليها، قالت الأم: لا داعي للشفقة، فلتكن رحمة يا بنتي وتعاطفاً، لا أحد يجب أن يشفق عليه أحد، لكن فاجأتني بأن نسرین تعيش بتلك الطريقة مع زوجها، ما زالت عروساً كما يقولون، كم مر على زواجها، أليس عاماً، أو عاماً ونصف؟ هزت فرح رأسها نعم عام ونصف، حتى زوجها لا يريد أولاداً في تلك الفترة، قال لها: أي أولاد في تلك الظروف؟! كم يبدو زوجها صعب المراس.

أتعرفين أنا لا أطيق الشكوى والسلبية، أبداً، إنها تزيد الأمر سوءاً، ربما لأنني لم أنشأ عليها رغم أن الكل حولنا سلبی ويستمتعون بالشكوى، أكثر شيء أحبه فيك أنت وأبي -رحمه الله- ولم أجده كثيراً في باقي العائلات من أقربائنا وأصدقائي أنكم دائماً تقولون الحمد لله، وتفعلون ما يجب عليكم فعله، هذا شيء يدفعك للحياة ويجعلك تسيري قدماً، بينما السلبية والشكوى إلى مالا نهاية تحطّمك وتجعّدك وتجعلك تشعّرين بقيد وهمي تربطيه حول نفسك، قالت أمها: صدقت، لكن ألا يعتبر ما تفعله نسرین شكوى أيضاً!

ربما فعلاً أنها أمر لا إرادي علينا ألا نلوم الناس عليه، خاصة عندما تسوء الأحوال، ما بالك في ظروف الحرب

أشارت فرح بيدها وتوسعت عيناها لا، لا يا أمي، نسرین صديقتي وضعها مختلف، على العكس هي شخصية مرحة وإيجابية، لكن من الواضح أنها تشعر بضغط كبير لذا لجأت إلي، وهذا

الأمر لا يحدث كل يوم نقول عن المرء يشكي أو سلمي عندما تتكرر أحاديثه نفسها كل مرة بدون ملل وكلل وحتى جدوى، فقط لجلب الاستعطاف دون البحث عن حلول أو خوف من الحسد، بابتسامة هازئة كما هو منتشر في مجتمعاتنا.

لكن نسرین كانت تتحدث وتفتش عن الحلول في آن معاً، تصوري كانت تحتتم جملتها دائماً، لا أدري، لكن يجب أن يكون ثمة حل، لا يجدر بي أن أقف متفرجة وأيامي تنساب أمامي مثل ماء منهمر تصوري ماما ماذا قالت لي بانفعال: من قال لك إننا أولاد الحروب لا يحق لنا أن نعيش، على العكس تماماً، الناس مثلنا، يقدرّون أبسط تفصيل ليخلقوا منه سعادة، إن تحسنت الكهرباء نسعد وتنفعل، إن تحمّنا حمماً دافئاً في الشتاء ونعْمنا بالدفء نسعد ونشعر بالنشوة، وإن تحمّنا حمماً بارداً في الصيف نسعد ونشعر بالانتعاش، إن اشترينا شيئاً للمنزل نسعد به حتى لو كان تافهاً، إن أكلنا أكلة لذيذة يطير عقلنا بها، إن سمعنا عن هذنة نرقص فرحاً، وإن كذب علينا أحدهم بالأمل والفرح القريب كما كل عام نصدقه.

بل نشر خبره مصدقين كذبه وكذبنا على أنفسنا، فقط لنحيا بأمل ونسرق سعادة صغيرة من تفاصيل يومنا، حتى إنجازاتنا العادية تبدو لنا سعادة، خروج وجبة الغسيل من الغسالة قبل أن تنطفئ الكهرباء، شراء قطعة ملابس جديدة، حضن شخص نحبه ومحبنا، رغم أنه يساورنا الخوف أن نفقده، أتدري كم نحن سارقي سعادة حتى لو كانت تافهة لغيرنا...

سرحت أمها وقالت: معها حق، معها حق تماماً، ثم تنهدت، فكرت ربما هي كذلك بحاجة للفرح، بحاجة للتجدد، ما بالها في الآونة الأخيرة ما عاد شيء يشعرها بالمتعة أو الفرح؟

تساءلت بينها وبين نفسها بعدما ذهبت ابتنتها لشؤونها، ما بال هذا البرود الكبير بداخلها وكأنه جبل جليدي، ربما إن سألت نفسها الآن ما الذي يسعدها لا تجد إجابة، أو ربما تحتاج لتفكير عميق، نعم لا شك أن سعادتها بأولادها، لكن الآن بعدما كبروا فجأة ودخل كل واحد منه عالمه وانشغل بحياته بدا الأمر مختلفاً، فكرت، هذا محمد درس الثانوية بمعدل ممتاز ودخل كما أنا حلمت له كلية الطب حتى لو كان طب أسنان وليس الجراحة، ألم يكن هذا أقصى أحلامي منذ خمس سنوات، وهذه فرح دخلت أيضاً المجال الذي تحبه وأصبحت طالبة لغة عربية، والحمد

لله ارتبطت بشباب خلوق وإنساني، ويا من وهام كذلك الأمر يسرون على درب أخوتهم بالعلم والأخلاق.

أوليس تلك الأمور كانت غايتي بيوم من الأيام، أو أليست تلك الأمور هي من ثقلت على كاهلي وجعلتني أرتحف من المسؤولية والخوف على الأولاد ومستقبلهم وحياتهم وحماتهم، ما بالي الآن وكأن روعي فارغة؟ أي خواء ذاك بداخلي؟ ما عادت بدت للمشاعر سمة في نفسي، الفرح، السعادة، الحماسة، الشغف، فقدتهم! ربما لأنني كبرت، نعم ما عدت صغيرة، تساءلت أهى تلك المشاعر حكراً على الشباب، غرقت بصمت، أتراني أشتاق لحمزة، أكذا الشوق يفعل على مر السنين، يأخذ من الروح شغفها ويطفئ النفس ويديم القلب ويصلب الجسد فلا يبقى معنى لشيء؟

أنا كل يوم أشتاق لحمزة، وهذا أمر اعتدت عليه لدرجة أنه صار جزءاً من تكويني، مني، شوق يشبه حقيقة يحملها المرء أينما ذهب، أو لا، ربما قلادة ثمينة لا يخلعها أبداً، حمزة قلادتي التي لن أخلعها حين لقائه، لكن ما هذا الذي يجري بروحي؟

حاولت أن تصرف تلك الأفكار عن ذهنها وأخبرت نفسها أنها بخير، قالت: يبدو أنني أبالغ، فأنا عندما يقترب موعد دوري الشهرية تبدأ الوسواس والأوهام وبعض الأفكار غير المجدية تعبت بي، ماذا أفعل مثلي مثل كل النساء، كلام طبييتي النسائية ما زال في أذني.

يجب ألا أبالي، لا بأس فترة اضطراب هرمونات لا أكثر، وهذا يؤدي لبعض الكآبة، على أي حال ما زلت في فترة النقاهة، الصراحة أن مسألة المرض تلك أثرت بي، هكذا يبدو، أه ليتني أستطيع أن أثبت ما بداخلي لأحد ما... تنهدت، عمري كله قضيتيه وحيدة وأنا بين حشد من الجموع، وهذا الأمر أستطيع حمله وحيدة، لا أحد يستطيع أن يساعد المرء مثل نفسه، حاولت أن تنهض قليلاً شعرت بالملل من الاستلقاء في السرير، قالت لنفسها: يجب أن أنهض وأتحرك ربما كل هذا العبء فوق صدري من الاستلقاء وعدم عمل شيء، خرجت من الغرفة رأيتها فرح وأخوها الصغير، اقتربا منها، قال لها الصغير: أمني فرح لا تعرف أن تطبخ طعاماً لذيذاً مثلك، نظرت له فرح باستغراب، وقالت له: يا لك من ولد ناكر للجميل، ابتسمت ليلى وقالت: أخوك يجبك جداً

ويقدر ما فعلت به بالفترة الأخيرة غمزت له بطرف عينها، نظر لأمه من طرف عينه وعلى ملامحه علامات عدم الاقتناع، نسيت كم كانت توبخني وصوتها يملأ البيت عندما أقوم بأمر لا يعجبها! قالت أخته: دعك من هذا الآن، ماما يجب أن ترتاح وتسمع ما يريحها في هذه الفترة.

رن الهاتف، أجابت فإذا هي أم تميم، اتصلت لتطمئن على صحة والدتها، فهي بعدما التقت بها في المشفى لم تواصل معها من جديد، وهذا في عرف امرأة من طراز أم تميم لا يليق بالواجب، الواجب عندها في المرتبة الأولى في حياتها، كل شيء تفعله لواجب، تسير باستقامة رافعة رأسها وواقفة بنفسها نحو الواجب بحب، ماذا يعني الواجب يا ترى؟

ما يجب عليك فعله بشكل مؤكد لأنه على عاتقك ويجب أن تؤديه ويا جماله لو أدبته بحب! وامرأة مثلها في نهاية العقد الرابع من عمرها، وبعدها أولادها كبروا وتزوجوا، وانتهت من واجبها بتربيتهم وأدت الرسالة نحوهم بكل ما تملك من جهد وإرادة وكفاح هي وزوجها، الآن حان دورها كما عقدت النية في السنوات القادمة في عمرها لتعيش وتركز على واجباتها العائلية والاجتماعية، وبالتالي ترى باب الواجب، باباً جيداً جداً لكسب حسنات كثيرة لدار الآخرة، بعدما بذلت ما بذلت لهذه الدنيا الفانية.

فواجب زيارة المريض ودعمه له أجر عظيم، وبالتالي يشعر المرء برقة في قلبه، ويدرك معنى الرحمة بالآخر وكيف يعتني بصحته لأنه في النهاية كما يقولون لا تعرف قيمة الصحة إلا عندما تفقدها، لذا لست بحاجة لتفقدتها، انظر لشخص مريض، تتوازن الأمور لديك، وخاصة إن كان مرضه خطير لا سمح الله، تركض نحو نفسك تحضنها وتعتني بجسمك كما لو كان طفلاً صغيراً، تُدَلِّل وتفيض دموعك وأنت تناشد الله ألا ينجربك في صحتك، وتعتقد العزم أنك لم تعد تريد أن تهملها، بعد فترة الصحوة تلك، تعود كما كنت في السابق وتهملها من جديد، تبرر لنفسك بأعذار واهية، وأحياناً تصب غضبك على محيطك؛ لأنهم هم السبب بتعب جسدك وروحك، ما بيدك حيلة؟!

ألو مرحباً ليلي.

أهلاً، أهلاً سيدة أم تميم، أهلاً وسهلاً.

أرجوك لا داعي لسيدة فقط قولي أم تميم، دعكِ من الرسميات.
حسنًا، كما تحبين.

يبدو صوتك جيدًا، الحمد لله هذا يبشر بالخير.

ابتسمت ليلي، وقالت: الحمد لله.

قالت بقلبها: كم نعمة هي أن تستطيع أن تخفي ما بداخلك بمجرد اللعب بنبرة صوتك
ورسم ابتسامة على وجهك.

أخبريني هل انتهيت من هذه الأزمة ورميتها جانبًا وعدتِ لأولادك وبيتك، صحيح؟ هي
الله لك هؤلاء الأولاد الرائعين، كم أحببتهم، كأنهم أولادي.

شكرًا لك أم تميم وهم أيضًا شعروا تجاهك بذات الشعور، وقالوا: حنانها ورحمتها لا مثيل
له، وبالنسبة لصحتي، تنحنت، هي بخير، أحسن، الحمد لله، لكن لم أعد بعد لروتيني اليومي
كما السابق، لأكون صادقة معك.

لا بأس حبيبي خذي وقتك، تدلي على الأولاد، ضحكت، هذا واجبهم أن يعتنوا بك، كم
اعتنيت بهم طوال الفترة الماضية من عمرك، جاء دورهم

معك حق، لكن لا أريد أن أثقل عليهم من أجل دروسهم وأعمالهم كما تعلمين، الكل يدرس
ويعمل، لا أريد أن آتي أنا وأزيدهم همًا فوق همهم.

سامحك الله، لماذا تحدثين هكذا عن نفسك وكأنك غريبة عنهم، هذا واجبهم، مثلما كان
واجبك ولحد الآن الاعتناء بهم، لكن المهم الآن دعكِ من كل شيء واعتني بنفسك، من واجبك
وحق نفسك عليك الاعتناء بها سواء صحتك أو راحة بالك.

آه يا أم تميم، أي راحة بال، أريد أن أقول لك شيئًا، صحيح، لا تعرفين كم سعدت بوجودك
بجانبي في المشفى تلك الليلة، كأنك ملاك نزل من السماء، أشكرك جدًا، وأشكر تميم على تلك
الوقفة النبيلة التي وقفها بجانب محمد، كم أنتم أشخاص طيبون حقًا، ليت الناس كلهم مثلكم.

حببتي، لا تكثرني هذا واجبنا، والله يا ليلي انتابني الشعور ذاته في المشفى، سعدت جداً بالتعرف عليك وعلى عائلتك الكريمة، حاكم الله، انتظري زيارتي بعد غد أنا وتميم إن كان يناسبكم.

طبعاً متى ما شئتم، هذا من دواعي سرورنا، شكراً لك، وشكراً لاهتمامك الذي غمرنا باللطف.

أغلقت الهاتف.

بدت ليل في الفترة الأخيرة على غير عاداتها، بدت متعبة تحتاج لوجود شخص يتفهمها، الكل بعيدون عنها أهلها وأهل زوجها وصديقاتها والحديث معهم على الهاتف اقتصر على الكلام العام، التفاصيل لا أحد يعلمها إلا من يشهدها معنا، يرى ما بنا ويشعر به، ويشاركنا لحظاتنا الحقيقية، أما الأمور العامة فتحدث بها للجميع، وبسبب المسافات، حتى أقرب الناس إلينا صاروا بعيدين عنا بشكل يصعب عليك أن تغوص معهم بأخبار عنك قد لا تعنيهم أو لا يفهمونها لأنها بعيدة عن مفاهيمهم ورؤيتهم الجديدة التي اتخذوها في البعد، سواء أكانوا في البلد أو خارجه.

قالت فرح: يبدو عليك يا أمي أنك ألفتي أمه لتميم وهي أيضاً، أندرين ماذا؟ عندما رأيته بالمشفى في اليوم التالي بعدما قضت ليلة معك، فهمت كم التألف قد يولد بسرعة أو لا يوجد أبداً، هذه المرأة جداً مألوفة وكأننا نعرفها منذ زمن.

قالت الأم: نعم فعلاً هي كذلك.

وأمر آخر فكرت به، أنك عشت في الفترة الأخيرة بلا علاقات أو حتى صداقات، صمتت، لم تجب أمها، عادت فرح وسألت: أتراه بسببي أنا وأخوتي.

قالت الأم: بصراحة لا أدري، حتماً ليس بسببك أنت وأخوتك، صحيح وقتي كله كان مكرس لكم، لكن هذا لا يبرر عدم تكويني لأي صداقات وعلاقات، خاصة بعد وفاة والدك.

قالت فرح: ربما واحدة أخرى غيرك تجدها فرصة بعد غياب زوجها، تلتحم بالحياة والناس أكثر، ما بالك انزلت! هذا الأمر بدأ يشعرنا بتأنيب الضمير أنا وأخوتي، كرسنا آخر سنواتك

لنا فقط وأهملت نفسك بشكل لا يوصف، حتى كأنك كبرت سنوات كثيرة منذ وفاة أبي، اقتربت منها وأمسكت يدها، ليتني أستطيع أن أقدم لك جزءاً مما قدمته لنا أو نعوضك، قالت لي أمه لطارق، أمك من النوع الذي لا يطلب ولا يعبر عما يشعر به إلا بصعوبة وهذا لمسته مؤخراً وكنت لا أعيه بحق رغم إنك أُمِّي وهي التقت بك عدة مرات، وأنا ألتقي بك كل يوم، كيف عرفتك أكثر مني، كم أنا فتاة غبية أفكر بنفسي فقط، فعلاً المرض سببه حزن مكثوم، لوت شفيتها بحزن.

قالت ليلي: ما بالك يا فرح من أين أتيت بتلك الأفكار يا صغيرتي، محاولة التخفيف عنها.

قالت بانفعال: ما عدت صغيرة يا أمي عمري تسعة عشر عاماً ونصف.

ضحكت ليلي بوجهها الشاحب، وقالت: تسعة عشر عاماً ونصف يعني أنك كبيرة، لكن ليس كبيرة كفاية لتأنيبي ضميرك على أخطاء الكبار، أمك مثلاً، ليس خطأك أنني هجرت نفسي وصادقت الألم، ليس خطأك إهمالي لصحتي وتعبي الزائد عن اللزوم وقلقي، هذا خطأي، تنهدت لا تسير الحياة كما خططنا لها يا بنتي.

قالت فرح: الحياة هكذا هي قاسية دائماً وغير عادلة.

صمتت الأم، حوار شابة بأول طلعتها على الحياة يحتاج جهداً و طاقة لا تملكهم الآن، لكنها ابتنتها، الأمومة متعبة، متعبة جداً، لأنها لا تحتمل الاعتذارات أو التأجيل أو الهروب، من واجبي كأم أن أجيبها، إن لم أجبها وأحدثها عن الحياة فمن سيحدثها، أوليس أنا من أنجبتها بإرادتي وبلهفتي وبحبي ورجائي، عندما حضنتها لأول مرة بعد تعب الولادة وتأملت عينيها الجميلتين، ما عادت الحياة كلها ومشكلاتها وهمومها تعني لي، جلس محمد بجاني وأبوه كان يقف في الطرف المقابل ينظر نحونا ببالغ البهجة، كان قدومك على العائلة فرحاً، حقاً فرحاً، لذا سميناك فرح، وسألت الله أن تحمي بفرح، والآن تقفين أمامي وأنت فتاة التسعة عشر ربيعاً وتخبريني بأول ما عرفت عن الحياة بأنها قاسية وغير عادلة، باذا أجيبك، كيف أقنعك بأشياء ربما أنا من جعلتها تسري بداخلك دون أن أعني؟

نعم الحياة قاسية وظالمة وغير عادلة ربما أو ربما البشر هم كذلك هذا أقرب للحقيقة!

قالت فرح: بعدما ملت من السكوت، لم تحبيني، إلى أين ذهبتِ بأفكارك، أين سرحتِ؟ حاولت الأم استعادة نفسها وتجميع أفكارها ورسمت على فمها ابتسامة ليست حقيقية تمامًا.. من أجل الأولاد المتظاهر بالراحة لا بأس به.

أنا هنا يا حبيتي لم أسرح بعيداً، أتدرين ماذا كنت أتذكر؟ قالت فرح: ماذا؟ قالت بهدوء: يوم مولدك.

ظهرت ابتسامة عريضة على ملامح فرح، قالت أحقاً؟

قالت الأم: نعم، أتذكرين قصة حملي بك التي كان أليك يحدثك عنها عندما كنت صغيرة؟ أطرقت وقالت: لا أنساها.

كان يقول لي: إنكما تمنيتما أن ترزقا بفتاة، رغم أن الجميع يحبون الصبيان، كنتم أنتم الاثنان تحبان البنات، هزت رأسها الأم موافقة، وأخبرت محمد أنه سيرزق بأخت، وأبي يومها كان سعيداً جداً بعدما علم الخبر من الطيبة النسائية وذهبت لبيت جدي وأخذت الحلوى لجميع أفراد العائلة وأخبرتوهم أنكم سترزقون بفتاة، لم يسروا كثيراً، بل شعروا بالغربة من شدة فرحهم وحساسهم، خرجتم من عندهم، كانت الليلة مقمرة وكنت تنأبطي ذراع أبي وبذراعه الأخرى كان يحمل محمد، شعرت بألم طفيف في ظهره، لكن تابعتي المسير، لأنك تحبين السير تحت ضوء القمر، كانت تلك الأيام في أواخر أيام الصيف أليس كذلك؟ قالت فرح.

أجابتها الأم وكأنها كانت في حلم جميل ومقلتها تلمع: نعم كانت ليلة دافئة وهواؤها منعش، أواخر الصيف.. قال أبوك ما رأيك أن نسميها قمر، بعدما نظر للقمر، قلت القمر جميل، لكن بعيد، نظر نحوي بحب وقال ما بالك أصبحت شاعرة بعد حملك، ضحكت بخجل، قلت له ما رأيك بورد؟ قال ورد، اسم جميل ومعناه جميل، لكن بطريقة كلامي ذاتها قال مقلداً لي بشكل يبعث على الضحك، الورد جميل لكنه يذبل، رغم أنه قريب، مسكت بطني الصغيرة التي تحتويك وضحكت من قلبي، كم كان أبوك خفيف الروح، دمت الأخلاق وروحه فكاهية وصحبته ممتعة، لذلك تعلقت به أشد التعلق وتحليت عن الدنيا بأكملها لأجله، الآن عرفت لماذا رحل،

لأن كل من نتعلق به يرحل، ذرفت دمعة من مقلتها فمسحتها بسرعة، حضنتها فرح وبكت، بكيا الاثنان، بشدة وعمق وتلاحما وكأنهما أصبحا جسداً واحداً وروحاً واحدة، تنن بألم، لكن البكاء يشفي ويطهر ويغسل الأرواح المتعبة ويفرغها من التعب ويعيد شحنها من جديد.

جاء طارق في اليوم التالي مصطحباً أمه ويده باقة أزهار كبيرة شكلها وألوانها تبعث على البهجة، استقبلتهم فرح وتلقت باقة الورود بحب وذهبت مسرعة تلج غرفة أمها، أمني وصلوا، هيا تعالي لا تتأخري قالت بحماسة، ردت الأم: جاهزة يا صغيرتي، لا تقلقي، وضعت على كتفها شالاً جميلاً لونه زيتي وحاولت أن تبدو بحال أفضل بعد عشرة أيام مضت منذ خروجها من المستشفى، ودخلت وسلمت عليهم واستقبلتهم ببشاشة وود.

قالت أم طارق بعدما رأتها: الحمد لله زال البأس، وعدت لنا بكامل الصحة والعافية.. لو تعرفين كم حملنا همك، طارق يجبك كأنك أمه يا ست ليلي، أثبت لي ذلك عندما علم بعمليتك ابستمت، فعلاً هو بغلاوة الأولاد، وأصبح فرداً عزيزاً من العائلة هو والدته.

دخلت فرح ويدها صينية القهوة ومعها طبق حلوى وضعتهم أمامهم، قالت لها بعدما شكرتها والدة طارق: أرجو أن نشربها قريباً في بيتك أنت وطارق.

ثم التفتت إلى السيدة ليلي، الآن، كيف ترين نفسك وصحتك؟

قالت ليلي: والله يا أم طارق، أول ثلاثة أيام بعد العملية كان الألم شديداً وصعباً، والحمد لله بدأ يزول بالتدريج، اليوم نهضتُ صباحاً بشكل رائع الحمد لله بعد عشرة أيام مضت.. قال لي الطبيب: التزمي بما قلتُ لك وستنسين الأمر كله بإذن الله بعد فترة صغيرة.

قالت أم طارق بثقة تامة ويدها فنجان القهوة وتضع رجلاً فوق رجل: قلت لفرح، والدتك امرأة طيبة وصالحة وهذا ما زاد رغبتنا في الانتساب لكم، لكنها كتومة وصبورة جداً وهذا ما جعل صحتها تسوء بذلك الشكل، زمت شفرتها ليلي، وقالت: صدقيني يا أم طارق، لم أكن كتومة قط ولا حتى صبورة، لكن الحياة والمسؤوليات تعلمك الكثير وتغيرك، وقد ينقلب المرء رأساً على عقب بعدما تمر عليه أحداث كثيرة، وخاصة القاسية منها، تنهدت الحمد لله.

شعرت أم طارق بألمها، فقالت لها: نعم.. أفهمك، أفهمك جيداً يا ليلي، كلما كبرنا عاماً نتغير، حتى نظرتنا للأمر تتغير، وعلى حساب صحتنا، كلنا هكذا نقول الأولوية للصحة ونهملها.

جلست فرح على الأريكة بمحاذاة طارق، وقالت له: كيف حالك؟

نظر لها بحب وهمس: أصبحت أفضل بعد رؤيتك، أطرقت بخجل.

قال طارق بعدما انتهى حديث أمه وحامته الطويل عن الصحة والأمراض وعواقب الصمت والأسى والحزن والحياة والأولاد والحرب والأوضاع المعيشية والطقس..

أمي، حماتي نريد أنا وفرح أن نطلعكم على أمر مهم ونحظى بقبولكم إن لم يكن لديكم مانع؟
تنحني، قررنا أن نتزوج بنهاية الربيع، التفتت الامرأتان نحوه وبدت على سحنتهما معالم المفاجأة والسرور في آن معاً.

قالت أمه ووجهها يضحك: ذاك يوم المنى يا طارق، زواجك ورؤية أولادك.

قال لها مازحاً: خطوة خطوة، يا أماه، دعينا نحظى بالزواج أولاً، فحماتي ما زالت صامته.

كانت تنظر لفرح بضع ثوان، وما زال شريط الحلم السابق يمر أمام عينيها كطيف. ماذا سنسميها إذاً يا حمزة، بعد تلك الجولة الخاسرة بالأسماء، أنا أعلنت استسلامي، لا أحد له بد من مجاراتك في أحاديثك تلك، حتى لو قلت لك حياة الآن ستقول لي، الحياة تنتهي، ضحك من قلبه وقال لها: كنت أمازحك لا أكثر، لكن سأخبرك بسر، مجرد ما علمت أن معك فتاة وشهدت على ردة فعلي وردة فعلك وكيف الفرح دغدغ مهجتنا جاءني إلهام فلتكن فرحاً، فلتكن فرحنا، نفرح بها ونفرح بنا كل عمرها ونقدم لها ما استطعنا من فرح، وعندما جاءت حملها بين ذراعيه وقبل جبينها برفق واقترب من زوجته، وقال لها: انظري كم يليق بها الاسم، كم ملائحتها تبعث بداخلك معنى الفرح.

امتألت مقلتهاها بالدموع، حبستهم بشدة، لن تبكي اليوم، بكت البارحة عن شهر قادم، اليوم بهذا الخبر الجميل وربما لا تعرف كيف تفسره، لا تعرف تماماً كيف لها أن تسعد وبذات الوقت تتألم، ستفارق حبيبته وصديقتها وابنة روحها، لكن، لا.. لا، لن تفكر بتلك الأشياء

الآن، أحلامها تتحقق أمامها، الحمد لله، فرح ستبني عائلة وغداً محمد وأخوته، وستكون أدت الرسالة بأمانة وحب.

عندما تلتقي بحمزة ستخبره كم كان الطريق صعباً، لكن الحب خفف من صعوبته، ورحمة الله بدت كغيمة بيضاء تظلمهم وتحرسهم من كل سوء في بلد مليء بالسوء، تلك آثار ما زرعت يا حمزة، تلك آثار ما اعتنقت وما بذلت وما قدمت.

نهضت فرح وجلست بجانب أمها وشدت على يدها برفق، شعرت بما بها، قالت الأم وكأنها خرجت لتوها من حلم حلوا: ذاك يوم المنى يا طارق لكل أم، كما قالت والدتك، لكن ما الذي استجد حتى اختصرت العام لشهرين أو ثلاثة تقريباً؟ ألم تقولاً أنت وهي ستزوجا بعدما تتحسن الأمور قليلاً في البلاد؟ لعام آخر على الأقل؟!

تنهد طارق ثم قال لها: صدقاً يا حاتي، لو كنت أعلم أن العام القادم ستتحسن الأمور لكننا أجلناه فعلاً، لكن انظري حولك، لا نعلم شيئاً، لكن رغم ذلك هذا لا يمنعنا من حقنا أن نكون معاً، والأمل بالله أن يعننا السلام والرخاء، هذا حلمنا منذ سنوات، طوى ذراعيه نحو صدره وهز قدمه قليلاً: الآن، ما رأيك؟ لم تمنحينا مباركتك بعد!

قالت أمه: ما هذا يا طارق، حاتك ستوافق حتماً، ألم تسمع رأيها منذ البداية، ابتسمت لليلي، بادلتهما الابتسامة، وقالت: مبارك لكما، وليتمم الله لكما بخير، نظر فرح وطارق إلى بعضهما والسعادة تقفز فرحاً من عيونهما.

طرق باب المنزل، نهضت فرح لفتتح الباب، قالت الأم: اجلسي أنت أنا كنت سأنهض، خرجت وفتحت الباب فإذا هو محمد، ألقى التحية على أمه، همست بأذنه عندنا ضيوف طارق ووالدته، قال لها: أعلم، أخبرني طارق قبل قدومه وطلب مني أن آتي باكراً لأراه، قالت الأم: كأنكم اتفقتم وسار الأمر؟

ضحك محمد: لا.. لا والله يا أمي، أنت الأساس وقبَلها من رأسها.

دخل محمد بوجه بشوش وألقى التحية على الجميع، ومنذ دخوله بدأت أحاديثهم بأمر زواج

فرح وطارق، رغم علمه المسبق، فطارق أخبره بالأمر أول ما خطر له ولاقى تأييداً منه مبدئياً، ريثما يستشير الباقيين. قال محمد لوالدة طارق وهم جالسون مستمتعون بجلسة فيها أخبار جميلة لم يحظوا بمثلها منذ وقت طويل: اليوم يا خالة بعدما علمت بخبر ترفعي في الكلية فرحت بذلك الإنجاز العظيم جداً بالنسبة لي، لأن عملي أخذ من وقتي كثيراً في الآونة الأخيرة لدرجة لم أكن أتوقع الكثير بصراحة، تساءلت، يا ترى ماذا يسعد المرء أكثر إنجازاته العملية أو العاطفية؟

كانت أمه تراقب ملامح وجهه وتستمع لحديثه بحال عاشقة، لا مجرد أم أوليس أول من يجب المرء بصدق وبلا شروط وبلا مقابل هي أمه، وآخرهم أيضاً؟!

كان عندما يرى أمه تنظر له أو لأخوته بتلك النظرة التي يعرفها جيداً، فتكون شبه مبتسمة وبذات الوقت متأملة ووجنتها تصبحان خمريتاً وعيناها تلمع وتهز برأسها موافقة على حديث أحد من أولادها وملاحماً تشي بالفخر والحب معاً وكأنها امتزجا، النظرة تلك كانت تكفيه من الدنيا وما فيها وتططب على قلبه فيطمئن.

ها هو ذا أصبح رجلاً وله مكانة ووجود وأمّه تفخر به، أيّاً يكن، ليست المسألة بأنه دخل كلية طب الأسنان ولا أنه عمل لثماني سنوات متواصلة بجد وكد رغم التعب والحرب والخوف والفقر، ربما تلك التفاصيل لا تعني شيئاً عظيماً لأحد زملائه الذي تربي بعناية ورعاية ودفع بحضن أم وأب داعمين ووصل حلمه، لكن تعني الكثير لطفل فقير، يتيم الأب، حساس تجاه كثير من الأشياء أولهم عائلته، كافح وعانى وعمل بكل شيء يخطر على بال المرء؛ ليحصل أخيراً على لقب، رجل.. رجل حقيقي، وطبيب يتخرج بعد مدة ليست بطويلة، من الآن يحظى بالاحترام ببلاد تعشق الألقاب وتقدسها، وتسحق الفقير والمسكين كل يوم.

قالت أم طارق: والله يا محمد الاثنان مهمان، مهمان جداً لتكتمل سعادة المرء، فالعمل والإنجاز العملي يصنعان حياة المرء الخارجية ويريحانه مادياً، أما الأمور العاطفية فهم يجعلون لحياة المرء استقرار بأن يشعر أن وجوده له معنى، أحد ما يدعّمه ويقدر وجوده، وخاصة بتكوين العائلة والأطفال، آه من الأطفال ما أحلامهم في البيت، الله يرزق الجميع الذرية الصالحة.

قال له طارق متحمساً: الآن دورنا وغداً دورك، تأتيني الأخبار من زملائك وأعرف جيداً

ماذا تفعل بقلوب العذارى، يطلق الجميع ضحكة تجعل محمد يشعر ببعض الخجل، ثم تنتهي جلستهم بحب وأمل بلقاء جديد وأيام جميلة قادمة.

جلست ليلي بعد ذهابها على سريرها تستعد للخلود للنوم، دخلت عليها فرح بعدما بدلت ثيابها وهي الأخرى جهزت نفسها لتنام، ففي الليل تكون الأجسام متعبة من مسير النهار والأرواح تحتاج للسكينة، جلست بجانب أمها، وقالت بصوت هادئ: نام الجميع وأنت لم تنامي بعد؟

قالت الأم وملامح الطمأنينة تكسو وجهها، ها أنا ذا كنت سأستلقي وأنام، كان يومنا جميل الحمد لله، كم سعدت لترفع أخيك، كنا متوقعين أن هذا غير ممكن مع كثرة ضغوطه، وموعد زواجك يا فتاة اقترُب، أمسكت بيدها، يترتب علينا كثير من الأمور من الآن فصاعداً، رتبي أمورك وأنا سأتحادث مع مصممة الأزياء وأخبرك عن مواعيدها من أجل فستان الزفاف.

قالت فرح: لم المصممة يا أمي والمواعيد الكثيرة! السوق مليء بالفساتين الجاهزة.

قالت الأم: أو هكذا ترين؟ قالت فرح: طبعاً.

قالت الأم: موافقة إذاً، فليكن، فهذا يوفر علينا كثيراً من الجهد والوقت.

نعم، هذا صحيح يا أماه، والحقيقية أنني لا أريدك أن ترهقي نفسك من أجلي أكثر، قالت الأم: هذا يا روجي ليس تعباً، هذا على قلبي كالماء البارد على الظمأ، أن أفرح بوحيدتي وأراها أجمل عروس، منذ أن أنجبتك وأنا أنخيل ما ستكونين عليه من الروعة عندما تكبرين.

ابتسمت ابتسامة واسعة وقبلت أمها ووضعت رأسها على كتفها وعقدت يدها على ذراعها، ثم قالت لها: ثمة أمر أريد أن أخبرك به لكنني مترددة كثيراً، فلا أعرف ردة فعلك كيف ستكون؟ قلقت الأم، فردت: ما هذا الأمر؟ خيراً إن شاء الله، ما لبثنا أن كنا سعداء، وكل الأمور بخير.

قالت فرح: لا.. لا.. لا تقلقي، على العكس هذا الأمر ربما إن أعجبك يتزوج ذاك السرور أو تلك السعادة التي تشعرين بها لأنه يخصك، أما أن للسعادة أن تعيش بك حقاً بدل أن تسير

بجانبك، أن تحييها لأجلك بدل من غيرك، أن تلمسيها بيدك بدل أن تشاهدها بعينك، نحن مهما كنا سعداء بحياتنا وحققتنا مبتغانا بعد أن لعقتنا العلقم لا نكتمل سعادتنا وأنت فقط مضحية ومستقبلية ومشاهدة..

ثمة أحاسيس ومشاعر لا يشعر بها المرء سوى إن كانت بذرتها بداخله سقاها هو، وعاش على أمل نضوجها واكتمالها كل يوم، نحن في النهاية مهما فعلنا وحققتنا تلك الأفعال والإنجازات، الحياة بأكملها تبقى لصاحبها في النهاية، عيشي، عيشي أماه، عيشي فعمرك مضى دون أن تعي بين الإرهاق والتعب والروتين والانتظار، لا أحد يستحق أن تحيي لأجله بشكل مخلص سواك، سواك أنت، نعم كانت فرح تتحدث بانفعال تارة، وبصوت هادئ تارة أخرى، بسبب هدوء الليل؛ لكي لا ترعج أحداً، تريد أن تسكب أفكارها في عقل أمها فتفهم ما تقصده هي، بأي طريقة.

وأما كانت تسمعها بصمت وتأثر وآذان وقلب صاغ، استطردت فرح، ربها تقولين لي العمر مضى، والآن كيف لي أن أحيي من جديد وأعوض ما فاتني، لكن في الحقيقة هذا كله هراء، هزت رأسها نعم هراء، العمر رقم، العمر مجرد رقم، وهذا بت ألمسه مع الأشخاص حولي، ثمة روح في داخلنا لا عمر لها، كانت الأم تهز رأسها موافقة.

لا تنظري إلى أمك وجدتك، الحياة تغيرت والأساليب كلها تغيرت في التعاطي مع الحياة، وحتى تلك الحرب القذرة فتحت لنا أبواباً كانت مغلقة قبل الحرب ووسعت أفقنا، صديقاتي أغلبهن صاروا ببلاد مختلفة بين الشرق والغرب، يتحدثن معي كل يوم ويخبرنني عن الحياة هناك، عن الحضارة والرقمي والقانون والنظام وجودة العلم وقيمة أن يحيا المرء، أحياناً تجدين نساء في السبعين يخططن للتسعين، ويستمتعن بكل يوم يعيشه ليكون الواقع أجمل كل يوم، صديقاتي نفسهن تغيرن، كل شيء تغير بهن، ببساطة تغيرت حياتهن وقدرهن، كانت الحرب لعنة، ورحمة في الوقت ذاته، لأننا اطلعنا على ثقافات مختلفة وأدركنا كم هو الكون فسيح، أحياناً أتمنى لو كنا سافرن مثل الجميع... نستحق حياة جميلة... متحضرة... راقية... نستحق أن يؤمن مستقبلنا.. فلا نعمل العائلة بأكملها بعد وفاة أبينا... لكي لا نحتاج أحداً ونغطي مصاريفنا... نستحقين الرفاهية.. والدلال.. والراحة.. بلادنا جميلة... لكن الحرب وآثارها أهلكتنا... تهتدت. ما قيمة

حياة المرء إن لم يحيا بكفاية؟

انظري عندما يكون المرء مكتفياً يبدع ولا يصبح فقط آلة للعمل، ثمة فن وإبداع وشغف في هذه الحياة، أتوق له كل يوم.. كم هو قبيح أن تحبي لتكافحي، لا.. لا أريد حياة الكفاح تلك، أصلاً لا أحب كلمة كفاح... غيرت لب موضوعها الذي أتت لتحدث أمها به دون وعي، وغاصت بالحديث عن أفكار باتت تؤرقها ومفاهيم كادت تتشكل بداخلها بكل عمق يوماً بعد يوم. أخبرت طارق بالأمس، إن كان ثمة فرصة للهروب من ذاك الجحيم الذي نحياه أنا أول الناس سأهرب، أخبرته أنني أحلم بحياة مختلفة عن تلك الحياة لي ولأولادي، سئمننا من الخوف، من التعب، من الانتظار، سئمننا من التخلف، سئمننا من كل شيء، نستحق واقع أفضل بكل شيء، في التعليم وفي الصحة وفي الحضارة وفي الإبداع والإنجاز.

شعرت أنها انحدرت بل انقلبت عن موضوعها التي أتت لأمرها من أجله، فحاولت أن تعيد المسار الذي خرج عن نطاقه وغرق أصلاً في بحيرة أفكارها المبعثرة هنا وهناك، قالت: أقصد لذا يجب أن تعيشي من أجلك، لأن كل هذا المرء الذي يحصل كل يوم نجرك أن الحياة ماضية وقد تفقدها لا سمح الله دون أن تكوني حققت شيئاً لنفسك، نريدك أنا وأخوتي أن تفعلي شيئاً لك، تحبيه، تستمتعي به، لك فقط، أيّا يكن، سواء عمل أو هواية أو حتى تعليم، أي شيء، هذا يفيد جداً من حيث صحتك النفسية والجسدية.

نظقت الأم بعد صمت طويل، هي نفسها تفاجأت به، لم تكن في الماضي مستمعة جيدة، لطالما كانت تقاطع محدثها مرة ومرتين ولا تحتمل أن تبقى صامتة وصاغية لحديث طويل، تفضل أن يكون ذاك الحديث أجزاء صغيرة، تتكلم فيه وتسمع بين الجملة والأخرى، كيف للمرء أن يتغير هكذا بعد مرور السنوات! ربما هذا ما يطلقون عليه النضج.

كانت تشبه فرح برفضها للواقع وغرورها وثقتها وإقبالها على الحياة، حماسها تجاه ما تحب ونفورها وعدم موضوعيتها تجاه ما لا يوافقها، ربما النساء في هذا العمر كلهن يشبهن بعضهن البعض، بداية الشباب، تساءلت، كيف ستتزوج وتحمل مسؤولية الزواج وهي في العشرين، ليتني أخرت زواجها بعض الشيء، لكن لم أعد أملك من أمري شيئاً عندما رأيت كم طارق شاب

خلق وناجح بعمله، ورأيت مدى إعجابهن ببعضهن، ستكبر وستنضج، ربما هي بالنسبة لبنات جيلها واعية وتعرف ما تريد، لكن الأم دائماً هكذا، تقلق على كل شيء يخص أولادها.

قالت لفرح: كلامك جميل يا بنتي ولا غبار عليه، زمت فرح شفيتها وأومات برأسها بثقة، لكن يا حبيبتي ثمة أمور كثيرة وصفيتها من وجهة نظر طفلة كبيرة تطلق أحكاماً على الحياة.

كنتِ تقولين لي في مطلع حديثك أنني أهدرتُ عمري هباء، وأن السعادة إن لم تحيا بداخلك فهي غير مكتملة، لا يكفي أن تنظري لها من بعيد، أتعرفين يا فرح معنى أن يحيا المرء لغيره؟ هو بحد ذاته هدف سام لا يناله الجميع، فتحت عينها بدهشة وقاطعت أمها، وقالت: رباه أُمي ما هذه الأفكار! إن لم أحيا لنفسي ما قيمة حياتي؟ ما بالي بغيري، أصلاً تلك الفكرة التي نشأ جيلكم عليها بأن الأم شمعة تحترق، والإنسان المضحي كالشمعة ينطفئ لينير للآخرين الدرب، فكرة جوفاء، شوهاء، أنا يجب أن أنير نفسي وأعيش لنفسي أولاً، قالت بانفعال.

قالت أمها: ألم تلاحظي أنني لم أكمل جملة! بعتب، احمرّت وجنتا فرح وشعرت بالخلجل، أسفة أُمي أقاطعتك دائماً. حبيبتي انظري إليّ، أنا متفقة معك تمام الاتفاق، كل ما قلتيه أنا أو وديده، لكن الفرق بيني وبينك أن فكرتك كالبدرة وفكرتي ناضجة، عندما قلتُ لك أن يحيا المرء لغيره هدف سام، كنتِ أوّمن أن من يحيا لغيره بصدق يمر بمرحلة يحيا بها لنفسه أنت يا صغيرتي لم تصبحي أمّاً بعد، وأسأل الله أن يجعلك تعيشين الأمومة وتختبرين تلك التجربة التي هي مثال حي للعطاء الحقيقي، أنتِ ربما تنظرين لحياتي الآن بعمرِكَ وفهمك للأمور أنها حياة خاوية؛ لأنّي لم أقدم فيها شيئاً لنفسي على حد قولك، لكن أنا الآن منذ أربعة أعوام إلى تلك اللحظة أشهد أسعد أيام حياتي، ربما في الآونة الأخيرة جسدي أرهاق ومرضت، فأين يذهب التوتر والتعب في النهاية، لكن هذا تعب يستحق، أن أرى أبنائي حماهم الله أمامي شباباً مستقيمين وسعداء فرحة لا يعادله شيء.

دخولك كلية الآداب التي اخترتها بحب ودخول أخيك محمد كلية طب الأسنان وترقيه في عمله بعد جهد بذله بالعمل منذ وفاة أبائك لدرجة أنه وقف في الشارع وباع البسكويت مكافأة من ربي، أن أراكم تخطيتم مرحلة المراهقة بسلام دون أزمات ودخلتم الأفرع الجامعية التي لطالما

حلتم بها وسرتم خطواتكم الأولى في الحياة بنجاح وتوفيق، هذه مشاريعكم وأهدافكم أنتم، لكن في النهاية، أنتم، أنت وأخوتك مشروعي الأكبر في حياتي، ولو تنازلت عن هذا المشروع وفكرت بطريقة ضيقة وأناية كما نصحني جميع الناس، أنت امرأة شابة ما زلت، اتركي أولادك واذهبي وعيشي لنفسك، أتراني كنت حصلت على تلك النتيجة، بالتأكيد لا..

لكن أُمي، هذا من حقك، وصدقاً لما كنت لمتك، قالت فرح.

ضحكت الأم باستهزاء وألم: الآن تقولين ذلك، لكن لو كنت طفلة بلا أم وأب لاختلف الأمر.. أنا لا أحب الطرق لذلك الموضوع، لكنك أخذتيني إليه بحديثك ذاك، الملخص من الكلام، أنا كنت وما زلت لهذه اللحظة سعيدة بكم؛ لأنكم أهم هدف ومشروع أملكه، ولا تستطيعين أن تقللي من شأن أم اختارت أن يكون أولادها عملها ومشروعها الأول والأسمى.. دعك من الكلام الذي انتشر مؤخراً بأن ربة المنزل غير عاملة ولا منتجة، هذا هراء بحث وكلام فارغ بلا جدوى، ربة المنزل الصالحة والواعية أكثر امرأة مقدسة وعاملة؛ لأنها تعمل لأجل بيتها وأولادها وهذه مهمتها الرئيسة شاءت أو أبت، ولا يوجد عمل بحياتها أهم من أن ترى نجاح وتوفيق عملها مع أسرتها، هذه مرحلة مهمة وأساسية بحياتها بعدما قررت أن تنجب وتصبح أُمًا.

نظرت فرح بطرف عينيها وكأن الكلام لم يعجبها، شعرت أمها بذلك فقالت: لن نعي كلامي بحق إلا عندما تصبحين أُمًا، مدت سبابتها، انتبهي، لن يسعد امرؤ وأبناؤه أشقياء، محال.

أما بالنسبة لي.. قاطعتها فرح، نعم أريد أن تتحدثني عن ليلى، ليلى فقط.

أجابت الأم: بالنسبة لي كان الأمر صعب والتضحية كبيرة، أو لا أحب ان أسميها تضحية بل كان خيارى وأفخر به، أن أكون أنا الأم والأب معاً، رغم أن أباكم كان حاضراً دائماً بيننا بروحه، أشعر به دائماً.

ليلى يا حبيبتي، قالت فرح: نريدك أن تفعلي أمراً لك، لليل فقط، هذا يفرق معك كثيراً، أنت أديت الرسالة والحمد لله نجحت وكبرنا وكل واحد بيننا يتجه نحو حياته، ثمة شخص الآن يجدر به أن يلتفت لنفسه بصدق وحب ألا وهو أنت، الآن كنت تقولين أنه يستحيل أن تنعم أم بالراحة

والاطمئنان وأولادها متعبون أو أن تكون سعيدة وأولادها تعساء، أليس كذلك؟!

المعادلة عكسية تماماً يا أمي، والأبناء في النهاية لا يحتاجون سوى أمًا متوازنة وسعيدة؛ لأن حالتها انعكاس لhaltهم هكذا يخبرون أخصائي التربية دائماً، صمتت الأم، وصمتت فرح.

ثم قالت الأم: أتعرفين منذ أن خرجتُ من المستشفى وحالتي ليست على ما يرام، كأن ثمة شيء بداخلي كل يوم يأخذني لمكان ما، يوماً تكون مشاعري كلها امتنان؛ لأنني تجاوزت مرحلة صحية صعبة، ومرة تكون مشاعري خاوية، نعم خاوية تماماً كأن بداخلي فراغ كبير، ومرة تكون مشاعري متحمسة للمستقبل، وتارة يسحبني الماضي فأنزلُ نحوه وكأنه حاضر أحياء، وأحياناً يكتسحني حزن عميق على حالي، أقول امرأة أرملة وحيدة بلا سند وبلا معين وبلا رفيق وبلا أي أحد، وحيدة، وحيدة تماماً، أعود وألغي تلك الخرافات وأؤنب نفسي، أربعة أولاد تحلم بهم أية أم بكل تفاصيلهم أين ذهبوا، حفظهم الله.

كانت تتحدث بتلقائية تامة ونظرها إلى الأمام وبجانبتها فرح تسمعها هذه المرة دون مقاطعة، التفتت نحو ابنتها ثم قالت: حتى جسدي كأنه تغير، لا أدري، أكبرتُ ربما! عظامي تؤلمني وكأنني بدأت أفقد لياقتي.. كنت مثل النحلة، لا أهدأ، الآن كم أشعر بثقل وألم في يديّ وحتى ظهري، لا شيء يبقى على حاله السابق.

قالت فرح: ما رأيك أن تمارسي الرياضة؟ أنا وأنت، كل تلك الأمور التي ذكرتها، سببها عدم ممارسة الرياضة، أتعرفين، ليس ثمة أجهل من الرياضة لك يا ليلي خانم، تفيدك نفسياً وجسدياً ولن تعودي تتحججي بالوقت، فالوقت وقتك الآن.

زمت الأم شفيتها وزرت عيناها، ثم قالت: أهكذا تقولين؟ صرخت فرح بحماس مبالغ فيه أضحك أمها، هكذا تقول الدنيا بأكملها يا ليلي ما بك! هيا حركي نفسك أمسكتها من خواصرها ودغدغتها، ضحكت ليلي على تصرفات فرح الطفولية وأخذت كلامها بجدية.

قالت لها: هيا اذهبي إلى النوم، كفأكِ ثرثرة، غداً اذهبي إلى جامعتك، كأن الغياب والكسل راق لك.

رفعت فرح حاجبها بتعجب؟! أهكذا جزائي لأنني أردت أن ترتاحي هذه الفترة، لو كان ابنك محمد كنت نظرت نحوه بكل حب ولهفة، وقلت له: أنتعتك معي يا روحي، وانهمرت عليه بالدعاء، مجتمع ذكوري، رفعت كتفيها، ماذا عسانا نفعل، قالت الأم وملامح التعب والنعاس بدت تظهر عليها: هيا، كفى، تحركي وذهبي للنوم.

نام الجميع هذه الليلة مطمئنين، غزت أحلامهم رؤى وأخيلة لطيفة، حتى الأحلام التي تغزونا ونحن نائمون لا تتجاوز حالة جسدنا ونفسنا وروحنا بل تعول عليهم دائماً، فأحلام المطمئنين لا تشبه أحلام القلقين، وأحلام الفقراء لا تشبه أحلام الأغنياء، وأحلام المكتفين لا تشبه أحلام المحرومين.

حرية

(ندين)

لماذا تلهث وراء فرع من فروع الجبال، إن كان بإمكانك أن تتصل بأصله!؟

لماذا تلهث وراء صورة من صور الحب ما دام بإمكانك أن تعيشه بكماله ومصدره؟

لماذا تضيق بنفسك والطريق أمامك واسع؟

لماذا تقيد نفسك؟

وأنت خلقت حر!

قالت جدي: لم أعد أريد أعذاراً، درستك وأنها سنة وسيتهي الما جستير كما قلت لي، والحرب لا نعرف ما مصيرها، لكن الآن الحمد لله الأمور أفضل من قبل بكثير والكل يقول الأمور ذاهبة للأفضل، ونفسك تطورها كل يوم كما تتحججين، ولو ارتبطت لن يعيقك شيء عن تحقيق ما تحبين، على العكس يا ندين، إن رزقك الله بزواج صالح وداعم لك يشبهك كما أدعو الله دائماً، لأنك فتاة صالحة وطيبة وطموحة وتستحقين كل شيء جميل مثلك، إن رزقك الله بزواج على منوالك نفسه، ضحكك من تلك العبارة ورفعت حاجبي بدهشة، قالت جدي بضحكة أيضاً: لا تدققي على كلماتي، المهم حينها سوف تنعمين بأفضل حياة؛ لأنه ليس ثمة نعمة ينعم بها المرء وتكون فضل عظيم من الله له إلا أن يكون شريكك بالحياة يدعمك ويفهمك. صمتنا قليلاً ثم عدنا للحديث مرة أخرى..

قالت جدي: لا أريد أن أطيل المكوث عندك، جدك في البيت ينتظري، جهزي نفسك الأسبوع القادم، أريدك أن تتعرفي على هؤلاء الجماعة، لا تتركيني أمامهم كعادتك، اقبلي الأمر وانتهى، أفهمتي؟ علا صوتها، الفتيات بعمر ك أصبح عندهم أولاد، ضحك مجدداً، حاضر.. حاضر مثلما تحبين، هذه المرة لن أخذلك وسأكون على قدر المسؤولية وأشعرهم أنني أفضل فتاة قد يقابلونها بكل حياتهم، قالت: يا الله يا بنتي، أنا لا أريد أن تبالغني أو تصنعني، فقط كوني على

طبيعتك، تلك الطبيعة التي تحبها جدتك، تعالي هاتي قبلة من ذاك الخد الحلو، حضنتها وقبلتني.. حبها الصادق لي يجعلني أقبّل منها أي شيء، كم أنا محظوظة بجدتي.

قالت لي: تحدثت مع أمك البارحة، لم تعجبي ملامحها، أخبرتها أن تعود، شعرت أن كلامي لم يعجبها، لا أدري هي حرة في النهاية، لكن تلك الحياة لا تناسبها ولا تناسب أباك، انظري تشعرين أن كلاهما غير مرتاح بحياته، تنهدت، من مرتاح بعد تلك الحرب؟ تشردت كل العائلات، حسبنا الله ونعم الوكيل أفضل شيء لا بد أن تؤول الأمور إلى الخير في النهاية مهما ساءت، نرجو الله.

قلت لها: يا رب.. يا رب يا جدتي، أن تؤول إلى خير وتنتهي على خير، الأمر طال، أنا أيضاً اشتقت لأمي ولأخوتي ولجمعتنا على طاولة العشاء مساءً، اشتقت لجمعة الأعياد في منزلك مع أعمامي وعمتي، وفرحنا وأحاديثنا، حتى شجارنا، اشتقت لتلك الأيام، صار كل واحد بيننا ببلد، واللقاء أمر صعب.. الحمد لله أننا نستطيع أن نراهم على تلك الهواتف على الأقل.

لم تحب.. التفّت أنظر لوجهها وإذا بها تبكي بصمت، قلت: لا.. لا، أرجوك لا تفعل هذا بنفسك، اللوم عليّ أنا من فتحت هذا الحديث وجعلتك تبكين، ليتني لم أفعل هذا، قلت لنفسني: كم إنني غبية، جدتي لا تبكي بسهولة، وأبكيها بأحاديثي تلك.

قالت بعدما مسحت دموعها: لا، ليس اللوم عليك يا حبيبتي، هذا الأمر بداخلي سواء تحدثت عنه أم لا، ليس اللوم عليك، أصلاً لا أنام كل يوم إلا والدموع على خديّ على ما حل بنا وببلدنا.. لكن كله خير، كله خير.

أستغربُ كلامها، كيف لها أن تبدو قوية أماناً في النهار لتستر دموعها في الليل؟

قالت: بلدنا جميلة وأهلها طيبون، لا تستحق كل ما حدث بها..

صمتنا، لم أجبها هذه المرة، أضمرت بداخلي استياء من كل ما كنا ندعيه من طيبة وكمال، الحرب عرتنا، عرتنا تماماً، فظهر أن بداخل كل أحد منا شيطان، ظهر فجأة بشكل بعدما كنا نخفيه في ظروف الأمن والسلام. طفت على السطح أمراض اجتماعية يندى لها الجبين، من كره وتعصب وحقد وعدم قبول وأنانية وخيانة.. أي قلوب تلك التي كنا نحملها بصدورنا طوال

تلك السنين؟ أي نفاق كنا ندعيه؟ من المؤكد أن الحرب جاءت لتعرينا أمام أنفسنا ولتطهرنا ولتعيد تشكيلنا من جديد؟

لنعي معنى أن نرحم ونحب ونقبل بعضنا؛ لأننا في النهاية مهما ادعينا الانفصال والاختلاف عن بعضنا خلقنا من نفس واحدة، لا أحد يستطيع أن ينكر ذاك الأمر، كلنا أبناء آدم، كلنا أخوة، شئنا أم أبينا. عندما قتل قابيل هابيل خسر الاثنان، ومثلاً للعالم أول جريمة في التاريخ، القاتل فيها خسر والمقتول، أنساءل دائماً: ألم يكن ثمة طريقة أخرى لتنتهي القصة دون جريمة؟ دون أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟ دون أن يشعر المقتول بأفضليته على القاتل؟ فيقول له أريد أن تبوء بإثمي! ودون أن يعمي الحسد القاتل ويفوق شره توقعه فيقدم على قتل أخيه فيندم!

ذهبت جدي وهي تشد على يدي، وتقول: سأراكِ عروساً جميلة قبل أن أموت، أليس كذلك يا حبيبتي؟

حضنتها وقلت لها: وسترين أولادي بإذن الله، كست البهجة ملامحها، هذا مناي يا ندين.
رن الهاتف فإذا هي أُمِّي، قالت: كيف حالك ابنتي؟ ما الأخبار؟ أبوك هل هو بخير؟ جدتك وجدك؟

قلت لها: الجميع بخير ويسلمون عليك، وإن بقيت عاماً آخر في تلك البلاد ستعودين وترين ابنتك الوحيدة متزوجة وربما لديك حفيد.

حدقت بدهشة: ما هذا الهراء؟ وأين أمك من كل هذا يا فتاة؟

ضحكت وقلت لها: أنا وجدي نخطط لكل شيء، نظرت بطرف عينها، وأمك يا أنسة! كأنه لم يعد لها داع بحياتك؟ تغيرت ملامحها بدت وكأنها استاءت، شعرت بذلك، قلت لها: ما بك يا مدام سمر، أراكِ صدقتِ المزحة وعشتِ بها، أيعقل أن نخطو أي خطوة بدونك؟ على أي حال أنا لست مستعجلة أبداً، على العكس، أرى أن هناك متسعاً من الوقت لبناء عائلة ودخول ذاك القفص الذهبي، لكن أنت وجدي وحتى جدي وعمتي وخالتي وصديقتي المغفلة تلك لا تعرفون كيف تزجون بي نحو الارتباط.

قالت أمي بسخرية: أنا أرى أنك أكثر واحدة بيننا مستعجلة، كفاك دلاًلاً وتهرباً، وأنتِ ترغين بذلك، أي سداجة تلك التي أنتِ بها، هذا بدا يظهر عليك، أنا أملك وأشعر بك، يتمنعن وهن راغبات، في الفترة الأخيرة كلك تغيرت، لا أدري ما السر، لكن كم أنا مسرورة لتلك التغيرات، أصلاً عمتك هديل حكّت لي كل شيء، كنت تسخرين من فكرة الخطوبة التقليدية، الآن تجلسين مع الخاطبين وتظهرين لطافتك وأنوثتك وتسايرين الجميع، هذا إن دل على شيء يدل على أنك فهمتِ الرسالة التي تقول إن الزواج قسمة ونصيب، وأن الإنسان عليه أن يكون سعيداً مع نفسه ومتفهماً لها، ليأتي شريك الحياة الذي يكمل تلك السعادة ويضيف لها، لا ليكون هو مصدرها؟

قلت: كلام جميل جداً، يلخص كل العلاقات وأهمها الزواج، نعم فهمت، فلا تهم الطريقة سواء تقليدية أو عن إعجاب مسبق، إنما النتيجة هي المهمة.

قالت: وليس ثمة قانون قطعي في ذاك الأمر، أنتِ تعرفين؛ لذلك الحب الحقيقي يأتي بعد الزواج، هزرت برأسي موافقة، أفكر بكلام أمي وأحلله في عقلي، بعد دقائق عديدة انتهى حديثنا الطويل عن الزواج والارتباط والطرق التي تؤدي إليه، وعن أبي، ثم ختمت أمي حديثها بأنني يجب أن أنام أكثر وأتغذى أكثر وأهتم بصحتي ودراستي وأسير نحو أهدافي، إلى آخره من نصائح الأمهات التي لا تنتهي.

بعد يومين كنت عائدة من جامعتي وأشعر بالتعب والجوع، ولجأت المبنى مسرعة وإذا بجارتنا في الطابق الأول من المبنى تفتح بابها التقت أعيننا ببعضها، فابتسمتُ بشكل عفوي وألقيتُ عليها التحية، ردت بلطف. هممتُ أسرع في الصعود، قالت: ندين أريد أن أسألك عن أمر ما، عدت للوراء ووقفت أمامها، وقلت: تفضلي، قالت خطري أن أسألك لأنك تعرفين بالإرشاد وتلك القصص المتعلقة به، ما رأيك أن تدخلني ونشرب القهوة معاً إن كان لديك وقت، قلت لها: الآن عدت من الجامعة وبصراحة متعبة قليلاً بابتسامة خجولة، لكن لا بأس أدخل قليلاً لنرى ما الأمر، وضعت القهوة أمامي، ثم قالت، أختي تزوجت من رجل مطلق وعنده ثلاث بنات

البنت الصغيرة مع أمها، والكبيرة عاشت مع أختي وأبيها سنتين ونصف فقط، فكانت فتاة

لطيفة عادية تسمع الكلام وتحترم الجميع، كانت تساعد أختي في أعمال المنزل وتعتني بأخيها الذي أنجبته أختي ولا تفتعل المشكلات مع أحد، مسالمة، ومرة الأيام وجاء من يطلب يدها فترجعت وتركت المنزل، وما زالت العلاقة بينهم جيدة فأختي حنونة وأخلاقها عالية ولها قدرة على التحمل، أما الوسطى، فلا أراك الله مثل تلك الفتاة، متمردة، وقحة، كئيبة، وسوداوية، ولا تسمع الكلام، وعنيدة جداً.

قلت لها كم عمرها؟

قالت عمرها ستة عشر عاماً، تصوري نحاول أن تسايرها كثيراً لدرجة أنا أحياناً أستغرب كيف لها أن تحتمل تلك الشخصية رغم أنها ليست ابنتها! قلت لها: الحمد لله أن أختك زوجة أبيها، وكما قلت إنها طيبة وذات خلق، فهذه الفتاة على ما يبدو في فترة حرجة جداً، فهي مرافقة وبذات الوقت وحيدة؛ لأنه بحسب كلامك أختها الكبيرة متزوجة، والصغيرة مع أمها، يا ترى هل تتواصل مع أمها بشكل دوري؟ حركت رأسها وزمت شفتها باستهزاء، قائلة: أمها؟ أمها أبداً لا تتواصل معها، أختي تقول لها أحياناً: أنتِ اتصلي بها، تقول لها المسكينة، لو كانت هي تريدني كانت اتصلت، لا أريد التحدث معها. تشعرين أنها تكره الجميع حتى نفسها؟!

شعرت ببعض الأسى بداخلي، أنا لا أحب أن أمارس دور المرشد النفسي في هذه الفترة من حياتي رغم تعمقي في المجال وحيي ودراستي له، لأمر واحد فقط ما زال عائناً أمامي، أنني لا أعرف بعد كيف أحيد مشاعري، لا أعرف أن أمسك غضبي أو حزني أو تأثري أو تعاطفي عندما أسمع مآسي الناس، فمن يطلب الإرشاد حتماً هو واقع في مشكلة إن لم تكن مأساة، والمرشد من صفاته المهمة الحيادية، تلك الصفة التي لم أمتلكها بعد، ما كنت حيادية طوال عمري الذي مضى، أمني تقول لي: عندما تكبرين ستتعلمين الحيادية، خذي وقتك، في النهاية ستعرفين تماماً كيف تحيد مشاعرك، ما زلت صغيرة، أمامك متسع من الوقت.

قالت الجارة، ما رأيك؟

قلت لها: الأمر واضح، واضح جداً، كما قلت لك رغم أنني لا أستطيع أن أحكم على الأمر؛ لأنني لم أر الفتاة ولا أختك، لكن من كلامك، يبدو أنها فتاة بعمر المرافقة الذي يحصل

فيه تحولات جسدية ونفسية كبيرة في شخصية الإنسان، بالإضافة إلى أنها وحيدة، وأمها متخلفة عنها، يبدو أنها ما زالت تعاني من طلاق والديها.

وهي ماذا تدرس؟ قالت: لا تدرس، صمتُ قليلاً.

قلت لها: أضيفي إلى ذلك الفراغ.. وغياب الهدف والمعنى، قالت: يعني كيف لأختي أن تعاملها وهي بتلك الحالة الصعبة إذا؟

قلت: كما أخبرتك سابقاً أنا لا أستطيع الحكم أو تقييم حالة بتلك الطريقة، لكن إن أردت المساعدة البسيطة على حد ما علمت منك

أولاً: الاحتواء والحب من العائلة التي تسكن معها وإبداء الدعم والقبول، بداية من أبيها وحتى من زوجة أبيها، فهي في النهاية أم وتعرف مقدار الألم الذي يسببه انفصال الأهل وتخلي الأم في تلك الحالة.

ثانياً: وضع هدف دراسي أو مهني أو أي شيء مفيد تحبه يجعلها تشغل وقتها، فإن لم تشغل بشيء جيد ومفيد، ستنشغل بشيء سيئ وضار حتّى، عمرها ووضعها حساس؟

لماذا أمها لا تتواصل معها، أيا ترى الأب لا يريد أن تتواصل مع أمها بسبب الانفصال؟

أحياناً ثمن انفصال الأهل يدفعه الأبناء، إن لم يكن الأهل بقدر كبير من الوعي والدراية بهذا الشأن، مع الأسف الأمر يكون كارثة على العائلة إن كان الطرفان لا يعرفان كيف يخرجان منه بأقل الخسائر، والضحية دائماً الأبناء، تنهدت ثم قالت، صدقت. لكن لا على العكس، زوج أختي متعاطف معها ويشعر بالذنب، يريد لابنته الحياة السعيدة، أمها مسافرة لبلد آخر ولا تراها أبداً منذ تسع سنوات تقريباً عندما بدأت الحرب؛ لذا يريد أن تتواصل مع أمها، بأسف على حالها كثيراً، لكن أمها لا تتواصل معها، تصوري ماذا قالت لها بعد انقطاع كبير بينهم وإصرار من أختها الأكبر أن تتصل بأمها، قالت الفتاة: لماذا لا تسألين عني؟ أجابته ببرود: يجب أنتِ أن تسألين عن أمك، الصغير يسأل عن الكبير؟!

رحم احتواك فظننت أنه وطنك وسكنك وأمانك، كيف يرميك هكذا بلا رحمة ليفرغك منه

وكانك لم تسكنه يوماً؟ أين الوطن الحقيقي إن كان ثمة أوطان تحيا بها وأنت غريب؟

أين الأمان الحقيقي إن كان الخوف جزء من تكوينك لتجابه المخاطر؟ أين السكن الحقيقي إن كان رحم أمك نبذك عندما كنت معتقد أنه سكنك وأمك قد تنبذك أيضاً؟

أين الحب الحقيقي إن كان من يهيم بك حباً اليوم قد ينسأك أو يخونك في الغد؟ الاحتمالات لا تنتهي إلا عندما تنتهي الحياة، بماذا نعلق هذا القلب الذي يهيم على وجهه باحثاً عن الأمان والسكن والحب والجمال والمعنى.. منذ أن تبعث فيه نبضته الأولى إلى أن يقف معلناً نهاية رحلة الجسد؟! الجسد؟!

خرجتُ من عند الجارة، ومررتُ لبيت جدي، طرقتُ الباب لم يجب أحد، يبدو أنها ليسا في المنزل، صعدت باتجاه منزلنا، رن هاتفي المحمول، أبي يتصل، أهلاً أبي، قال: كيف حالك يا بنتي طمثنيني عدت من جامعتك؟

قلت: نعم عدت من الجامعة، أنا بجانب باب المنزل.

قال: مررت لعند جديك؟

قلت: نعم مررت، لكن جدي ليسا في منزلها.

قال لي: إنها عند عمك هديل إذاً، اتصلت بي صباحاً ودعتنا للعشاء الليلة في منزلها، سأنهي أعمالي وآتي لأخذك من المنزل، وأنت كوني جاهزة عند السادسة مساءً.

حاضر أبي، سأكون جاهزة.

أغلقتُ الهاتف وأنا أخلع عني معطفي وحجابي، استلقيت على الكنب، كان يوماً دراسياً متعباً حقاً.

شعرتُ بداخلي برغبة بعدم الخروج، لكن حاولت صرفها عني، عمتي هديل ستزعج إن لم آتي مع أبي، تقول لي دائماً كفي عن كونك بيتوتية، صيري مثل عمك وتضحك، تقول: حتى أمك مثلي، لا بأس مع الوقت ربما لا نراك إلا وانت من جلسة اجتماعية إلى أخرى، في النهاية ستشبهين

إما أمك أو عمك أو جدتك، أهر رأسي موافقة، أقول لها: نعم المرء يقلد بغير وعي من يعيش معهم، لذا نصبح مثل أمهاتنا أو جداتنا أو حتى عماتنا أو حتى خالتنا، أضيفي إلى ذلك الجينات والوراثة، لذا بحث الإنسان عن نفسه الحقيقية متعب جداً، لكنه قيم.

تقول لي : كم أحب حديثك يا ابنة أخي.

أشعر بداخلي بالحنين والسرور.. ومن لا يسر عندما يمدحه أحد خاصة إن كان جديد فهم للحياة؟!!

غيرت ملابسي وتوضأت وصليت العصر ثم ذهبت إلى المطبخ أحضر شيئاً سريعاً لأكله، فتحتُ الثلاجة وجدت صحن ورق عنب شهبي، لا بد أنه من عند جدتي، كم هو وجود جدتي نعمة، الحمد لله أنها لم تسافر مع عمي، حتى لو قال لها بضعة أشهر، لو لم تكن هنا لكنا أنا وأبي وجدي وضعنا جداً مأساوي، لن يستمتعوا بطبخي مطلقاً، لا بأس، في النهاية مستقبلي جيد بالطبخ؛ لأن نساء عائلتي كلهن طبّاخات ماهرات، سأصبح ربة منزل رائعة هذا لا شك فيه، كذلك الاعتناء بالمنزل فن من الفنون، ضحكت مستهزئةً من تلك الثقة.

أخطط وأنا أمضغ لفافة ورق العنب الشهية سأقرأ قليلاً وأدرس قليلاً وأستحم، وليته يبقى لي وقت لأرتاح فقط قليلاً، أستمتع بترف الاستلقاء دون فعل شيء، ويجب أيضاً أن أتحديث مع أمي وأخوتي، وأتحديث مع حنين، لأنها لا بد من وأنا كرهتني بعد كل ذاك الانقطاع هذا من حقها، بعد الغداء غسلت الصحون. ولجت للصالة وشغلت التلفاز وأنا أهم بالاتصال بأمي وأخوتي. الأخبار تغيرت، لم تعد أخبار بلدي في الصدارة، لم يعد يابه أحد بنا، أعتقد من الأساس لا أحد يابه لأحد، أمي لم تجب على الاتصال، ربما أنها في الخارج هي وأخوتي أو أنهم شغلوا بأمر ما، فتحت باب الشرفة وخرجت قليلاً لأستنشق الهواء ثم أتابع مهمامي.

في أمسية هذا اليوم وقبل أن أدخل للنوم، أمسكت قلمي وبدأت بالتدوين لكن هذه المرة الأمر مختلف؛ لأنها الرسالة الأخيرة.

مساء الخير.. كيف حالك؟ كيف حالك... أيها البعيد! كيف حال قلبك الآن؟ ما زال يدمي بحبي.. يتنفس بي.. كما كنت تخبرني دائماً.. وكما كنت أشعر.. وأرى ذلك في عينيك!

كيف حال روحك؟ أتراها هذأت؟ هل سكنت؟ هل وجدت نورها أخيراً؟

كيف حال أيامك؟ في بلد بعيد عن هنا.. أبعد مما يتصور المرء.. هل وجدت الوطن الذي لطالما كنت تتمناه.. وتحلم به؟

هل أيامك بدأت تضاف إلى رصيدك؟ وتحسبها من عمرك؟ الناس هناك... ماذا بالنسبة لهم؟ هل هم بالشكل الذي كنت تبحث عنه في الناس هنا ولا تجده، فلتخبرني؟

هل شعورك بالانتماء يقيظ أخيراً بعد سبات طويل؟ وشعورك بالغربة وأنت بين أناسك اضمحل؟ هل تركت عادة الشكوى؟ وصرت مسؤولاً عن حياتك؟

هل ما زلت عصيباً وعنيداً؟ أم إنك تغيرت! كم نشبه بعضاً البعض! وكم نحن مختلفون! هل وجدت معنى لحياتك؟ هل فهمت الحياة؟ أو ما زلت تحاول عبثاً!

هل سلكت الطريق الذي كنت تبحث عنه؟ أم ما زال شائكاً وعصياً على الوصول! هل شعرت بالأمان أخيراً؟ هل دقت معنى أن يكون المرء مطمئناً ولو مرة في حياتك؟

هل رأيت الله في آياته؟ هل تعرفت عليه كما أخبر عن ذاته وليس كما أخبروك؟ هل وقعت بالحب من جديد؟! هل عرفت معنى الحب وأصله؟

معنى النشوة؟ معنى السكر وأنت لم تذوق خمراً قط؟ هل صار قلبك يلفظ التعلق ويضم الحب برفق؟! هل عرفت الفرق بينهما؟ قلبي عرف...!

هل وجدت خليلاً روحه تشبه روحك، وأفكاره تحتوي على أفكارك، ورؤيته تصب في منبع رؤيتك، وأحبك بصدق لأنه يؤمن أنكما من نفس واحدة، يأخذك للأعلى دائماً وترتقي معه كل مرة، فبات اللقاء معه لحظات قدسية؟

هل أصبحت تذوق الجمال أو ما زالت الغشاوة على عينيك كثيفة بكثافة دخان البلاد التي أعمتها الحروب؟ هل تذوقت الجمال حقاً؟!

فصرت ترى السماء وكأنها لوحة لرسام مبدع لا مثيل له!

هل صرت تتأمل الشروق فتأمل بأنها إشارة لروحك بأنها قادرة كل يوم أن تشرق مثل الشمس ومعها؟

هل جلست بسكون بساعات الغروب لتعلم أنه لكل شيء غروب حتى نحن!
هل نظرت للقمر وهو بدر واستمتعت بنوره السريالي وجماله الفضّي الناصع وهو مجرد حجر بعيد كما أخبرونا؟

هل تأملت ذات يوم شجرة؟ نعم شجرة باسقة وخضراء وثابتة كأنها امرأة حكيمة بالغة الجمال تمر عليها كل أنواع التجارب والتحديات والمشاعر والأحاسيس والمحن فتستقبلها بحب وتودعها بحب وتبقى ثابتة؟ حتى الأشجار روح، تصور! هل أصبحت ترى جمال المرء بداخله وهو طفل وهو شاب وهو كهل؟

هل أصبحت تعي كم هو الإنسان كائن فيه جمال وأصله جمال؟ هل صرت تلاحظ جمال الكون ورهبته بجميع مخلوقاته وبكافة أشكاله؟

هل تأملت جمال عصفور وهو يحلق بالسماء بجناحيه الصغيرين ويطير؟!
ليتني كالعصفور أستطيع أن أطير كلما أردت، أن أرى الكون من فوق فتسمو روحي وأعلم ألا حد للسماء ولا حد لشيء، الحدود فقط في عقولنا وفي منطقنا الهش وأفقنا الضيق؟!
أخبرني بصدق، هل وجدت ذاتك؟

أتذكر.. مضت سنوات!
ما بال الأيام تمضي بسرعة بهذا الشكل وتحسب من عمرنا سواء شئنا أم أبينا؟ ما بال الزمن لا نستطيع إيقافه؟
أتذكر أول لقاء بيننا..

كنت تنظر إليّ من بعيد وتميل رأسك جانباً كأنك تتذكر أمراً ما أو يدهشك أمر آخر... لا أدري... فقط أذكر أنني التفت لأرى شيئاً من روحي ينظر إليّ من بعيد!

أتذكر آخر لقاء؟ مضت عليه عدة أعوام.. جئت لتزورنا.. اعتذرت من أبي لأنك ستسافر أو ستهاجر أقرب للحقيقة حينها كنت شاحب، أكتافك مرخية ونظرك جامد نحو الأسفل.. أبي كان قاسياً معك في ذلك اليوم، أعتذر عنه، أبي في طبعه حنون جداً لكن أيضاً في داخله قسوة رهيبة تظهر وتدهشك!

لا أدري كيف يمكن للمرء أن يحمل الشيء ونقيضه في داخله.. الذي أعرفه تماماً أنه لا يوجد أب يتمنى أن يفارق أولاده إلى الأبد وخاصة ابنته الوحيدة.

لن أنسى ملامح وجهك في اللقاء الأخير وأنت تسير نحو الباب خارجاً، ثم تدير رأسك فتراني أقف بجسدي فقط. روحي كان مغشياً عليها وروحك أيضاً، كنت أشعر بك تماماً كما أشعر بنفسي. حلمت بك كثيراً وأنت عائد، حلمت بنظرتك نفسها وأنت تميل رأسك جانباً وتتأملني من بعيد، حلمت بيدك وهي بيد أبي وأنا أطير فرحاً بتلك المصافحة، حلمت بطفل وسيم يشبهك. طارت الأحلام في أبعد سماء وحلقت وتلاشت كسراب..

الماذا تسمى أمياتنا العظيمة المخبأة بقلوبنا بالأحلام؟ لربما لصعوبة تصديقها وشبه استحالة منالها.. مثلها مثل حلمك الذي يمر بخيالك دون أن تستطيع القبض عليه.

كنت أتساءل دوماً، لماذا هذا الحب يعذبني؟ لماذا هذا الحب أخذ مني الكثير ولم يعطيني؟ لماذا هذا الحب لم يشعرني أنني كفاية؟

عرف الحب عبر التاريخ علماء وأدباء كثر وحيرهم وكأنه لغز عسير، لا أحد اتفق على ماهيته الحقيقية... على تعريف واضح له.

لكن حب يعذب ليس بحب حقيقي، حب يهذب ويسعد هو حب حقيقي هكذا آمنت.

لا أدري بإذا أسميك اليوم؟ أي الألقاب أنسب إليك؟ أيعقل كيف تفعل السنون بنا وتغيرنا وتجعلنا أناس آخرون؟

كنت حبيبي، هكذا كنت أسميك، والآن اتخذت حبيباً جديداً! سأحدثك عنه... لا تخف، كنت مؤشراً السعادي يوماً ما.. والآن أصبح لسعادي مؤثر آخر لا يشبه أحداً

معك عذبتُ نفسي، وأحببتها وكرهتها، وأمتعته وآلمتها، ومعه صادقت جوهر نفسي وعرفتها وقبلتها ورفقت بها.

ما رأيك الليلة أن نتحدث عن الحب... عن الجمال... عن الخير المطلق؟

الليلة الحديث إليك وكل الوقت لك؛ لأنه الحديث الأخير.. والأحاديث التي نعتقد هي الأخيرة تجعلنا نفيض لنتهي كل شيء بداخلنا دفعة واحدة فلا نعود مجدداً كما كنا.

عندما ذهب، ذهبَت نفسي معك، وجهي بات شاحباً، وشيء بداخلي انطفأ، وكان غيابك مع الحرب اللعينة بأوجها مترافقان، عذابان معاً، يومها كفرتُ بكل شيء، بالحب وبالأمان وبالأحلام.

تصور! فتاة واعية كما كانوا يقولون، مؤمنة، جميلة، مثقفة، وسعيدة، لا ينقصها شيء، هكذا تبدو.

تقلب حياتها رأساً على عقب.. تهتز مبادئها ومعتقداتها وأفكارها وإيمانها ويقينها وكل شيء ينطوي على وجودها يختلف!

مات بداخلي كل شيء.

ظهرت الحرب، والقتل والتشرد واللجوء والخوف.. يا لذاك اللعين، والبرد والته والقلق، القلق الذي يأكلك ويفترسك كل ليلة..

أمي ذات يوم بعدما حاولت معي مراراً وتكراراً لتساعدني وأنا كسلحفاة مختبئة برأس عنيد وقاس يشبه قوقعتها لا أستجيب، غضبت مني ويئست، وهي الأخرى كانت تائهة ربما مثلي وأكثر لكن بدوامات كثيرة أنا إحداها، فأنا فتاتها الوحيدة؟!

بعد محاولات عديدة لتمد يدها لي، لتتشلني من غرقني وأنا أتكور على نفسي وأرفض، وأزيد رفضاً كل يوم، تعب، ملت، انهارت قواها، ثارت، قالت لي: فلتذهبي للجحيم... تصور؟!

لم يعد لها طاقة على الاحتمال، وعلى مد يدها وأنا ألويها، سئمت مني ومن نفسها، وكم

كرهتك؛ لأنك برأيها المسؤول..

وربما كرهتني حينذاك لا أدري، كنت بغیضة جداً وهشة وضعيفة ومرتحفة طوال الوقت، مبلدة، يائسة، أنا لم أكن أطيق نفسي؟!!

أبي احتضنني في البداية وحاول أن يخفف عني خوفي ووحدي، لكن يوماً بعد يوم كانت تزيد الضغوط على الجميع، وكل أحد بيننا يخوض معارك بداخله شرسة ولثيمة، لا أحد يعلم عنها شيئاً، أضف إلى ذلك حربنا الحقيقية الملموسة التي بين يدينا.

بعد مدة ليست بالقليلة قال: افعلی بنفسك ما شئت، تريد أن تقتلي نفسك بتصرفاتك وحزنك ذلك، فتح يديه وحركهما يئاساً، أنت حرة.

الجميع بعد أمي وأبي وجدتي تجنّبي، تجنّبي تماماً... وكأنني داء معدٍ؟

لم تكن تلك الفترة طويلة جداً رغم قساوتها، كانت عدة شهور، أبكي، أحضن نفسي وأبكي، قبل النوم أتخيل نظراتك، أتخيل حديثنا، لقاءاتنا، أتذكر الأمن الذي كنا نحياه، أتذكر كم كانت أسباب السعادة مفتوحة أمامنا، وكم كنا مغفلين، قرأت ذات مرة أن طبيعة المرء ثمة أمزجة متشائمة وأخرى متفائلة وثمة درجة من الهناء الذاتي تكون محدودة عند كل فرد.

أمزجتنا نحن كانت حتماً متشائمة لا تعرف ولا تقدر السعادة لذلك لم نحصل عليها

لطالما اعتقدت أن من واجب الكون أن يأتيني بطبق من السعادة هكذا وأنا جالسة وعابسة ولا يعجبني شيء، حتى لا أبتسم؛ لأنني كنت أحبذ الأحران وقتها... أحبذ البكاء على أغنية كلها آلام، وأحبذ أن أتكور على نفسي وألوي شفتي بحزن، أحبذ نقد الواقع، نقد الناس، والحياة، مثلك تماماً!

كنت أؤمن كلما زادت معرفة المرء زاد شقاؤه، وكم كنت شقية، رغم معرفتي الضحلة!

بدوت في تلك المرحلة مثل ثور هائج يركل كل شيء أمامه، فقط يركل كل شيء، الناس والحياة والأفكار والأحلام واللمسات والهمسات والخوف والحب والاضطراب والوجع والوجود... أركل وأغرق في الضياع أكثر... أركل وأغرق في الوحل أكثر كثور... كخنزير بري...

كجُرْد.. لا أدري؟

هل تعي كيف للإنسان أن يحتوي جميع الاحتمالات؟ هل ترى كيف يصبح النبيل دنيئاً؟
واللطيف فظاً؟ والخير شريراً؟ والجميل قبيحاً؟ والحلو مرّاً علقماً؟

هل ترى؟ لذا ليس لنا أن نحكم على أحد؛ لأن في داخلنا عوالم وأكوان نجاهد لكي نخرج
أجلها دائماً للآخرين ونبتسم.

أيها الهائم مثلي، بيني وبينك بحور وجبال وسد منيع، مهما قالوا ومهما سمعت لا أحد قادر
أن يززع إيماني بأن أرواحنا كانت عاشقة وولهي...

كنا صورة من صور الحب الذي لطالما بحثت عن أصله لأتحرر..

يَحِيلُ إِلَيَّ الآن أن كل شيء كان حليماً أو مثل الحلم؟!

إن كان حب حقيقي فأين مصدره؟ لطالما كنت أتساءل؟ أين مصدر الأشياء؟ أين منبعها؟
من أنا، من هم؟ لماذا كل ذلك الضياع؟

خواء وصمت وكثير من الألم والوجع والأسئلة الوجودية كانت تلف رأسي كل يوم.

عندما انهدم كل شيء أمامي دفعة واحدة، وانهارت كل منظومة المفاهيم والمعتقدات التي
نشأت عليها، لأول مرة طلبت المساعدة، كانت جدتي تحتضني بصمت، الأوضاع ليست على ما
يرام، لا في المنزل ولا في البلاد، كل شيء مقيت بنظري.

قلتُ لها: مللتُ من كل شيء، ما عدتُ أحتمل، كيف لي أن أعود كما كنت؟

قالت بشفقة: لا تطلبي من الله أن تعودي كما كنت، في الحياة يا صغيرتي ليس ثمة عودة
على الإطلاق، وإلا كان الجميع عادوا، والذي كتبه لم يكن سياباً منيعاً، لذا انهار كلياً عند أول
اختبار، اطلبي من الله أن تصبحي شخصاً جديداً، أفضل مما كنت عليه.

قالت جملتها وزهبت، بقي في ذهني ديبب جملة سياباً منيعاً، وكلمة انهار، تلاحت لي فجأة
جملة أخرى كأنني سمعتها من قبل، على شفا جُرف هارٍ.

ما ذاك السياج المتيع الذي لم أكنه يا ترى؟ تساءلت. حتماً هو إيماني وأُسُسي ومبادئ وقيمي التي أقمت عليها نفسي ربها، أو أقامتني عليها الحياة لا أدري.

بدأت أستعيد توازني ببطء شديد لكنه ثابت، عدت للقراءة في بداية الأمر، ولأجل رحمة الرحيم، كانت الكتب التي أقرأها كأنها رسائل مخفية لي قرأت لكتاب عرب وكتاب أجنبي، قرأت في علم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع والتربية قرأت روايات علمية، قرأت كتباً تحكي عن السعادة وعن الأديان وأخرى عن تطوير الذات، نصحتني صديقة بعدة كتب تدعو للأمل من جديد قرأت أيضاً بعضاً منها، وجدتي نصحتني بكتب الصوفية كذلك قرأت لهم، قرأت لمن يروقي ومن لا يروق، لمن أوافقه ومن أخلافه، في الأدب، والفن والمعتقد

القراءة كانت باب شفاء عظيم لروحي بعد الباب الأول ألا وهو مناجاة وذكر الرحيم.

ثمّة أحاديث كثيرة كنت أحدث الرحيم بها تلك الأحاديث هي التي شافتني.

أول سؤال سألته له: لماذا كل ذلك الخراب بداخلي؟ لما كل ذلك القلق الأسود اللعين والخوف؟

إن كنت تحبني حقاً ساعدني، أنا في أشد الحاجة إليك، كل شيء هدم أمامي دفعة واحدة؟

بلادي، أكثر شخص أحبه، أحلامي البسيطة، أولست الرحمن، لن أهون عليك هكذا؟

أخبرتني بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... رباه ألهمني ما الذي يجدر بي تغييره؟

عندما كنت أحدث الرحيم وأدعوه كنت أنساب بعالم آخر أغرق فيه بعمق أكثر يوماً بعد يوم، لكن بعد ذلك الحديث كانت روحي تطفو، أشعر بخفة لم أشعر بها من قبل، وكل مرة أشعر بيد الرحيم تربت على كتفي، وتتشلني وأنا على حافة الانهيار، قريب إنه قريب، وروحي وكياني وكل ذرة بي وبأنفاسي تشعر، تحس، لست وحيدة ومنسية كما كان يتهيأ لي؟!

اعرف نفسك، قالها سقراط منذ آلاف السنين، اعرف نفسك، أتراني كنت أعرفني حقاً؟

من أنا، ما هدف وجودي، لما أنا موجودة أصلاً، هل أنا مؤمنة حقاً أم أنا منافقة وكنت أظنني

مؤمنة، ما معنى حياتي؟

ماذا أريد؟ ما غايتي؟ ما غاية وجودنا؟ الحب.. أو العذاب.. أو الاختبار..

أسئلة كثيرة كانت تدور في عقلي طوال تلك السنوات التي مضت، والآن بدأت تظهر للسطح، تتوق لإجابة، إجابة أضع بها البصمة بكل كياني بأني مطمئنة لها.

الخوف، بدأت به، خوفاً من الحياة من بعدك رغم أنني كنت حية ومتناسكة من قبلك، خوفاً من الحرب، خوفاً من الفقد، خوفاً من الفشل، خوفاً من آراء الناس، خوفاً من المرض، خوفاً من الخوف ذاته، خوف وخوف وأسير به نحو الحياة مقفلة على نفسي، كشخص يسير نحو الشمس ويختبئ خوفاً من نورها؟!

ما سر هذا الخوف؟ الخوف شيء فطري بتكويننا لنحافظ على بقائنا ونحمي أنفسنا من الخطر، شدته قاتلة، وإنعدامه قاتل أيضاً.

فأن لا يخاف المرء أبداً كارثة تجعله يؤدي بحياته وتدل على خلل بيولوجي فيه حتماً، وأن يخاف كثيراً أيضاً ثمة خلل فيه إما نتيجة تشوه في الإدراك العقلي أو تعلق.

ما معنى التعلق، معناه أن أجد الأمان من تلك الجهة فقط، فيصبح أي خلل في تلك الجهة انهيار بالنسبة لي.

أن أتعلق بالحياة، يعني أن يصبح الموت كابوساً مقيتاً كريهاً أرتجف فرعاً عند ذكره لأن إدراكي مشوه نحوه.

أن أتعلق بشخص يعني أن أعلق عليه معنى وجودي وسعادي وأماني وسلامي النفسي والجسدي.

فإن خدش ذاك المرء شيئاً خدشني، وإن غاب غابت حياتي؛ لأن إدراكي مشوه تجاه ذاتي.

أن أتعلق بما أملك، يعني أن أصبح عبدة للأشياء أخدمها دون أن أتقدمي، فأصبح عبداً لبيتي، لسيارتي، للمالي كله؛ لأن إدراكي مشوه بفهوم الملكية.

ونحن دائماً معلقون بأفكار وأشخاص وأشياء تأسرننا، فنخاف دون أن نقدر أنفسنا ونكرمها عن ذاك الألم المجاني الذي نعانيه بسذاجة؛ لأننا غير واعين به، بل معتقدين بثبات أنه جزء منا.

إذاً لمن أحياء؟ إن لم تكن هناك جهة واحدة، فيها أمان دائم، باق، أبدي، ألتجئ لها دون أختيب. لطالما كنت ألثت باحثة عن معنى، وأعلقه بصور زائفة، فأعود أدراجي خائبة، خائبة تماماً مثل طفل يائس ملتوي الشفتين، حزين.

الحب، الأمان، السلام، الجمال، السعادة، قيم فيها معان ندفع عمرنا بالبحث عنها ومطاردتها والفوز بها.

قد نطارد الجمال طائنين أنه جمال لكنه في داخله قبح، وقد نطارد الأمان بأرض بداخلها بركان.. ونطارد الحب بجهة كلها عذاب.. ونطارد السعادة بقلب الشقاء..

فنكفر بالجمال بسبب اختيارنا الخاطئ وجهلنا بأصله، ونكفر بالأمان وبالحب وبالسعادة، ونتهم العالم بالجنون والظلم واللامنطق، ونلوم الجميع إلا أنفسنا، رغم أننا نحن فقط المسؤولون عن سوء توجهنا ووضعنا البوصلة باتجاه كنا نعتقد أنه هو الغاية، لكنه ليس سوى صورة وقد تكون مزيفة عن غايتنا.

الله هو الأمان، الله هو الحب، الله هو الغاية، وكل ما عدا ذلك سراب، مؤقت، زائل. هل تعي كم نحن مقيدون لأنفسنا وخلقنا أحراراً؟ خلقنا الله خلفاء له على الأرض وأرادنا أحرار وأحياء به.. به فقط لأنه مصدر كل شيء!

أتدري معنى أن تكون حراً بالله وحي به؟

أن تختار وتفعل وتشعر وتدفع الثمن، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

أن تكون مسؤولاً، ذو عقل وقلب وروح وسمع وبصر وإرادة!

عندما زاد إدراكك كنت أنظر حولي، أرى كل جمال الحياة وبداعتها صورة من جماله، وكل

حب الأرض وفنونه قطرة من حبه

وكل الجهات الآمنة خراب في خراب بغيره، وكل سعادة وهم بلا لذة قربه

أخيراً عرفت أن الرحيم هو أصل الأشياء وغايتها.

شعرت كأن الألم بداخلي بدأ يتبدد مثل تبدد الليل أول ساعات الفجر معلناً بداية الصباح..

فهمت رسالة ذاك الألم أخيراً.

عندما أُرخيْتُ قبضتي على كل ما يجري بداخلي وبالعالم الخارجي وتركته يعبر ويؤدي رسالته،

فهمت مؤخراً أنني لم أخلق لك، رغم كل هذا الحب بداخلي إليك الذي جعلته بجهلي محض تعلق،

وحبي لك صورة من صور الحب الفانية

إنما مصدر الحب هو الرحيم، هو الله، أحب اسمه الرحيم، وبُتُّ مؤخراً أحيًا به، عندما أنقذني من كل شيء حتى من نفسي.

عندما تركني الجميع وملوا مني هو لم يمل ولم يسأم

بل على العكس، كنت أشعر برحمته بي في كل موقف وفي كل كلمة وفي كل ظرف أمر به

عندما همستُ له بصدق أنني أريد المساعدة، لم يتخلَّ عني..

أعاني أن أعرف روحي فأعرفه، وأن أحب روحي فأحبه، وأن أقدمها فأقدسه..

لأن هذه الروح له..

هذا الحب الحقيقي الذي يجعلك قويًا وغنيًا ومتوازنًا وممتلئًا وكافيًا؛ لأن وراءك ركنًا شديدًا

لا يموت ولا يغيب ولا ينتهي، لا يمل ولا يسأم، لا يخون ولا يضعف، يحبك وأنت في أسوأ حالاتك، حتى عندما تكره نفسك..

أليس هذا هو الحب، وكل ما عداه وهم؟!

حبك كان تعلقاً، كان هادماً، كان مقيداً، وأنا لم أوجد لأعذب، لأقيد، لأهدم، أنا روح ثمينة من الله..

وجودي متصل به، بأصل الجبال والحب والكمال والأمان..

كنت أسير بمنطلق مشوه بين الصورة عن الشيء وحقيقته في كثير من أمور الحياة، حينها فهمت أن الدنيا كلها بأغلب علمائها وفلاسفتها وعظمائها المبصرون أدركوا عظمة هذا الكون وجماله، منبعه سر عظيم وأبدي، جميل، لا متناهي، هو الله... فأسهل طريق نحوه هو أن تعرف نفسك، فتعرفه وتعرف من أنت، ولما أنت هنا، وما غايه وجودك..

أن تفهم حدودك، وتلتزم بمسؤوليتك، وتستقيم على دربك بالاستعانة به، آمنتُ أن غاية وجودي هي الحب وليس العذاب.

أنا لا أستحق كل ذلك العذاب الذي عشته معك بحبك لي وحيي لك، بثقل وجع روحي بفراقك وكأن في داخلي حريق ولهب، وبخوفي الدائم وأنا بجانبك أن أفقدك وكأنني مكبلة بقيد..

أستحق أن أحيأ بسلام وبكفاية، أستحق شريكاً يشاركني الرؤية والهدف، أرقى وأسمو معه، أحبه ويحبني حباً حقيقياً، خالياً من تلك العذابات... حب فيه مسافة تكون فيها نفسي مطمئنة، مكتفية في كل الظروف والأحوال؛ لأنني روح من الله وخليفة له وعبدة له فقط، لا لنفسي ولا لغيري ولا لأحلامي ولا حتى طموحي ولا كل الأشياء المزيفة التي أتوق لها.

أنت تعبد من تحب وتحب من تعبد، والعبادة في أرقى تعاريفها كما تعلمت (طاعة طوعية، مزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية)

لذلك قررتُ مؤخراً لن أعبد سوى الرحيم، وهذا مطلق الحرية والجمال والحكمة بالنسبة لي..

رأيتُ أن كل ما أخبروني به عن الله وعن الدين وعن الجنة وعن النار غير مكتمل.. ثمة نقص فيه؛ حدثنوا أن الله شديد العقاب، لم يخبرونا أن الشر من أنفسنا والخير من الله

وأنه أحسن على عبده من الأم بولدها، قرأت ذات مرة عبارة أحببتها، إن الله أراد أن يخلق شيئاً

يشبهه على هذه الأرض، فخلق قلوب الأمهات.

قالوا لنا إن الصلاة فرض، لكن هي اتصال عميق بالخالق نحن نحتاجه وليس هو جل علاه وهي ليست حركات وتلاوات فقط..

حدثونا عن الجن والشیطان وكيف يتلبس بالإنسان ولم يخبرونا عن الملائكة التي تحفظه، ومن كان في كنف الله لا تطاله يد إنس ولا جن..

حدثونا أن الجنة بعيدة المنال، ولم يحدثونا أن الجنة تبدأ من الآن، عندما نحب ونغسل الكراهية والحق والحسد من قلوبنا ولا نؤذي ولا نؤذى نحيا بجنة.

والحياة أنعم الله علينا بها وسخرها لنا لنستعين به ونصدق ونعمل ونخلص وتذكر العهد كل يوم ونشكر.

علمونا أن نمثل ولا نسأل ولا نبحت، وأول كلمة نزلت بالقرآن كانت اقرأ.

علمونا أن بعض الأدعية والأقوال قد تشفع لنا... ونسوا الأعمال، الأعمال والنوايا التي تسوقنا لأقدار نستحقها.

علمونا أن الحياة إما أبيض أو أسود ونسوا أن يخبرونا بأنها عالم من الألوان والأحوال والمشاعر التي تعبر من خلالنا.

كل شي كان مبهمًا بدا اليوم واضحًا وجليًا وقريبًا.

في النهاية..

أعرفت من اتخذت حبيبًا؟! أعرفت كيف يمكن للإنسان أن يتبدل وأن يتغير؟! أن تختلف وجهة نظره بالحياة بأكملها عندما يحيا بحب، حب الأصل والمصدر والكمال..

أعرفت كم هو الألم معلم جيد كما أخبرني أبي؟! أنا عرفت.. إنني حقًا أتمنى لك السلام، مع خالص مودتي.

ندين.

لا تكن مثلي!

(حسام)

البيت الذي فيه امرأة تائهة، يائسة، لا تعرف وتقدر ذاتها، بيت فاشل، بائس، هواؤه ملوث.

البيت الذي فيه امرأة تعرف وتقدر ذاتها، مؤمنة، حكيمة، لطيفة، قوية.. هو بيت من نور، تقام فيه المعجزات.

دخل حسام المنزل بهدوء كعادته، هذه المرة لم يجد أمه تنتظره عند الباب، لم يرَ أحدًا، قطع الدهيليز الطويل نحو غرفته، مر بجانب المطبخ شعر بشيء ما يجعله يلتفت، رأى ظل امرأة جالسة على الكرسي شبه متهدمة مستسلمة أكتافها مرخية وكفيها على فخذيها متجهين للأعلى، ساكنة كأنها ميتة.. أصابه الفزع، هذا ظل أمه، اقترب أكثر وأشعل الضوء، بدت الآن واضحة أكثر، عيناها حمراوان كأنها جمر، وجسدها مرمرى على الكرسي كأنه جثة هامدة، إنها حية، قلبها ينبض، لكنها ميتة.

أحيانًا شخص واحد في الكون قادر على أن يحيي بداخلك معنى الموت ويجعلك تبدو كالحى رغم أنه أمات روحك...

وشخص واحد قادر على أن يحيي بداخلك معنى الحياة ويجعلك تبدو حيًا مفعماً موجودًا، حتى لو كنت تجاهبه الموت!

لكن شتان بين من يحيي وبين من يميت!

اقترب منها باضطراب وضع يديه على ركبتيها، قال: أمي ما بكِ أخبريني ما خطبك؟

ظلت جامدة وساكنة لا تستجيب، هزها بعنف، نظرت نحوه برود شخص كأنه كان في عالم آخر ثم التفت نحوه قائلة: لا شيء.. لا شيء، يحببها كيف يكون لا شيء وأنت بهذه الحالة؟ قالها بانفعال وهو مُرتمٍ تحت أقدامها.

تساءل أي لعنة تصيب امرأة ضعيفة فتضعفها أكثر، ويائسة فتئسها أكثر، وشبه حية فتجعلها شبه ميتة! شعر وكأن رأسه يغلي من الغضب.

ثمة احتمال وحيد لحالة أمه هذه الذي اعتاد عليها، إنه أبوه.

مظهرها وملامح وجهها كافيان ليعبران عما حل بها، أما ملئت من ذاك الرجل ومن أفعاله المرفقة؟ أما ملت من تحمله؟ رباه على ماذا مجبولة مشاعرهم وأحاسيسهم إن كانت موجودة أصلاً.

فجأة ظهر من ورائه أبوه، التفت إليه، وجده واقفاً عند الباب، واقفاً وقفة متجبر ظالم.

قال له ووجهه مكفهر وعابس كأنه شيطان: انهض انهض كفك أنت وأمك تمثيلاً واستكانة، نظر نحو أبيه وقلبه مليء بالحق والحق، صرخ، ما فعلت أُمِّي لتستحق منك كل هذا الظلم والإهانة، أصبحت الآن امرأة كبيرة بالسن، ما عادت تحتل لم يكمل العبارة إلا ويد أبيه كادت أن تسقط نحو وجهه كالخنجر، لم تستطع الوصول، صدها بيده، حمد الأب مكانه وكأنه هو من تلقى الصفعة! ثم صرخ بوجهه كأسد نائر أتتحداني أيها الحقير؟

قال له: لا.. لا أتحدك؛ لأنك أبي ولأني مجبر على أن لا أؤذيك حتى لو أذيتني، لكنني أُمْنَع ظلمك الذي فاض وغرقنا كلنا فيه، أنت ظالم عديم الرحمة، أنت بلا شفقة، أنت لا تستحق أن تكون أباً.

أجابه أباه بوترته نفسها: أنت فاشل، أنت تافه، أنت حيوان يلحق غرائزه، لا تستحق أن تكون ابناً، كفك أنت وأمك تلك أن تعيشا دور الملاك، اذهب أيها الأبله وسيطر على حياتك، أُمْن مستقبلًا لك ولأمك التي تدافع عنها بكتفيك العريضتين دون جدوى، نهضت أمه من مكانها وصرخت بصوت مبحوح كفى، كفى.

أخذ أمه من يدها واتجه نحو غرفته، يسير ببطء وإنهاك وتعب مثقالاً بآثامه وآثام أبيه التي أثقلت روحه وجسده فما عاد يقوى على السير، فتح باب الغرفة وسار بها نحو السرير، ساعدها لتستلقي وغطاها وغطى وجهه الدموع، أشاح بوجهه عنها؛ كي لا تراه، لم يدرك أن قلبها يراه، همَّ

بالابتعاد لكنه تفاجأ بقبضة أمه تشد على يده، جلس على الأرض بجانب سريرها، مضى بعض من الوقت، سحب يده من يدها بهدوء، انكمش على نفسه، وخبأ أنين قلبه، ثم غفا غفوة من ينام على نفسه من التعب.

مضى الليل حاضناً النفوس المنهكة في عتمته.. العيون المترقبة.. الفكر الذي لا يهدأ ولا ينام.. اللاوعي يقظ دائماً.

في اليوم التالي استيقظ من نومه فرعاً قلقاً كعادته، انتفض واقفاً، التفت يميناً نحو السرير لم يجد أمه، سار نحو المطبخ والصالة باحثاً عنها وجدها في الصالة جالسة على الأريكة ويدها شيء تقوم به، اقترب نحوها ثم جلس بجانبها، نظرت له باسمه هادئة كأن شيئاً لم يكن، نهض ليرتدي ثيابه ويذهب، أدهشه ما رأى..

حقاً يا لهذه القدرة العظيمة التي زرعت بروح هذه المرأة وجعلت منها شخصاً يستطيع أن يقاوم رغم المرارة والألم، ربما شعر بارتياح كبير لمجرد رؤيته تلك الابتسامة؛ لأنه توقع أن يرى شيئاً آخر، لكنه تساءل هل هذه ابتسامة حقيقية أو إنها تمثل وتدعي؟ أوليس المبتسم سعيداً، راضياً؟!

وأمه لم تكن بكل حياتها سعيدة أو راضية مهما ادّعت أمام أولادها.. ما الذي يجبرها أن تقاوم، وأن تصبر؟ ما اللعنة التي تجعلها تصبر من الأساس وهي تجلس ساكنة لا تفعل شيئاً ولا تغير شيئاً حتى لو نفسها، لا أدري، لا أدري من الحق ومن الباطل، لا أدري أيهما الجلال وأيها الضحية، لا أدري كيف للمرأة أن يستسيغ العذاب ويعتاده.

قال لنفسه: كف عن هرائك، لست أفضل منهما بشيء، انظر لحالك الملعون هذا، ماذا تفعل؟ كان حديثه مع نفسه لا ينتهي، أفكاره المشتتة هنا وهناك لا تمل من العبث بعقله، كان البيت هادئاً، على ما يبدو أنه وأمّه فقط هنا.

أخوته الصغار هم بالعمل مع أجيهم الكبير عمران، وأخوته البنات متزوجات حاهن لا يختلف عن حال أمهن بكثير، كانت كل العائلة منقادة لسلطة أب ظالم وجاهل لا يعرف الرحمة، فليس لأحد أي حقوق بأي شيء، سوى تنفيذ ما يمليه هذا الأب.

خرج من المنزل ذاهباً إلى عمله والأفكار ما زالت تراوده وتدور بباله وتحاوطه من كل جانب، يقول لنفسه: ما الحل لكي أحمي أمي وأحمي نفسي وأهرب من كل هذه المصيبة؟ أه ماذا أفعل بنفسني مع هذا الوسخ خالد؟ ألوم أبي وأكرهه لفعله وظلمه وأنا أسير بمنحدر يجعلني أسوأ منه، أنا حمار، حمار كبير على حد قوله بحق، اللعنة، هو السب بكل ما أنا فيه، يتنفس الصعداء، ويصرف عنه غمامة الأفكار تلك محاولاً متابعة المسير، يتجنب النظر بكل الوجوه متمنياً أن يختفي من كل الوجوه.

كان مؤمناً أنه الضحية والكل مثله.. حتى أبوه، ولا أحد يعرف من الجلاد. كم نجني على أنفسنا عندما نؤمن أننا مجرد ضحية لا حول لنا ولا قوة رغم أننا نكون نحن غالباً الجلادون ولا نقوى على أن نعرف. شيء بداخله كان يرفض تلك الحياة بكافة تفاصيلها، إنها ببساطة لا تشبهه، ليست كما يجب ويتمنى، هذا الطريق الوعر ليس طريقه، وحالة الغياب والبله تلك التي باتت وكأنها تسيطر عليه من وراء سجائر خالد ليست منشوده، ما الذي جعله يفعل بنفسه ذاك الهلاك؟

أوليس هو كان من يلوم أمه ويحقد على أبيه؛ لأنها لا يتغيران، لأنها مستمران بأفعال لا تليق بأب أو أم، أي جحيم ذاك الذي يبتلعه؟ أي سواد ذاك الذي يلبس روحه مع سواد الوضع في هذه المدينة المضطربة؟ إلى متى، إلى متى سينتهي ذاك الحال وذاك البؤس، وذاك الخوف، وذاك العجز؟ من المعين؟ أين المخلص؟ أين المخرج؟ أين إله الكون ليتدخل وليحسم المسألة؟

ماض يشده للوراء ومستقبل يأخذه إليه بالوهم، ولحظات الحاضر تتلاشى كسراب وتبخر كقطرات ماء.

رفض وألم ومقاومة أنهكت روحه.. ليس ثمة أفسى على الإنسان أن يهدر عمره بحال لا يشبهه، والأفسى أن يختار هذا الحال بملء إرادته؛ لأنه يرى أنه لا مفر منه.

دخل حسام مكتب خالد بوجه عابس مكفهر ودون مقدمات أو سلام، وقف أمامه، وقال له: أعطني أجر الأشهر الماضية.. مضى أسبوعان وأنا ألاحقك وأنت تتملص مني، علت وتيرة صوته وبدا منفعلًا، استطرد كفانا لعبًا.

نظر له خالد بعيني ذئب والشرر يتطاير منها ثم ذهب باتجاه الباب وأغلقه، بعدها اقترب

منه والغضب يعتليه، اقترب منه أكثر، وقال: حبيبي أنسيت أيام كيفك؟ أنسيت أيام أين أنت يا خالد؟ مقلدًا صوته، تعال وأحضر معك الغالي، أنسيت؟!

(ما في شيء ببلاش، بح) ضاربًا كفيه ببعضهما، ليس لك معي شيء.

هنا جن جنون حسام، وقال: ما هذا الهراء!

رد خالد ببرود: هذا الموجود.

انقض حسام عليه كالمجنون لا ويا يده، قائلاً له: أعتقد نفسك تلعب معي! لا، لم تحزر.

فتح الباب بقوة ومضى، سار كالمجنون، يمضي ولا يعرف وجهته، خفقان قلبه يدق في رأسه، مقيداً بالخيبة وباليأس وبالانكسار.

شعر بنخزة قوية في صدره، توقف قليلاً، دخل شارعاً فرعياً لا يوجد به ضوءاء، جلس على الرصيف ووضع رأسه بين يده حانقاً وحاقدًا وكارهاً لكل شيء حتى نفسه.. دعتة رغبة ملححة بنفسه لأن يدخل سيجارة من سجائر خالد، هذا التوقيت المناسب لها لكي تتخدر نفسه ويغيب وعيه ويموت إحساسه ويدفن ضميره في مكان عميق جداً.

ضم جسده بقوة وعنف وبدأ يهرش بأكتافه، كان كمن يحاكي جسده فيقول له: اهدأ، فيجيب جسده لا أستطيع، فيضمه بقوة أكثر فيعود ويقول له اهدأ، فيتمرد جسده أكثر فيصرخ لا أستطيع، فيحضنه ويشد عليه بعنف الموت كأنه يهدده، فلتستطع أو فلتموت.

قد يتمرد عليك جسديك... ذاتك تتمرد عليك... عقلك يتمرد عليك... فلا تعود أنت. فقط هزة الموت تحييكَ من جديد!

غاب عن الوعي لبضع دقائق ودخل في عالم سريالي مبهم عميق وقاتم، رأى حينئذٍ وأمه تجلسان على مقعد طويل أسود اللون، أمه ترتدي زياً أبيض وملاحمها مطمئنة، وحينئذٍ تجلس بموازاتها في الطرف الآخر ترتدي رداءً كحلياً وجهها شاحب وملاحمها جامدة لا تخبر بأي شيء، كانت ساكنة بمكانها.

ورأى نفسه قادم من بعيد نحوهما يسير ببطء، كلما يسير باتجاههما المسافة تزيد ويتبعدون عنه، يسرع في مشيته فتزداد المسافة أكثر وكأن الأرض تتسع، يبدأ يهرول، يتبعدون أكثر، يركض مذعورًا نحوهما إنهما يتبعدان أكثر، فجأة تنهض أمه من الكرسي فتشير له أن يقف، فيقف مكانه ف يرى الأرض التي بينهما تحولت لوادٍ عميق واسع ينظر إليه بذعر ثم يرفع رأسه نحوهما فلا يرى شيئًا كأنهما غابتا مع السراب، ثم تباعته يدًا تربت على كتفه بلطف يلتفت كالبرق فإذا هي أمه.

يفتح عينيه بصعوبة ما زالت يد تربت على كتفه لكن هي الآن أكثر قساوة من قبل، يلتفت جانبًا فيرى رجلًا كبيرًا في السن، ينتفض مذعورًا فإذا بالرجل يحاول تهدئته، على رسلك، على رسلك يا بني، اهدأ قليلاً.

يقول بارتباك وذعر: من أنت، ماذا تريد مني؟

يخاطبه الرجل ببرود قاتل: ما بك، ما بك لماذا فاعل هذا بنفسك؟! يبدو أنك مريض ومحموم...

يرد عليه بعبوس: ماذا تقول أيها العم؟ كنت متعبًا قليلًا وجلست هنا على الرصيف، لست مريضًا ولا شيء، ينظر الرجل بعينيه مباشرة بعد ثوانٍ صامتة ويقول له: أظن أنك ظالم... ظالم جدًا لنفسك! مذهولًا جامدًا تركه الرجل ومضى.

بدأت الشمس تغيب بالأفق معلنة وقت المغيب، الناس في المدينة أصبحوا أكثر قلقًا وقت الغروب، فالأمان يختفي نسبيًا كلما ازداد الظلام، يدوي صوت هدير المدافع من بعيد

لذا يحاولون أن ينهوا أشغالهم وأعمالهم باكراً ليعودوا لمنازلهم؛ يهربون بشكل دائم من حرب خارجية لحروب في دواخلهم.

عاد إلى منزله باكراً على غير عادته، دلف مسرعًا، انزوى في غرفته وحيدًا، أمه مجرد أن رأته وجهه عند دخوله للبيت شعرت وكأن أمراً ما طرأ له!

ما باله اليوم؟ عاد أول أخوته وهو الذي بعادته يعود آخرهم، يا ترى بماذا يفكر، ماذا يجري له؟! هذا الذي يعمل معه الذي يدعى خالد آذاه بشيء أيا ترى؟

من الجلي أنه متعب وضائع.. تنهدت، الكل ضائع وأنا أولهم، شعرت بغصة كبيرة بحلقها، تدعي التماسك واللامبالاة وهي شبه ميتة من الداخل، قالت لنفسها في حديث يكاد لا يخرس بداخلها، حديث سام، امرأة في العقد الخامس، تعيسة ومريضة وغير مجدية بكل شيء وفشلها امتد لعائلتها، أبسط شيء ممكن للمرء أن يحصل عليه عائلة مترابطة، أنا لم أحصل عليه، عندما كانت أمها -رحمها الله- تقول لها حظك أسود كانت محقة، شعرت بالأسى على نفسها، صمتت الأفكار وكأنها بركة راکدة، عاودت العبث بها من جديد كانت تشعر وكأنها أداة بيد الجميع وليس لها يد بشيء، سوى الألم الذي يبدو أكبر الآن؛ لأنه امتد.

فرؤية ابنها بهذا الشكل ينطفئ أمامها أصعب عليها من أن تنطفئ هي ذاتها، ليس أحد في هذه العائلة مثله، الجميع استسلم لسلطة أبيه وهي أولهم، اعتادوا وتأقلموا أو ربما كتموا غيظهم مكرهين، لا أحد فكر أن يتمرد، فهذا أب والأب يحق له كل شيء، ها هو أخوه عمران تعامل مع أبيه بذلك وعرف كيف يرضيه ويرضي نفسه في الوقت ذاته، ما به حسام؟ ماذا يجري برأسه بحق الله؟ ليته كان مثل أخيه، على الأقل كان استراح وأراح الجميع معه، وإن رأني البارحة بهذا الشكل مساء منهارة من مشكلاتي معه التي لا تنتهي، لكن هذا أبوه! ماذا أفعل؟

هذا قدرتي، وهذه قسمتي ونصيبتي، أبي لم يكن صالحاً بما فيه الكفاية لأنتظر من زوجي الخير والصلاح، ألم يكن أبي يضربني ويضرب أمي ويهين الجميع بمجرد أن عاد للمنزل وهو سيئ المزاج لأمر لا نعرفه غالباً، كنا لا نستطيع أن نقف أمامه ونقول له هذا يجوز وهذا لا يجوز، لا نستطيع أن نرفع نظرنا بوجهه، أوف، ما هذا الولد الذي لا يعرف شيئاً في الحياة اسمه القبول أو المسايرة، وها هو تعيس ويائس منذ صغره، ليته كان مثل أخيه.

نهضت من مكانها، ثمة أعمال يجب عليها إنهاؤها، فكرة ملحة كانت تسيطر عليها منذ أيام، يجب أن تحدثه عن كل شيء، يجب أن تخبره أن يتعلم كيف يعيش، كيف يسعد نفسه ويقل بالأمر الواقع وانتهي، سألت نفسها: كيف تقنعه أن يسعد نفسه، وهي لم تعرف معنى السعادة، نهزت نفسها وكأنها تتحدث مع شخص آخر، على الأقل تزوجت وعندي عائلة، ألا يكفي، كفى، ماذا أريد أكثر، نعم زوجي قاس جداً ربا، وعديم الأخلاق، لكنه ي... يعني كريم، نعم هو عصبي، لكن أنا في بعض الأحيان أضغط عليه كثيراً وأستفزه، أليس هو والد أبنائي في النهاية، أم رجل

غريب من الشارع!

تنهدت، تذكرت أختها أم أيمن كيف تقول لها: أنت من تجعلي لنفسك قيمة وأنت من تفرضي احترامك على الجميع.. استهزأت، أي احترام هذا، فات الوقت، كبرنا وكبر الأولاد، والرجل هذا هو لم يتغير ولن يتغير والواقع لا شيء يستطيع تغييره سوى الله.. تنهدت مخرجة زفيراً طويلاً، لا شيء عاد يههما سوى ألا يضيق حسام أكثر، ليتها تعرف ماذا يجري له، ليتها يتكلم، ليتها يفصح عن أوجاعه التي باتت تُرى على ملامحه، ها هو يدخل هائماً على وجهه دون أن يتكلم بحرف، كعادته ينجبى ويهرب من الجميع، ألمها ألمه، مجرد نظرة منها كانت كفيلة لإحساسها به، صحيح أنها تركته يمضي نحو غرفته دون أن تسأله شيئاً، لكن قلبها وعقلها بقي عنده.

لم يكن موعد قدوم أبيه وأخوته بعد، كانت تنتظر خروجه من الغرفة بفارغ الصبر وعقلها لا يهدأ أبداً، تقوم بأعمال المنزل وهي متوترة للغاية، تذهب من غرفة لغرفة بقلق دون أن تستطيع عمل أي شيء كما يجب، وكَلَّت المطبخ أخيراً ألقت نظرة على الحساء لم ينضج بعد، والولد لم يخرج من غرفته، سئمت الانتظار، أطفأت النار من تحت الحساء ورمت ما في يدها على الطاولة واتجهت نحو غرفة حسام، لم تعد تحتمل الصمت ستنفجر إن لم تتكلم الآن، فتحت الباب بهدوء فوجدته مستلقياً على السرير، جامد النظرات لا ينبت بحركة، اقتربت منه وجلست بجانبه، لم يلتفت.

قالت له: حسام، لكنه لم يجب، عادت ونادته ابني حسام.

قال لها دون أن يلتفت: نعم أمي.

قالت: ما بك بني؟ هيا انفض واجلس، أريد ان أتكلم معك، استجمعت نفسها لأول مرة وحاولت أن تحترق عالمه الغامض.

ظل مستلقياً ولم يستجب، عادت وبانفعال حركت ذراعه فهزته، هيا حسام، انفض بني.

رغم وضعه المأساوي شيءٌ تنبَّه بداخله دعاه لأن ينهض فعلاً ويستمع لما تقول له أمه، فهي قلما تحدثه بهذه الطريقة الملحة، في العادة لا تتكلم معه سوى من الأحاديث اليومية المقتضبة التي بلا مغزى، وبدا أنها منفعلة هذه المرة على غير عادتها، يا ترى هل ثمة أمر ليس له به علم؟

شعر كأنه بحاجة لأن يسمع هذه المرأة المبهمة التي لطالما كانت أقرب شخص له رغم أنها بعيدة بروحها، كانت غالبًا معتقة الصمت، وعابسة.

تؤدي واجباتها في المنزل تجاهه هو وأخوته وتجاه أبيه دون أن تتكلم مع أحد إلا للضرورة ولا تأمر أحدًا أو تنهر أحدًا أو تجادل أحدًا وكأنها لا طاقة لها على الكلام، أتراهم لأنهم شباب وحديثها تسكبه لأخواته البنات، ربما يستطعن أن يفهمنها أكثر منهم، لكن أمام الأب كانت هي غالبًا الحلقة الأضعف، ربما لذلك كانت قريبة جدًا لحسام، دون أن تعي أصلًا، لم يخبر أمه أنه يحبها أكثر من أي شيء ويشفق عليها ويتمنى أن يراها راضية وسعيدة، يتمنى أن تُعامل بحب واحترام من قبل والده، كان لا يعرف كيف للمرء أن يفضي بمشاعره، لا يعرف سوى الكبت... ومأساتنا تكمن أحيانًا في أننا لا نجيد التعبير عن عواطفنا، حتى لأقرب الناس لنا.

نهض وسوّى جلسته، كان يحاول أن يهرب من نظراتها، فقال بصوت هادئ: أُمي أنا بخير، لا تقلقي بشأنِي، كانت ملامح التعب والإرهاق تكسو وجهه، ابتسمت له وكأنها استراحت عندما رأت تجاوبه معها حتى لو قليلًا، وبدورها ابتسامتها خفت آلام ولدها المضطرب والمتعب. كانت مخفضة نظرها لثوان، ترتب أفكارها وتحاول أن تلتقط إحداها لتبدأ بها حديثها المللوم معه لسنوات طوال، يا الله أعني أن أحدث حديثًا يستسيغه الولد، قالتها بقلبها. هي ما اعتادت التعبير عن ذاتها ربما لأنها لا تفهمها من الأصل، لم تحيا بهذا الحق؛ لذا أصبحت جاهلة به رغم أنه من أبسط حقوقها، يا لسخرية عندما يكون الإنسان مسلوب الحقوق؛ لأنه جاهل بها.

قطع حسام الصمت الذي لفهم في بوتقة واحدة، لاحظ ارتباك أمه، فقال متسائلًا: ماذا تبتغين أماه، ألم تاتِ لتتحدث، ما بالك صمتِ؟

قالت: حسام، اعدرنِي قليلًا وتحملنِي أكثر، فأني أحاول ترتيب أفكاري، لا أعرف أن أشرح ما بداخلي!

قال لنفسه أرجو ألا يكون هناك أمر خطير، كم يبدو سيئًا هذا اليوم، كفى، ليته ينتهي؟! أي جحيم هذا الذي ينتظرنِي؟!

قالت: أنا أعلم كل شيء، كل شيء...

خفق قلبه بشدة بعد تلك العبارة، قال: ماذا تعرفين؟

- عملك مع خالد، وهذا يكفي لأن أعرف وأفهم كل شيء (رغم أنها لم تعرف سوى القليل).

- من أخبرك، ممن عرفت؟ رد بغضب.

- قالت له: اهدأ، اهدأ لا داعي للغضب.

- قال: كيف لا أغضب وأنتم تراقبونني، صحيح من المؤكد هذا ابنك البار عمران أو زوجك

المصون الذي تتلذذين بإهاناته لك؟ كيف ومتى وماذا علمت؟ قال لها بصوت أعلى من المعتاد، وكأنه بدأ ينهار.

شعرت أمه أن الوضع يتأزم، فحاولت تهدئته، قالت: لا يهم.. لا يهم بني، اهدأ، أرجوك أن

تهدأ، شددت على يده، المهم الآن كيف تخرج من هذه المصيبة؟

هدأ قليلاً، كأن ثورته خمدت، أدار وجهه للجدران، في النهاية لم يعد يعني له شيء أي أحد،

فليعرفوا ما يريدون معرفته، مهما ساء الأمر لن يسوء أكثر من ذلك.

انتابته حالة يأس من كل شيء، أدار وجهه نحو أمه، وقال: اطمئني، اطمئني، خرجت..

خرجت من تلك اللعنة والمصيبة.

توسعت نظراتها، ردت: كيف، أخبرني بكل شيء؟ كيف خرجت؟ وهل الخلاص من هذه

النوعيات من البشر بتلك السهولة بني؟

قال بعبوس: نعم انتهينا، انتهى كل شيء اليوم، ليس اليوم فعلياً لكن اليوم الشعرة التي

قسمت ظهر البعير، حصل بيننا خلاف كبير وتركت العمل معه.

تنهدت، ثم قالت: الحمد لله الذي صرفه عنك، الحمد لله.

انقبضت سريره؛ لأنه يعلم أن انصراف خالد عنه ذاك الشيطان ليس بتلك السهولة

والبساطة، تذكر كلامه عمن كان يعاديهم، تذكر مقدار الأذى الذي يلحقه بمن يحقد عليه، تذكر

لؤمه وسواد قلبه وخبثه.. انتابه ندم عميق على ما فعل بنفسه، بقدر الغضب الكبير الذي يحمله

بقلمه تجاه ذاته والآخرين كان مشفقاً على نفسه وكان من داخله يرتجف، كيف ستنتهي الأمور؟ أشياء كثيرة بينهم معلقة، أولها تلك السجائر التي يعطيها إياها بين الحين والآخر، وآخرها المال الذي نصبه بكل بساطة وضرب كفيه ببعضها ليخبره بأنه ليس له معه أي شيء..

أي شيطان ذاك الرجل؟ كيف وقع تحت رحمته هكذا؟ يا الله، ماذا حل به ليدخل بذلك المستنقع؟ ليؤمن لمن لا يؤمن، ويمنح ثقة لخائن يخون أبناء وطنه بحفنة مال ويتاجر بأرواح ولقمة الناس؟ ما بالك بشخص لا يعني له شيء.. كم كان أبلهًا، لكن ماذا ينفع الندم الآن! أخرج زفيرًا طويلاً ما عاد ينفع الندم، ما عاد ينفع.

أمه علمت بعمله مع خالد بواسطة عمران الذي سأل وراقب وتحرك كثيراً وراء حسام ليصدم بها عرف، لكن لحسن حظها، لم تعلم إلا أن خالد هذا شاب سيئ السيط وأعماله غير معروفة وقد تكون مخالفة للقانون.. هي علمت المنحى العام ولم تعلم التفاصيل، حين أن الكارثة الحقيقية تكمن في التفاصيل، لذا حاول عمران أن يعطيها المعلومات العامة عن الأمر؛ لأنه لا مفر إلا أن تعلم، لم يشأ أن يخبر أباه، لأن العواقب ستكون وخيمة جداً إذا علم، خاصة أن أباه في الفترة الأخيرة ما عاد يطبق سماع اسم حسام وكأن المشاعر كانت متبادلة بين الابن والأب، احتار في أمره، انتابه أسى كبيراً، حسام شاب ليس بهذا السوء ليقع بين يدي تاجر مخدرات ورجل عصابات قدر متلفح بأنه تاجر بناء، ما هذه المصيبة التي وقعت على رأس العائلة، رباه ماذا جرى للولد؟

من بداية الحرب إلى الآن جن جنونه، لم يوفر أحداً إلا ودمر علاقته معه، لعائلة ترك له، ولا أصحاب، صحبته كانت جيدة لأبأس بهم، مؤيد صديقه ها هو أنشأ عمله وسمعته كالذهب وحياته رائعة، هذا أحد أصدقائه المقربين له، ما الذي أخذه لتلك الهاوية، سامح الله أبي، ظل يقسو عليه ويهينه على كل كبيرة وصغيرة، حتى ضاع الولد وكرهنا جميعاً، لكن هو أيضاً رأسه كالتيس تماماً لا يفهم ولا يعرف أن يقول حاضر أبداً، فقط يفهم الجدال والخصومة وتسفيه رأي الآخر حتى لو كان أبوه، لا أعلم، لا أعلم حقاً، إن أصابني الجنون يوماً سيكون من وراء هذه العائلة، مللت، مللت من كل شيء من حمل هم وثقل الجميع، ما هذا الهراء، ما الحل إذا للخروج من تلك الكارثة؛ لحماية ذاك المجنون، رباه في النهاية هذا أخي، أفديه بدمي وقت الجد، لا يعقل إن كان يرمي بنفسه إلى التهلكة أن أفق وأتفرج هكذا، الحمد لله أنني علمت، وأبي تجاهل إلحاح

أمي عن السؤال عنه، وكأنه غير معني.

قرر أخيراً أن يخبر أمه بتفاصيل عامة، وهي تحذر حسام بدورها، لأنه كان على يقين بأن ليس ثمة أحد يستطيع مفاخته بالموضوع وتحمل ردة فعله واحتوائه لكي لا تتفاقم الأمور سوى أمه. قالت الأم: حسام، أنا هنا أمامك لأقول لك شيئاً واحداً، بني أرجوك، لا تكن مثل أمك.. لا تكن مثلي.

رفع نظره تجاه أمه باستغراب، وقال وهو مقطباً حاجبيه: ماذا؟ ماذا تقولين؟

قالت بملامح جامدة: لا تكن مثل أمك.

قال لها كيف، لماذا، لماذا لا أكون مثل أمي، لم أفهم؟ تلعنم... لكن أنت أفضل شخص بحياتي والسبب الوحيد لسعادتي!

قالت: لكنني أضعف وأتعب شخص أيضاً وهذا ما لا أريده منك أن تصبح عليه، امتلئت عبراتها، استطردت بتردد نحن لا نختار أن نكون ضعفاء أو تعساء، ربما الحياة أو الظروف هي من تختار لنا ذلك، ومع هذا علينا ألا نقبل وأن نقاوم أنا لم أختِ ظلم أبي الذي استمر مع زوجي، وضعف واستكانة أمي التي أورتني إياها، فأعادت الحياة المشهد نفسه لكن بشخصيات مختلفة، أنا اليوم كأني أمي، غصت بالعبرات، أمي كانت تُضرب وتهان وتظلم، ودائماً لا حول لها ولا قوة، كنت أشعر بشفقة عليها وأنا طفلة أركض نحوها أبكي معها ظلم أبي، أشفقت عليها وكرهتُ ضعفها وأحببتها، ورثت أمراضها، صرت أنا هي دون أن أعني، لم أتخيل يوماً أن أكره شخصاً مثل كرهني لأبي، كنت كل يوم أتمنى أن أهرب من جحيمة أبي ثمن، وأنتظر اليوم الذي سيأتي الرجل الذي سأنزوجه ليتهيئ ذاك الألم، كنت أعتبر زواجي المخلص الوحيد لي، لم يكن لي هدف سوى أن أهرب بالزواج.

رفعت كتفها بقلعة حيلة، هكذا كان حلم الفتيات في زماننا، أو بالأحرى هذا معنى وجودهم، لا يوجد منفذ آخر، مسحت دموعها وابتسمت ابتسامة خفيفة الزواج شيء جميل، وبناء العائلة أجميل، بطبيعة الحال عندما يكون الأشخاص طبيين وصادقين، حتى إنني أعترف أقسى لحظات

حياتي أنجبت لي أسعد اللحظات.. ألم أنجبك أنت وأخوتك؟

تابعت حديثها، هربتُ بحماسة من جحيم إلى جحيم أكبر دون أن أعني، ولشدة غبايي وسذاجتي كنت معتقدة أنني هاربة نحو الجنة، الجنة التي لا وجود لها معه، لا أدري كيف للمرء أن يعيش الوهم لهذه الدرجة، اندفعت نحوه بحب ولهفة لكنه صدني بجفاء وعنف. لا مبالاته وإهماله وقلة احترامه أثارت تعجبي منذ البداية، كنت أتساءل: أتراني لا أفهمه بسبب فرق العمر الكبير بيننا؟ أعود وأرى أناسًا أكثر سعداء رغم فارق العمر، ربما الفرق والمدى العائلي الشاسع فهو ابن عائلة معروفة وأنا ابنة عائلة فقيرة وعادية مثل أي أناس بسطاء في هذه المدينة، أعرف تمامًا أن زواجنا لم يكن متكافئًا، لكن هذا لا يبرر كل ذلك التعب والشقاء، ورثت حظ أمني، سوء حظ بالوراثة، ألم أقل لك يا بني: أفسى شيء على الإنسان أن يهدر حياته وهو يطارد شيئًا لن يحصل عليه، يذهب من مكان لمكان عله يلقاه فيضيع أكثر ويشعر بالأسى أكثر، أن يعيش متفرجًا فقط على الهامش، ليس له دور واضح، الآخرون يحددون له دوره.

أخبرك سرًا: منذ بداية الحرب تغيرت أشياء كثيرة بداخلي وسكنت اضطرابات أكثر، اكتشفت أنني أحب والدك هذا الرجل القاسي والمتعجرف، أحبه حقًا رغم كل شيء، لو لم أكن أحبه لما كنت احتملت العيش معه طوال تلك السنوات، أحبه وأشفق عليه وعلى نفسي في آن معًا، لم نتعلم أن نكون أفضل من ذلك، أن نقدم للحياة أشياء تجعلنا ممتنين بعد أن نلتفت لعمر طويل ورائنا..

نطق بصعوبة: تحبيه! كيف للمرء أن يحب شخصًا لا يقدره؟! أي حب هذا؟ هذا تلذذ بالمعاناة ليس أكثر..

قالت: أندري لماذا أحبه رغم كل شيء؟ لأنني أدركت تمامًا في الآونة الأخيرة أنه لم يكن سبب شقائي، أنا كنت سببه! نعم، أنا كنت سببه، أنا أذيت نفسي، أنا أهدرت عمري بالبحث عن شيء بداخلي مفقود في الخارج، أنا من كنت أشحذ الاهتمام والعاطفة من كل من حولي ولا أستطيع أن أحب نفسي ولا أن أسامح أبي، صمتت.

أراد أن يلمس يدها ويحتضنها لكنه لم يستطع شعر كأنه مكبل.

عادت وأكملت حديثها مجدداً، عندما رأيت أباك لأول مرة انتابني خوف قليل من شكله الجهميم، قلت لا بأس، المهم أنني الآن سأذهب لحضن رجل يحبني ويرعاني ولن أضطر لسماع أصوات الضرب والعويل والشتائم كل ليلة، هو المتقذ الذي سيبدل حياتي كلها للأفضل، ههه كم كنت غبية يا بني، وكم الحياة تعلمك، تستطيع أن تريك من أنت حقاً، لأنك أحياناً تكون قد رسمت صورة واهمة عنك وعن الآخر، وكأن على عينيك غشاوة، الحياة تعلمك.. تعلمك وتتحرك بكل شيء.

كان يتابع حديثها مثل رجل يحضر فيلماً سينمائياً أثر وموجع في آن معاً كأنه في عالم آخر، ثم بدأت عيناه تقاوم العبارة وروحه تقاوم غصة يكاد بها يخنق..

ضعفنا الإنساني، مصدرنا الوحيد لنعيد الألق لقوتنا وإلا نحن لسنا بشراً!

أمي زفنتني لهذا الرجل دون أن تخبرني بأي شيء عن حياة الزواج، هي لم تكن تعرف أصلاً وإلا كانت دبرت أمورها، بكل الأحوال لما كانت تستطيع أن تفعل شيئاً، أبي كان ظالم جداً وقاسي ومتهور وعديم المسؤولية، أُمِّي كانت تعمل لتطعمنا وهو يقف متفرجاً بلا فائدة، لم أحبه قط؛ فهو السبب بكل شيء. المهم دخلت مدرسة جديدة جاهلة بكل تعاليمها جهلاً مدقعاً، وفيها تعلمت الدروس مع معلم أقسى وأمر وأكثر لؤماً مما توقعت.. أتراني دفعت ثمن جهلي أو جهل والدتي؟ لا أعرف.. الشيء الوحيد الذي أعرفه وقررت أن أخبركم إياه أنت وأخوتك مؤخراً، ألا تكونوا مثلي، مثلما كنت أنا مثل أُمِّي، وضعت كفها على وجهها وطأطأت، يا لحييتي بأن أكون أم، تطلب من أبنائها ألا يشبهوها.

اقترب منها بلهفة وأمسك يدها، أنت أعظم أم بنظري، ألا يكفيك هذا؟ كان هو بأشد الحاجة لمن يواسيه فإذا به يواسيها.. أرجوك يا بني، لا تحيا حياة تندم عليها عندما تكبر الندم لا ينفع، الندم قاتل ومدمر، أتدري البارحة لما حصل خلاف بيني وبين أبيك؟ سأخبرك.. جئت ليلاً لتراني بتلك الحالة المثيرة للشفقة؛ لأني أمضيت يومي كله أشعر بالأسى على نفسي، منذ اجتمعت مع صديقات قديمت لي، الكل كانوا يخبرونني بأنني بدت عليّ ملامح الكبر والههم قبل وقتها، ما عساي فاعلة بنفسي؟

واحدة أحبها جداً من صديقاتي القدامى قالت لي عبارة لن أنساها منذ أن نطقتها، شكوت لها أبلك وحياتي معكم ومعاناتي مع الجميع ومرضي وتعبي، فقالت بعدما ابتسمت ببرود: هذه أنت منذ ثلاثين سنة لم تغيري، أكثر شيء تجيدينه الشكوى، وها هو ذا لم يتغير شيء، هذه العبارة التي تفوهت بها، أكثر شيء أهانني منذ فترة طويلة.. أكثر من كلمات أليك القاسية وأكثر من كلماتي لنفسي، أتدري ماذا فعلت؟ لا شيء!

تركتهن يتحدثون، كنا أربع نساء كل واحدة لها عالمها وأثرها وماضيها الذي نتحدث بفخر أنها تجاوزته حتى ولو بصعوبة، وأنا شعرت بخزي كبير بداخلي وأسى على حياتي.. حاولت ألا أشعرهم بما يجري بداخلي، صرت أبتسم وأهز رأسي مؤيدة كلام هذه وكلام تلك معزية نفسي، فترة قليلة سأنهض وأخبرهم أن أحد أولادي اتصل بي وهو بحاجة إليّ، ثمة خطب ما، لكن عادت والتفت الصديقة نفسها وقالت لي بعدما اقتربت مني وهمست بأذني: هل استأنت من كلامي؟ أنا لم أقصد غير نصيحتك ومساعدتك، أشفقت عليك... حاولت أن أجعلها تصمت لكي لا يلاحظن الأخريات، قلت لها لا بأس.. لا بأس دعك مني، لم يكن بالأمر المهم، عدت للمنزل وأنا أستشيط غضباً، صمتت..

قال لها: أكمل. المهم عدت للمنزل أستشيط غضباً وأسى على نفسي، ماذا حل بي لأكون مثيرة للشفقة هكذا، ما هذا الغباء الذي يجعلني أتحدث كالمسكينة دائماً، كأي بلا حول ولا قوة.. ومن هذه الحمقاء لتأتي وترمي نصيحتها عليّ هكذا وكأنها تعلم كل شيء عني؟ نعم، ربما تعلم، هي صديقتي منذ كنت شابة، وبقينا على تواصل على فترات متباعدة، لا أعرف ليتني قطعت علاقتي بها أفضل من ذلك التهزيء الذي نابني منها في آخر المطاف..

جلستُ وجلس الشيطان بجاني، أقول حياتي بؤس كبير، ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟ لا دنيا ولا آخرة، لا عملت لدنياي ولا عملت لآخري، ما قدمت شيئاً لنفسي سوى الحزن والهم والمرض، ويقول لي نعم، لكن زوجك الظالم هو السبب، أبناؤك، حملك وولادتك أضعفا جسدك، وكبرتي وهزمتي عبثاً في النهاية كل واحد سيمضي في حياته وتكون تضحياتي كلها هباءً مشوراً... يقول نعم، أنت الآن مسكينة لم يتبق أمل لديك، انتهى الأمر، أقول يجب أن أجد حلاً.. يقول أي حل يا ساذجة ومع من؟ فات الأوان!

انتهى الأمر كبرت، أولادك لم يعودوا صغاراً، كل واحد منهم صار مسؤولاً عن نفسه، حتى هؤلاء الاثنان الصغار صاروا شباباً، لا وقت لديهم ليسمعوك ولا ليضيعوه معك، وابنك حسام يغرق أمامك مثلك بائس وعاجر ويدك لا تستطيع أن تمتد له، أنت أضعف من أن تساعدني غيرك، ليتك تساعدني نفسك، حسام إن فشل بحياته إنه في النهاية يسلك طرق أمه، أما تسمعي أباه عندما يغضب منه كيف يقول له أنت وأمك وكأنكما شخص واحد.

قاطعها بعد صمت: ما هذا الهراء، دعك من هذا، هراء.. هراء بعينه

قالت بغضب: لا ليس هراء، علا صوتها فجأة وبانت عليها معالم الانفعال، لا ليس هراءً أتفهم؟! انظر لنفسك، انظر، أنت أعمى؟ أنت لا تبصر؟ كفاك خداعاً لنفسك، هذه ليست حياة، هذه حفرة وحل، هذا جحيم -علا صوتها أكثر- من هذا اللعين الذي جعلك بيننا وكأنك في عالم آخر؟ من هذا الأحمق الذي سرق منا، ماذا يجري لك، ألم تكتفي غموض وعزلة، كفى ارتاح واجعلنا نرتاح معك، كفى أتعبتنا وعذبتنا بما فيه الكفاية، فليذهب ذاك اللعين للجحيم منذ أن تعرفت عليه ساء كل شيء.

شعر حسام وكأنه داخل حلم بل كابوس حتمًا، هذه المرأة الغاضبة المشتعلة كالنار الهشيم وتصرخ أمامه حتمًا ليست أمه الهادئة الصبورة، هذا حمق وهذيان وبلبله، شيء جعله بتخيل ربا، أترأه أخذ سجائر من خالد عندما ذهب إليه؟ لا.. لا.. لا يتذكر أنه أعطاه شيئاً، الحق أنه كان مستاءً لأنه مر أسبوعان لم يعطه لا سجائر ولا مال، أجرة عمله من أشهر لم يأخذها، لكن ماذا يجري هنا بحق الله؟ ماذا يجري؟ أمه بصوت أبيه بشكل ممزوج بينهما وبأخيلة مبعثرة وبأصوات مشتتة.

هزته أمه بعنف، بدا وكأنه بعالم آخر ينظر نحوها كالأبله، وأحياناً كالمحتار والخائف. كان بجانب سريرها كأس ماء، أمسكه ورماه بقوة على أرضية الغرفة، شهقت أمه وابتعدت، طار الماء كالرذاذ، طارت إبر الزجاج المتناثرة هنا وهناك منهية تلك اللوحة الغائمة والغوغائية، المبهمة والمرهقة بالنسبة له ولعقله.. كان بحاجة ماسة لأن تصمت أمه، ولأن تصمت الأصوات في رأسه.

اليوم الذي مضى لم يكن أقل قسوة على العائلة من هذا اليوم.. اتصلت أمه بعمران لكي يأتي مع والده ليتناولوا طعام العشاء معاً، شعر بصوتها ألم مكتوم، لم تكن على ما يرام، حاول أن يسألها لكنها لم تجب، تهربت وغيرت الموضوع منهيّة الحديث إنني بانتظارك لا تتأخر، أغلق الهاتف وساوره قلق كبير، تمنى ألا يكون الأمر خطير، عاد وقال لنفسه هازئاً: أي خطر ذاك أكثر من عراك أمه وأبيه وهم في هذا العمر؟ ومصاحبة أخيه لرجل فاسد مجرم مثل خالد، وعائلة مفككة كل منهم يغني على ليلاه، وأب لا يهيمه سوى مصالحه ومزاجه؟

بئس الأمر، حتماً سيسألونه عن موضوع حسام أترأه ماذا يقول لهم؟ ماذا سيقول لأبيه الذي إن علم الأمر سيطرّد حسام من المنزل بلا ريب؟

فهو لا يعي معنى أن يسمع أو يفكر أو يسأل نفسه فقط سؤالاً واحداً، لماذا اتجه ابني بهذا الاتجاه؟

لماذا فضل رجلاً غريباً مجرمًا عن عائلة بأكملها، لماذا أصبح الهروب منهم ملاذه الوحيد ليهدها؟

هو فقط يسيطر على ذهنه جملة واحدة هي حسام ولد عاق وغبي مثل أمه.. وهذه الفكرة مغروسة بثبات رهيب لا يزعه شيء، مثل كل أفكاره وآرائه فهي غير قابلة للتبديل أو حتى فقط النقاش.. هكذا رجل ماذا يمكن أن تقول له في هذا الأمر؟! تنهد حائرًا، طلب من الأجير الذي يعمل لديه أن يحضر له قهوة سادة، ساوره القلق، أمه حتماً ستضغط عليه، يجب أن يخبرها ببعض ما علم على الأقل.

الغريب في الأمر أن العائلة بأكملها تعي تمامًا أن حسام ليس على ما يرام وليس بخير وينطوي وينعزل دائماً في الفترة الأخيرة، لكن المشكلة حتماً ألا أحد يعلم إنه مقبل على كارثة حقيقية اسمها الإدمان إن لم نستوعب الأمر ونحاول الخروج منه بأقل الخسائر سنخسر الولد. آه، ماذا جرى لك يا حسام؟! كنت أفضل شاب من عدة سنوات، ذكاء وعلم ومال، لم تنقصك شيء لتكون من أفضل الناس، ماذا دهى الشاب؟ أخرج زفيراً طويلاً، لكن الحق أنه لم يكن سعيداً على الإطلاق، حلة السعادة والبهجة والحماسة لم تلبسه مطلقاً وهو في البيت بين أهله، غالباً تشعر به وكأنه بانس

قليلاً ومكسور، أبي -ساحه الله- كان يقسو عليه أيها قسوة، بل أحياناً كثيرة يهينه، تشعر وكأن خلافة مع أمي يصبه على حسام، ربما لأنه يشبهها في صفاته، حساس ويميل للهدوء، لا يحب الصخب وذكي وعنيد وعاطفي ويميل لأن يكون طيباً أكثر من كونه خبيثاً، لكن غضبه صاعق وغير مبرر في أوقات كثيرة، لا أدري ما أمرهم جميعاً، ليتهم لا يقارنونه بي، هذا من أكثر الأشياء التي تستفزني وأنا ألاحظ، أخوك عمران وأخوك عمران -ليهدبهم الله- نزعو الأمر وزادوه سوءاً، وضعوا حاجزاً كبيراً بيني وبينه من لا شيء سوى مقارنات وتفضيلات وكلام فارغ، نعم هو أحياناً لا يحتمل، لكنه في النهاية يبقى فرداً من العائلة.

لا نستطيع أن نغضب أعيننا عما يجري له ونمضي، أليس أخي من لحمي ودمي؟ عجباً، كيف تسير الأمور؟! أمه وأبوه لقلة حكمتهم لا أستطيع إخبارهم، ماذا أقول ربا، ماذا أقول؟

الآن.. الآن، إن حملت نفسي وذهبت لأمي وأخبرتني الحقيقة ستجن حتماً، أو إذا لم تجن سيعمى عليها أو تنجلط.. ولسخرية القدر ترى دلائل إدمان تظهر على ابنها لكن تجمل الأمر بكلمة اكتئاب، عين أصابته حتماً أو مرض، لكن الأمر الحقيقي لا أحد يعلم به، لكن ماذا يعني أن نجلس جميعاً ونراه ينزوي بعيداً عنا؟ ماذا يعني أريد أن أذهب إلى غرفتي.. أريد أن أذهب إلى غرفتي؟ المهم ألا يجلس معنا ويواجهنا ويحكى لنا.. ماذا يعني، دعنا من ذلك دعنا، شيء يصيب بالجنون، فليساعدني الله، لكن أي نعمة حلت بنا، وأي حظ عظيم جعلنا نعرف بالأمر ببدائته قبل أن يتفاقم، كان بلاء لا يستطيع أحد إخراجه منه سوى القدير.

التفوا مساءً على طاولة العشاء يأكلون بصمت وحذر، هدوء قبل العاصفة، أمه في الفترة الأخيرة تغيرت، بدت عصبية بشكل ملحوظ، ماذا حل بها لا أحد يعرف، تغضب من كلمة فلانة ومن نظرة علانة، ومن هذا الموقف، ومن ذاك الأمر، ومن تلك البنت ومن ذاك الابن، وكأن في داخلها مرآة غلي، تنتظر أي أحد على هفوة لتعلن الحرب، والأمر أن هذه الشخصية الجديدة غريبة جداً عليها وعلى الآخرين، أولادها وزوجها يعلمون أنها هادئة وصبورة، وعندها طاقة احتمال كبيرة، يبدو إنها نفدت، أو يعقل أن يتغير المرء جذرياً هكذا؟

كان عندما يتكلم الأب أو يبدي ملاحظة ما، ترد كالسيف المقطر سماً وتسكنه، ينظر نحوها

شزراً مستفزاً ومستغرباً، يحاول عمران أن يلطف الجو بحديث تافه أو أمر اعتيادي فقط ليحتوي الأمر الذي شعر وكأنه سيخرج عن السيطرة، أنهموا طعامهم أخيراً بصمت، الأم والأب والأخوة الصغار وعمران، نهضت الأم ولحقها الأولاد بالصحن كسرت صحنًا كان بيدها بغير قصد وهي تضعه في مغسلة الصحن، اقترب عمران منها، لا بأس.. لا بأس، انكسر الشر، مسكها من كتفها وحاول إدخالها لغرفة الجلوس..

جلست وجلس بجانبها، هدير مدافع بعيد يدوي في الخارج وسكون عم على العائلة وهم يرتشفون الشاي، قال الأب: سألت عن أخيك الحمار ذاك ما أمره؟ ماذا يعمل؟ أم أنك نسيت كالعادة، قالت الأم باستفزاز: والله طبعي أن ينسى هو أخوه بالنهاية، فمن باب أولى أن ينسى، الأكبر منه نسي وكان الأمر لا يعنيه، ليست المرة الأولى بكل الأحوال عbst ملامحه، وقال: أنت من يتكلم معك؟ اكتفٍ بشريك الشاي.

قال عمران متوتراً: ما بكم يا جماعة لا بأس، هونوا عليكم، الأمور ستكون بخير لا تقلقوا، أنا سألت عن هذا الرجل، إنه ليس بالرجل الذي ينشد به الظهر، يستغل حسام، رآه شاباً محتاجاً لأي عمل فاستغله، وأطرق بأسى يقال إنه صاحب سوابق وإجرام، سأذهب إليه وأطلب منه أن ينهي علاقته بحسام، أخشى أن يؤذيه بأمر ما في تلك الظروف والفوضى فنخسر حسام أكثر لا سمح الله..

قاطعه أبوه وقد بدا عليه التوتر والخوف.. وإن لم يرض أن يتركه وشأنه هكذا ببساطة، لأن أخاك والنعم منه، يعرف جيداً كيف يجعل الآخرين يستغلونه بكل ثقة، يمهد لهم الطريق، ومن يحظى بفرصة أن يستغل أحداً ما على طبق من ذهب أيتركه بهذه البساطة؟! محال، ألا تنظر إلى أخيك كيف أنه دائماً غائب عن المنزل، في العمل على حد قوله، أبله، ياله من ساذج وغشيم، أترأه الرجل يستغله طوال هذا الوقت وهو لا يدري؟!

هنا تدخلت الأم، إنه ليس ساذجاً لكنه سيئ الحظ كأمة، للأسف أقرب الناس إليه يعاملونه كالأعداء وأكثر، ماذا عساه أن يفعل الغريب؟ ماذا عساه أن يفعل بملاحم منفعلة؟ أجابها الأب بانفعال أكثر وصوت أعلى، لا بل هو ساذج وأحمق وغبي مثلك تماماً، منذ أن دخلنا للمنزل وأنت

تسمعين الكلام الفارغ من أمثال ذاك الهراء ونحتملك، ماذا يجدر بي أن أقدم له أكثر من ذلك؟ هو من ير كل النعمة المقدمة له ولا يريد أن يعمل مع أخيه، أستغفر الله مقامه أعلى من ذلك، ولا يريد أن يعمل مع أبيه ولا يريد أن يسأله أحد أي سؤال عن عمله وعن حاله، ويغوص أكثر ببحر من الغموض، وإن حصل ووجهتي إليه نصيحة أو نقدًا أو أيًا ملاحظة كأنك انتهكت حرمة عظيمة، وكأنه هو الأب وليس أنا، بشئ الأولاد، وبشئ الامراة! احمرّ وجهه وعلت نبضات قلبه، هرع عمران إليه بلهفة بعد أن أحضر له كأس ماء، هون عليك، هون عليك يا أبي، لا شيء يستحق، حسام عنيد قليلًا هذاه الله، ما زال في طيش الشباب احتمله، احتمله أرجوك، زار كأسد هائج، أي احتمال هذا الذي يجعلني أحتمل أسلوبه هو وأمه، فقط يرمون اللوم هنا وهناك، لا يعجبهم شيء وهم كتلة أخطاء، أمك هذه تضع اللوم كله عليّ في كل سوء أو فشل يصيب العائلة، وهي.. وهي حبًا بالله، ماذا تفعل؟

ماذا تفعل سوى اللوم والعتاب والشكوى والسخط، ماذا عملت؟ ماذا قدمت؟ قضت حياتها بين تلك وهاتيك، أنا قدمت كل ما لديّ وبذلت لتلك العائلة العلية كل ما أستطيع، يكفي أنني أويتكم في ظل هذه الحرب ببيت بعيد عن مناطق الاشتباك، يكفي أنني أمنت لكم حياة كريمة لكي لا تحتاجوا أحدًا، يكفي أنني أعمل كل يوم من الصباح للمساء من أجلكم.. أوباش لا تستحقون جزءًا مما أقدم وقدمت لكم، يهز رأسه بتوتر عمران موافقًا فقط ليحاول أن يمتص غضب أبيه الذي بدا كالبركان، وأمه تجلس على طرف الأريكة تستمع لكلامه بحنق، حاولت أن تكتم غضبها فلم تستطع..

نهضت ووفقت أمامه: لسنا أوباشًا، أتفهم؟ لسنا حيوانات، نحن بشر، نعم أنت تقدم كل ما هو مادي، تقطعنا وتشربنا وتأوينا، صرخت بصوت عالٍ لكن هذا لا يكفي.. لا يكفي، نحن لسنا حيوانات، حتى الحيوانات تمتلك الرحمة والشفقة وتمتلك الحنان وترأف ببعضها، ماذا تنتظر من شاب لا يقدم له أبوه سوى العبوس والنقد والتقليل من شأنه طوال الوقت؟

هل جربت أن تحتويه يومًا، أن تسمعه، أن تصادقه، كره نفسه وكرهنا معه، نعم إنه ليس كعمران لكنه ليس شيطانًا وعمران هذا ليس ملاكًا، نعم أخطأ كثيرًا لكن من منا لم يخطئ؟! بقيت أيامًا وأسابيع أجلس هنا وأقول، حسام، حسام يا رجل، حسام يضع، حسام ليس هو حسام

الذي نعرفه، ليس على ما يرام، فقط تقول دعيه، رجل بعرض الحائط وطوله يحل أمره، تمنيت مرة واحدة أن تكون أبا، أبا بحق، لا مصرف مالي فقط، أجهشت باكية والأب يرمي الشتائم هنا وهناك، وذهبت للمطبخ جلست على الكرسي منهار، لحقها عمران جلس أمامها، ناشدتك بالله ألا تخزني نفسك أكثر، كفى، انس الأمر، وعد مني لن تكوني سوى راضية، كل الأمور ستحل وستؤول الأمور إلى ما تحين وأكثر، فقط اهدئي، أنا سوف أحل الأمر دون أن يعلم حسام، أخشى إن علم أن يفعل شيئاً يزيد الوضع سوءاً بينه وبين ذاك الرجل.

رن هاتف عمران أجاب فإذا هي زوجته، تطمئن عليه، تسأله عما آخره عن القدوم للمنزل، يطمئنها بأنه يزور أهله وسيعود حالاً، أغلق الهاتف واعتذر من أمه لأنه مضطر للذهاب فالوقت تأخر، قالت: لا عليك اذهب بني بأمان الله، اذهب، لطالما أرهقناك بمشكلاتنا، هكذا الولد البكر قدر له بأن يحمل هم الجميع.

لا بأس أمي أي هم ذاك هذا واجبي، أنتم كل حياتي وليعلم الله أنني ألتقط ألماً على حال حسام وسأبذل ما بوسعي ليكون حاله على ما يرام في نهاية الأمر، قبل يد أمه ودخل لغرفة أبيه وجده مستلقياً، كأنه نائم لكنه ليس بنائم، ربما يحاول، قال بصوت مسموع، أبي أنا ذاهب انتبه لنفسك، ولا تفكر بشيء..

مضى اليوم أذنًا في الرحيل، واقترب بزوغ الفجر ليشرق يوم آخر معلناً بداية جديدة لحكايا جديدة وعمر جديد، يقال النائم كالميت، ويقال حال الميت كالنائم.

هذه الحالة المدهشة التي تسرقنا من الواقع لبضع ساعات وتعود وترميننا له من جديد.

سعادة مخبأة

(ندين)

وأنت في طريقك لفهم معنى وجودك تمر بمراحل عدة من ضمنها الضياع.. ضياع يشترك ويعتراك ويفرقك من كيان واحد لأجزاء صغيرة ضائعة تائهة تبحث عما يجمع شتاتها تحزن وتتألم وتنكسر وتعاني لدرجة تجعلك تنقي تلك الزوبعة من المشاعر والأحاسيس دفعة واحدة؛ لأنك ببساطة سئمت، هنا يبدأ التغيير.

مضى وقت طويل وأنا أفكر بنفسي وبما يجري لي، وبهذا العالم المجنون ومعنى وجودي هنا بالذات، ولطالما اعتقدت أنني تائهة ولن أجد الطريق.. لكن الآن أنا تغيرت.

كتب جبران ذات وقت "تألمت، فتعلمت، فتغيرت". الحس الجبراني العميق كان يسرقني من نفسي، هناك في سبر أغوار ذاتي كنت ألمس كل ما يكتبه جبران، كأننا لا بد من أن نتألم لتتعلم، ولا بد من أن نتعلم لتتغير.

طريق الجهل والغرور سهل لكن في آخره منحدر نحو هاوية عميقة.. وطريق العلم والبحث والتزكية وعمر وصعب لكن في آخره منظر بهي ونور مشرق..

لولا الخوف لما قدرنا الأمان.. ولولا الحزن لما كان معنى للفرح.. ولولا الألم لما كان معنى للشفاء..

لا تعرف المعنى الحقيقي للشيء إلا بنقيضه.. الحقيقة الجلية أننا ضحايا جهلنا وخوفنا.. شوهاء معتقداتنا وأفكارنا... لسنا ضحايا لأحد.

منذ مدة وأنا ملتزمة بعبادة الاستيقاظ باكراً، يبدو اليوم الطقس جميل ومعتدل، أبعدت الستائر وفتحت النافذة، أحب النظر إلى السماء صباحاً، حتى في الليل أحب تأملها، أشعر وكأنها بوابة سحرية لعالم آخر نقي مبهم ساحر ومليء بالجمال والأسرار، خلف السماء سموات وخلف

الشمس شמוש وخلف المجرة مجرات وخلف الكون أكوان، ونحن بعالمنا الصاخب الممتلئ والمتلون والمليء بالمعجزات والجمال والأسرار لا تشكل شيئاً، لا شيء بالنسبة لهذا الكون العظيم. احتسيت قهوتي على عجل وجهزت نفسي للخروج من المنزل للإطلاق إلى عملي الجديد.

المكتبة..

ذاك المكان الخشبي المنمق الذي يحتوي عالمي الصغير الذي أنتمي إليه، عالم يبدو لك صغيراً لكنه في طياته كبير جداً، فيه عوالم وحكايا وأفكار ومعلومات وقصص وسير شخصية وروايات وتوثيق ومشاعر وأحاسيس وكلمات وأحرف وصمت ومعاني وأخيلة وأحلام وكنوز وإضاءة على روح الكاتب، أيّا يكن، وكيفما يكن، روحه تبث شيئاً منها هنا، لطالما راق لي أن أقرأ لتشيوخوف، قرأت كل كتبه ومجلداته فوقعت في حبه، نعم وقعت في حبه من خلال الكلمات، كنت أضحك من نفسي وأتساءل: كيف يجب المرء شخصاً جاء إلى العالم قبله بمئات السنين؟

إنها الروح، السر بالأرواح التي تتألف، والكلمة بصمة روح يتركها الكاتب باقية وإن رحل، فكم هي الأرواح كثيرة هنا، وكم مثير للمرء أن يشبع فضوله من حيوات كثيرة غير حياته، فثمة من قال: حياة واحدة لا تكفي، فما بالك بحياة تأخذك من حياتك لوضع ساعات ثم تعود إليها من جديد محمل بمعانٍ جديدة ما كنت لتدركها وأنت بعيد عن هذا الكتاب.

الشفرة الجميلة... ذاك المكان المعلق بين السماء والأرض بطريقة هندسية جميلة وكأنها عين المرء الشغوفة للنظر بعيداً ورؤية العالم من قلب المكان وخارجه في آن معاً، الشرفة التي انتشرت على امتدادها أنواع شتى من النباتات المختلفة الملونة والورود والشجيرات الصغيرة الخضراء، جنة مصغرة، عبقرة ومريحة ومكان رائع للتنفس ولرؤية الجمال وإبداع الخلق وروية النمو والتدرج في النمو ودهشة الاكتمال، كم هو جميل أن يرفع الإنسان نبتة وأن يزرعها ويسقيها ويراقبها من كذب ويلمسها بحنو، فتغدق عليه بهاء منظر لم يكن ليتصوره وهو يطمر حبة صغيرة في التراب.

جلدي تقول: إن النبات يشعر وإنه روح، وكلما شعر بالحب والرعاية ازدهر واخضر أكثر،

وكلما شعر بالجفاء والإهمال يبس ومات مثل الإنسان تمامًا.

اللقاء مع الناس؟! مع الكبار، مع الشباب، مع الأطفال، التوق لساع قصصهم، والرهبة في التعامل معهم، والحذر اللامتناهي من التعرض لتجاوزاتهم، والأريحية والحبور بالتآلف معهم والتعلم منهم والميل لهم والاستمتاع بالوقت معهم وتحمل أمزجتهم والتأهي بهم والغوص بعوالمهم ومراقبة لغة أجسادهم وتأملهم ومصادقتهم وتجاوزهم وقراءتهم وفهمهم والإدراك الأخير الحقيقي أنني منهم، وهم أنا وأنا هم.. كل تلك المغريات جعلتني لأول مرة أبدأ الخروج من قوقعتي وأحبذ العمل خارج المنزل.

ذلك العَبَقُ الشهي لأشياء لطالما كنت شغوفة بها وأحبها كرائحة النباتات ومنظرها الحي، مع عَبَق رائحة الكتب وجمال تكوينها واصطفافها وترتيبها، مع جو أسري دافئ ينطلي على نوع من شغف لذيق مبهج يأتي من هذا الزوج من طيور الحب المتقدمة في السن والمتقدمة جدًا في الحب والدفع والحكمة، العم أبو وائل وزوجته، يجعل المرء يتقدم خطوة إلى الأمام لأنه ثمة ما يشده وما يشبهه وما يلامسه رغبًا عنه.

كانت من أجمل المصادفات عندما التقيت العم أبو وائل يفتح المكتبة من جديد بعد عمر طويل من الحرب، أتذكر يومها، وقفت بفم فاغر وعينين مبهجتين وكأنني طفلة رأت أمامها من يفتح لها صالة للعرائس والدمى.. ركضت نحوه مسرعة بلا حسابات وبحاسة قلت: عمو أبو وائل نظر إليّ نظرة المدقق، زر عينيه وكأنه يحاول التذكر، بدا مختلفًا عما عرفته سابقًا، شكله تغير بعض الشيء، عملت السنوات والحرب والحياة عملها على ملامحه فبدت عليه معالم الكبر.

شعره كله اكتسى بالبياض وكأنه غابة عبثت بها عاصفة ثلجية كبيرة، يضع النظارة أصبح بشكل دائم رغم أنه يتضايق منها حسب ما أذكر، على ما يبدو خانة النظر والعمر معًا، الوفية فقط كانت وما زالت تلك الابتسامة التي محال أن تترك محياه.

كان يتيسم للجميع، قلت له محاولة أن أسعف ذاكرته: ألم تتذكرني يا عم؟ أنا ندين، ندين ابنة السيد عبد الله، كنت زبونة المكتبة الدائمة منذ صغري، أتى بشكل أسبوعي إلى هنا مرة مع أبي ومرة مع أمي وأحيانًا مع جدتي أو جدي، كانت بالنسبة لي زيارة المكتبة من أجمل الأشياء التي أستمتع

بالقيام بها وأنا طفلة، ضحكت وما زلت.

كان يسمع كلماتي بانتباه، ثم رفع حاجبيه وأطلق ضحكة وهو يهز برأسه علامة على الموافقة، نعم.. نعم، ندين ابنتي، ابنة السيد عبد الله والسيدة سمر، آه تذكرتك، تذكرتك جيدًا، كم كبرت وتغيرت.. صرت صبية حلوة أيتها الفتاة، ضحكت بخجل، أم وائل كم كانت تحب قصصك أتذكرين؟

أقول له: نعم، أذكر، يا لجمالها ولطافتها، أنا أيضًا كنت أحبها كثيرًا، كيف حالها خالة أم وائل وصبا والجميع؟

أجاب: الحمد لله كلهم بخير... الجميع بخير.

قال بحماسة: تفضلي تفضلي للداخل، دخلنا معًا، نظرت نظرة عامة على المكان، المكتبة أصبحت أجمل من ذي قبل، كأنه أعيد تجديدها والاعتناء بتفاصيلها، ثمة ركن جديد لإصدارات جديدة لكتاب شباب، يا الله، ما أجمل المكان!

التفت إليه بعدما ألقيت نظرة تفصيلية أكثر على المكان، كان جالسًا على مكتبه يراقبني مستمتعًا بدهشتي، قلت: عمي، ما هذا التطور الجميل! لا تعلم مقدار سعادتي وأنا أرى المكتبة التي ترعرت في داخلها أيام طفولتي وقضيت أوقاتي الجميلة في ممراتها وبين رفوفها وكتبها تعود من جديد وبأبهى حلة.

نظر نحوي بثقة وامتنان، ثم قال: الحمد لله، الحمد لله يا بنتي، أكرمنا الله وعدنا للعمل فيها من جديد.

مضت ساعة من الوقت دون أن أشعر، قضيتها وأنا أتصفح بعض الكتب وأعيد ملمس الحياة لأوراق بحاجة للمس جديد لتنفس، كم هذه الأوراق القديمة تشبهني في حاجتها للحياة، للتنفس وللشعور وللمعنى وللوجود وللشغف. أنهيت جولتي بين الرفوف والممرات ذات الطابع الخشبي التي تنتهي مفتوحة على قاعة كبيرة تنتشر فيها طاولات مستطيلة الشكل يلتف حولها عدد من الكراسي بشكل منظم وأنيق، وعلى الجانب شرفة جميلة تطل على الشارع

منسقة بطريقة زاهية.

في هذه الأثناء صدر صوت جلبة من الخارج، تلاهى لسمعي صوت أعرفه بل أكاد أجزمه، إنه صوت الخالة أم وائل، أسرعت خارجة نحوها ووجهي يتكلم عن معانٍ مختلطة من البهجة والمفاجأة والدهشة والحاسية، وقفت أتأملها من بعيد، لم تتغير قط، الملامح ذاتها والوقفة ذاتها والصوت العالي الواثق ذاته..

كان العم أبو وائل يخبرها بوجودي محزراً إياها بمن أكون بعدما أطلعها كما يبدو على معلومات عدة، قالت له بنرفزة لطيفة ومضحكة: هيا أبو وائل هذا ليس وقت تحازيرك.. أخبرني من هي؟ لم أعرفها؟ اقتربت منها قليلاً ووضعت يدي على كتفها، وقلت لها: خالة أم وائل معقول نسينا؟ لا أعتقد.. قلتها بثقة الأوقات الجميلة الماضية التي كنت أقضيها وأنا أحدثها عن الكتب التي أعجبتني، وعن تفاصيل يومي في المدرسة والبيت وعن رسوماتي، وتحاول تفهمي والتفاعل معي رغم صغر سني وانشغالها.

التفتت نحوي بسرعة، نظرت لي لثواني ثم قالت بصوت ارتفع قليلاً: ندين وعانقتني عناقاً دافئاً مثل روحها، جلسنا وتحدثنا عن السنوات الماضية وما عملته بنا، قالت: انقلبت حياتنا رأساً على عقب بين ليلة وضحاها يا بنتي، أخذني عمك أبو وائل وسافرنا نحن والأولاد وجلسنا مدة لا بأس بها في الغربة نعاني من وحدتنا وتبعثرنا وشوقنا لبلدنا وخوفنا من الرجوع إليه؛ بسبب ماحصل به من خراب ودمار وقتال، تصوري وأنا هناك كنت أشعر بوحشة رهيبة من كل شيء رغم الحضارة.

امرأة بعمرى وبعمر عمك أبو وائل عشنا عمرنا بطوله وعرضه، لم نعد نكثر لتلك الأشياء بقدر اكرائنا لشعر بقيمتنا ومنفعتنا على أرضنا وبين أحبائنا، تهتدت ثم قالت: كيف حال والدتك ووالدك وأخوتك؟ أيضاً جدتك كيف حالها؟ يا لها من امرأة حكيمة، لطالما كانت تثير إعجابي بأسلوب حياتها وحكمتها والتفاف عائلتها حولها وعلاقتها مع الجميع، جدتك امرأة ليست سهلة على الإطلاق، ضحكت.

ابتسمت وأجبتها: جدتي تصلح أن يتخذها المرء قدوة له بقوتها وإتقانها وحكمتها، أستمدها

منها قوتي عندما أشعر بالضعف أو الخوف أو عندما تخور قواي.

تنحنجتُ، أمي سافرت هي وأخوتي أسر ويزن، فتحت عينها وحدقت بي بدهشة: يا للمسكينة، تشردت هي الأخرى.

قلت لها: نعم للأسف، سافروا إلى ألمانيا، خالي يمكث هناك منذ مدة طويلة جداً وأخي أراد أن يكمل دراسته خارج البلاد، وأمي من مدة لحقت به هي وأخي الصغير.

وأبوك، هذا يعني أنه بقي هنا وأنت معه؟ هزت رأسها وقالت وهي تشير بأصبعها: أنت وأبوك وجدتك وجدك بقيتم هنا؟

قلت: نعم، بقيت لأنني كنت في سنة التخرج عندما أمي سافرت، الآن تخرجت الحمد لله وأحضر لرسالة الماجستير.

قالت: جيد، هذا جيد حقاً، صمتت وأنا صمتت.

ثم نظرت لأصابع يدي، لم تجد خاتم خطبة، قالت: لم ترتبني بعد؟

قلت لها: خطبت وفسخت الخطبة، لم يتم الأمر؟

قالت بسرعة وهي تحرك كفها وكأنها تصرف شيئاً عنها: من دون أن أعرف الأسباب، أنا على يقين بأنه خير لك، يا بنتي كل شيء يصرف عنك ولا يتم افرحي من أجله؛ لأنه شر ورحل ولو كان خيراً لبقى صدقيني.

قلت: نعم، بت أو من.

قالت بصوت أخفض من المعتاد: بالذات الزواج، امزحي بكل شيء، وترددي وجري إلا الزواج، ابذلي ما بوسعك لكي يكون شريك حياتك يناسبك، كما هي في النهاية قسمة ونصيب، مثل كل شيء في الحياة، كل شيء نصيب.

أنا يا بنتي أردت تزويج ابني الكبير وائل منذ بداية الحرب وهو رفض، كان ينزعج عندما أذكر له الزواج.. يقول لي: يا أمي ألا ترين الأوضاع، أتراني أستطيع أن أؤمن على نفسي الآن

لأذهب وأرتبط بفتاة لا أستطيع أن أشعرها بالأمان، أبسط شيء؟

لكن الآن الوضع مختلف الحمد لله وما هو ذا يريد حقًا الارتباط بعدما عمل بجد واجتهد والوضع في البلاد تحسن، كم أتمنى أن تشاركه الحياة فتاة صالحة تستحقه فهو أفضل أبنائي.

استطردت، والغلاء الفاحش هذا، من أين أتى لنا؟ كنا نقول الأمان الأمان، صرنا نقول الغلاء الغلاء، ما هذا بحق الله؟ عمك أبو وائل عنده أدوية ضغط وسكري، صديقني كلها ارتفعت أضعاف.

هزئت برأسي قلت لها: الحقيقة أبي وجدي كانوا بهذا الحديث البارحة.

قالت: الحمد لله على كل حال، نسأل الله العافية، النعمة التي لا تقدر بثمن، أتدرين يا بنتي، ستصبح الأمور على ما يرام مهما يكن، الشدة تزول مهما اشتدت لها عمر وسيتهي.

قلت لها ضاحكة: صار الأمل تهمة والتفاؤل سذاجة، كلما أخبرت أحدًا ما أنني متفائلة بأن هذه الحرب ستزول هي وآثارها والأمور ستكون على ما يرام هذا إيماني؟ يسخرون مني! ويطلقون الأحكام ويصنفون على هواهم!

قالت بانفعال: ما بال الناس أصبحوا يتقاذفون التهم؟ ماذا جرى لعقولهم؟ ويصنفون بعضهم البعض ويرشقون الأحكام هنا وهناك..

اسمعي: أولادي انقسموا قسمين منذ اشتعال الحرب، هذا يؤيد تلك الجهة ويسب الأخرى وذاك عكسه، وظلوا مدة يتصارعون ويتجادلون من وراء تلك الأمور، وبيوم من الأيام طفق الكيل بعمك أبو وائل، فوقف بينهم وأقسم إن عادوا وفتحوا تلك المواضيع وتجادلوا من أجلها فليذهبوا من هذا المنزل وينسوا وجود أم وأب لهم هنا، قال لهم: ابحثوا عن أمور تجمعكم، ناقشوا حلولًا تفيد، فكروا برقي ومحبة وانبذوا الخلاف.. لعن الله الخلاف، ماذا حل بنا بسببه، اختلفوا لكن لا تتخالفوا، لا تكرهوا بعضكم من أجل تلك الأمور التي ليست لها بداية ولا نهاية، الخلاف يفرق ويشتت، واحترام بعضنا البعض هو الخلاص، لن تصلحني ولن أصلحك ولن تغيرني ولن أغيرك، فقط أصلح نفسك وأنا أصلح نفسي.

وقتها صمت الأولاد بخجل، انخرجوا لأنهم سببوا لأبيهم كل ذاك الألم والانفعال، أبو وائل لا يناسبه الانفعال يا ندين، معه ضغط وسكر، من وقتها الأولاد التزموا الصمت ولم يعودوا يفتحون تلك المواضيع.. أتدرين لماذا أبو وائل انفعَل؟ صديقه المقرب، نعم صديقه خسر أولاده بسبب تلك القصص، أصبح الأخ يعادي أخاه ولا يطبق الجلوس معه، ما هذا الهراء وتلك الترهات، الناس فقدوا عقولهم. لكن سيفهمون، سيفهمون عما قريب، بعدما دفعوا الثمن من جيوبهم بالأحقاد والكراهة والقطيعة، العائلات تشردت بفعل الحرب وبفعل الخلافات، كنت أستمع لها بصمت وتأناً وأهز رأسي ببطء موافقة على حديثها..

اقترب العم أبو وائل بعدما فرغ من عمله في الداخل وخرج إلينا ويده كوين من الشاي، نهضت أم وائل وأخذتها منه وابتسامة عريضة على محياها، وقالت له: غمرتنا بلطفك يا أبا وائل، شكراً لك.

ابتسم لها وهز رأسه ودخل يكمل عمله، لحقه شاب بدا أنه يعمل معهم، فالمكتبة كبيرة ومن المؤكد أنها تحتاج لكادر منظم ليُعنى بشؤونها.

عادت وجلست مكانها بعدما ناولتني كوب الشاي، أخذته منها وشكرتها، وقلت لها بحجاسة: صحيح أنه مضى وقت طويل لم نلتق فيه، لكنني أشعر وكأننا التقينا البارحة.

بالمناسبة كنت ذاهبة للكلية عندي بعد الظهر محاضرة، بعدما دخلت المكتبة والتقيت بكم نسيت المحاضرة من أصلها، يا لذكريات الماضي وخاصة الطفولة كم لها من أثر على حياتنا!

أتعرفين؟ أنني إلى الآن أحتفظ بكتبي التي كنت أبتاعها من هنا بضحكة، مر أكثر من ساعة ونحن نتحدث عن الحياة وعن العائلة والصبر والأمل.

في النهاية قالت: إنها تمنى أن ترى الوضع يتحسن، وأن الحياة لا تصلح بلا أمل، بثت بداخلي جرعة تفاؤل كبيرة. كم سُررت عندما أخبرتها بأنها لم تتغير، التفتت نحو زوجها بزهو، وقالت لي: أنا دائماً شباب أخبريه، قال لها: اطمئني أعرف، أعرف.

خرجت من المكتبة أسير عائدة لمنزلي بعد تلك المصادفة الجميلة، وأنا في طريقي رأيت.. على

طرف الشارع كان هناك امرأة ترتدي معطفًا أسودَ وشالًا رماديًا على رأسها، قصيرة جدًا، سمراء، وجهها نقي، عيناها كبيرتان وملاحظهما حادة، تبدو في العقد الرابع من العمر، تضع يديها الاثنتين بجيوب معطفها وتقف منتصبة ومتأهبة بمنكبين مفتوحين ورأس مرفوع، شامخ، مألوفة، لا يشعر المرء عند النظر إليها بالغرابة رغم غرابتها، على جانبها معروضة على الأرضية بسطة فيها كل أنواع الحلويات البسيطة الجاهزة، مصفوفة بترتيب وانتظام ودقة، على حسب الحجم والسعر، وراؤها ثلاثة أطفال يبدون أنهم أطفالها، أحدهم على كرسي متحرك، يدها ممتدتان على جوانب الكرسي بارتقاء تام، بلا حياة، ورجلاه مستندتان على مسندتان في أسفل الكرسي أيضًا بلا حراك، ورأسه مائل لليسار، ووجهه وجه إنسان ينظر بعيون ملاك، لا يشبه أحدًا من هنا، كأنه روح مختلفة عن تلك الأرواح بوجودها، بشعورها، بألمها، بفرحها، بكل شيء.

شيء يرتقي قليلًا عن معنى الآدمية ربما، بجانبها تجلس فتاة تشبه أمها، كأنها أمها بنسخة مصغرة، وكأنك ترى الماضي يقف في الأمام متصدرًا وخلفه يجلس المستقبل، عكس دورة الزمان الذي نحياه، كانت الفتاة تجلس بجانب أخيها المعاق، ترتدي حجابًا قطيًّا أبيض اللون ومعطفًا لونه أسود، اللون الأسود لون سرِّي المعنى للغاية، متبدل، متلون الأثر على حسب الموقف، فالأسود يصلح ليكون معبرًا عن الشقاء والألم، ويصلح ليعبر عن الفخامة والرقى، ويصلح ليكون لون التحفظ وأيضًا لون الإثارة، ليكون لون الموت، ولون الحياة أحيانًا.

تجلس الفتاة الصغيرة تلك على يمينها أخيها في الكرسي وعلى يسارها أخ آخر صحيح البدن، لطيف المحيا، أسمر اللون، يرتدي سترة صوفية نصف مهترئة لونها زيتي وبنطال جينز وحذاء متسخ لونه رمادي، والأم تقف أمامهم جميعًا، ظهرها لهم، تنظر للأفق وتراقب البشر ولربما الحياة وبذات الوقت تلفت النظر لها ولبضاعتها بوقفتهما تلك.

قبلها بعشرة أمتار تقريبًا.. كان ثمة رجل أيضًا يبدو في العقد الرابع من العمر، شعره أسود كثيف طويل كغابة معتمة، ووجهه أبيض وأكتافه مرخية، يرتدي سترة قطنية لونها بني وبنطال مخمل أسود، عند ركبته مائل للبياض، ربما محا لونه أو أنه متسخ، وحذاء مهترئ من لون البنطال، يسير ببطء وأكتافه مرتحية ووجهه عليه ملامح الذل والانكسار والطيبة المفعمة باستجداء العطف، وعلى محياه زيف ابتسامة أو خيالها، بيده يجر كرسيًا متحركًا أيضًا، عجلاته كبيرة سوداء،

تجلس عليه امرأة يبدو أنها شابة، وجهها شاحب، ملثمة بلفحة صوفية زرقاء ترتدي معطفًا فضيًا وشالًا على رأسها لونه حليبي، كانت مطرقة فلم تبد ملاحظتها جيدًا، وتسير بمحاذاة الرجل والمرأة طفلة صغيرة جميلة، ترتدي ثوبًا لونه أبيض وأحمر وحذاء بني، شعرها أشقر، ووجهها متسخ قليلًا، رغم أنه يشبه القمر.

كان الرجل يسير بمنتهى الذل والإهانة لاويًا رقبته أمام المحال التجارية يقترب من الدكان، يمد يده ليريه ورقة بيضاء مطوية كثيرًا ومفتوحة لدرجة جعلتها وكأنها شبه ممزقة، ينظر صاحب المحل للورقة، يزر عيناه محاولاً فهم الخط المكتوب، يمز رأسه بأسى، يهرول داخلًا فيخرج وهو يشد على قبضته بورقة مالية من فئة معينة على الأغلب رخيصة، يفتح قبضته بعدما يضعها بيد ذاك الرجل المسكين ويتراجع للوراء خطوتين، تنفرج أسارير الرجل المسكين، يحاول أن يغدق على الرجل الآخر عبارات الامتنان والشكر ويمضي لمحل آخر، يقف على بابه رجل حنطي البشرة طويل القامة أصلع الرأس، متجههم وعابس وكأنه في داخله مجلس عزاء، يقترب نحوه بتردد بعدما يرى ملاحظه القاسية، وبوجل ورأسه ملتوٍ وروحه مهانة، يمد يده أيضًا، فلا يلتفت له الرجل من الأساس، يحاول أن يلفت نظره بأن يتنحج، فيخفض الرجل نظره جانبًا ويحدق فيه باستياء فوق استيائه، يأخذ الورقة من يده، يرفعها أمامه ويبعدها عن ناظره، بعد ثوان، يعطيه إياها، متأسفًا، ومحرًا رأسه بعدم الجدوى، عدم الجدوى من أن يساعده؛ لأنه لا يستطيع كما يبدو أنه قال له، أو عدم الجدوى من تلك الطريقة التي يطلب بها من الناس المساعدة، أو عدم الجدوى من وجوده أساسًا.

يسير الرجل في هذه المرة على ملاحظه لمسة حزن وقد لوى زوايا شفثيه وقطب جبينه، والفتاة الصغيرة تقف عندما يقف، تنظر له، تنظر لوجوه الرجال الذين يطلب منهم المساعدة، تنظر للورقة، ثم تعود فتنتظر بريية وبعض الحيرة عندما تراه شبه يتسم، تسير معهم، الرجل والكرسي الذي يحتوي المرأة، تقف معهم، تنظر لهم، وكأن العالم وجه الرجل، والكرسي بما يحمل، ووجوه الغرباء الذين يحدثهم.

كنت أسير بمحاذاتهم إلى أن وصلنا أخيرًا إلى جانب المرأة السمراء، رن هاتفي المحمول، نظرت لي الفتاة الصغيرة نظرة كلها براءة بوجهها الذي بدا وكأنه قمر منير اختطفت قلبي بنظرها

تلك، فصلت الهاتف كانت إحدى صديقتي، أردت أن أعاود الاتصال بها لاحقاً، كان في حقيتي قطعة شوكلاتة، أعدت هاتفي للحقيبة وأخرجت قطعة الشوكلاتة وأعطيتها للفتاة وأنا أبتسم لها، التفت الأب نحوي ونظر بابتسامة لفتاته التي بدت سعيدة بقطعة الشوكولا، شكرني وهو يمضي، هزرت رأسي مجاملة، وأنا جئت لأهم بالمسير التقت عيناى بعيون تلك المرأة القوية.

قالت بجدية مبالغة فيها، مشيرة إليه بعدما مضى مسرعاً: ألا يستحي هذا الأحمق! موجهة حديثها إليّ، لم أستطع إلا الوقوف والاستماع لها، قالت: وأنت ماذا تعطي لمثل هؤلاء؟! قلت بصوت منخفض ولهجة مستغربة: أنا لم أعطه شيئاً.

قالت: انظري إليّ، أنا امرأة، نعم امرأة ولست رجلاً، وبقيت أعمل بشرف، مدة ليست بالهينة أي شيء أجده أمامي؛ لأفتح تلك البسطة أمامك، كلفنتي ثلاثمائة ألف ليرة، ولا أفق أشحذ من الناس هكذا. ما باله ألا يخجل من نفسه وهو يجبر امرأته بين الناس يشحذ عليها، أي رجل هذا؟! لا يستحي أبداً..

أردت أن أهم بالرحيل لكنها كانت تتابع حديثها وشعرت بالخجل من نفسي بالأأ أستمع لامرأة مثلها، قالت: إن أردت أن تساعدني لا تساعدني مثل هؤلاء الناس. بجدية مفرطة، أنا فقط أحاول نصحك، شعرت أنها بالغت، فهممت أن أتحدث، فقاطعتني قائلة: نعم الحرب أذت الجميع، وكثر الفقر وكثرت الحاجة، لكن أنت رجل بطول الحائط قم واعمل، اعمل أي شيء ولا تقف هكذا بذل أمام الناس!

ما بال البشر ما عادت عندهم كرامة، لو يرى كم أتعذب وأنا أنهض من بداية يومي إلى نهايته، ولديّ ولدٌ مريض يحتاج إلى دواء، فقط من أجل ألا اضطر أن أجلس بجانبه وأمد يدي للناس، الحمد لله، الله تفضل عليّ بنعمه، يكفي أنه لم يرزقني روحاً ذليلة كروحه تجعلني أجز زوجتي وأشحذ عليها، هزرت رأسي موافقة، قلت: من الواضح أنك امرأة عصامية، قوية، وهذا فعلاً أمر مشرف وفتحت حقيتي وأخذت ورقة من المال بخفة ووضعتها دونها أفكر بيد الطفل الذي على الكرسي، كأن أصابعه تتحرك، التقطها بخفة، تابعت المرأة حديثها عن نفسها وكفاحها وذم الرجل، قاطعتها: لكن نحن في النهاية لا نعرف ظرف الرجل، مشيرة بيدي. قالت بحدة وثقة:

لا تقولي لي ظرف، قلت لها: قد يكون مريضاً! قالت: ها هو يمشي ويتحرك ويجر امرأته صمتاً لم أرد أن أجادلها أكثر، ربما معها حق، رغم أنه ليس من شأننا الحكم على الآخرين، وهذه قاعدة مهمة من قواعد إحياء السلام بداخلنا.

قلتُ: أستبيحك عذراً، ومضيت.

الحروب تحتاج لرجال، وبذات الوقت تهلكهم، والرجال لكي يكونوا رجالاً يحتاجون لامرأة تصنعهم، تكون أنثى وتعلم كيف تنشئ الرجال.

إنه الفقر، أم إنها الحرب، أم إنها معضلة البطالة والكسل والاكنتاب والخوف والتكيب والترجع والتردد والانكماش، واللامعنى واللاجدوى والخيبة وشدة الخذلان والسذاجة والألم والضيق؟ هم من يقعدون الرجال عن العمل، ويخلقون من قلب المرأة روح رجل! الرجل شيء والذكر شيء آخر، والأنثى شيء والمرأة شيء آخر.

قرأت مرة أن في الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة هرمونات للذكورة والأنوثة، عند المرأة تغلب هرمونات الأنوثة، وعند الرجل تغلب هرمونات الذكورة، أحياناً تجد امرأة بألف رجل بقوتها وشجاعتها، وأحياناً تجد رجلاً بألف امرأة برحمته وحكمته وتدييره.

فكرتُ وأنا أسير، ماذا لو كانت النساء هي من تحكم الدول والمراكز الحساسة؟! ضحكت من الفكرة.. أيا ترى كانت قامت الحروب وسفكت الدماء وتشردت البشر؟ أم أنه كان قد عم السلام؟ تساءلت لماذا دائماً الإنسان يجب أن يمدح نفسه على حساب الآخر، أيعقل هذه فطرته؟! حتماً لا.

أنا نفسي عندما تَدم فتاة أخرى أمامي بعيب ما، أتنحنح وأقول: أنا لا أحبذ ذاك الفعل ولا أستطيع فعله، وتبدأ حوارات الأنا التي لا تنتهي..

تلك المرأة البسيطة ابتدأت ذم الرجل بمدح نفسها، ألهذه الدرجة يروق للأنا المزيفة التي تخدعنا بالأوهام وتقودنا بحياتنا وتودي بنا للهاوية أن نتقص من الآخر على حساب نفسها؟

أن ترى نفسها أفضل، بل أن تخلق الأفضلية بأوهامها، رغم أننا في العمق جوهرنا واحد، أياً

كانت اختلافاتنا، ودرجات ثقافتنا وبيئات منشأنا واحد..

غالبًا الأشياء نفسها تسعدنا ولو تفاوتت الدرجات، والأشياء نفسها تشقينا، والفضول للفهم بداخلنا واحد..

وبذرة المحبة وحتى الأنانية بداخلنا واحدة، لماذا ننظر لأنفسنا نظرة مغايرة عن نظرنا للآخر رغم أننا كلٌّ متصلٌ خلقنا من نفس واحدة؟!

كم هي تربية وتركيز النفس وجرها للحق والخير والجمال عملية مجهدة وغريبة ومليئة بالكوشفات والأسرار، قد لا تعرفها عنك أحيانًا..

أو لم تكن أول جملة أودت لتلك المعضلة بين الخير والشر، عندما نطق إبليس بأنا خير منه، دائمًا ينتابنا إحساس أنا خير منه، نطلق الحكم الآثم القديم، الأزلّي، أنا خير منه..

أنا خير منه، خلقت الحروب والعداوات والبغضاء وداء العظمة.

وأنا في طريقي فكرت بكلام العم أبو وائل عندما لمح لي بالعمل معهم بالمكتبة، وبأن الكادر لم يكتمل وقال: إننا نختار الشباب الثقات ليقوموا بالأمر بكفاءة وإتقان في خضم تلك المهازل التي تقوم في البلاد. تحد كبير، أن يفتح المرء مكتبة ويحاول أن يشد الناس من متابعة الأحوال في البلاد إلى القراءة ومتابعة الكتب عوضًا عن ذلك، أوليست هي الكتب التي أنقذتني من نفسي ومن الحرب؟ ربما تنفذ الآخرين، أوليست العقيدة كتاب، والحياة كتاب، والناس كتاب، والمعرفة كتاب، أوليست الكتب حيوات كثيرة؟

فكرت ماذا لو أنني عملت معهم؟! مكان يصعب على المرء أن يقاومه وخاصة إن كان من عشاق القراءة والبحث..

قلْتُ لنفسي: لكن الآن أنا غير مستقرة، ربما أسافر وربما أبقى، نحن كل يوم ندخل في دوامة كبيرة، نحتاج لمئة يد لتنتشلنا منها، ووقتي كله مستهلك بين الدراسة والاعتناء بالبيت والكتابة والقراءة وأبي وجدادي، وهل يعقل أن أعمل بمجال بعيد عن اختصاصي بدل أن أكون خبيرة في اختصاصي الأساسي الذي أحبه؟ ولكن هذا لا يعني ألا ألحق شغفي، تنهدتُ بحيرة ومضيت.

في تلك الليلة جلست أنا وأبي وجدي وجدتي على طاولة العشاء، كان العشاء لذيذاً يحبه خاصة أبي، سمك مشوي. وقفت قبل بضع ساعات مع جدتي وهي تببل السمك وبذات الوقت تتحدث عن حياتها وهي شابة، النساء الكبيرات بالسِّن وحتى الرجال يستمتعون وهم يتحدثون عن ماضيهم، يحبون هذا النش في تاريخهم عبر قصص مطوية مضيت لكنها ما زالت تسكنهم..

جدتي مثلاً إلى الآن تصف بيتهم الذي كانوا يسكنونه بحب وبحنين، تصف أرض الدار، ووساعة الغرف وموعد دخول الشمس صباحاً على منتصف الغرفة وموعد مغيبها، والعمل بجهد وحماسة على سطح المنزل في تنظيف الخضراوات وتشريحها وسلقها وتشيفها وتبيسها، والجماعات العائلية الكبيرة التي لا تنتهي بمناسبات وبلا مناسبات، وصباحيات الجارات وحديثهن، ومحامتها التي كانت لا تقبل بالخطأ ولا تمرره عبثاً بل تحاول إصلاحه والتأثير بالمخطئ كي يفهم سوء عمل الخطأ فيكرهه، تقول -رحمها الله- كانت تحب الكمال في كل شيء، وهذا مجهد، وكانت مطلبة، قلت لها: لكن ليس ثمة كمال في الحياة يا جدتي، هذا مضمّن جداً أن يظل المرء يسعى للكمال، تقول: نعم ليس ثمة كمال هذا صحيح يا حبيبتي، لكن الفوضى التي يعيشها جيلكم، تشير بيدها لا تحتمل.

كان في زمننا دائماً ثمة نظام وأصول وتقاليد وقوانين يجب أن تحترم ولا أحد يتجاوزها، ومن يتجاوزها يدفع ثمناً لا يعجبه، وكنا كتلة واحدة، الأهل والجيران وحتى المعارف.. الناس الآن تضع الحدود مع الآخرين ولا أحد يريد أن يحتك بأحد، كل واحد يغوص بعالمه، كان في الماضي الكل منفتحون على بعضهم البعض ويعيشون معاً بكل التفاصيل.

كنت عندما أضع القدر على النار أفكر أيا ترى هذا الطعام يكفي لأوزع للأهل والجيران؟ وإن كان لا يكفي، أضيف الكمية وأجلب قدراً أكبر.

إذا مرض أحد في الحي تجمع الناس وذهبوا لزيارته ومساندته ليس فقط مادياً، بل حتى معنوياً، وإذا تزوج أحد أو زوج ابنة كذلك الأمر.

وإن كان ثمة امرأة على وشك الولادة نساء الحي جميعهم يقدمن ما يستطعن لخدمتها والمبيت عندها والاعتناء بها وبطفلها.

كان ذلك كله من غير تصوير ولا كاميرات ولا تلك الوسائل التي تستخدمونها، قالت بامتناع.

ابتسمت مندهشة من كل ذاك الترابط الاجتماعي الذي كان يجمع الناس في الماضي هكذا بلا حدود ولا تحفظ ولا حتى خصوصية، سألت جدي: هل كنتم سعداء؟!

جلست على الكرسي، وقالت: لا أدري إن كنا سعداء، لكن كنا نشعر بالحياة، كنا كالموجة الواحدة التي ترتفع مياهها بلحظة واحدة وتنخفض بلحظة واحدة أيضاً.

قلت لها: ربما كنتم تعيشون حالة تماء، يتماهى فيها الفرد مع الجموع، فيغدو جزءاً منها وهي جزء منه.

تقول: في النهاية ليس ثمة أسوأ من أن يعيش المرء لنفسه فقط.

أحذق بعينين مفتوحتين، كيف تعتبرين أن يعيش المرء لنفسه شيئاً سيئاً؟ هذا أجمل شيء على الإطلاق وكل العلوم الحديثة من علم النفس وعلوم التنمية الذاتية تؤكد على أهمية الفكرة.

على العكس يا جدي، إن كان المرء لا يدرك كيف يحيا لنفسه كيف له أن يفيد الآخر؟

الزمن الماضي جميل ربما، أنا لم أحياء لكن أيضاً التماهي في الجموع يجعل المرء يذوب بهم فلا يدرك من هو، وما المغزى من حياته.

قالت ومن قال لك هذا؟! تلك العلوم التي كنت تنفوهين بها لا تفقه شيئاً على الإطلاق مع احترامي لك ولها، لا أحد يستطيع أن يحيا لنفسه مهما فعل، سأسألك سؤالاً: أنت الآن دائماً تقولين هذه هي أهم فترة في حياتك لأنك عرفت نفسك ومعنى حياتك، لأنك بتّ تحيين نفسك، هكذا تعتقدين يا بنتي؟

في المنزل أنت جزء من عائلة عليك أن تحترمي أفرادها وتمدي لهم يد العون دائماً، في دراستك أنت جزء من مؤسسة تعليمية عليك احترامها أيضاً ومد يد العون لرفعها والارتقاء بها

حتى في مبنائك الذي تقطنين فيه أنت مجبرة أن تحترمي الجيران وتساعدتهم، وفي عملك إن

عملت، وفي أي شيء تقومين به ثمة آخر، ثمة أحد في الطرف الآخر له حقوق عليك.

قلت: نعم يا جدي، لكن أحق إنسان يجب أن تعني به هو أنت، قالت: نعم، واعتناؤك بالناس حولك وودهم، وتقديم يد العون لهم، وفهمهم، وتحمل مزاجيتهم، جزء مهم من اعتناؤك بنفسك، لكن لا يستطيع عليه أي أحد، التعامل مع الناس يحتاج لقوة، قوة كبيرة.

كنت أستمع لجدي وأفكر بمعانٍ كلامها، جدي فيلسوفة، كلامها يحتاج لفهم وتعمق به، فكرت.. ما الذي يغير الناس عبر الأزمان؟ ما الذي يقودهم ويوجههم؟

الأحداث الكبيرة التي ترزعزعهم، المنظومة الاجتماعية التي تؤثر بهم، البنية الإيديولوجية التي تحركهم في كل فترة من التاريخ، فيكونون هم من يصنعونه وليس هو من يصنعهم

يقولون: الزمان تغير والحياة تغيرت، لكن من الذي تغير في الحقيقة؟! هم البشر، مسمى الحياة، الزمان، الماضي، المستقبل، العمر، هي أوهام.

فكأن الحياة هي خيط أثري كل يوم نحيا جزءاً منه، ولا نملك به سوى اللحظة الراهنة، لحظات نملكها للتو تمضي، لحظات وراء لحظات، أفكار، معتقدات، إيمان، شغف، فكرة، أشياء تحركنا لنمضي قدماً، ثم نقف ونسلم ورقة الامتحان ونختفي من ذاك الوهم الذي يطلقون عليه الحياة..

قال جدي بعدما فرغ من الطعام ويده كوب الشاي الذي حضرته لتوي ووزعت أكوابه على الجميع: كيف العمل يا عبد الله؟ ما آخر الأخبار؟

أجابه أبي: أعمل ما بوسعي لكي يكون على ما يرام، أن تبني عملاً متقناً في بلد كهذا تحد كبير، أشعر بأنني مهما فعلت لا أجد الجدوى التي أريدها أو أستحقها في النهاية، أخرج زفيراً طويلاً وكأنهم الدنيا فوق كتفيه.

قال جدي: هكذا هي الأوضاع الآن بالنسبة للجميع، علينا أن نصبر قليلاً، لا شيء يدوم، والله هو الرزاق أولاً وأخيراً.

قال أبي: أجل، لا شك..

قال جدي: وماذا بالنسبة لعائلتك؟

جدي الليلة يتساءل على غير عادته، وكأنه يريد أن يطمئن على أمر بات يقلقه، تنحني أبي وقال: يا أبي الأمر ما عاد بيدي في الحقيقة، أسر أصبح شابًا وهو مسؤول عن نفسه.

قالت جدي: أبوك لا يقصد بسؤاله أسر، فالفتى قال أمام الجميع إنه يريد أن يدرس ويتخرج ويعود لبلده معه شهادة يرفع بها رأسه.

ابتسم أبي بأسى، وقال لأمه: أنت واثقة؟ قالت جدي: ماذا تقصد؟ لم أفهم! قال: أنت واثقة من كلامه؟ قالت مستغربة وبقليل من الانفعال: لما لا أثق، أسر صادق بل أحيانًا وقح ولا يكذب، أليس هذا ما يقوله عندما نسأله كل مرة عن دراسته ونذكره بها قال فيقول نعم أنا عند وعدي.

كأن جدي شعرت بألم أبي ومخاوفه، لكنها لم تبد له أنها شعرت، فقط حاولت أن تصرف عنه مخاوفه من بعيد، قالت: كفك أفكارًا مشوشة، هذا العقل الذي يقودك ليس صادقًا دائمًا، ضحك أبي وقال: ليس من المفيد أن أفكر بعقولنا، أليس كذلك، ألا ترين ذلك معي؟ قالت بملامح مبهجة: هذا ما أقصده تمامًا يا بني، كم أنت ولد حاذق وتفهمني أنا وأباك، لذلك أراك الله أن تبقى هنا معنا ولا تسافر.

قال جدي: ما الأمر بالنسبة لسمر ويزن؟ هذا ما كنت أقصده عندما قلت عائلتك، أجب أبي: سمر ويزن، لا أدري، لكن حتمًا سيأتون، الأمور العسكرية بردت كثيرًا، ما عاد لسمر حجة، رغم سوء الأوضاع الاقتصادية، قال جدي برزانة وهدوء كعادته: أي سوء تتحدث عنه، قل الحمد لله، أنت مسؤول إن عادت زوجتك عن زوجة وولدين، السوء تجده البارحة عند ابنة عمي، تعرف عمي وصاني بها قبل وفاته، وقال: هذه ابتك، خرجت من عندها أحمل أسى الدنيا بأكملها، زوجها مفقود من بداية الحرب وترك لها قبيلة حقيقية.

بني، عندها ثمانية أولاد وهي تقريبًا بعمرك أو أصغر منك كما تعرف، أشار بيده كأنه يلح عليه التذكر، قال: زينب ابنة عمي، ألا تتذكرها، كانت تزورنا كل فترة قبل الحرب، الآن الجميع

تفرق وانشغل بحاله، زفر طويلاً، ثم تابع ثمانية أولاد أكبرهم فتاة متزوجة عندها أربعة أطفال، مطلقة، زوجها عاطل وسكير، وأصغرهم ولد بسن المراهقة، يحتاجون لكل شيء طعام، شراب، كساء، مأوى، البيت الذي يسكنونه مؤلف من ثلاث غرف صغيرة، يعيش بها اثنا عشر شخصاً، تصور!

خرجت من عندها وقلتُ لنفسي: إن عدت وسمعتُ شكوى من أحد منكم، لأفعلن بكم الأفاعيل، أنتم بنعمة كبيرة لكن لا تشعرون، أختك هديل تأتي وتتأفف كل مرة وتلوم نفسها لأنها لم تسافر، ماذا ينقصها؟! فقط تعلمتم الشكوى بلا سبب بكل حال، احمداوا الله..

قال أبي: معك حق، ربما نحن نفتقد للامتنان، لكن الوضع كله سيئ على جميع الطبقات، شئنا أم أبينا، أبي، الحياة ليست سعي على الأكل والشرب والمأوى فقط، الحياة حلوة، مليئة بالأسرار والاكتشافات، ونحن هنا بسبب أوضاعنا السيئة على كافة الأصعدة، صار هدفنا وسعينا نحو الأكل والشرب والمأوى فقط، وصرنا نغوص بتلك الدوامة ولا ندري متى نخرج منها، الحياة أوسع من ذلك بكثير، لطالما حلمت أن أزور كل بلدان العالم وأتعرف على كل الثقافات وأتعلم من خبرات الجميع حتى الطفل، وها أنا ذا أجلس مكاني، اللهم إلا من ثلاثة بلدان زرتها قبل تلك الحرب، والآن أخوض بتلك الدوامة ذاتها، هذه ليست حياة.

غضب جدي وكأن أحداً ما شتمه، وقال: ما بالك أخبرك عن ابنة عمي وعلى الناس في المناطق الفقيرة والملاجئ، وتجبرني عن السفر والبطر الأعمى، ما بك؟

بعضهم يموت، يموت في الخيم من شدة البرد، وأنت تقول لي السفر، وماذا قلت، آه نعم، الثقافات، أي هراء هذا؟! نظر إليّ أبي وشعر بقليل من الحرج، أبوه شبه يوبخه أمام ابنته الكبيرة، أظرق، ثم رسم ابتسامة على وجهه وقال بصوت أهدأ من المعتاد: أنا معك يا أبي، موافق على ما تقوله ولعلي متألم مثلك وأكثر.

قال جدي: أي ألم ذاك، لا يبدو ذلك عليك؟!

جدي اليوم مزاجه ليس برائق على الإطلاق، بدا وكأن شيئاً بداخله يؤلمه ويريد أن يصب غضبه على الجميع، قال لجدي في بداية الطعام: السمك يحتاج لاستواء أكثر، لماذا لم تتركه لينضج

كفاية، ما الذي يلحقك؟! السمك لا يؤكل إلا وهو منتهي تماماً من شدة الشواء، وامتنع، وقال لي عندما أردت أن أفتح النافذة لألقي نظرة، وهو يحملق مستفز وكأنني فتحت عليه باب جهنم والعياذ بالله، أين عقلك يا ندين جنت؟ كيف تفتحين النافذة وأنا لتوي خرجت من الحمام؟ أتريدي أن أمرض؟ برأيك جميل أن أتوعلك الآن ونزيد همونا همًا!

شعرت بخجل كبير واحمرت وجنتاي، قلت: لا، معاذ الله، هل يعقل أنني أريد أذيتك يا جدي؟! لكنني نسيت، فقط نسيت، ولم يتلّح لذهني، أطرقتُ بحياء، وقلت: أرجوك اعذرني، شعر أنه بالغ بردة فعله، فقال لي وقد أنه ضميره، هكذا بدا لي، فأنا الحفيدة الكبيرة والمدلة: تعالي، اقتربي يا بنتي، هاتي هذا الكتاب الموضوع على الطرف اليسار في المكتبة، أحضرته له وقلت: تفضل، قال: هذا كتاب رائع للرافعي، خذ به الليلة واقرئيه، سيعجبك حقًا، وغداً انزلي لعندنا وقت العشاء وحدثنيني عن رأيك فيه، عرف نقطة ضعفي، يا له من رجل رهيب، جدي يعرف كيف يجرح وكيف يدوأي، ويدرك كيف توضع النقاط على الحروف، نظرت جدي له وابتسمت راضية عن طريقة تعامله تلك.

لكنها قالت لي وأنا أصب الشاي في الأكواب: فليسترونا الله على هذه الليلة، جديك متفرغ للجميع، بضعنا كلنا في رأسه، رافعة بدها، ضحكْتُ وقلْتُ لها: جدي غريب، بصمت كثيراً ثم فجأة يتحدث كثيراً، قالت: نعم هو كذلك فعلاً.

قال أبي لجدي: قد يبدو لك أنني لا أتألم أو لا يعنيني ما تقوله، لأنني أملك وضعاً أفضل من غيري على حد تعبيرك يا أبي، لكن الله وحده يعلم ما بداخلي، أشعر بسكين يقطعني إرباً إرباً عندما أسمع مثل تلك القصص عن الناس، لكن ما بيدي أنا سوى أن أساعد الشخص الذي هو أخي في الإنسانية بحفنة من المال ليس أكثر، أو مثلاً أطفال الملاجئ الذين يموتون، ماذا أفعل حيالهم؟

ماذا أستطيع سوى ذرف الدموع على الحال الذي وصلنا له؟

لعن الله الحروب والفساد والقتل والفقر.. انفعِل، ماذا أستطيع أنا كإنسان عادي بسيط أن أقدم وأنا أشاهد نشرات الأخبار المقيتة تلك التي تصف حال بلادي وما آلت إليه أوضاع

الناس، نعم هذه جرائم إنسانية، لكن من يأبه، من يحرك ساكنًا؟ العالم كله يقف متفرجًا أمام قضايا الحروب والجوع والفقر والتلوث والجهل.

ولا أدري ماذا أيضًا، وأنا مثلي مثل كل العالم، وإن كنت صاحب نخوة أكثر من غيري أخصص جزءًا من دخلي الشهري وأضعه في يد محتاج، أو أساعد مريضًا مرة، أو يتيمًا، أو أقدم دعمًا أو مساندة، هل أستطيع أن أقدم أكثر من ذلك كفرد من مجتمع كبير، كبير جدًا، أكبر من كل محاولاتي.

استطرد أبي: انظر إليّ اتسعت حدقتاه، لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا مثلما المرء يستطيع أن ينفع نفسه شئيرًا بسببته باتجاه عكسي نحوه، في النهاية عندما نرُمى بتلك الحفرة، لن يرمي أحد بنفسه معنا مهما كنا عزيزين عليه، أشار لي، هذه ابنتي هي وأخوها وأخوهم الصغير أيضًا مثلهم، وضعت أمامهم تلك النظرية، ستعيش لنفسك وتموت لنفسك وتُحاسب بمفردك، ولا أحد قادر على مساعدتك سوى نفسك، وكل كلام غير ذلك هراء بهراء.

ألم يعي الفقير عندما أنجب ولده الأول والثاني والثالث، ألم يعي أن هؤلاء الأولاد لا يكادون يشبعون لا طعامًا ولا وقتًا منه؛ لأنه من المؤكد أنه يكبح ليلاً نهارًا ولا يستطيع أن يشبع من أولاده عاطفيًا ويشبعون منه ولا حتى ماديًا، لينجب الرابع والخامس والسادس، طيب، أين الأم؟!

الابنة المطلقة التي كنت تتحدث عنها، ألم تعي أن الأب سكير إلا عندما أنجبت منه أربعة أولاد، الآن شبه مشردون؟

حبًا بالله يا أبي، ليست الدنيا كلها تقوم على عاتق الآخر، نحن من نجلب البلاء لأنفسنا بأيدينا.

قال جدي بجدية مقطبًا حاجبيه: بني، لست أخالفك لكن ما أدرى الناس أن الحرب ستقوم والخوف سيعم والغلاء سيفرض نفسه؟

تنهد أبي وحقق نحو النافذة وهو يسند ذقنه بيده وكأنه صار بعالم آخر، شعرت أن الجوبات مشحونًا بمشاعر مختلطة ما بين أفكار أبي وجدي، نهضت جدتي من مكانها وذهبت إلى غرفتها،

أحضرت لجدي الدواء ومعه كأس ماء، أخذه منها وشربه على مضض، فهو لا يحب الدواء لكن يشربه لأنه دواء هكذا دائماً كان يقول، ليس المهم أن نحب الأشياء، المهم أن نتفعلنا، هذه أيضاً إحدى قواعده الصارمة.

حملت أكواب الشاي إلى المطبخ ووقفتُ أمام المغسلة أجلي أطباق العشاء، كنت صامتة، حتى أفكاري كانت صامتة، وهذا نادراً ما يحدث لي، لكنه عجيب ورائع.. وشيء يبعث على السكينة أن يصمت الإنسان ليس فقط بلسانه بل حتى بأفكاره. ثمة كلام لجلال الدين الرومي يعبر به عن حاجة الروح للصمت، فيقول:

(اصمت كفى، لقد تكلمت كثيراً، والكلام بعد مدة لا يفيد شيئاً، اصمت فهناك شيء يسمى "صوت الصمت" هناك أشياء تظهر عند الصمت).

بعد مدة وجيزة بدأت بالعمل في المكتبة، وانضمتُ لذاك الفريق الجميل، والمستقبل لا أدري ماذا سيخبئ لي، لا أملك ثقة إلا أنني مسلمة نفسي للرحيم ولن يتركني، حاشاه..

راق لي جداً أن أعيش دور المتعلمة من الحياة، أتلقى دروسها كل يوم، بتُّ أبحث عن المعنى المستفاد، عن الشعور الجديد، عن المغزى المختبئ وراء كل حدث، أنكب ليلاً على مكتبي أدونه، مضت فترة كبيرة وأنا أكتب وأبحث وأقرأ وأحيا مع انخفاض كبير بشعور الخوف وارتفاع كبير بشعور الحياة.

لا شك أن عودة الأمان التدريجي وانخفاض وتيرة الحرب ترك أثراً كبيراً على المشهد في هذه المدينة، لا شك أن ناسها وطرقها وشوارعها وأزقتها والنباتات على كتف أسوارها ومحالها ومقاهيها وأرضها وسائنها كلهم كانوا محملين بالأمل بأن يعودوا للحياة من جديد، وكأننا بدأنا بالعودة رغم ثغرات كبيرة في نص الأمن الذي طمحنا للعيش فيه.

فترة لا بأس بها مضت وأنا بعملتي الجديد، أشرف على عدة تفاصيل، كان العمل الروتيني محبب ومقبول لأول مرة بالنسبة لي، أنا التي لا أعرف الالتزام والمثابرة والانضباط أحياناً، تلممت فوضاي وتهذبت مواعدي أكثر، وبت أكثر وعي وأكثر إقبال على الحياة.. مضت سنوات كثيرة حفرت في الروح والجسد خطوطها نحو الطريق الذي كان شبه مفقود، والآن ظهر

وميض من نور نحوه.. طريق الحياة... طريق النجاة... طريق معنى الوجود... طريق اللأخوف أو اللأخوف اللأخول ربا

رن هاتفي، فإذا هي أمني المتصلة، تلهفت للرد، أريد التحدث إليها بعد يوم عمل متعب، اشتقت لها، موجودة بشكل حقيقي وملموس وحي، تحسني هي فنجان قهوتها وتعطيني كوباً من اللأليب ونجلس مقابل بعضنا البعض، وأبدأ بحدِيثي اللذي لا ينتهي وأسألتي وتحيلاتي، تحاول أن توسع صدرها المليء باللأقصص واللأكاياء والمهموم ليتسع ما في جعبتي، هكذا كنا نفعل منذ سنوات عديدة مضت بطفولتي، هي الآن بعيدة وصدرها المليء باللأقصص واللأكاياء والمهموم مقفول عني، فلا عدتُ أعرف في العمق ماذا يوجد، وما عادت هي تعرف!

رغم حديثنا واتصالاتنا ولقاءاتنا عبر وسائل اللأتصال، اللأتصال اللأحقيقي العميق بين الأشخاص قليل ونادر وقديسي، لذا كان اللأجدر بنا أن نتصل بأنفسنا أولاً.. وإلا كنا أصبنا باللأخيبة دائماً، لأنه ليس ثمة اتصال عميق حقيقي دائم ومستمر بيننا وبين أي أحد، بطبيعة اللأحياة.

ربما لا أجد التعبير عن نفسي من خلال تلك المأداثات، ربما لا أعرف كيف أصف شعوري تماماً أو ما أفكر به أو ما أتوق له، ربما أتحدث لساعات مع أمني أو حنين مثلاً، لكن ثمة نقطة عميقة بداخلي لا أجد شرحها لأي أحد أو التعبير عنها بشكل واضح وملموس، لذا دائماً أهرب للورق، أكتب وأفرغ ما بداخلي وأترك شفرات عجيبة لأشياء قد أفهمها عني لأحقاً، كم للورقة والقلم فضل عليّ في معرفتي لنفسي.

أهلاً ماما

أهلاً وسهلاً، ندين.

ما اللأخبار؟ طمئنني عنك وعن أهلك والجميع؟ اللأيوم صباحاً اتصلت به لم يجب على اتصالي، أترأه كان نائماً أو مشغولاً لا أدري؟ اتصالاته بي قلت في الفترة اللأخيرة، بدت ملامح اللأخيرة على وجهها.

قلتُ: أمني لا تشغلي بالك، لكن بابا هذه الفترة انهمك بالعمل كثيراً على أمل أن يعود اللأوضع

في عمله جيداً كما كان من قبل، أتعرفين قال لي من يومين ونحن على طاولة العشاء: إن طعامي بات يشبه طعامك على نحو ما، ضحكت، لكن ما شبه الثرى بالثريا! ألا ترين معي أنه ضاق ذرعاً من البعد والفرق؟ قلت ذلك محاولة أن أخفف عنها.

ابتسمت أمي، لا يا حبيبتى سوف يصبح طهيك أفضل من طهبي بعد عام ونصف من التجارب هذا مؤكد، ولا تقولي ضاق ذرعاً، أنا من ضقت ذرعاً وتعبت ومللت من كل شيء تنهدت طويلاً، لكن ما عساني أفعل، عليّ أن أنتظر إلى أن يقتنع أباك ويقرر المجيء.

خرجت مني الجملة بلا وعي، أو تقرري أنت المجيء إلى هنا، أليس هذا أفضل! ضيفي إلى شعورك بالتعب والملل وضيقك، المشاعر نفسها هي أيضاً تتابنا أنا ويزن وأسر ربها، فهذه ليست حياة.. صمتت

قالت أمي: ندين لم أر فتاة غريبة مثلك، أيعقل أن تفضلي الحياة في هذه البلاد عن الحياة هنا إن جئتِ تحظين بفرص قد لا تحلمي بها وأنت في بلدك، كل شيء أفضل على جميع الأصعدة، كل شيء كما تحبين أنت بالذات وتحلمين، أنا لا أريد أن أضغط عليك وعلى أبيك، لكن أخاف أن تكون هذه فرصة قد نندم عليها لاحقاً.

قلتُ بامتعاض: فرصة ماذا، فرصة لأي شيء؟

قالت: فرصة لنعيش حياة أفضل، تحققوا أحلامكم أنت وأخوتك.

قلت وأنا أتهنئ بعمق: أمي لما كل تلك الدوامية من الحيرة والتعب؟ أنت تعرفين جيداً، أبي لن يتحرك من هنا، وهذا الأمر لا يخفى على اثنان، يقول أسافر إلى كل دول العالم، لكن لا أستقر إلا ببلدي، هكذا تركيبة دماغه، وهو مرتبط أيضاً بجدي وجدتي.

قالت أمي: جdak أمرهما سهل، يستطيعان القدوم عن طريق عمك حسان، فقط عليكم أن تقررُوا، ماذا يقولون بالنسبة للأمر، ماذا تسمعين منهم؟ قالت محاولة أن تستشف مني بعض الحقائق.

قلت: جدي إن كان احتمال سفرهما عشرون بالمئة عندما اشتدت الظروف، الآن بعدما هدأت

احتمال سفرهما خمسة بالمئة، الحمد لله الأمور تحسنت بعض الشيء ووتيرة الحرب انخفضت كثيرًا. قالت أمي: أنتِ لا تدركين معنى تداعيات الحرب، التعافي يحتاج لوقت طويل، قلت لها: التعافي ونحن بجانب بعضنا البعض قد لا يطول، صدق جدي عندما قال تتدمرون وأنتم تحيون حياة لا بأس بها، ما بال الناس الشبه ميتين؟

ضحكت أمي، وقالت بحيرة: أنتِ ابنة جذك وجدتك وهزت برأسها بأن لا حيلة لها. بادلتهما الضحكة، وقلت: انتظري قليلاً، وضعت الماء على النار منذ قليل، لا بد من أنه دخل بمرحلة الغليان وربما التبخر، وقفزت بسرعة نحو المطبخ، عدت ومعني كوب من الميرمية قلت لأمي: انهضي وحضري شيئاً ساخناً تشربينه يهدئ من أعصابك، علك تسترخين وتعرفين كيف تفكرين جيداً؟ غمزتها بعيني. قالت لي: يا سلام كأنك أنت الأم وأنا البنت.

قلت لها: أرجوكِ عودي، أنا مشتاقة فعلاً لنعود ونجتمع معاً على طاولة العشاء، اشتقت أن أراك بجانب أبي ليعود متوازناً أكثر وسعيداً، مهما يكن وجودك بجانبه سند هائل لك وله، اشتقت ليزن ومشاكسته، اشتقت أن يعود الصخب للمنزل كما الماضي، إن كان قدرنا الحرب، اختيارنا كيف نتعامل معها، لم ندع الحرب تفرقنا؟ فلتجمعنا أكثر وتقربنا. امتلأت عينا أمي بالدموع وصمتت، لم تستطع أن تجيب بأي شيء، أمي أخبرك بسر أنا لمستته بنفسه وعايته؟ المشكلة الحقيقية ليست بالمدن ولا بالأمكنة ولا بالأشخاص، المشكلة الحقيقية هنا أشرت بكفي نحوي، المشكلة نحن، الإنسان المتوازن والواعي أين ما وضعته يثمر، لكن الذي يتأفف ولا يعجبه العجب فقط يستمتع بالنقد والشكوى وإيجاد النواقص والثغرات أينما حل.

قالت أمي: أنا معك يا ندين، لكن الحياة في النهاية اختيار، أنتِ لم مصرة أن تختاري المعاناة؟ هنا إن جئتِ تفتح لك كل السبل بسهولة، هنا قد تجددين نفسك وتتميزين، وتصنعين أشياء قد لا تحلمي بها ببلدنا المتواضع.

قلت لها: كررتِ هذا الكلام على مسامعي ألف مرة أمي وأنا أنفهمك، من قال لك إنني

أختار المعاناة؟ أنا أكثر فتاة بالكون تحب اليسر والسهولة والرفاه وأنتِ تعرفين ذلك، لكن ثمة أشياء تستحق أن يمنحها الإنسان فرصة أخيرة مرة ومرتين، والوطن يستحق، يستحق أن نعطيهِ فرصة أخيرة ويعطينا هو أيضاً، وأنا مؤمنة أننا نحن لسنا أولاد حروب ولا جهل، ولا تخلف، نحن أولاد سلام وحضارة ومعرفة وعلم، نستحق أن نحاول ونبذل جهداً كل يوم لنكون أفضل، لنقدم شيئاً لأنفسنا ولمجتمعنا ولأوطاننا، وإلا ما جدوى الحياة؟ ما جدوى الأيام التي تتناقص من عمرنا كل يوم؟ أمي لم تكن غايتي ولن تكون أن أعيش في أفضل منزل وحولي الطبيعة الخلابة والحضارة الملمعة، أكل وأشرب وأنفسح وأنام، لم أخلق لهذا، حتماً لم نخلق لهذا، دعي كل أحد منا يحيا لهدفه ولرسالته، ونحن أيضاً جزء مهم وأساسي من رسالتك بالحياة، هكذا أخبرتني، وأنا موقنة أن العائلة تستحق بعض التنازلات أحياناً، وصدقيني لن تندمي.

كانت أمي تسمعني بتأثر وصمت وملامح الحيرة تسكن وجهها، الخوف جعلها تلحق بآسر، ورغبتها بحياة أفضل، والآن بات الأمر مختلفاً بالنسبة لخوفها، فمسيباته تلاشت إلى حد ما، لكن الحياة الأفضل التي تطمح لها، من المؤكد ليست موجودة هنا، لكن هنا الأهل والأصدقاء ومجتمع كامل ينتمي المرء له لا يشعر بالغرابة، حتى يزن صارت تلحظ عليه شوقه لأبيه وشعوره بالوحدة، فما عاد مشاكساً مثلما كان، مر عامان تقريباً جعلاه يكبر ضعفها، ربما صار يجدر بها التفكير الجدي بالعودة وإنهاء هذا الانتظار غير المجدي.

قالت: ماذا قال أبوك مؤخراً؟ سألت وهي تعرف رأيه، وكأنها تريد شيئاً يثبت لها تلك الفكرة مجدداً.

قلت: أبي دائماً يلحّ نحو فكرة العودة الدائمة، لكنه في الفترة الأخيرة لم يرد أن يضغط عليك، كأنه أراد أن ينبع منك القرار دون تأثير من أحد؛ كي لا تلوميه مستقبلاً إن حدث أي شيء. وجدتي وجدتي لطالما أرادوا ذلك، بل يدعون الله دائماً أن يعود كل المسافرين وتلتئم كل العائلات على بعضها كما كنا في السابق، جدتي تقول عندما تشتاق لأعمامي: لم أرهم لكي أرمي كل واحد منهم ببلد، ربيتهم لأراهم ملتفين حولي أنا وأبوهم بعدما تجاوزنا السبعين.

تهز رأسها أمي وتقول: هي محقة، فعلاً محقة؟ ثم تحاول تغيير هذا الموضوع الشائك بسؤالها

عن يومي.

أقول: الحمد لله كان جيداً، العمل في المكتبة ممتع، لا أشعر بالملل على الإطلاق، لكنني أصل لآخر الليل متعبة أحياناً، مع الأسف بدأت أهمل الكتابة، لا أجد الوقت الكافي، الوقت ضيق وسريع.

تقول: لا تهمل الكتابة، هذا حلمك وأنت جديرة به وسيتحقق.

أنظر لها وأقول، أيعقل ماما أن يتحقق ويترك أثراً؟

ندين كل حلم قابل ليصبح حقيقة تقي بذلك، الآن كنت تتحدثين عن ضالة الحياة بلا أحلام، تقي بنفسك، سيترك أثراً جيلاً، حتى لو لإنسان واحد هذا يكفي، كم أرجو ذلك. اشتقت ليزن جداً، نادي له لأراه وأحدث معه قليلاً قبل أن أنام، على فكرة غداً سألتقي بحنين مضى أسبوع منذ مجيئها إلى البلاد بإجازة ولم نر بعضنا إلى الآن.

- بلغيتها سلامي هي وأمها وقبلي لي الصغيرة لونا ابتتها، وحاولا أن تستمتعا بوقتكما، اللحظات الجميلة تمضي وقد لا تعود.

- حتناً سنقضي وقتاً ممتعاً.

انتظرت بارتباك اللهفة، بشغف الحنين داخلي، حنين صديقة الأيام الحلوة والمرة، صديقة السلم والحرب، العقل والجنون، الضحكة والدمعة، باعدتنا الحياة وفرقتنا الظروف، لكن من يحتل القلب بمكانة ما، مهما ابتعد وغاب يعود ويلقى مكانه مجدداً، اتفقنا أن يكون اللقاء الأول في منزلها أذهب وأسلم عليها ونستطيع أن نأخذ راحتنا وتعلو أصواتنا كما العادة ونعيش جنوننا بلا قيد، فالمنزل يبقى المكان الأكثر جمالا وأماناً ليكون الإنسان على طبيعته.

قالت حنين: في اللقاء الأول سأكون متحمسة لأن ابنتي ستتعرف على صديقة أمها الهبلة وأطلقت ضحكاتها المتقطعة التي تثير ضحكتي رغماً عني.

قلت لها: دعيها تتعرف على صديقة أمها عليها تعرف من الهبلة حقاً.

ضحكنا بحب وبهجة مضى وقت طويل لم نشعر بمثلهم.

واللقاء الثاني في المدينة القديمة، أخبرتني حين أنها بحاجة لتعود وتنفس الماضي العريق عبر المدينة القديمة وشوارعها وأزقتها وناسها ومقاهيها ورائحتها وكل تفاصيلها التي انحرمت منها، واشتهدت أن تعود لتعيشها رغم ما أصابها من لعنة الحرب.

أحببت الفكرة وأيدها جداً، فزيارة تلك الأمكنة مع حنين ستكون ذكرى لطيفة نحملها معنا للأيام القادمة.

الكتابة...

ذاك البوح الصامت والهادئ والمشيّع بالمعنى الحقيقي للأشياء دون أن تنطق، هي الوسيلة الفريدة للتعبير عن الذات ودواخلها وعبثها وتناقضاتها وتوهانها وألقها وفتورها واشتعالها هي وسيلة الهروب المشروعة من هذا العالم الصاخب، والعودة إليه في آن واحد عبر الكلمة. أنا الوحيدة والغريبة والمنسية والبعيدة عن كل شيء، من أين لي أن أستمد الحقيقة إلا من الكلمات؟! فجأة وجدتني أحمل حاسوبي المحمول وأضعه أمامي وأبدأ بالكتابة!

سخرت من نفسي عندما بدأت أقلد ما تفعله الكاتبات وهمستُ لها: هيا استيقظي من هذا الهراء ماذا تفعلين؟ الأمر ليس بهذه البساطة، عودي واحتضني كتبك ورواياتك.

(اليوم أنا من أكتب الرواية... يا لها من مهمة شاقة.. شاقة جداً)

ندين

نبضة مضطربة

(محمد)

نهضت ليل من فراشها بتثاقل، لم تنم جيداً البارحة، الحراسة أشعلتها وجعلتها تصحو بعد الحديث الذي دار بينها وبين فرح رغم أنها تظاهرت بالنوم عندما عادت وألقت ابتتها نظرة عليها بعد نصف ساعة حيث كانت الأخرى تدرس تحضيراً لامتحانها. سارت للمطبخ بخطوات ثقيلة، ألقت نظرة على الغرف، لا أحد هنا.

عادت الحياة لطبيعتها وعاد الكل لعمله، وهي أيضاً عادت لأعمالها في الاعتناء بالمنزل والأولاد وتحضير الطعام وغسل الثياب والمهام الكثيرة التي تكاد لا تنتهي..

الروتين ذاته منذ مدة طويلة، قطعته فجأة تلك الفترة الزمنية التي أودت بها إلى سرير المشفى أخيراً، شربت كأس ماء واتجهت للصالة، جلست تفكر بيومها للمرة الأولى منذ وقت طويل، كانت في أيامها الماضية لا تسنح لها الفرصة لتفكر، حتى هي نفسها لم تكن تعي لذلك، عبارة عن آلة تتحرك دائماً بمهام يومية لا تنتهي؟!

ترتيب غرف النوم بداية، وضع وجبة غسيل في الغسالة وطوي أخرى، تنظيف الحمامات، وضع لقميتين من الطعام بفمها وهي تعمل تسميها فطور، مسح الغبار وتلميع الأسطح، تنظيف الصالة وترتيبها، طبخ طعام اليوم.

يأتي الأولاد الصغار من مدارسهم والكبار من جامعتهم يجلسون جميعاً ملتفين حول مائدة الطعام وتجلس معهم، تضع اللقمة في فم هذا وتملأ طبق ذاك وتشدد على الآخر بأن ينهي طعامه، وتلوم تلك لأنها بدأت تلاحظ بأن أكلها في الفترة الأخيرة بدأ يقل وشهيتها ليست على ما يرام.

تنتهي من وقت الغداء بعدما تضع أيضاً لقميتين أو ثلاثة بفمها على عجل وتعود لدوامه العمل المنزلي، تساعدها فرح أحياناً وكثيراً من الأحيان تطلب منها أن تهتم بدروسها وتدعها وشأنها، وتشرب الشاي ليلاً بعد العشاء وهي منهكة تماماً، جسدها يصرخ من التعب ووجهها

منهك بابتسامة لطيفة عليه وشعور قبول ورضى بأنها أدت الواجب.

بيتها نظيف، نظيف تمامًا، وأولادها يشعرون بالشبع والحياة لا بأس بها، تسترخي، بل تحاول أن تسترخي يعود ويلبسها التوتر من جديد، رباه، أمي وأبي رجلان مسنان، لم أطمئن عليهما اليوم، يا لي من امرأة غير صالحة، كيف أنسى وأتبجح بالبر أمام أبنائي؟ كيف سيبرئ أبنائي وأنا أنسى الاطمئنان على أمي وأبي؟

شعور كبير بالذنب يطغى عليها، تهول سرعة نحو الهاتف تتصل، لا أحد يرد، تسرع نحو فرح لتأخذ منها الهاتف الخليوي الذي لا تملك واحدًا منه؛ لأنه على حد علمها لا يحتاجه، بل لا وقت لديها لتضيقه على برامج التي لا تحيد استخدامها أصلاً بشكل جيد.

تكون فرح مشغولة بالتحدث إلى خطيبها طارق، تدخل أمها، تشعر ببعض الخجل كيف لها أن تقاطع ابنتها، ثم تقول: لا.. لا يجدر بي التهاون في ذاك الأمر، والذي أهم من حديث اثنين مخطوبين، وحتى قبل أن ترتبط فرح بطارق كانت تأخذه منها على مضض بعد أن تراها مشغولة به، عرض عليها محمد أن يشتري لها هاتفًا، فقالت له: لما المصاريف الزائدة يا بني! أنا وفرح هاتفنا واحد ومن الأصل أنا لا أحتاجه سوى للحديث مع أهلي في نهاية اليوم، أو منتصفه للاطمئنان عليهم إن لم أستطع طلبهم على الهاتف الأرضي.

تطلب من فرح الاتصال بجدها، يرن الهاتف فترد والدتها، تتحدث بلهفة مع أمها، أمي كيف حالك؟ أعذريني مضت عدة أيام لم آتي لزيارتكم أنت وأبي، سآتي غدًا صباحًا بعدما يذهب الأولاد إلى مدارسهم وجامعاتهم.

في اليوم التالي تذهب لزيارة والديها، مسافة الطريق بين منزلها ومنزل أهلها مسافة ساعة إن أرادت الذهاب بباص النقل الداخلي، أما إن أردت الذهاب بتاكسي خاص فالأمر يستغرق ٢٠ دقيقة لا أكثر، تدخل بيت أمها وأبيها بحماسة، تسلم عليهم وتقبلهم، تقبل يديهم، تأتي أختها التي تسكن بقرهم وأخرى بعيدة عنهم مثلها، يفطرون معًا ويتحدثون عن أبنائهم بالدرجة الأولى، وعن أزواجهم أيضًا، عندما يأتي حديث الأزواج تصمت، ثم تتظاهر بالانشغال بأمر ما في المطبخ، تعود ومعها صينية فيها أكواب شاي، دائمًا أهلها يشيدون بمسلكتها في الحياة، فهي

اختارت أبناءها وصبرت على الفقر بعد موت زوجها مباشرة إلى أن بدأت تتحسن أوضاعها بعد عمل أولادها.

تقول أختها الكبرى: دعك من كل شيء، الحمد لله أن الله عوض صبرك، كل البلدة تتحدث عن أدب وأخلاق أولادك، وخاصة محمد حماد الله، كم أحبه ابن أختي المدلل ذاك.

تبسم برضى وامتنان وتقول: الحمد لله، الحمد لله يا أختي، ثم تقول الأم وبعينيتها دموع: لكن شبابها ضاع، يا حسرتي على شبابها، نصحتها كثيراً ولم تستجب، عنيدة منذ أن كانت طفلة، لو تزوجت كانت ارتاحت، الآن كبر أولادها وسيتزوجون ثم... تصمت.. ولا تكمل حديثها. تنظر الأخوات إلى بعضهن البعض ويصمتن.

تقول ليلى: ماذا جرى؟ ألا ترون هذا الغلاء، شيء لا يصدق! أذهب لأشتري شيئاً لفرح فأعود مصدومة من غلاء الأسعار.

يجارينها أخواتها بالحديث ويثرثرون عن الجيران وأحوالهن وما فعلت الحياة بهن، وعن الأقارب وعلى حياة المدن، فهن مهملات بليلة مجاورة، والحياة في المدينة أكثر غلاءً وترفاً، حتى ويلات الحرب لم تطأهن مثل البقية.

يتعبن أخيراً من الجلسة تلك أو ربما يشعرن بالملل فينهضن ويهرولن مسرعات كل واحدة تكلف بمهمة، واحدة تنظف الغرف، والأخرى تقطع الخضراوات تحضيراً للغداء وتنظف المطبخ، والثالثة تعتني بوالديها، تطوف حولهم مثلما يطوف المسلمون حول الكعبة بتعب لذيذ وحب إلى أن يخرجن من بيت أهلهن، منهكات، سعيدات، فارغات من أحاديث كثيرة خبأهنن بجمعتهن إلى حين اللقاء ومنطلقات تعود كل واحدة منهن لحياتها ولأعمالها ولمهامها التي لا تنتهي بين الأولاد والأزواج والجري وراء متطلبات الحياة.

تفتح ليلى الباب وتدخل، يسرع الأولاد إليها فتقول فرح: ما بالك تأخرت يا أمي؟ كيف حال جدي وجدتي؟ تجلس، ثم تحببها: حالهم جيد والحمد لله، تهز برأسها، أسأل الله ألا يواجههم لأحد، كبروا وتعبوا، تنتهد. يقول محمد: زرت جدي أبو حمزة وجدتي؟

تنظر نحوه باستياء وفم مزموه، كان عليّ أن أفعل يا بني، نعم كان عليّ أن أفعل، لكن ما عساني أقول، خالاتك لم يدعني أتحرك هداهم الله.

قالوا لي: اذهبي في يوم آخر، أتدري أي يوم آخر؟ مثلاً الثلاثاء الأسبوع القادم، نذهب معاً ما رأيك، ألا ترى معي أن ذهابنا معاً يفرحهن أكثر، ألا ترون كذلك معي؟

أدارت نظراتها بين أبنائها، أسند محمد ظهره على الأريكة وأطلق زفيراً طويلاً، يالي من أحق، الأسبوع الماضي تحدثت مع جدي وعمي ووعدتهم أن أزورهم هذا الأسبوع ونسيت، نسيت تماماً هذا الأمر، ضرب على رأسه بكفه، يجب أن أتصل حالاً وأعتذر، لا يجدر بنا أن نكون ناكرين للجميل بعدما عملوا ما عملوا من أجلنا..

قالت فرح بامتعاض وبصوت خافت قليلاً بعدما التفتت لأخيها ونظرت نحوه: لكن هذا من حقنا

نظر إليها شزراً، وقال: كم أنت واثقة بنفسك وبحقوقك أيتها الفتاة، أهنتك.

قال له يامن: فرح تقصد أنك تبالغ قليلاً بنظرتك للأمر، إذا كنت بمكان جدك، كنت ستفعل الشيء ذاته، لكنك من وقت حصول ذاك الأمر وأنت تشعر وكأنك مدين لهم، وكأننا غرباء ولا نستحق، هذا من أبسط حقوقنا يا أخي، قالها بوجه عابس.

شعرت الأم بالتوتر بين الأولاد فنهضت من مكانها محاولة تغيير الموضوع، ها أخبروني، أتراكم احتسيتم من ذاك الحساء الشهوي الذي تركته لكم قبل ذهابي؟

لم يجب أحد، لو تعرف يا محمد، كم كان الطريق مزدحم لحين وصلت للمدينة تنفست الصعداء، هز محمد رأسه موافقاً قال: نعم اليوم ثمة ازدحام فعلاً، ربما لأنها نهاية الأسبوع.

ذهب كل واحد من أخوته لأمره، وأمه ذهبت للمطبخ، لحق بأمه وسألها: ما بال أخوتي لا يشعرون ببعض الامتنان لأي أحد؟ وكأنه ليس لأحد فضل عليهم، نظرت نحوه الأم بأسى وحيرة، لا أدري، صحيح هم كذلك، يرون أن ما مضى كفى بأن يجعلهم ممتنين فقط لأنفسهم.

حرك محمد كفه ورأسه بحيرة، قال: أستغرب لما لا يدركون أنه ليس لأحد أن يقوم بنفسه

مهما كان قوياً ومكتفياً؟ لا نصلح فرادى مهما فعلنا، كل أحد مُتَمِّمٌ لمجتمع خرج منه سواء أراد ذلك أم أبى.

قالت أمه: أتريد أن تشرب قهوة أم تأخر الوقت ولا تريد أن تسهر؟ أندري دعنا منها، ستجعلك تسهر وأنت بغير قهوة يصيبك الأرق.

يقول لها والابتسامة على وجهه: نأرق معاً ثم يتساءل، كأن زيارتك لجدِّي منحتك مزيداً من النشاط؟

تحك رأسها بيدها وتقول وهي تحضر القهوة: ربما، لكن ألا ترى معي أنني أخطأت بعدم مروري لبيت جديك أبو حمزة؟ كم أتمنى أن يكون لم يلحظني أحد من أهل البلدة ويخبرونهم، تعرف الناس في البلدات الصغيرة، لا عمل لديهم سوى التحدث عن بعضهم البعض.

يرد: دعك من هذا يا أمي، سنصلح الأمر ونزورهم ونقضي معهم يوماً كاملاً، هكذا يسعد جدي أكثر، وأخوتي لعلهم يلبنون قليلاً ويعون كم هم بسطاء ويرمون كلام الناس ومعتقداتهم المشوشة عنهم وراء ظهورهم.

تقول وهي ترتشف من قهوتها الساخنة بحذر: بني، لا نلهمهم، ربما هذا حقهم؟! عندما توفي أبوك لم نرَ أحداً منهم، حتى جديك، كان تواصلهم فقط قائم على اتصال كل فترة، يطمثون من على الهاتف ويغلقونه وكأن شيئاً لم يكن، وتعرف زياراتهم كانت قليلة جداً، هم كانوا يبعدون أبلك من حبههم له، لكن عندما ذهب كأنما ذهب كل شيء معه، أنا أفدر شعورهم، ليس ثمة أقسى على الإنسان من أن يخسر فلذة كبده، هذا قاس جداً ومؤلم، لا أذاقنا الله إياه، لكن ثمة عائلة بأكملها وراء ذلك الرجل، امرأة وأربعة أولاد... انفعَلت قليلاً، ما بالك، أنسيت؟! وصلنا لدرجة صعبة جعلتك تبغ البسكويت في الشارع وأنا أعمل بالخياطة عند بعض المحال حين استطعنا أن ندبر أمرارنا ونعيش، لا أعاد الله تلك الأيام، مر عليها سنوات.

كان محمد يرتشف قهوته ويسمع بصمت وأمه تتحدث وتعيد سرد قصص ماضية كررتها كثيراً، ألتهمهم وأثرت بهم، وغيرتهم وكأنها تستجر الألم، ليس فقط تستجره بل تقف وتشهد عليه من جديد، يعبث بروحها، لاحظ محمد أن أمه أطالت النش بذكريات كانت مؤلمة حقاً منذ وفاة

أبيه إلى هذه اللحظة، فخرج عن صمته قائلاً: وماذا بعد، ماذا يجدر بنا أن نفعل لأشخاص هم من لحمنا ودمنا ونحن من لحمهم ودمهم، وكانوا بيوم من الأيام عاجزين عن تقديم أي شيء لأنفسهم حتى يقدموه لنا!

أمي هؤلاء أناس بسطاء، أبسط من أن يلاموا أو يحقد عليهم، إن كان ثمة خير يستطيعون تقديمه لنا كانوا استطاعوا تقديمه لأنفسهم، عندما يمنح الإنسان شيئاً للآخر يكون مملئاً وقادراً ويستطيع، ليس فارغاً من كل شيء، كيف تلومينهم؟! وهم في الآونة الأخيرة تغيروا، لكنكم لم تمنحوهم فرصة بعد، لا تزالون تكرر الأحدث نفسها أنت وأخوتي، ألم نتفق أن نقلب الصفحة ونبدأ معهم بصفحة جديدة؟!

قالت أمه بعد أن تأملته وهو يتحدث: كأن حمزة أمامي، حمزة يتكلم.

ابتسم ابتسامة أسي أتمنى أن أشبه حمزة.

بعدما نام الجميع، أوى إلى أبيه يحدثه، ويشتر مشاعره في أسير سريالي ممتد، يصل تلك الروحين معاً، عبر همس الحروف والكلمات...

أي... حمزة، دعني اليوم أناديك حمزة؟! كأننا أي الآباء والأبناء رفقاء في الرحلة، أقصد رحلة الحياة، لسنا فقط أولاداً وآباء.. وفي الجنة سنعود كلنا مع الأحباب بلا أنساب، يا له من شيء مثير؟! الحياة بأكملها شيء مثير وغريب ومبهم، مثل الناس حولنا تماماً؟!

أتدري يا أبي؟ صارت أمي تقول لي عندما أتحدث كأنك حمزة، أكثر من مرة قالتها، وأنا أحب هذا، أحب أن أشبهك.

أي، دائماً يراودني هذا التساؤل؟ أهكذا الإنسان لا يستطيع أن ينسى آلامه التي سببها له الآخرون، يحملها معه فتكبر داخله بدلاً من أن تصغر؟ أوليس كبر الآلام حقد؟! حقد يغرق به الإنسان. ويغرق غيره معه في آن معاً!

كانت المعضلة الكبيرة التي لم يكن تجاوزهها سهل علينا على الإطلاق أننا حملنا آلاماً كبيرة منذ الصغر، آلام الرحم الذين نحن أبناءهم وهم لم يريدوا أن يتذكروا.

جداي وأولادهم أي أختوك، تخلوا عنا أو نسونا أو ربها هجرونا، لا أدري؟!

لم أحب أن أفضي إليك بهذا الأمر، أن أسبب لك وجعاً لم تكن لتتصوره، أن أجعل روحك تتعذب، لكن ربها وددت الآن أن أخبرك؛ لأننا سمونا على أنفسنا أخيراً، حتى لو كان الأمر صعباً لكنه لم يكن مستحيلاً، لذا أناشدك ألا يعتريك أي ظن بأن من خلفتهم وراءك خيوا ظنك؟!

في البداية حينها جاء موعد رحيلك، عندما تركتنا ورحلت كأنها رحلوا معك... لم نرَ أحداً منهم بعد فترة وجيزة، اعتقد أنهم كانوا متألين كثيراً وقلبهـم مكسور، وهذا أقل ما يحصل للمرأة عندما يفقد عزيزاً، أعمامي وعماتي الأمر ذاته، لم يقتصر فقط على جدتي، لم نعد نرى أحداً منهم.

أمي في تلك الفترة القاسية التي عرّت الحياة أمامنا وجعلتنا نخوض ما لم يكن بالحسبان ونكبر فجأة كانت منهارة، منهارة تماماً، تغلي وتثور من إهمالهم وعدم سؤالهم إلا نادراً كل شهر أو اثنين على الهاتف، وتنزل بهم أشجع الأوصاف وتتساءل: كيف يمكن أن يكون المرء هكذا بلا رحمة؟ أليس ثمة دم في عروقهم يجعلهم يتذكرون ويحنون ويمدون يد العون، ماذا تركوا للغرباء؟! بل الغرباء أفضل منهم، تقول ماذا اعترى الناس؟

أصبحوا بلا قلب أو رحمة أو ضمير، عميت أبصارهم، إن لم يكن لي أهمية أو خاطر لديهم، أين محبتهم لحمزة؟ أين تقديسهم له؟ أكان كله كذب وهراء ونفاق؟ تقول هذا الكلام لجليتي ولخالاتي وأحياناً للجيران، كانت تنفوه بما يوجعها دون اعتبارات إن كان من يتحدث له ممن يُسرُّ له بتلك الأحاديث الخاصة أو لا يصح، كانت ببساطة مخدولة ومصدومة، وكلنا كنا مثلها..

ثم تراها أحياناً وكأن روحاً رحمانية سكنتها، فتهداً وتقول: ماذا سيقدمون؟ هم بالأصل أناس مساكين، أصلاً حمزة كان أفضل واحد من بينهم في كل شيء، فماذا سيقدمون؟

ليتهم يشبعون أبناءهم، وجداكم رجل وامرأة طاعنين في السن، قلبهما وظهرهما مكسور، أعانهم الله، يتبسم هازئة، هم من يحتاجون للمساعدة فاقد الشيء لا يعطيه؟!

وكأنها تهون على نفسها الأمر رغم وعيها وإدراكها أننا ربما لم نكن ننتظر منهم سوى شعورنا بأننا ننتمي لأحد، شعورنا بأن ثمة من يحبنا بلا مقابل، يطمئن علينا كل أسبوع ولو مرة بصدق

ولهفة، يقدم لنا فقط شعورًا بالمعية، وكأننا لسنا وحدنا في هذا الطريق المظلم، ثمة من يشد على أيدينا ويمنحنا الثقة، يمنحنا السند وقت الشدة، كل هذه الأمور لا تُشتري بالمال، صحيح أننا كنا في ضائقة مالية، لكن حاجتنا نحن وأمي كانت تفوق المال يا أبي بخطوات كثيرة. وكان هذا لا يصل لبית جدي وكانت تزيد الفجوة الكبيرة بيننا، والحديث الملوكوم، والغياب المبرح.

لا شيء يستحق في هذه الدنيا مهما بلغ قساوته أن يبني الإنسان عداوة وحقداً وقطيعة مع أبناء جلدته، أبناء لحمه ودمه، أبناء الرحم ذاته!

أخوتي كانوا يسمعون كلام أُمي عن قسوتهم وغيابهم وكبروا عليه حتى صاروا يشهدون حقيقة ما تقوله علناً ويلمسونه في أيامهم، فلا عمة تسأل وتحن، ولا عم يكون سنداً وظهراً ولا أجداداً يكونون ملجأً دافعاً لمن يتبه منا، ولا حتى أولادهم.. كم هو جميل لو كانوا بمثابة الأصدقاء لنا. رغم أن عائلة أُمي لم يكونوا متواجدين دائماً بجانبنا، لكنهم كانوا عاديين، تواصلهم أكثر ولهفتهم تجاهنا أصدق، لكن في النهاية لم نجد أحداً يمكننا الاعتماد عليه سوى أنفسنا، على صغرنا، وصارت أُمي ملاذنا الوحيد، وأدت دور الأم وحاولت أن تتقمص دور الأب أيضاً

على تلك الوتيرة التي عشناها صاروا يرددون أي أخوتي، نحن أناس لم نجد خيراً من أقربائنا، لم نجد أبسط شيء، مسحة على رؤوسنا ونظرة رحمة بوجوهنا، توفي أبي وتركنا وحيدين تماماً، لم يقف معنا أحد..

نحن لسنا ممتنين لأحد، لم يقدم لنا أحد شيئاً ينفعنا على الإطلاق، نحن صنعنا أنفسنا بأنفسنا، هكذا دائماً يرددون، بل بالفترة الأخيرة أصابتهم لوثة غرور وفخر خاصة بعدما حققنا أحلام كثيرة حلمنا بها، وتحسنت ظروفنا المادية بفضل عملنا، صاروا الثلاثة يقولون: نحن صنعنا شيئاً من لا شيء، منذ أن توفي والدنا أخونا بدأ يعمل لمساعد في الإنفاق على المنزل، كان وقتها في الرابعة عشر، وأما عملت أيضاً لفترة ونحن كلنا درسنا وعملنا منذ الصغر وأصبحنا أشخاصاً يُفتخر بنا.

وفي الآونة الأخيرة يا أبي تحسنت حياتنا كثيراً، فما عدنا بحاجة لأحد بشكل حقيقي خاصة بعدما باع جدي الأرض القديمة التي يملكها، والتي ارتفع سعرها بشكل غير متوقع ومذهل،

جاء ومنحنًا مبلغًا جيدًا وكأنه يعبر عن ألمه وأسفه بتلك البادرة غير المتوقعة، هذا أيضًا زاد من فخر أخوتي، صرنا أبناء علم ومال وتوسعت علاقاتنا وخطبت أختي من عائلة مرموقة، وأصبح لنا أصدقاء حقيقيين فعلاً، بعدما كنا أبناء يتم وذل وفقر وحرب.

كان فضل الله علينا عظيماً... هذه الحقيقة... دعاء أمي وبكاؤها ليلاً وحديثها إلى الله أثمر. لكن ما بالهم؟ أصبحوا مثل أولئك الناس الذين كنت أمقتهم، أعوذ بالله أن أمقت أخوتي؟! أصبحوا يفخرون! يتباهون! كم أكره تلك الكلمة يا أبي، الفخر، وكأنها عين النقص، لم يفخر الإنسان بنسبه وهو لم يختاره؟

ولم يفخر الإنسان بشكله وهو لم يختاره؟ ولم يفخر الإنسان بما يملك وهو لا يملك شيئاً في الحقيقة؟ لما الفخر من أساسه؟

نعم، ربما تقول لي: إنهم يحق لهم أن يفخروا، فهم صنعوا أنفسهم بنفسمهم وما زالوا، لكن أليس هذا توفيق من الله لنا، أن يجعلنا نصر طريق النور فنسلكه؟ أليس هذا كرم الله لنا، بهمسات أمنا ليلاً من أجلنا؟ ثمة أطفال كثر تيتمو في الحرب وضاعوا، ببساطة ضاعوا، ربما لم يملكوا صلاح أب يرثونه وهمسات أم صادقة في الليل لخالقها، فلما الفخر؟!

ألا يجدر بالإنسان عندما يحصل على مبتغاه أو هدفه أن يشكر ويمتن بدل أن يفخر! أن يصبح قلبه أكبر، أن تتسع روحه للجميع خاصة من ضاق بهم الطريق! أن يستخدم نجاحه وهدفه في نفع وإسعاد الآخرين بدل أن يتعالى عليهم بفعل الفخر والشعور بالأهمية، والأفضلية!

مظهر جدي وهو يزورنا وكأنه خجل أمامنا كان يذيب القلب ويستجدي التعاطف، جدي فقط أتى وواجهنا وقدم لنا يد العون، أعمامي لم يريدوا لأنفسهم أن تتنازل أو تتواضع حتى لو كانوا مخطئين.. جدي فقط أراد ذاك الشيء لأنه شعر أخيراً أننا من لحمه ودمه. نعم قد يكون تأخر، لكنه أتى قبل أن يفوت الآوان، أراد أن يمد يده للصالح وللتسامح وللعودة وللممة؛ ليعود ويسري دمنا الواحد بداخلنا من جديد.

كانت تقول فرح هازفة: كنا نعتقد أن في المدينة فقط الناس ينكبون على أنفسهم ويغلقون الأبواب عليهم في شقق صغيرة، أترامهم أهل البلدات الصغيرة يفعلون كذلك إن اضطر الأمر؟ كنت خائفة عندما أتينا للمدينة وتركنا أقربائنا خلفنا، كانت أمي تبكي؛ لأنها ابتعدت قليلاً عن أمها وأبيها، فلن تستطيع أن تسهر على سطح بيتهم كل ليلة هي وأختها وأولادهم، لكن كان أبي يطمئنها بأن المسافة بين بلدتنا والمدينة قصيرة، سنزورهم ويزورونا كل أسبوع مرة أو مرتين.

لم أتوقع أن أجد كثيرًا من الغرباء اللطف بنا ممن هم لحمنا ودمنا!

تقول لي عندما أعرض على كلامها: أفكارك مثالية مثل أبيك رحمه الله، وأنا لم أجد شيئاً مثالياً في هذا العالم القاسي بل العكس، رأيت الفوضى والظلم واللامنطق في كثير من الأوقات!

لم تخرج فرح لتسلم على جدها حينها، انزوت في غرفة النوم وأدارت كتفها للعالم كله والغضب والحقد يأكلها.

دخلت إليها راجياً منها ألا تخذل ذاك الرجل الكبير، أباه لأبينا، جدنا.. جدنا الذي شعر أخيراً بأن ثمة تذكّار عظيم من رائحة ابنه، هي أربعة وجوه تتوق للعطف منه، هو يتذكرك فينا ونحن نراك فيه، كلها دائرة مغلقة من جينات متوارثة، دم واحد يجري في العروق.

امتألت حدقتها بالدموع وقالت: لن أسامحهم، لن أسامح.

قلت لها: اهدأي يا فرح، لا داعي لكل هذا التوتر، قالت: حباً بالله فلتصمت بغضب وبصوت خافت، أحسدك على بروذك، أحضرتُ كرسياً كان بجاني وجلسْتُ أمامها وحولت وجهي جانباً وأنا أفكر كيف لي أن أحل الأمر؟ أن أقنع تلك الفتاة بأن تعي أنني أريدها أن تسامحهم من أجلها أولاً ليس من أجلهم؟ انتابني الحيرة؟ فأنا استطعت أن أقنع أخوتي الصبيان، بذلْتُ جهداً مضنياً لكنني في النهاية لمست حللاً، رأيت بصيص ضوء وذرة أمل، لكن مع تلك العنيدة وربما اللثيمة، كيف يمكن لي أن أصل لها أو أن أجد صيغة تفهمني بها وأفهمها.

المشكلة أن جدي كان يجلس في الخارج مع أخوتي ويبتظر خروج فرح بل يتوق للقاءها، وهي تزداد عناداً وانغلاقاً على نفسها. ضاق صبري منها، وقلت لها: على فكرة، أنت لثيمة جداً، لم أكن

أتوقع أنك تحميلين كل ذاك اللؤم!

قالت ببرود وابتسامة: أفضل أن أكون لثيمة على أن أكون ساذجة وطيبة زيادة عند اللزوم، هذه الحياة تحتاج لتعامل معها بلؤم، الطيبون يداسون بالأقدام.

جعلتني أحلق بها، قلت: ما هذه النظريات التي تبنيها؟! قوالب يردها الجاهلون ليس أكثر، أعتقد فتاة مثلك بحجمك يحذر بها أن تفكر بعقل ورقي أكثر، لا أن تأخذ جملاً نسمعها ممن هب ودب ثم تعنتها دون تفكير وتحليل؟!

قالت وهي تنظر شزراً: ومن قال لك إنني لا أفكر وأحلل؟ أصلاً كل المشكلات التي عانيتها في حياتي كانت بسبب طيبة قلبي الزائدة وسذاجتي.

قلت لها: وهذا قالب جاهز آخر، طيبة القلب مشكلة كل الناس، كلهم طيبون، الأشرار فقط الآخرون. فتحت ذراعي متعجباً، وذهبت للصالة، حيثما كان يجلس جدي وأخوتي وأمي.

ربما تتساءل؟ كيف لأمي أن عفت وساحت، هي التي كانت السبب الرئيس في جعلنا نحمل كل ذاك الألم بقلوبنا والخيبة من بيت جدي جميعهم؛ لأننا ببساطة كنا نرى ألمها ونعيش حالتها بل نقلدها، هي في النهاية أم، والأولاد يقوّن انعكاساً لنموذج آبائهم بالفطرة، أُمّي أذهلتني تماماً بقدرتها على التسامح وقدرتها على التجاوز وقدرتها على النسيان.

قلت لها وقتها: أذهلتيني يا أماه، كأنك لستِ تلك المرأة التي كانت تبكي أحياناً من جفائهم ومن قسوتهم ونسيانهم واجباتهم على حد قولك، كيف لك أن تعيدي المياه لمجاريها بتلك البساطة؟ ما هذا القلب الذي بين جنبيك؟ كم أحب هذا الجمال الذي ظهر منك على حين غرة، هذا السمو وهذا الصفح الجميل.

تقول أُمّي: لمَ لا أصفح، لما لا أظهر الود؟ أما كنت أستشيط غضباً في السابق بسبب جفائهم وقسوتهم وعدم سؤالهم، والآن عندما قرروا أن يتغيروا، وشعرت أخيراً أنكم لستم وحدكم، ورائكم عائلة تشد على أيديكم عند الحاجة، أتريدني أن أدخل نفسي بمدخل الكرامة والشعور بالعزة وتلك القصص التي بلا جدوى أيعقل؟ نظرت لها معجباً بكلامها، قالت: نعم بلا

جدوى، انظر، بالنهاية حصل ما كنت أبتغيه، فلا يجدر بي تشويبه أياً يكن.

قلت لها: معكِ حق، ثمة أمور يجدر على المرء أن ينظر لها بعين الحكمة ليس فقط المنطق، والحسابات والمساومات.

قالت: ناهيك عن كل شيء يا بني، أنسيت أن هؤلاء أهل أبيك، عائلته التي كان مستعداً أن يفديها بروحه، أنا كان مقدار ألمي كبير بسبب تعاملهم، لأنني أعلم تماماً حب حمزة لهم وحبهم له، كنت مصدومة كيف للمرء أن ينسلخ عما يحب ويتنمي له، بتلك البساطة! وما زلت أتساءل وأملك حقاً لي عندهم بالتوضيح والتفصيل، لماذا؟ لم حصل كل ذلك الجفاء وشبه القطيعة؟

لم امتدت المسافات وكأن بيننا بحور وجبال، لما الغياب؟ لما هان حمزة، وهانوا أولاده وزوجته، وكأنهم ماتوا معه؟!

أنا مدينة لهم بتوضيح وتفسير ليس فقط اعتذار، شيء بداخلي يتساءل ويريد أن يستريح ويفهم ويهدأ؟

قلت لها: ما شأنك بتلك الأمور التي مضت وانتهت؟ ما فائدة الصفح إذا، هم قدموا أسفاً كبيراً على ما حصل، بغض النظر عما مضى.

قالت: أنت لا تعرفهم جيداً يا بني، أنا من أعرفهم، كانوا أشخاصاً فيهم عيوب مثلهم مثل أي أحد، لكنهم لم يكونوا خبثاء أو سيئين، بل على العكس، أحياناً تشعر أنهم أناس طيبون، تناقض رهيب حصل بين ما أعرفه عنهم وبين ما بدر منهم وفعلوه.

قلت لها: نحن لا نملك الحقيقة الكاملة دائماً.

تنهدت طويلاً، ثم قالت: المهم الآن أن تكون روح حمزة مطمئنة ومسرورة، كرمي له أنا مستعدة أن أفعل أي شيء، ونظرت أمامها بصمت.

هذا الرأي أثر بأخوتي، ويا من وافق أمي وركن إلى رأيها ومال لحالها كثيراً رغم ما كان عليه، ألم أقل لك إننا نتأثر بآبائنا بالفطرة؟

وقال لي: أُمِّي على حق، نحن في النهاية إن تألمنا يوماً ما وخذلنا منهم فهو من أجل أبي، وإن عفونا وبدأنا مرحلة جديدة معهم فهو أيضاً من أجل أبي فهو صلة الوصل الحقيقية بيننا وبينهم، وهو رحمه الله يستحق، يستحق أن نفعل من أجله كل ما يسعده، فلم يقدم لنا بوجوده سوى السعادة.

أما فرح فدار ذلك الحديث بيننا بعدما رحل جدي قائلاً: فرح لم تخرج وتسلم عليّ، لكنني أنتظروا الأسبوع القادم تأتي معكم وتزور أهلها، جدتها متعبة جداً ومرضها أنهكها وكم تمنى أن تسعد بلقائكم حولها

قلت له: كن على يقين بأننا سنكون معكم ونطمئن على جدتي الأسبوع القادم وفرح ستكون أولنا، أوصل سلامنا لعامي وأعمامي يا جدي وأولادهم، نظر إليّ بحدقتيه وقد امتلأت قائلاً: ما خيب الظن فيك يا أبو حمزة، اقتربت منه وقبلت يده ورافقته إلى سيارته ولوحت بيدي مودعاً إياه عندما مضى.

كنت ممتناً جداً وسعيداً أننا تجاوزنا تلك القطيعة والخلاف، كانت سعادة جدي وملامح الراحة على وجه أُمِّي وشعور أخوتي بالخفة تسري بجسدي، وكأن تلك الموجة من المشاعر غمرتني بحب كبير وتسامح أكبر.

عدت لفرح، كانت تجلس بملامح عابسة وكأن أحداً ما اقتلع روحها، طلبت من أخوتي أن يدعونا بمفردنا، أُمِّي حذت منذ البداية أن تترك فرح لنفسها، قالت: ستهدأ ذات يوم وعمّا قريب فلا داعي للضغط عليها، اتركوها وشأنها؛ لذا لم تحاول الحديث إليها بهذا الشأن من الأصل وسارت تتابع أعمالها في المنزل. قلت لفرح: ذهب جدك الآن آملاً أن نزوره قريباً معاً وأنت أولنا وأنا وعدته، قالت ببرود: أعتقد ليس من اللائق أن تتعهد بأمر دون أن تستأذن صاحب العلاقة؟! إن شئتم اذهبوا أنتم، أنا لن أذهب معكم.

قلت: لم لن تذهبي؟ وتقوليها بإصرار أيضاً؟!

قالت: لأن العين بالعين، والسن بالسن، والبادئ أظلم.

قلت لها: أتعرفين عندما سئل غاندي عن مبدأ العين بالعين، بماذا أجاب؟

قالت: لا أعرف ولا يهمني.

قلت: أجاب بأنه سيصاب الجميع بالعمى؟! أود فقط أن ألقت نظرك لأمر مهم.

قالت على مضض: تفضل.

قلت: أنت معتقدة بل مؤمنة تمامًا أنك بهذا الأمر تعذبين الآخر؛ لأنك لن تسامحيه، لكنك في

الحقيقة تعذبين نفسك لا أكثر.

صمتت، لم ترد، أردت أن أصمت مثلها، لعلها تفكر بما سمعت..

قالت بصوت متألم: أنا حقًا مذهولة منكم جميعًا، لماذا هذا التنازل عن كرامتكم وكرامة أبيكم، أأبي هكذا يستحق؟! اجعلوهم يعضون أيديهم ندمًا؛ لأنهم تركونا وتكبروا علينا ونحن بأمس الحاجة إليهم، نسفوا كل ما كان يجمعنا بحياة أبي، وقتنا معًا وجلو سنا على مائدة واحدة وأحاديثنا وسهراتنا ولهفة أبي عليهم وحبهم له رغم جفائهم، أنا لم أرَ أشخاصًا مثلهم بلا عاطفة أو مشاعر أو قلب، أي برود ذاك الذي كان يسكنهم؟! كيف كانوا يتجرؤون ويرفعون سماعه الهاتف بأوج الحرب ليطمئنوا فقط إن كنا على قيد الحياة! بس الاطمئنان ذاك، وبس السؤال،

صار وجهها أصفر وكأن الدم في عروقها اختفى، أعطيتها كأس ماء، شربت منه رشفة وأعادته، ثم استطردت أنا لست لثيمة كما قلت، لكنني لا أستطيع أن أنسى الفترة التي عشناها بعد وفاة أبي واشتعال الحرب، وكل ما مضى من قسوة وتيه وظلم، نحن ظلمنا منهم.. علا صوتها: هم ظلمونا، كيف لكم أن تسامحوهم؟ كنت أخجل من صديقاتي عندما يتحدثون عن أجدادهم وأعمامهم وعماتهم وأولادهم، كنت ولا أزال أشعر بالوحدة. أين هم؟ أين وجودهم؟ أين حنانهم؟ ألم توجعهم كلمة أيتام أو جعتنا؟ ألم يشعروا بألم ينخر قلوبهم عندما كنا نبني الليل جائعين بسبب الحصار والغلاء والفقر؟ ألم تضنهم نار الشوق أو الحنين عندما كانوا يجتمعون معًا وعائلة حمزة فقط هي الناقصة بينهم؟ أم أن حمزة عندما مات ماتت عائلته معه؟!

عادت وصمتت وطال صمتها هذه المرة وشاركتها الصمت.

قلت لها: كل ما ذكرته كنت محقة به، وأنا أؤيد كلامك بشدة وأقدر مشاعرك وأشعر بالغضب داخلك الذي صار بادياً عليك عندما يذكرون أمامك، لكن إلى متى، ما نهاية تلك المشاعر؟
قالت: لا أعلم..

قلت: أنا لا أريد أن أضغط عليك وأن أسلبك حَقَّك بالتعبير عن رأيك أو مشاعرك، لكنك أختي الوحيدة وصديقتي المقربة وأمانة في عنقي.. لم أتمنَّ قط ولم أكن أنوي أن أراك تتألمين وأقف متفرجاً وخاصة أنني أدرك تماماً أن ما تربيه وما تقيمينه بالنسبة لما جرى تنظرين له بعاطفة جياشة، وهذا من طبعك وحَقَّك في النهاية، لكن ثمة أمر أود أن ألفت نظرك إليه بالنسبة لأبي، أنتعتدين أنه مسرور الآن بردة فعلك أكثر، أم بردة فعلنا نحن جميعاً على حد قولك؟ أنتعتدين روحه كانت لتسر وتسعد بالغفران والتسامح وإعادة الود أكثر، أم الحقد والكراهية وعدم المساحة؟ أنت فكري وقرري وأخبريني بما تقررين؟ وتذكرني أمراً مهماً جداً الذي يسامح أسعد بكثير من الذي يحقد، والذي يغفر أكثر سلاطاً وطمأنينة وراحة من الذي ينتقم، وفي النهاية كل ساق سيُسقى بما سقى، صدقيني. الحياة دائماً تلقن دروساً تجعل المرء يعي تماماً ما يعمل، وكيف يدفع ثمن عمله. نظفي قلبك، القلب التنظيف جنة أخاته، جنة حقيقية، جري أن تحيي بقلب نظيف لا له ولا عليه، وصدقيني حينها ستدركين حقاً كم كنت محرومة من كل ذلك السلام من بعدها.

مضى أسبوع، وذهبنا كلنا لبيت جدي كما وعدته، لك أن تتخيل مقدار الحب الذي كان يلفنا، الدموع والبكاء والنحيب السعيد هذه المرة؟! كأننا كنا في جَوْقة ترتل كل معاني الحب وتسبح بها وتغوم وتغوص وتطفو مع كل لحن موحد، القلوب تطهرت فعلاً وقتها، وأنا كنت متأكداً أنك معنا وروحك مثلنا هائمة وسجية وراضية.

أترى يا أبي، كم هي الحياة بسيطة ولا تستحق؟! عندما نعفو ونسمو ونرتقي!

ابنك المخلص لك دائماً

محمد

وقفت ليلى أمام نار الموقد المشتعل تفكر بعدما ارتدت صباحاً ثياب الخروج وخرجت من المنزل بسرعة نحو السوبر ماركت، اشترت ستة كيلو غرامات من الحليب وظرفين فانيلا وكيلو من الأرز حملتهم بصعوبة واتجهت نحو المنزل عائدة. لو رآها أحد أبنائها كان لامها بشدة؛ لأنها لم تنتظر عودة أحد منهم ليساعدها على الأقل بحملهم، هكذا هي أصبحت فجأة، لا تنتظر المساعدة من أحد ولا تطلبها بل تشعر بالخجل والعار عندما تضطر لطلب المساعدة. تكرر دائماً، عسى الله ألا يحوجني لأحد، ومن شدة حبه لتلك الصلاة تصلبها من أجل والديها أيضاً ومن تحب، ترى أنه ليس ثمة أروع من أن يموت المرء وهو بكامل قوته ونشاطه ولا يحتاج لأحد، الحاجة للناس هي المذلة بعينها. هكذا تؤمن!

مضت مهرولة ورافعة رأسها وكتفها ويدها تحمل أغراضها حين وصولها للمنزل، لم يكن بعيد مشوارها، اختطفت نفسها بسرعة، وصلت لمنزلها، ولجت المطبخ بعدما بدلت ثيابها وغسلت يديها جيداً وحبت شعرها بمنديل رقيق.. مزقت كيس الحليب بهدوء وأحضرت حلة كبيرة الحجم وغسلتها، سكبت الحليب الطازج في الحلة ووضعت على النار وانتظرت لحظة الغليان لتضيف الأرز ثم تحركه جيداً جيئةً وذهاباً، ثم تضيف السكر وأخيراً الفانيلا، هي تحب أن تضيف الفانيلا، رغم أن حماتها وأمها لا يضيفونها للأرز بالحليب.

كانت تفكر وهي أمام الموقد، تنتهي من طهي الأرز بالحليب فالיום هو الخميس وهي تحب أن تظهرو شيئاً حلو المذاق يوم الخميس ليتحلا الأولاد بعد العشاء وستجهز نفسها للخروج، لا، قبلها ستضع وجبة غسيل وتطوي وجبة أخرى، هذا جيد، يكون الأرز بالحليب برد قليلاً، فتأخذ معها طبق تقدمه لأم تميم.

انتهت من أعملها، وخرجت لزيارة أم تميم التي رحت بها بحفاوة واستقبلتها بذوق رفيع لم تعد عليه في زياراتها الاجتماعية، اعتنت بها بطريقة تنم عن رقي وتقدير للضيف دون تكلفة أو تصنع، وشكرتها على طبق الأرز بالحليب قائلة بصوت رقيق: من الواضح أن مذاقه لذيذ.. ابتسمت وشكرت مجاملتها. جلسا تتناولان الشاي بأكواب فاخرة، من الواضح أن أم تميم تستعملهم فقط للضيوف، وربما للضيوف المميزين؛ لأنهم ليسوا عمليين على الإطلاق، وكأنهم أنسب لأن يوضعوا بباترينا ويصمدوا، فكرت ربما كانت تضعهم هناك قبل مجيئها.

حتى ذوقها بالملابس مختلف، فهي لا تحب التكلف على الإطلاق، تردي كنزة بيضاء طويلة من الموسلين ياقتها مفتوحة، وتحتها بنطال قماشه مريح لونه رمادي، لا حركات كثيرة ولا تطرير ولا إكسسوارات ولا حتى مجوهرات أو ذهب، رغم أنه من الواضح أنها تتمتع وعائلتها بمستوى مادي جيد، لكنها من المؤكد أنها تحب البساطة، فكل التفاصيل من حولها، تشبهها، راقية وبسيطة.

رن جرس الباب، نهضت من مكانها وهمت بفتح الباب، ظهرت امرأة في منتصف الأربعينيات أو أكثر بقليل هكذا يبدو عليها، قدمتها أم تميم على أنها صديقتها منذ طفولتها إلى الآن، اسمها مرام، كانت مرام بمظهرها على عكس أم تميم تمامًا، تردي كنزة قصيرة زاهية مرصعة بأحجار ملونة على أكتافها، لونها أصفر وتحتها تنورة تغطي ركبتيها لونها كحلي، شعرها أشقر فاتح وعلى وجهها كثير من مساحيق التجميل، ويدها أسورة وبعنقها عقد عريض من الذهب الأصفر، وحذاؤها ذات اللون هو وتونرتها.

جلست ليلي بتحفظ أكثر بعد قدوم تلك الصديقة، الجريئة المظهر، قالت لها أم تميم: إيه، أخبريني، ماذا جرى بعد ذلك الحديث الذي دار بينك وبين فرح، بالمناسبة فرح قريبة من القلب كثيرًا، التفتت لمرام، كأن شخصيتها شخصية حلا ابنتي، كم ذكرتني بها، بطريقة كلامها ومشيتها وتعاطيها بكثير من الأمور، عادت والتفتت ليلي منتظرة منها الإجابة.

قالت ليلي بعدما أعادت خصلة شعرها وراء أذنها واحمرت وجنتاها: لا أدري ماذا ينتاب الفتاة هي وأختها هذه الفترة، ضحكت، يريدون لي أن أعود بالزمن إلى الوراثة عشرين سنة على الأقل، يقولون اهتمي بنفسك، فرح العبي رياضة، محمد ويامن عودي للدراسة، عملي ما كنت تتمنين أن تفعله ولم تسنح لك الفرصة، وأنا بصراحة أشعر أنني كبرت على تلك القصص.

قالت مرام: صحيح أن هذه أول مرة نلتقي فيها، لكن اسمحي لي أن أعارضك، أنت كبيرة أشارت بأصبعها، كم تبالغين! أين الكبر؟ من الواضح إنك أصغر مني ومن أم تميم، فليسأحمك الله أنت الآن في فترة جميلة جدًا من فترات حياتك، رفعت كفها وأكدت أنا أؤيد كلام أولادك؟!

قالت أم تميم: وأنا أيضًا، أندرين، كأننا أولادك شعروا بتأنيب الضمير بعد تلك الفترة التي دخلت بها إلى المستشفى، وأدركوا كم ضحيت من أجلهم.

قالت ليلي: لم أضحي، هذا واجبي كأم، هم لا يعرفون أن ما أعمله من أجلهم أعمله بكامل الحب والقبول، أدرين يا أم تميم أنا لم يكن من أحلامي يوماً أن أصبح طبيبة أو مهندسة أو حتى معلمة، أنا كامرأة أحب العائلة، أحب البيت وإدارته، أحب تربية الأطفال، وأستمتع ليلاً وأنا أحيك بمغزل الصوف كنزة لأحدهم وهم يجلسون حولي، هذا يقرأ وذاك يشاهد التلفاز، وذاك يدرس، وفرح تضع رأسها على كتفي غافية. عندما كنت صغيرة كنت أحلم بتلك الصورة بمخيلتي، أنا وزوجي وأولادي من حولي، نسهر معاً ونضحك وننسامر، لم أحلم قط أن أصل لمنصب أو أحصل على شهادات عليا؟

نظرتِ الامراتان إليها بغرابة والابتسامة تعلو وجههما، قالت أم تميم: إياك أن يسمعناك بنات هذا الزمن، فتقوم القيامة عليك ويتهمناك باتهامات عديدة، أولهن لست مع حقوق المرأة، إياك، مدت إصبعها محذرة إياها وساخرة.

ضحكت ليلي، وقالت: عندي فرح تكفي وتوفي.

قالت مرام: جميلة هي وجهة نظرك، وبصراحة أنا معك، دعك من هراء النساء في هذا الزمن وكأن الجلوس في البيت صار تهمة وموضة قديمة للنساء القدييات، صار الموضوع مبالغ فيه جداً لدرجة أصبحت من تميل نفسها لما ذكرته وكأنها غريبة، ربطوا النجاح بالحياة العملية فقط، وأصبحت ربة المنزل ومدبرته التي تستحق جائزة عظيمة لكل ما تقوم به كأنها عالة أو امرأة من طراز قديم.. نعم أنا أحيي تلك الحاجة الملحة في نفوس نساء هذا الزمن والفتيات الصغيرات بالاستقلالية والعمل وترك بصمة، لكن هذا لا يعني أن من تجلس بالمنزل وتخبز المعجنات وتطبخ وترتب وتخلق عالمها مع أسرته غير ناجحة أو غير ملهمة، النجاح أن تكون المرأة سعيدة ومكتفية بطريقتها التي تراها صحيحة وتشبهها دون أن يمل عليها أحد ماذا تفعل، وماذا تحب، تشعرين كأن هذا زمن القوالب الجاهزة والسرعة والصورة والإملاءات على الناس كيف يجدر بهم أن يحيا! خذي أنا مثال أمامك، صار عمري ثمانية وأربعين عاماً ومنذ كنت طفلة أفعل فقط ما يناسبني وما أحبه دون الالتفات لآراء الناس ونقدهم، الناس يتحدثون ويثرون في كل الأحوال.

قالت ليلى مؤيدة وقد أدارت رأسها بحيرة وتعجب: لا تخبريني الناس كم يثرثرون، أنا أكثر امرأة تدرك.

قالت أم تميم: لكن ثمة ملاحظة أعتقد أنني فهمتها من كلام أولادك، انظري أنا معك ومع ما قالته مرام للعظم، لكن أحب دائماً الموازنة وأرى أن خير الأمور أوسطها، وأعشق تلك العبارة البسيطة لكنها مليئة بالعمق. هزت مرام رأسها موافقة وأومات ليلى موافقة أيضاً.

من الجميل والعظيم فعلاً أن تحيا المرأة لبيتها وزوجها وأولادها وأن يكونوا هم مشروعيها الأول والأسمى، فهذه موجودة بتكويننا وحيثياتنا، أن نحيا الأمومة ونطلبها، حتى المرأة لو لم تتزوج تربية أمّاً، أمّاً لأخيها، لأبيها، لأولاد العائلة، هذه غريزتها.

لكن ثمة منطقة يجب أن تكون متنفس لها، تكون فيها هي ذاتها، من الواجب عليك أن تجدي هذه المنطقة، حيث تكون فيها ليل وحدها مع ذاتها، ربما تكون بهواية أو رياضة أو جلسة تأمل في الحياة مع فنجان قهوة، أو طريق تمشينه مع نفسك تفهمينها أو تحاولين فهمها أو كتاب تقرأينه، أي شيء يعبر عنك، عنك فقط كإنسانة بغض النظر عن دورك في الحياة، بل أدوارك إن صح التعبير، هذا جداً مهم يا ليلى لصحتك النفسية والجسدية، أنا أتكلم من وجهة نظر شخص محب وعرف نمط حياتك وجهدك المضني في سبيل عائلتك، واستطعت أن أعني ما يريدونه أولادك، واستشفيته من حديثي معهم، وبالمناسبة قدرته جداً بأبنائك، هذا إن دل على شيء فهو يدل على شعور وإحساس عالٍ بالآخر، خاصة إن كان الآخر هو أم فاضلة مثلك.

شعرت ليلى بقليل من الخجل، ردت: هذا من ذوقك، ووجدت أن ما قالته أم تميم لامسها حقاً، فهي فعلاً مقصرة في تلك الناحية، فهي قليلاً ما تلوذ لنفسها، عندما تضجر تلوذ بالآخر، كان ملاذها حمزة ومات، والآن ملاذها أبنائهم.

ربما لو كان لها متنفس كما قالت أم تميم كانت آلامها خفت، آلام شعور الوحدة عندما تضع رأسها ليلاً على وسادتها وترى مكان حمزة الفارغ، ليس فقط بجانبها بل بروحها، خاصة كلما يتقدم بها العمر، باتت في الفترة الأخيرة تشعر وكأنها عجوز، وكل شيء لا يليق بعمرها وكأنها هربت على كل شيء، حتى الحياة نفسها، وكأن وجودها فقط لتعطي ولم تعد بحاجة لتأخذ شيئاً

أو يقدم لها شيء، أو حتى تقدم هي لنفسها شيئاً، فات الأوان.

التفتت أم تميم لصديقتها مرام، وقالت بأسف: زوجها توفي منذ بداية الحرب، وهي قدمت الكثير لمن حولها، لذا أولادها تجدينهم ممتنين لها ويريدون لها متنفساً وراحة من أعباء الحياة وروتينها.

قالت مرام بعدما نظرت بأسى نحو أم تميم والتفت لليلي: الحياة صعبة، والوحدة تكون قاتلة في البداية، خاصة إن كان ثمة أولاد مسؤولون منك، كل شيء يصبح أكثر تعقيداً، أن تمارسي دور الأم والأب في آن معاً ليس سهلاً على الإطلاق، الأمر يحتاج لقوة كبيرة بل جبارة، أندرين! الحياة كلها لا تصلح سوى للأقوياء، قالتها ثم أطبقت شفيتها وحركت كفها وكأنها حسمت أمراً ما.

قالت ليلي: أأنت أيضاً زوجك؟ صمتت، مترددة خوفاً من أن تنطق كلمة غير ملائمة.

أجابتها مرام: أنا منفصلة، الأمر مختلف ربما قليلاً، لكن جوهره واحد، أم عزباء

قالت لها: نعم صدقت، أستطيع أن أفهمك، فأنا ذقت الأمر بحذافيره، عندما توفي حمزة، وكان أياً رجل، ليت كل الرجال على شاكلته، أحياناً يخطر لي أنه رحل بسبب تعلقي به، كنت متعلقة به بشدة لا أحد يصدقها، كان ملاذي وسعادي، تصوري كان بالنسبة لي حتى أهم من أهلي بل هو كان أهلي، إن كان ثمة ما يدفعني للحياة كل يوم، هي تأديتي للأمانة التي حملني إياها، تنهدت بحسرة، أكثر شخص أحببته في الحياة.. وكأن من نحبهم دائماً يرحلون، غصت، واقتربت دمعها فحاولت إخفاؤها، لا يروق لها أن يرى دمعها أحد، فكانت تجاهد كي لا تذرفها أمامهم حتى لو شعرت بأن حريقاً يستعر في قلبها.

قالت أم تميم: التعلق خطأ كبير، حقيقي أن من نتعلق بهم يرحلون، جربت ذلك مع أبي، وأطرقت بأسى.

عادت فقالت مرام بثقة وابتسامة عريضة ورأس مرفوع: لذا أنا الآن لا أتعلق بأحد أياً يكن ومهما يكن، أتعلق بنفسي وخالقي فقط. ورأيت من خلال تجربتي أن من يتعلق بنفسه ويحبها ويقدرها ويعتمد عليها، يحيا بشكل آخر، بت أخاف من تلك الراحة التي أشعرها مع نفسي

والاكتفاء بها، ربها هذا ليس بالأمر الصحي، لكنني وقعت به.

قالت أم تميم مازحة لها: الآن عرفت سبب غياباتك المتكررة عن اجتماعاتنا.

قالت لها وعلى وجهها بعض الامتعاض: مللت، مللت حقاً من تلك الاجتماعات منذ زمن بعيد، منذ طلّافي، سماعي الهمز واللمز والأسئلة والتعليقات غير الملائمة ونظرات الفضول ولا أدري ماذا أيضاً.

قالت ليلي: دعك من الناس هم يثرثرون في كل الأحوال، مع الجميع وعلى الجميع.

ردت مرام: والله صدقت يا مدام ليلي هذه الحقيقة.

قالت أم تميم: إيه أخبرينا، ما حال التجهيزات لزفاف فرح؟

عادت وسرت البهجة على ملاحظتها ثم أجابت ليلي: لم يتبق إلا القليل، أتدرون عرض عليها طارق أن يلغوا حفلة الزفاف ويستبدلونها بأمر ما يفعلونه لأجلهم، قال لها: الإنسان في هذه الظروف لا يشتهي الحفلات، قالت له بل الإنسان بكل الظروف يتوق للفرح ويتمناه، وأنا لن أفرط بأجل يوم كنت أحلم به وأنا صغيرة بسبب الظروف، انظر حولك، الناس رغم الحرب وتدابيرها والخوف وبعده الغلاء ما زالوا يبحثون عن الحياة، يتزوجون وينجبون الأطفال ويسعون باستماتة ليسرقوا لحظة حياة، ثم نظرت له بطرف عينيها بعث كبير، ألا يكفيني أن أبي لم يقدر له أن يشاركني فرحتي بهذا اليوم، وأنت تريد أن تحرمني من الفرحه بأكملها، بأن أردتي ثوباً أبيض كبيراً، وأحمل باقة ورود جميلة وأسير بثقة أمام صديقاتي وقريباتي وأنا أشبك يدي بيد من أحب، لن أسمح لك بهذا.

ضحكت الامراتان والدهشة تساورهما، قالت مرام: ابتك فرح تلك أعجبتني طريقة تفكيرها راقته لي.

قالت ليلي: ابتني من صغرها تفاجئني بجرأتها وقوتها، هذا ما أحبه فيها وما يخيفني عليها بذات الوقت، أنا بصراحة شعرت بقليل من الإحراج وهي تبدي رأيها، قلت لها: أوليس هذا يعتبر استهانة بالأم الآخرين ومشاعرهم، الناس في البلاد أغلبهم متعبون ومنهكون، وأملهم أن

تتغير الحياة للأفضل كل يوم، وأنت تتحدثين عن حفلة زفاف وفستان، أو ليس هذا ترفاً في أرض الحروب...؟

أجابتي وحدتها فجأة توسعت: أُمي الحرب خدعة واهية للجناء والتعساء والفاشلين ليتعلقوا بها ويبرروا أساهم، إنما لمن يحبون الحياة هي محنة لن تدوم مثلها مثل كل المحن، تأتي، تلقن درساً قاسياً وتذهب.

نظرت لها مرام وفمها فاغر مما سمعت ثم قالت: يا لها من فتاة! حتماً هي تحمل فكراً مختلفاً عن التبكي والشكوى وعيش دور الضحية والاستمتاع بالألم، أتمنى لها أفضل زفاف، والأهم من ذلك أفضل حياة بعد الزفاف مع زوجها، أرجو أن يكون رجلاً نبيلًا يستحق فتاة بوعيتها.

قالت أم تميم بصوت خافت: لكن ألا تعتقدين أن الألم موجود، ونكرانه ما هو إلا وهم، وهم مزيف وتجميل للحقائق؟ وإن تحدثنا عن ذلك لا نكون نستمتع بدور الضحية، نحن فعلاً متألون ومخدولون، أقصد يعني لست ضد أن يكمل الناس حياتهم وأن يعيشوا وأن يفرحوا، لكن أن يتجاهلوا أن ثمة ألم كبير ويتهمون من يعيشونه بالجن أو التعاسة أو حتى اليأس، لا، هذا تجنٍّ وظلم، يحق للمرأة أن يحيا خياره أيًا يكن، سواء بالألم أو حتى اللامبالاة أو الفرح والجنون، أيًا يكن، المهم ألا ينعت بأنه غبي أو جاهل أو تعيس، لأنه لا يعيش بوجهة نظر الآخر.

كانت ليلي تسمع كلام أم تميم وتومئ برأسها مؤيدة لها، ثم استطردت: الشباب اليوم مختلفون عنا بكثير من الأمور، نحن كنا نعطي للأحداث حقها وهيبتها ونخاف على مشاعر الآخرين ونشارك في الأحزان بعضنا قبل الأفراح، لكن اليوم جاءت تلك المواقع التي يسمونها التواصل الاجتماعي أشارت بيدها وهؤلاء رواد التنمية البشرية وآخرين مثلهم جعلوا من الإنسان كائنًا مرناً على حد تعبيرهم ومتقبلاً، ثمة أشياء يصعب على المرء تقبلها مهما فعل، وثمة مواقف ليس من المجدي فيها أن نلن وندعي المرونة والخفة، لا أدري، كل شيء اختلف. ابني الصغير لم يبلغ الخامسة عشر بعد يقول لي عندما أغضب من أمر ما يستحق الغضب حقاً: ماما أرجوك فكاًك سلبية؟!

قالت مرام ووجهها فيه بعض الإثارة: أنتن تتقندن أمراً لم تخوضوا به، أنا جربتة مؤخراً

وتجرات وحضرت تلك الدورات، هي نافعة وقد تغير نظرة المرء للحياة، أخبركن بسر؟ بزمنا كانوا فعلاً يتغنون بالألم ويرون شاعرية فيه، في الأغاني والمسلسلات والبرامج والقصص، ربما الإنسان يحتاج جرعة أمل بعض الوقت، يحتاج أن يتفائل، أن يرى الجانب المشرق من الحياة رغم ظلمتها، أن يرى الوجه الجميل للأشياء القبيحة، ولا تنسين أن الحزن والألم في النهاية مضران بالصحة، مضران تماماً، لذلك شباب اليوم يسعون دائماً ليتجنبوه، ورغم أنني في الحقيقة أتمنى ذلك لأنني أرى أنهم أكثر فئة انظلمت في الحرب وأهدر حقها، وعلى العكس أرى كثيراً منهم مكتئبين ويائسين من الحياة.

كانت الامراتان تسمعانهما على مضض بحياد وصمت دون أن يعلقوا بأي كلمة..

عادت ليلي إلى منزلها وأكملت مهامها بكامل نشاطها، فكرت بكلام الامراتان وقلبه على أوجهه وبدخلها كان ثمة إعجاب لتلك المرأة المقبلة على الحياة التي التقت بها، فكرت يبدو أنها عاركت الحياة جيداً، فهي تبدو قوية وواثقة، وكلام أم تميم عن متفلس المرأة أيضاً كلام لا غبار عليه، تساءلت: أيا ترى ما الأمر الذي يجدر بي أن أجعله متفلسي؟ أنا الآن في حياتي هذه ما الذي يجعلني راقية وراضية عن نفسي؟ تبسمت وهي تلمع الزجاج: النظافة.. النظافة.. كونُ بأكملة نظيف لا غبار عليه، وأيضاً أولاد وأهل بأفضل حال، ماذا أريد مُتَفَسِّس أكثر من ذلك!

ضحكت وأكملت عملها وهي تفكر ملياً بكيفية تطبيق ما سمعته اليوم، والعيش بشكل مختلف عما اعتادت عليه.

في اليوم التالي..

فتح باب المنزل وهم محمد بالدخول، حاملاً بيده الكتب الجامعية مغطاة بصدريته البيضاء، وضع الأغراض التي يحملها على الطاولة وجلس على الأريكة بتعب، كان يوماً شاقاً، بدأ دوامه في الثامنة صباحاً وانتهى بالربعة عصرًا، معدته تفرك عليه من شدة الجوع، كالعادة نسي نفسه ولم يأكل شيئاً في الخارج؛ محاضراته كانت الواحدة تلو الأخرى، وهم كان أن يفهم ما يلقي عليه ويطبقه لذا كل شيء آخر يشغله لا يهم، هدفه الآن أن يكمل سنته الجامعية ويتخرج ليبدأ بمزاولة

مهنة طب الأسنان، الفرع الذي كان دخوله له أعظم مكافأة لأمه التي لطالما تمنّت أن يكون ابنها طبيباً جراحاً، لكنه اكتفى بأن يكون طبيب أسنان؛ لأنه بنظره أخف حدة من الجراحة والعمليات وتحمل مسؤولية الأرواح لهذه الدرجة.

خرجت أخته وأمه من الغرفة كانتا وكأنهما في اجتماع مغلق، رجبا به وجلست أمه بجانبه ترمقه بنظرات الحب والفخر، أخبرني كيف كان يومك بالكلية بني؟ وفي آن واحد فرح ابنتي هيا جهزي الغداء لتتغدى معاً يبدو أن محمد متعب وجائع، ينظر نحوها بامتنان لأنها دائماً تشعر به دون حاجة منه للكلام، تقول: كالعادة نسيت أن تأكل، أتدري؟ أول أمر أود أن أوصي زوجتك المستقبلية به هو طعامك، أنت من الأشخاص الذين يجب على الآخر أن يضع اللقمة في فمهم، يتبسم حائراً ولا يجب.

بعد الغداء دلف غرفته واستلقى على سريره ليأخذ غفوة، حاول أن يغمض عينيه، لاح له وجه أنثوي بالغ الرقة، فتح عينيه من جديد وتقلب في السرير محاولاً تجاهله، عاد وأغمض عينيه عليه يغنى، تساوره الابتسامة التي فتن بها! قلبه ينبض نبضة مضطربة، ما الذي يحصل له، ما عساه يكون؟! عساه يكون؟!!

تلاحى لسمعه جلبة مصدرها غرفة المعيشة، يبدو أن أخوته قدموا أيضاً من الخارج، محادثات بصوت عالٍ بين أخويه وصوت ضحك وتوبيخ مغلف بلهفة وحب من أمه، يبدو أنهم عملوا مقلب ما بأمهم كعادتهم، فهي قلقة جداً تجاههم، فباتوا يعرفون نقطة ضعفها ويستخدمونها للمزاح معها، كيف انقلب حال هذه العائلة من عائلة مكسورة حزينة فقيرة يرنو من الجميع فيها شعور اليتيم والفقد، إلى عائلة مسرورة يتعالى بها صوت الضحكات والمشاغبات أحياناً، وتنعم بثقة ورضا كبيرين.

أثمرت ثمار ليلي وبات ليلها صباحاً مشرقاً، كان الله في عوننا دائماً وكانت هي في عون نفسها وعون أولادها ما استطاعت.

بالصبر والعمل والعزيمة والإيمان بنيت هذه العائلة واستمرت رغم غياب عمادها.



أبي

اقترب قليلاً، اقترب أكثر سأخبرك سرّاً... ابنك هذا الرجل الجاد العملي الذي لا يأبه لأحد ولا يلتفت لأحد، قضي عليه! بابتسامة لئيمة من فتاة رقت وجمال ملامحها تكاد أن تكون قاتلة!

مجرمة كبيرة هذه الفتاة يا أبي، سفاحة، بكل جرأة دخلت عالمي، وحشرت نفسها بكل كل التفاصيل، تحتبي بين جفوني وأهدابي أصرفها، فتعبت بفكري فينبض قلبي، أهرب منها أجدها أمامي!

رباه ما هذا الذي يحصل لي، أبي، أترأه ما يتكلمون عنه في الشعر والغناء والأدب ولا يجدون تعريفه غالباً أهو ذا؟

أبي لا تقل لي إنني وقعت في الحب، لا أرجوك.. لكن دعنا نتكلم رجلاً لرجل، لا يوجد ما اسمه حب، إنها مشاعر عادية، والمشاعر تتغير كل فترة من الزمن، إنه وهم، هذا حتماً، إنه وهم أنا أعرف، أليس هذا صحيحاً؟

أتدري سأقبل الموضوع كأنه عابر، وأنا متأكد أنه عابر، بدل من أن أقاومه بكل هذا التوتر، رباه أنني أبذو كالغبي أمامها أتلعثهم، أذهب باتجاهها ثم ألتفت وأعود أدارجي هارباً منها، أنجاهلها بكل قوتي ثم آتي نحوها كالطفل وأسترق النظر لوجهها، ماهذه الورطة التي أنا فيها؟!

أبي.. أبي، انتظر... دعنا نهدأ ونعري الحقائق. أنا لا أتحق لي أن أعيش ترف الحب الذي يحتاج لكثير من الوقت والجهد والبذل والتضحية والاهتمام لكي يحيا ويستمر؛ إنني مرتبط بهذه العائلة المتجذرة فيني بعمق، كبرت وأنا أحمل مسؤوليتها أمانة في عنقي، أول حب عرفته وجدته في عيون أمي وهي تلاحقني بالدعاء واللهفة والحنان، هذا هو الحب بالنسبة إليّ، كنت أعرف أنني سأتوه في حب فتاة ربما، أمي من أخبرني بذلك وحدثني أن أجعل أيام عمرها ستكون عندما أحب وأتزوج وأنجب لها نسخة مصغرة عني على حد قولها، لكن ليس الآن.. هذه الفتاة جاءت مبكرة جداً جداً عن موعدها، يا للجنة التوقيت في الحب يا أبي، إما أن يأتون باكراً جداً أو متأخرون، استثنائيون جداً من يأتون على الموعد.

مضت ساعات ومحمد مختبئ في غرفته، بدا كمن يخاف أن يفضح ما به من قسّات وجهه أو فلتات لسانه، كعادته يحب العزلة ويكره الوحدة في آن معًا، يريد أن ينعزل عن الجميع لكن بمسافات محدودة لا تجعله يشعر بالوحدة، فكرة معقدة كأفكار كثيرة بداخله، خذ مثلاً علاقته بأبيه كأنها علاقته بنفسه، فبات أبوه هو أبوه ونفسه في آن معًا.

دخلت أمه عليه وابتسمت ابتسامة عريضة بعدما جلست على كرسي مقابله، ثم قالت: أخبرني ما الأمر؟

نظر نحوها بارتباك، أي أمر؟

شعرت بارتبائك فأرادت ألا تخرجه أكثر، التفت حول الموضوع أنسيت موضوع أختك والتطورات الجديدة؟

قال: أي تطورات؟ آه حفل زفافها.

قالت أمه: نعم، هكذا فجأة كبرت الفتاة وستترك المنزل وتذهب لمنزل زوجها، ماذا نفعل، تعجلوا بالأمر، وجد خطيبها أنه لا داعي للانتظار أكثر، مضى وقت لا بأس به منذ تعارفهما وواضح انسجامهما وتناغمهما، ألا ترى أختك تطير فرحًا لمجرد رؤيته!

ضحك وبدت السعادة تكسو ملامحه، هذه الصغيرة كانت سعادتها أمنية أطلبها من الله دائمًا، قد تستغربين وقد تقولين إنها ما عادت صغيرة، لكنها بنظري طفلة تستحق كل الفرح الذي سلبته منها الحياة في السابق، وكم أرجو أن يكون طارق العوض الجميل لها.

في المساء نام محمد بصعوبة لم يعتد عليها من قبل. وفي اليوم التالي خرج باكراً من منزله يسير ببطء شاردًا بأفكاره، بدا هذا الشعور الجديد تاركًا في نفسه إثارة غريبة ومدهشة في آن معًا فهو لم يعتد بعد أن يتم لأمر أحد ما غير أفراد عائلته ونفسه فقط، راح يتساءل من هذه الفتاة، من أين أتت؟

يا ترى لما هي بالذات، تراها ماذا تحب؟ ماذا تكره؟ ما الأمل الذي تعيش من أجله؟ ما الألم

الذي حملته على عاتقها ذات يوم؟ أتراها لاحظت اهتمامي؟ أتراها تحمل روحاً جميلة بداخلها مثل وجهها؟ أتراها سعيدة في حياتها أو لم تجد ضالتها بعد؟ أتراها صادقة وحنونة كأمي؟ تساؤلات عدة خطرت على باله، لكن أستوقفه سؤال واحد من كل هذه الأسئلة، أتراها تستحق كل هذا العناء؟

ما هذا القلب الذي نحمله بين جنيننا، كم هو قادر على التحكم بنا!

قفز فجأة بباله صورة طارق وفرح، خيل إليه كم هو جميل أن يحب المرء ويبني عائلة مبنية على أسس سليمة كالحب والاحترام والتفاهم، خيل إليه كم جميل أن تسكن في آخر اليوم لروح تشبه روحك، كم جميل أن تصبح أباً لأولاد تحب أمهم!

تنفس الصعداء متسائلاً: أيقظ لشاب لا ظهر له ويحمل هم أم وأخت وأخوين حتى باتوا هم المعنى والمغزى لحياته، أن يحلم بهكذا حلم قبل أن يؤدي واجبه تجاههم؟!

يشعر نحوهم بتقصير مهما بدوا أنهم ممتنين له، كأنه أبوهم.

وجه أبيه الذي يحتضنه كل يوم يخبره بأنه خليفته وجزء من روحه التي لم تمت، وبأنه حاشا أن يتخلى أو يخون.

ليس المهم أنا حالياً ولا رغباتي ولا أحلامي ولا أي شيء يدل على أنايتي، المهم الآن أمي وفرح ويامن وهمام.

مستقبلهم وحياتهم وسعادتهم أحق من كل هذا الهراء الذي يتتابني أخبر نفسه بذلك ومضى.

هروب أو ربما عودة

(حسام)

أيعقل أننا نكون على حقيقتنا ونحن نتبنى أشياء اعتنقناها دون أن نعي أو دون أن نفهم؟! مفاهيم ألبسونا إياها مثلما تلبس الأم وليدها ذا الأيام لباسه دون حول منه ولا قوة

معتقدات زرعت في عقولنا مثلما يزرع الفلاح نبتته بثبات وتأني ويسقيها بشغف لتثبت ما يجب وما خطط له. سلوكيات وعادات وأفكار قادتنا لا قدناها مثل حمار يجره صاحب العربة بإرادته رغم أن الحمار يجريها بجسده وطاقته، أفلا يعقلون، أفلا يتدبرون، أفلا يبصرون، أفلا يعلمون!

كم من الشجاعة والجرأة والثبات واليقين والقوة والتفكر تحتاج لتخرج من بوتقة الجموع وتعود إلى ذاتك وهويتك الحقيقية لتهرب من عقل جمعي سيطر عليك فقيدك.

يقال: إن أسمى المعارف أن تعرف نفسك وأن تبهر بذاتك الحقيقية، أن تكون أنت.. أنت لا رغبتك، أنت لا شهوتك، أنت لا أنا المزيفة، أنت لا هم..

أنت الحقيقي، الصادق، المنسجم، المتكامل، النقي، أنت بدون أدنى ذرة من شائبة دخيلة عليك.

ارتمى حسام أمام أبيه الملقى على الأرضية بصدمة ودهشة مغلفة بخوف وذعر، قال: أبي.. أبي، ما بك ماذا أصابك؟ حركه بعنف، هيا تحرك أرجوك، هيا أبي، لكن لا يستجيب

اقترب منه أكثر وضمه إليه، سمع نبضه بتوتر، ثمة نبض بصوت خافت لكنه استطاع أن يستشعره ويطرق بإذنه، شعر ببعض الارتياح ولو لم يبدُ عليه ذلك، حاول رفعه من على الأرضية

حمله بصعوبة، أبوه ضخم البنية لكن في تلك اللحظة لاح له وكأن بنيته بنية شاب مراهق ربما بسبب انخفاض الوزن الذي شهدته في الآونة الأخيرة، وضعه على السرير وأخرج هاتفه

من جبيه، كانت يداه ترتجفان، أول من خطر بباله عمران فاتصل به، لكي يأتي مسرعًا وينقلانه للمستشفى، ما إن صدر صوت الرنين قطع الخط مسرعًا وشد على قبضته، ثم اتصل بالدكتور إباد طبيب أبيه، رد عليه فطلب منه المساعدة وشرح له ما جرى باختصار شديد، أخبره الطبيب بأنه قادم على الفور ويجب عليه أن يحافظ على رباطة جأشه ريثما يصل، ربما لما وصله من شدة الذعر والارتباك من صوته.

في هذه الأثناء فتح باب الشقة ودخل عمران، كان يتواجد ببيت أهله في تلك الأوقات من اليوم، ليطمئن على العائلة، أسرع حسام باتجاهه مستنجدًا، الحمد لله أنك أتيت كنت سأصل بك حالاً، بلغ الذعر ذروته بملامح عمران عندما شاهد حسام بتلك الحالة والعبرات تغطي وجهه، قال: ما بك، هل أصاب أحد أي مكروه؟

رد حسام: أبي.. أبي، لا أدري ماذا جرى له، هرول مسرعًا تجاه غرفة أبيه وعمران وراءه، اقترب عمران من أبيه ألقي نظره عليه بأسى.

قال لحسام: ماذا جرى بحق الله؟ بدا لي في الصباح شاحب ومرهق على غير عادته.

مسك عمران يد أبيه، وقال: أبي هل تسمعي، هل أنت بخير؟ تحركت يد أبيه، التفت لحسام، وقال: الحمد لله إنه يستجيب، قال حسام أرجو أن يكون بخير، مسح عبرة سقطت من طرف عينه، كان عمران مندهشًا بما يجري أمامه إيبا دهشة، ثمة شيء غريب بما تراه عينيه، شيء ما اعتاد عليه سابقًا ولا خطر له أن يشهده أمامه، هل هذا حسام فعلاً، أم أنه يهيباً له أو أنه يحلم، ما أدراه؟! وقف حائرًا بأمره، تساوره مشاعر مختلطة وأسئلة كثيرة تزيد المرء حيرة!

طرق الباب، حضر الطبيب، هموا مسرعين هو وأخوه لاستقباله، قال لعمران وحسام على ما يبدو إنه فقد الوعي فجأة، إنه بسبب انخفاض الضغط، هذا ما آل إليه مبدئياً بعدما كشف عليه وفحصه بتروي، بدأ الأب يصحو شيئاً فشيئاً، طلب الطبيب منهم عدة تحاليل وبعض الأدوية قبل ذهابه، وقال: دعوه يرتاح بشكل جيد، أتمنى له دوام العافية.

بعدما ودعه عمران ذهب إلى الغرفة ونظر نحو أبيه بتعب، خرج بهدوء مغلقاً الباب بحذر، وجد حسام يجلس في الصلاة وملامح الإرهاق تكسو وجهه، شعور كبير بالشفقة غمر روحه على

كل ما آل إليه الوضع، جلس بموازاة أخيه على الطرف الآخر من الأريكة.

رفع حسام رأسه وبظرة حائرة قال لعمران: لا أصدق أهو ذا القوي يقع ويسقط، مثله مثل أي إنسان عادي، كم نحن متشابهون، رغم ما نبدي من اختلاف

قال عمران: ربما هو ليس كما يبدو، كأنه هرم فجأة، بدا أكبر من عمره بكثير في الآونة الأخيرة.

أجاب حسام: تعب وأتعب الجميع من حوله، لم يرتح ولم يرح أحدًا منّا، زفر طويلاً.

شعر عمران وكأن غضبًا خفيًا بداخله تملكه لما سمع من أخيه لكنه أمسكه وحاول ضبط نفسه لشدة الظرف الذي يمر، واختار ألا يرد وأن يسجن كلماته التي ربما تتحول لصراخ لو لم يلجئهما، لفهم صمت بداخله أسئلة كثيرة ومشاعر مختلفة ومتناقضة وأمل يجبو كل مرة.. كل مرة، لكنه لا ينطفئ.

قطع الصمت بعد دقائق عدة وكأنه لم يستطع أن يلجم كلماته أكثر، فخرجت من فيه بلا استئذان، أو ربما فاضت فقال: أتدري ما الكارثة الحقيقية يا حسام؟

نظر حسام لأخيه بطرف عينه محاولاً فهم ما يتفوه به، فأجاب بصوت مختنق بعدما تنحنح: لا.. لا أدري.

قال له عمران: جيد... لا تدري إذا؟ الكارثة الحقيقية هي كلنا نعتقد أننا على حق ولا عيب فينا، والآخر باطل بل كتلة بطلان ونعامله على هذا الأساس ونحن بريئون والناس مدانة، ونحن ملائكة والناس شياطين. كان صوته منخفض وكلماته لها وقعها دون أن يظهر عليه الانفعال، بل تعتمد ذلك بداخله لأنه على علم مسبق بأن حسام لا يجدي الكلام معه بانفعال فهو جاهز بأي لحظة للانفجار بوجه محدثه أيًا كان.

وفي تلك اللحظة بالذات بدت على عمران رباطة جأش لم يسبق لها مثيل، وكأنه كان يريد أن يوصل فكرته لحسام منذ زمن طويل وأتت الآن اللحظة المواتية، استطرد بعدما لاح له وجه أخيه خالٍ من التعبير، لا نقبل أحد إلا بمقاييسنا ولا نعترف أساساً أن فينا كثيرًا من العيوب ولا أحد يبيننا بلا أخطاء.. دعنا من ذلك أشار بكفه.

أتدري ماذا.. أبوك هذا الملقى في الفراش مضى له أكثر من شهر يمر بأعراض صحية تدعو للقلق ولا يريد أن يقبل أو يعترف أنه مريض، أخبرته أكثر من عشرين مرة أنه بحاجة لزيارة طبيب ولم يأبه بي ولا بكلامي، قال: صعلوك صغير يزعرك أي شيء لا تقلق عليّ، أنا بخير وأنا على دراية تامة بأن أبي ليس بخير أبي لم يكن بحياته كلها بخير.

شزره حسام بنظره، وقال له بتهمك: لا.. لا، لا تخف عليه هو الوحيد بيننا بخير وعلى حساب عائلة بأكملها، بوتيرة الصوت المنخفض نفسه.

أطرق عمران بعدما ألقى نحوه نظرة جانبية وبابتسامة خائبة قال: ليست الأمور بظاهرها أبداً يا أخي، عندما تريد أن تحكم على من حولك بصدق غص داخلًا في العمق، في العمق جداً ومن الأفضل ألا تحكم على الإطلاق.. أفهمت؟ وصحيح بالمناسبة إن كنت تعتقد أنه بخير ولا تأبه به، لماذا ذرفت كل تلك الدموع منذ قليل؟ كنت أكاد ألا أتعرف عليك.

شعر حسام بالخلجل ولم يجب، استطرد عمران: أخي بكل الأحوال نحن نرى ما يجري من حولنا ونعائنه عن قرب، المراتحون مع أنفسهم والذين يعرفون من هم، وماذا يريدون من الحياة يريجون من حولهم، فقط التائهون والمعدبون يعطون العذاب حتى لأحبائهم.

ماذا تقصد بالضبط؟ قال حسام بحدة.

أجاب عمران: لا أقصد شيئاً، أنت أدري بما تريد أن تفهمه مما أقصده، أتدري؟ سئمت من كثرة الشرح، سئمت أن أساعد غيري كي لا يغرق وأنا أحياناً قد أكون غارقاً في القاع، سئمت من أن أكون الولد النجيب والذي يجب أن يكون عند حسن الظن دائماً، سئمت من دور المنقذ!

أثار دهشة حسام بكلامه، فقال له: أتسأم من دور المحبوب والمقدس والملاك؟ إن كنت أنت سئمت، فأنا ماذا أقول! تبسم هازئاً، على الأقل أنت لست بخانة الاتهام ودائماً مضطراً أن تدافع عن نفسك كأنك مرتكب لجرم ما، على الأقل أنت هنا موجود بقدر ونك.

في هذه الأثناء قطع حديثهم صوت جلبة عند الباب، وصلت أمهم وأختاهما وأزواجهن وأخويهن الصغار إلى البيت، نهض عمران مستقبلاً إياهم من بهو المنزل، دخلوا بهدوء، قال صهره

زوج أخته الكبيرة: خيراً إن شاء الله ماذا حصل لعمي؟ كنا جالسين بسهرة مع زوجة عمي والعائلة بأكملها نتحدث ونتسامر، وإذ باتصال أخيك حسام منذ قليل يخبرنا والله لم أصدق، لأنني رأيته البارحة لعمي وكان كالنسر ما شاء الله، ماذا جرى له طمئناً؟

الجميع حوله، وبوجوه قلقة تريد إجابة ينظرون إليه، قال عمران: يا جماعة، لا تقلقوا أبي بخير والطبيب طمأننا، لكن يحتاج لبضعة تحاليل للتأكد من صحته، ونرجو من الله أن تكون أزمة وزالت ولا تستدعي شيئاً، تركهم حسام يتحدثون ودلف نحو غرفته دون أن يكلم أحد، شعر بأن طاقته انتهت، حتى على فتح حوار مع أي شخص ولا الإجابة عن أي شيء ولا رؤية أحد من الأصل.

اضطجع على فراشه بتعب، متعب كثيراً، ربما منهك، أو ينام على نفسه من التعب. المذبذبون فقط يعطون العذاب حتى لأحبائهم ظل صدى الكلمات بذهنه يتردد، أترأه أحد في الكون ذاق عذابه، تساءل؟!

مر عليه ثلاثة أشهر يقاوم فيها نفسه، يقاوم رغبته، يقاوم شهوته، ويقاوم جسده، يقاوم كل شيء، متعب من كل شيء! صداع قوي يأكل رأسه وكأن في داخله مطرقة تطرق بكل جوانبه جانباً جانباً على حدة، تقيؤ يجعل معدته تلفظ كل شيء، يجلسه بلا حراك وكأنه أفرغ روحه، يسحقه الألم فيأخذ الدواء الذي وصفه له طبيبه النفسي لينام.

ينام أخيراً لكن نوم من يتمنى النوم العميق ولا يحظى به على الإطلاق، ليس ثمة أقسى على الإنسان ألا يحظى بنصبيه من النوم ويصبح نومه هائئ البال بعيد المنال، يدخل في عالم سريالي مبهم كله قسوة وأخيلة دخيلة وكوابيس مزعجة فيرتعش جسده ويصحو كالمجنون، يخاف، يشعر بالذعر فيحاول أن يتنفس، يتألك نفسه ويسحب منديلاً ورقياً من الصندوق ويمسح جبينه المتعرق ويوعده نفسه هذا الألم سيمر.

الوحش الغاضب بداخله سيهدأ، سيزول الغضب وستتخف العدوانية التي تجعله وكأنه راغب بأن يلتهم أحداً ما حتى لو نفسه، الأرق أيضاً، نعم سينتهي أمره ذاك العين، كل هذه اللعنة ستنتهي، كل هذا العذاب.

دعنا نمرر فقط هذا الشهر يقول لنفسه: أليس هذا ما أخبره به الطبيب أم ذاك اللعين أيضًا يخدعه؟ يقول لنفسه: لا.. لا، الأطباء لا يكذبون، ليس له مصلحة بأن يتحايل عليه، بل هو إنسان جيد، بل جيد جدًا على الأقل يعيش لمعنى، يساعد الناس في التعرف على حقيقتهم، من حسن حظه هذه المرة أنه ساقه القدر إليه، يكفي أن وضع له خطة علاج متكاملة ليُشفى من ذاك السم الهاري.

على الأقل لا يلومه ولا يحكم عليه أو ينتقده بل احتواه بكل ما تعني الكلمة وغير بداخله أفكارًا كثيرة، بات يلاحظ الفرق بين كل جلسة وأخرى رغم أن الطريق طويل لكنه خطا خطوته الأولى وهذا إنجاز كبير بالنسبة له، لم يعد يريد أن يعود خطوة للوراء مهما كلفه الأمر، ومهما كان الثمن باهظًا، فهو يستحق.

قبل عدة أشهر..

بعض التغيرات التي تقلب حياة الإنسان تجعله لا يدرك الوقت الحقيقي لها فيبدو اليوم أيامًا، وأحيانًا الشهر عامًا، كلما زاد ثقلها على النفس!

خلافه مع خالد ذاك الرجل المخيف حقًا، لا شيء فقط لأنه قادر على أذية أي إنسان بأي بوقت دون ضمير، بكل بساطة وسهولة وكأن الأشخاص بالنسبة له حشرات وأرقام وأي شيء سوى إنهم بشر من لحم ودم، ووجود حي، مثله تمامًا

ربما هذا الذي جعل حسام رغم كل محاولاته ليتقرب منه أكثر على الصعيد الشخصي أن يترك مسافة أمان، كان بداخله لا يحترمه على الإطلاق، ينظر له على أنه وسيلة لقضاء حاجات معينة: مثل الحصول على المال، واستئجار مزيد من السجائر، والحصول على ظهر قوي قد يحتاجه في هذه المدينة التي أصبحت كالغابة بعد الحرب، لكن أن يسمح لنفسه بأن يتخيله وكأنه ذاك الشخص الذي قد يصلح مقربًا منه أو صديقًا، كان هذا الأمر يصيبه بالغثيان مجرد أن يفكر فيه.

يقول لنفسه: أنا أعرف تمامًا أن أميز بين الإنسان الذي يصلح أن تقحمه حياتك وبين من

تستخدمه ككلب يخدمك، صحيح أنني لست ذاك الإنسان الصالح؟ لكنني في داخلي ثمة شيئاً ينخزني عندما أرى أحداً ما يظلم أو ينتهك حق من حقوقه أيّاً يكن. كيف لإنسان يطلق عليه ذاك اللقب وينسب للإنسانية أن يتصرف بطغيان مخيف مثله مثل الوحوش دون رحمة مع أي أحد مهما يكن! يحك ذفته متأملاً المدى أمامه، أوليس لي عقل أفكر به لأثق بذاك الخسيس الوغد؟ يتساءل وكأنه في ذات الوقت يجيب نفسه؟ ويطلب مني بكل صفاقة أن أثق به، ويردها كل مرة وملاحه كلها خبث ومكر (ثق بي).

من الواضح كم أنا أبله عندما منحتك أقل من الثقة بكثير، ورأيت نتيجة ما منحت، لكنني أستحق ما يحصل لي، شخص استغلني ونهني وفوق كل هذا استعجني لمكان لم أكن أتوقع أن تطأه قدماي ما حييت، انجرت وراءه كالأحمق؟! لا أصدق كيف فعلت ذلك؟!!

صب كل لومه فيما يجري له على خالد هذه المرة، يقول بمرارة: من أخذني لذاك الجحيم غيرك، من جعلني مثيراً للشفقة هكذا سواك؟ تبدو على ملاحه معالم الاشمئزاز يدير رأسه ويصق، يتذكر حواراً بينهما، أتدري يا خالد من يراك من بعيد لا يتصور أفعالك، تبدو رجلاً محترماً لا لك ولا عليك، أتساءل؟ كيف تستطيع أن تبدو على غير حقيقتك! تحرق شوقاً لأعرف، نصف مشكلاتي بالحياة تتجلى بسبب عدم معرفتي التواري والانضباط، أن أضمر ما بنفسى!

ضحك خالد، وقال: لا تخبرني عنك، هذا جلي بالنسبة لي، أنت شخص تحتاج لخبرة طويلة في ذاك الباع.

قال له: منكم نستفيد.

نظر له خالد نظرة مليئة بالثقة والغرور، أيها الأبله، إن كان الرجال الذين يعملون أعمالاً مثلك، أو ببساطة إن كنت مثلك لما كنت حصلت على شيء بحياتي، أول معلم بحياتي تربية على يديه عندما كنت في الشارع، قال لي: إن لم تصدق نفسك وأنت تكذب فلن يصدقك الناس، وإن لم تعلم أن تبصق في الصحن الذي أكلت فيه فلن تكون ابن حرام، وهنا أولاد الحلال ليس لهم عمل بيننا، نحن نحب فقط أولاد الحرام، أفهمت؟

تصور أن أظهر على حقيقتي، ما فائدة عملي إذاً، أن أوحى للذي أعامله أنني ابن حرام،

يضحك، كيف سأصل لمبتغاي! ذكاؤك وحنكتك تظهر في هذه النقطة بالتحديد، أن تشعر الذي أمامك أنك شخص نبيل، ثم تعرف من أين تؤكل كتفه، وكيف تستفيد منه بأفضل صورة، فجأة تغيرت ملامحه.. تتحنن وكأنه شعر بأنه تكلم أكثر من اللازم. شعر حسام حينها في تلك اللحظة في الذات أي مأزق عظيم وضع نفسه به، رسم على وجهه ابتسامة، وقلبه ينفطر!

ذاك الهراء الذي تفوه به خالد، كان يتحدث به عنه وعن ضحاياه الأخرى في آن معاً، مثله مثل جميع الناس الذين وقعوا بمصيدته.

بعد معرفة أمه لحكاية عمله مع ذاك الموبوء، وكأنها عرفت ما يستطيع قلبها على حمله، ومعرفته هو لحكاية أمه التي أخبرته بها عن حقيقة علاقتها بوالدها، تقارباً أكثر من قبل حينها لأول مرة بصدق شعر بأشد مشاعر الندم والألم، كأن صحوه بداخله تيقظت، لام نفسه كيف وصل لذلك المنحدر، كيف سمح لنفسه أن يعيش بذاك الوضع المزدرى، ما كان يتخيل مستقبله على تلك الشاكلة قط، بل على العكس، لطالما حلم بحياة هائلة يتعد بها عن كل المشكلات والترهات، يؤسس عائلة صغيرة يكتنفها حب كبير، لطالما حلم أنه لن يشبه أباه ولن يكون فجاً وظالماً مع أولاده، ولن يهين زوجته، سينجب أربعة أولاد، صبيان وبنات، وسيعمل بجهد ليصبح أفضل رجل أعمال، أفضل من أخيه عمران، ليكفوا عن مقارنته به، رغم أن عمران يستحق كل ذاك الاحترام، هذا ما توصل إليه أخيراً.

تساءل: ماذا جرى له ليحجم نفسه بتلك المصائب ويسير إليها على قدميه؟

أخرج زفيراً طويلاً، لم يفهمه أحد، يريد أن يحيا بسلام، يريد أن يحظى ببعض الحب والاحترام ممن حوله، يريد أن يعمل بشرف، أغمض عينه واستند على مسند كرسيه، تخيل كم هو جميل أن يحيا الإنسان بشرف لاله ولا عليه، لكنه أمر صعب بواقع مليء بالوحوش حوله، فساد وظلم ولا أخلاق ولا جدوى، كيف للمرء أن يحيد بنفسه عن هذا الواقع الذي لا يشبهه، كيف للمرء أن يصنع مستقبله بطريقته وهو مكبل بألف قيد.

مصلحة، كلهم يريدون مصلحتهم بعالم الأعمال، حتى بالحياة، إن لم يكسبك الآخر على آخر رمق، ينبذك ولا يشعر بأنك ذو فائدة بالنسبة له.. لكن كيف له أن يخرج من تلك الدوامة الآن؟

هذا ما بهم، لاحت له دموع أمه، تأثر، تألم، ربما يجدر به أن يخرج من عالمه القدر ذاك، إن لم يكن من أجل أحد فمن أجل أمه التي ظن نفسه مدافعاً عنها وبات الآن هو معذبها، حدث نفسه كيف حصل هذا لا أدري؟ لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه تماماً الآن أنني سئمت من تلك الحياة بل تكاد تصيبني بالغثيان وبالاشمئزاز، أريد أن أكون إنساناً عادياً مثلي مثل كل الشباب بعمرى، مثل مؤيد مثلاً، مثل عمران، مثل الكثيرين، فقط شخص عادي، طبيعي، لا يأسره شيء.

في بداية تلك المرحلة بعد خلافه مع خالد بفترة وجيزة، جن جنونه بسبب ترك سجائره تلك بشكل مفاجئ، بعد عدة أيام من خلافهم عاد مكسوراً مخدولاً ليحاول العودة للعمل معه من جديد بأية طريقة، فلم يعد يهتم تلك الوعود التي وعد نفسه بها بأن يجيد عن ذاك الطريق، الآن الوضع لا يهتم، كل شيء بدا فوق ما يطيق، شعر بداخله وحش هائج، كاسر، يريد أن يهدأ ويرتاح مهما كان الثمن حتى لو كانت نفسه!

لكن حصلت المفاجأة التي كانت بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، بذاك اليوم الذي اتصل فيه بخالد ولم يجب على اتصاله، حاول الوصول إليه أكثر من مرة لكنه لم يستطع، وكأن الأرض انشقت وابتلعت، كان القلق يأكله.. ماذا سيفعل به ذاك الوغد بعد خلافه معه؟ معادة شخص مثله مغامرة حقيقية، ذهاب نحو المجهول، ماذا جرى له؟

فهو لم يتركه إلا منذ مدة وجيزة، وحتى ذاك الخلاف الذي حصل لم يكن بالشيء الجديد عليها، نعم ربما زادت الوتيرة إلى حد ما لكن ليس بالأمر الجديد، كلها مدة صغيرة التي غاب بها عنه وأراد أن يطيحها أصلاً لكن ذاك الاحتياج اللعين الذي أصابه وإدمانه وعبوديته ليدخن تلك السجائر جعله غير قادر على التحمل.

صارت ملاحظته لخالد هاجسه الوحيد، يريد أن يلتقي به بأسرع وقت وإلا سيجن، إذ إنه بدأت تبدو عليه ملامح الجنون بأفعاله وتصرفاته وانفعالاته غير المتوقعة والكل بدأ يلاحظ، حمل هاتفه واتصل به مرات عديدة، لا يرد ذاك الجُرذ الوضع، يا لشناعته، قال لنفسه بغضب: ما هذا الزمان الحقير الذي جعل من مثلي يحتاج ويلاحق واحداً مثل ذاك الحشرة خالداً؟! بتهكم وانفعال شديد..

سيلومه أشد اللوم على ما فعل به عندما يلتقيان، وسيعاتبه بشدة كيف نسي كل الأيام بينهما واللحظات التي جمعتهما التي كانا حينئذ يبدوان بها على حقيقتهما على الأقل؟

يا ترى ماذا يخطط، ما الذي استجد؟! أيعقل أن يؤذيه، وما طبيعة ذلك الأذى، هل يعقل أنه يفكر بقتله؟ ازدادات نبضات قلبه وغدا حائرًا بأسئلة تكاد لا تنتهي تقض مضجعه.

في اليوم التالي وصلت رسالة هاتفه المحمول قبيل استيقاظه، لم يأبه اعتقد أنها رسالة إعلانية تافهة من شركة الاتصالات، نهض من فراشه غاضبًا كالعادة، ولج إلى الحمام استحم وخرج، ذهب ليلتقي برجل يعمل بأعمال الديكور ليتفقا على عمل. أراد أن يعمل أي شيء، أن يقتل وقته الذي يمضي بالعمل، عموماً لم يتفق مع الرجل، بدا وكأنه يريد أن يستغله أيًا استغلال بمقابل مادي زهيد رغم إعجابه بعمله وخبرته.

لا يهم تركه ومضى رغم حاجته الكبيرة لأن يبدأ من جديد أن يرتبط بعمل ينسبه قليلاً ما به من تدفق طاغي للأفكار السلبية وقلق داخلي أشبه بشيء يأكله من الداخل، تنهد بعمق، لا شيء يسير معه على ما يرام لا شيء، وكأن الكون سخر كل الإمكانات ضده ابتداء من أب جاهل وقاس وفوقها ظالم، إلى أخ مغرور منقاد لأبيه لا يقدم ولا يؤخر وأمّه مثله وأخوة كقطيع الغنم ينجرّون خلفهم، وشركاء عمل استغلاليين فاشلين وأخيراً فتاة بلهاء حمقاء فضلت مهندساً يشبه الرجل الآلي وتركت رجلاً أحبها بصدق رغم أن تلك البلهاء لا تستحق، يفكر وهو يقود سيارته كالعادة رغم جعير المغني الذي يجب أغانيه أيما حب.

ركن سيارته على جانب الطريق والتقط هاتفه ليتصل اتصالاً أخيراً بذاك اللعين على أمل أن يستجيب ويرد على اتصاله، لم يجب، قال لنفسه: لا بأس سيصيب، سيحب في النهاية، بكل ثقة وإصرار، أعاد هاتفه المحمول إلى حيث التقطه وتابع القيادة. رن هاتفه من جديد، ألقى نظرة جانبية ليرى من المتصل، كانت أمّه، رفعه ووضع على أذنه مجيباً لها، أهلاً أُمّي، ما الأخبار؟

قالت: لا شيء، متى ستعود؟ هنا أختك هناء وزوجها سألوا عنك يريدون رؤيتك، هيا تعال بسرعة لتتناول الشاي معاً، أحضروا معهم مقرمشات وموالح مثلما تحب.

قال: أنا قادم بعد ساعة، وأغلق الهاتف.

في الآونة الأخيرة بدا اهتمام واضح من عائلته بأمه ولطف بالتعامل ما اعتاد عليه، كأنهم تغيروا معًا بلا مقدمات، حتى عمران بدأ يعامله بطريقة ما اعتاد عليها، أبوه أيضًا أخفض وتيرة التحامل عليه بسبب وبلا سبب، ثمة أشياء غريبة تحصل من حوله لا يعرف كيف يجد لها تفسيرًا ولا توضيحًا، الحيرة والشك يأكلانه، وكان الخوف يكاد يطبق على صدره من أيام قادمة لا يعرف ماذا تجبئ له.

عاد للمنزل، التقى بأخته وزوجها تسامرا، وكانت أمه بينهم، وجاء عمران في آخر النهار كعادته، والكل رحب به كعادتهم، ومضى اليوم، والقلق رفيق مخلص يجلس على كتفي حسام ولا ينوي الفكك منه، ذهب الجميع، الغرفة التي كان يجلس بها عدة أشخاص يتناوبون بجلوسهم وذهابهم صارت خاوية ذهب الجميع ليخلدوا للنوم ويرتاحو بعد يوم ممتلئ.

استلقى على سريره واضعًا كفيه تحت رأسه محدقًا في سقف الغرفة، كأن شيئًا بداخله انطفأ، انطفأ تمامًا، ما عاد يشعر بشيء، تساءل: كم هو مريح حقًا لو لم يوجد أصلاً، وجوده لا ينفع أحد، حتى نفسه لم يعد ينفعها، الكل من حوله يكملون حياتهم، الذي يعمل والذي يتزوج والذي يدرس والذي يحيا من أجل شيء ما يحبه ويتنظره ويضيف شيئًا له، كأن الحياة دوامة كبيرة لا تهدأ، الكل بها يجري... يجري، كل أحد نحو غايته، وثمة غايات تعلو بأصحابها، وثمة غايات تهوي بهم نحو الحضيض، لكن الجميع يستمر بالجري، كل يوم، كل لحظة، كل دقيقة.

حتى أكثر الأشياء التي كانت تؤثر بالناس اليوم لم تعد تعني لهم شيئًا، كالموت، كمرض إنسان، كسماعهم عن تلك الأحداث المخيفة التي تجري في العالم، تراهم يهزوا رؤوسهم مسافرين الموقف ثم يعودون ملتفتين لمصالحهم، المصالح أولاً وثانيًا وثالثًا. كأن طبقة من عدم الإحساس أو الشعور أطبقت عليهم، ما عاد أحد يشعر بالألم أحد، شعر بأن الصداع القوي الذي يلف رأسه ما عاد يحتمل، نهض من مكانه بصعوبة، الألم يزداد، الألم يزداد ويتمدد، ليس فقط في رأسه، بل في كل جسده حتى قلبه، حتى كل ذرة بداخله يتناها الألم، أين المفر؟

خيل له لو كان يستطيع الوصول لخالد والحصول على بعض الراحة مع تلك السيجارة، كم يشتهيها. تنهد وأخرج من جيب بنطاله سجارة عادية من علبة السجائر من التي يدخنها في

العادة، في الآونة الأخيرة أصبح يدخن بشكل رهيب مما زاد حدة سعاله، لكنه لم يكن يأبه، يريد أن يهدأ بأي ثمن، والآن يجب عليه البحث عن عمل من جديد في تلك الظروف الاقتصادية الصعبة، نفث الدخان أمامه مشكلاً حلقات في الهواء، راودته فكرة العمل مع عمران، حرك رأسه وكأنه يصرف تلك الفكرة عنه مجرد ما خطرت له، أراد أن يلغيتها قبل أن يفكر بها أصلاً، عادت وغدت أكثر إصراراً على البقاء.

تساءل: أليس من الأفضل أن أبقى هكذا بلا عمل على أن أضطر للعمل معه، المشكلة أن التعامل مع عمران لا يطاق، يجب أن يدقق ويسأل ويفهم ويستفهم وينظر ويعطي الأوامر ويتدخل بكل شاردة وواردة، وأنا ليس لي باليحتمل كل ذاك الهراء، أفضل أن أرمي نفسي من النافذة على تحمل تلك الفئة الباردة من الناس، في داخلي لهيب يحترق، وهو في داخله جبل جليد، له خلق أن يفتش على كل شيء ويمجاسب على كل شيء ويعاتب أيضاً، أعان الله زوجته وأولاده كيف يحتملونه؟!

أغمض عينيه، تخيل كم هو جميل أن يكون للإنسان أشخاص يحبونه على ما هو عليه بكل طباعه، وهذا وجده عمران، مع أمه وأبيه وزوجته وأولاده، لا أحد يستنكر أفعاله وطباعه سوى أخيه الذي يصغره بخمسة أعوام، الذي نشأ والناس حوله تشير للطفل المهذب الرزين المحبوب، وتقول: كن مثله، كن على شاكلته، انظر كم هو رائع وأنت خائب، نجح بدروسه ولم تنجح، أكل طعامه وأفرغ طبقه ولم تفرغ طبقك، يسمع الكلام ولم تسمع، يساعد أباه ولم تساعد، حقق نجاحاً ساحقاً، وفشلت!

كان يدور بدوامة أفكاره التي تكاد لا تنتهي، لا أحد يسمعه، لكن هو مستمع جيد ومتحدث جيد مع نفسه، لا لأحد أن يتوقع كم الأحاديث والأفكار التي تدور برأسه كل يوم، شيء يجاريه شيء يرفضه شيء يستمتع بمجرد أن يلعب بذهنه شيء يأسى عليه شيء يسعد به شيء يعذبه شيء يشعره بالإهانة والدونية، أحاسيس لا تنتهي، رأسه فعلاً لا يهدأ رغم صمته وانزوائه أحياناً، حتى أحلامه عندما يغفو مشوشة كأفكاره وأحاسيسه تماماً، يرى نفسه يقاوم أحد ما تارة وتارة خائف، وتارة يغرق وتارة مات والناس تدفنه وهو حي، يرى وجوهاً كثيرة وأيدي كثيرة تمتد لوجهه وكأنها تريد أن تقتلع عينيه وهو يقاوم.

وليلاء سوداء وظلام حالك، ثمة حلم جميل رآه مرة منذ عدة سنوات وكم استيقظ وقتها هائى البال رائق المزاج، رأى نفسه بأنه يجلس في قارب خشبي صغير يعوم لوحده دون تجديد، وينظر أمامه متأملاً الجبال حول البحيرة الصافية التي هو بداخلها، كانت الجبال خضراء عالية ممتدة على طول نظره، سماء صافية، أشعة شمس ساطعة، نور سريالي مهيب كأنه في جنة حقيقية.. وحالة ذهنية ونفسية لم يكن يتصور أنها من الممكن أن تراوده في واقعه، كان ثمة استمتاع وسكينة وهدوء ودغدغة مشاعر مثل شيء يشبه النشوة أو السعادة ذاك المصطلح المبهم بالنسبة له، بكل الأحوال على هذه الأرض لا يوجد سعادة، هذا الكوكب ليس كوكباً يحتمل ذاك المفهوم على الإطلاق، هنا بشس وشقاء فقط، حروب وفقر وخذلان وخيانة وخوف وجوع، كل شيء إلا أن يكون ثمة تلك الأوهام التي يسمونها سعادة أو حبوراً أو متعة وكل ذلك الهراء.

في النهاية لا يوجد أحد مرتاح ولا يوجد أحد سعيد، من الأصل لا يوجد معنى للحياة كلها، عندما أموت وأعود إلى الله أول سؤال سأسأله له: لماذا أنا مقدر لي أن أعيش مع عائلة تستكرني وينظرون إليّ باشمزاز؟ اللهم إلا أمي ترمقني بنظرات الشفقة دائماً وتغسلني بها وكأنني لا أعرف بماذا أستطيع أن أصف نظراتها، رباها كم أكرهها رغم أني أحب أمي، هي الوحيدة التي أحبها وأكره الجميع، أكره نظراتها وأكره استكانتها، لكنني أحبها، نعم أحبها في النهاية، وأكره شيئاً بها، استكانتها ونظرات الشفقة التي ترمقني بها.

لا أحب أن أكون مثيراً للشفقة إلى هذا الحد، لا بأس لا أمانع أن يشفق عليّ أحدهم قليلاً من باب المحبة والاهتمام، لكن الشفقة التي تخرج من نظرات أمي مبالغ بها جداً، أحب أن أحظى بالتقدير، نعم التقدير وحده، يا له من شيء أحلم أن أحظى به، احترام وتقدير وشعور بالأهمية. خالد كان يشعرني أنني مهم وحاذق ومقدر وأنا معه، يا له من رجل فطع وماكر! هذه الأهمية التي كان يوهني بها كانت لصالحه، ليستغلني بأعماله كما يرضي، لكن ليتني أصل إليه.

على الأقل أرتاح من ذاك التعب الذي يأكلني وأعود لسابق عهدي، نعم لم أكن مرتاحاً جداً لكنني الآن متعب، متعب أكثر من أي وقت مضى، يتذكر وعده لأمه بأنه سيبتعد عن ذاك الطريق وعن ذاك الرجل، يشعر بأنه بداخله لا يستطيع، ثمة شيء أكبر منه يقوده دون إرادة منه، يا ليت يظهر ذاك اللعين، يظهر فقط، بدأ يهرش بكتفه وملامح الأسى والخيبة والحيرة تسكن وجهه.

سمع صوت حركة تصدر من الخارج، ثمة أحد ما كأنه يتجه نحو غرفته، ربما هو أحد منهم، تجاهل الأمر، وإذا به يسمع صوت أبيه بطريقة ينادي عليه: حسام هل نمت؟ إن كنت لم تنم بعد تعال إلى هنا، مشى بضعة خطوات ثم توقف تساءل علام كل تلك السرعة والاستجابة؟

إذ إن الحديث مع أبيه لم يكن محبباً من الأصل، ولا حتى بالكمال الذي ينطلي عليه معنى كلمة محادثة، المحادثة تعني أخذ وعطاء وسؤال وإجابة، ليس عبارة عن كتلة ثخينة من الانتقاد واللوم والانتقاص من الآخر، وجد نفسه أمام أبيه، قال: نعم أبي، ماذا تريد؟

رد الأب بارتباك خفيف لم يعتده من قبل: لا شيء، لكن إن أردت فتعال لتتحدث قليلاً، أو إن كنت تريد أن تذهب وأنا أزعجتك أشار بيده، أخلد إلى النوم لا بأس، فقط إن كنت لا تريد.

شعر حسام بارتباك أبيه غير المعتاد، ثمة ليونة بحديثه لم يستخدمها من قبل، خاصة معه! حاول التخفيف عنه، فقال بسرعة: على العكس أنا لم أنم، أنا كنت في الداخل أحاول، لكنني متيقظ أكثر من العادة ربما، سار معه ثم جلس على الأريكة مقابله، قال له أبوه: كيف حالك؟

تساءل في نفسه، هل ثمة أمر ما يحاك ضده، أو ربما لصالحه؟ ما السر الذي يجعل الكل في الأيام التي مضت يعاملونه على غير عادتهم؟

قال: لا بأس، أنا بخير، لا بأس.

قال الأب: ليس ثمة مشكلات؟ مشيراً بكفيه وكأنه يريد أن يطمئن عليه، أثار أسلوب أبيه هذا في نفسه بعض البهجة بشكل غريب بل مفاجئ، فملاحه كادت أن تتبرأ منه وترسم ضحكة على وجهه، نعم أضحكه بداخله ما يرى من أبيه، ارتباك، لعثمة، ولمسه حنان ولين غريبة عليه! قال بجدية وحدة مصطنعة: لا مشكلات لا، لا يوجد شيء.

قال الأب: ما أخبار ذاك العمل مع رجل الأعمال الذي كنت تعمل معه؟ كأنك لم تعد تقضي وقتاً كبير بالعمل، ما الذي جرى بالضبط؟

ازدرد ريقه وقد ساوره بعض القلق، فكر ربما علم أبيه بخلافه مع خالد وتركه العمل، إنها أمه من المؤكد أنها أخبرته، سألها الله، أعطته حجة ممتازة ليثبت له من جديد أن كلامه عنه

صحيح ووصفه له أصح، استاء من تصرف أمه في نفسه وحاول أن يستعيد رباطة جأشه قائلاً: نعم فكرت بترك العمل، بل تركته فعلاً، إنه رجل انتهازي مثله مثل كثير غيره من رجال الأعمال أصحاب النفوذ والسطوة، أردت أن أحصل على مرتب أفضل، فأنا أبذل جهداً كبيراً وأستحق، هو امتعض! هكذا بدا عليه، لذا تركته لفترة، يعني هو يراجع حساباته، وأنا أيضاً.

قال الأب: خيراً فعلت.

استغرب حسام من رده البسيط، لم يوبخه ولم يلمه على سوء اختياره ولم يكيل عليه بوابل من السباب والشتائم، قال: نعم، يعني، قلت إنه يجب أن أحصل على ما يساوي تعبي، تعرف الوضع بالبلد أصبح صعباً جداً بعد الغلاء وغيره.

قال الأب: نعم، لما لا، أنت تستحق، فإنك تبذل ما في وسعك، هذا ليس خطأ أن يعرف الإنسان مقدار نفسه خاصة في التعامل مع أولئك الوحوش، لا يجب عليك أن تبدي لهم ضعفاً.. يأكلوك، يأكلوك بلا ملح.

هز رأسه موافقاً: نعم، هذا ما يجري.

رمى الأب سؤالاً مفاجئاً: ما رأيك أن تعمل معي في مكتبي، إن كنت لا تحبذ العمل مع أخيك عمران؟

لم يستطع حسام أن يمسك نفسه، مشاعر كثيرة ومختلطة ساورتها، بين الدهشة والحيرة والسعادة والحب، نعم ثمة شيئاً يقيظ بداخله نحو أبيه، بتلك البساطة فقط بعد أن تفوه ببضع كلمات بطريقة لم يعتد عليها هل يعقل؟ أشياء بسيطة بهذا القدر تحيي مشاعر وتميت أخرى بداخلك!

قال حسام: بصراحة فاجأتني، لا أدري ماذا أقول، ربما، يعني هذا مستحسن، لكن لا أدري؟!

قال الأب: أنا كنت من الأساس أريدك أن تعمل معي في مكتبي، فمن المؤكد أنني لا أحبذ بقاء ابني يعمل مع شخص آخر وأنا موجود ومكتبي موجود، لكن أنت تعرف عين المعرفة أن

ما آل إليه الوضع بينما كان بسببك وبسبب إخفقاتك، في النهاية لم يجبرك أحد على شيء، أنت سرت نحو المشكلات والمشقات بقدميك، مهما يكن لن تجد أحدًا أفضل من أبيك وأخيك، هذا ستدركه الآن أو لاحقًا المهم أنك ستدركه، تنهد، افهم معنى هذا الكلام واترك العناد والتكبر جانبًا هكذا أفضل لك، وإلا ستبقى في الحضيض ما حييت، ضم أصابع كفه وأشار بها كأنه يجزم أمرًا ما ويريد من ابنه أن يتنبه.

نظر حسام إلى أبيه وعلى وجهه شبه ابتسامة خائبة، ها هو أبي، بدأ يظهر أخيرًا، ذاك الرجل اللطيف واللين والرحيم، لم يكن هو، قال في نفسه هازئًا.

قال: أنا لا أعرف بماذا أجيب على كلامك، نعم حصل في الماضي الكثير والكثير من الإشكالات، لكن حتمًا ليست كل الإخفاقات التي حصلت في العمل بسببي وحدي، نحن كنا نعمل جميعًا مع بعضنا، نعم ربما أنا أخطئ أحيانًا أو أتهور، لكن حتمًا لست المسؤول الوحيد، ظهرت عليه إمارات انفعال مكبوت، استطرد قائلاً: صب اللوم عليّ دائمًا ما عاد يجدي نفعا بل بدأ يصيبني بالغثيان، حتمًا لستم ملائكة وأنا الشيطان الوحيد بينكم، أبي أرجوك فلتكف عن وضعي في خانة الاتهام دائمًا فأنا سئمت، سئمت حقًا، عبس وأدار وجهه جانبًا.

شعر الأب أنه حاد عن هدفه الأساسي الذي جلس مع ابنه من أجله وهو كسبه من جديد كمحاولة مبدئية متواضعة، ونوى في نفسه أنه هذه المرة لن يتطرق لموضوع أخطائه الماضية، لكن كيف الأمر سار بتلك الطريقة لم يعي، بكل الأحوال هو لم يعتد على التحدث بتلك الطريقة مع أبنائه، لكنه الآن مجبر، الأمر مع حسام صار مختلفًا كليًا وقريبًا من منطقة الخطر. هذا ما كانوا يتحدثون به منذ أيام هو وزوجته وعمران، فكروا تلك المرة خارج الصندوق.

قال عمران: هذه فرصتكم الأخيرة ليعود إلى حضنكم، مثله مثل أي شاب بعمره، أنتم في النهاية جعلتم منه ذاك الشخص المتمرد الغاضب والفاشل كما تسموه، سواء من قريب أو من بعيد، نحن كلنا مُلامين، كان عمران حينها يتحدث عن أخيه بروح أبوية وكأنه أبوه ويوجه كلامه للأب بصيغة الجمع، وكأنه يتحدث معه ومع أمه، لكن هو في الحقيقة كل كلامه موجه لأبيه لأنه مهما توارى عن الأمر فهو جلي للعائلة بأكملها أول من جعل حسام على تلك الشاكلة

هو قسوة أبيه معه بشكل دائم ومعاملته بشكل لا يمت للأبوة بصلة، الكل مدركين أن ثمة شرح كبير بالعائلة، لكن في ذات الوقت الكل يعي تمامًا أن الشرح بدأ من أب متجهم وقاس طوال الوقت وأم مستكنة تارة ويائسة تارة أخرى، وهذا ما نقلوه للعلاقة مع الأبناء الذي كان أكثرهم حساسية وتمرد هو حسام، لذا آل الوضع إلى ما هو عليه معه، بالإضافة إلى تركيبته الشخصية وسماته الروحية وإلا كان جميع الأولاد ساروا على الخطا نفسه؟!

أبي قالها عمران بجراً ونظر بعيني أبيه بشكل مباشر رغم خشيته الكبيرة منه، ثمة طرق أخرى يتواصل بها الأب مع أبنائه يكون فيها أكثر إنسانية وهذوءاً، لا، لم أقصد أنك غير إنساني أبي معاذ الله، لكن يعني، أنت طيب القلب في داخلك، لكن أتدري هذا لا يبدو عليك كثيراً، رغم أنه من الجميل أن يبدو عليك، أقصد يعني، جميل أن يظهر المرء جانباً آخر من شخصيته، قد يعني، يكون مخفياً مثلاً، يرسم ابتسامة على شفثته عفوية وبسيطة، كلنا متشابهون، أتدري!

فيما الطيبة والقسوة والعناد والأنانية، يعني كلنا مثل بعضنا في النهاية، بدأت تنفج أسارير الأب بعد ذاك الكلام من فم عمران، لطالما عرف كيف يؤثر في أبيه رغم كل المحاولات الفاشلة من بقية أفراد العائلة.

تنحج الأب وقال: أنا لا أملك شيئاً تجاه أخيك، عاد وقطب جبينه، أكثر ما كان يغطني منه تسيبه في العمل بعض الأوقات، وعاطفته الزائدة، لكن هو يعني في النهاية يبقى ابني، كانت الأم تلتفت من وجه لوجه، وتستمع للحديث بحماسة ورضا كبير تحفيه بداخلها راجية أن يجدوا حلاً يعود به حسام فرد من العائلة مثله مثل أخوته، وتراه أخيراً سعيداً ومطمئناً، فباتت تلك غايتها في الفترة الأخيرة، وقالت: إن حصل ذاك الأمر فلا أريد شيئاً آخر من الحياة.

بعد تذكره لذاك الأمر، عاد وحاول الأب أن يكسي الحديث من جانبه ببعض المحبة رغم أن هذا كان صعباً عليه، صعباً جداً، فقال وقد أخفض وتيرة صوته: معك حق بني، معك حق، نعم أنت كما قلت، هات لي أحداً لم يخطئ، كل الناس تخطئ، أخواتك أيضاً يخطئون، هل تظنهم ملائكة؟ لا، حتماً ليسوا كذلك، أنت محق هذه المرة.

قال حسام: هذا رائع يا أبي، أحمد الله أنك اعترفت ولو مرة واحدة أنني لست الوحيد المخطئ

بينكم، بقليل من الانفعال.

قال الأب بأساير منفرجة: لكن إياك أن تغتر بنفسك وتعتبر كلامي وكأنه تبرير لما، نتنحج، يعني أقصد فلننس الأمر، دعنا نفتح صفحة جديدة، ما رأيك يا بني؟

كان حسام كمن سُقي بياء عذب على أرض جذباء بداخله ثمة شيء لم يعتد عليه، هو راض به حتى ولو كان لبعض الوقت أو حتى فيه بعض المبالغة، هو راض جدًا وممتن، أن يشعر ولأول مرة منذ زمن أن أباه يحبه ويبدل جهداً من أجله حتى لو كان ضئيلاً أو حتى لو كان بضع كلمات.

قال: أنا أريد أن.. يعني، أعمل معك هذه الفترة.. فأنا بصراحة أجد ذلك فرصة إذا ما قارنته بالعمل مع عمران، عمران أخي طباعه مختلفة عن طباعي، وهو يروق له العمل بكيفية لا تروق لي، لذا بصراحة لم أكن أجد أن نعود ونفتح القصص الماضية، الأوضاع لم تعد تحتل تلك الترهات، وأنا بصراحة لم أعد أحتمل، أشعر وكأنني كبرت ألف عام منذ العشر سنوات التي مضت للآن، كلنا همرنا.

هز رأسه موافقاً: نعم، في الحقيقة ما مر بنا من أحداث جعلنا نهلك.. نهلك تماماً، أطرق وأرأى أكتافه بشكل بدا عليه فعلاً أنه مكسور ومتعب، ثم رفع رأسه ونظر بعيني حسام وأشار بسبابته ثم قال: لكن مهما كان وصار في حياتك إياك أن تخسر أخاك أو أن تتخذله وتخذلك، الدنيا بأكملها لا تعادل الأخ، وعمران أخوك يحبك بصدق، لمعت حدقاته، ثم قال: إلى أن أموت لا أنسى فضل أخي إبراهيم عليّ، إلى أن أموت، ومنذ أن توفي وأنا أشعر أن ظهري كسر، كان أخي يوبخني ويهينني، لكن أنا كنت لا أبه بتوبيخه لأنني أولاً أعرف أن من يبكي بيكي عليّ ومن يضحكني يضحك عليّ، نعم أعجبك ذاك المثل أم لم يعجبك، هذا ما حصل، أرادني رجلاً لا أباه بالشدائد ولا بالمصائب، رجلاً حقيقياً.

كان يقول لي: ستدعوني لاحقاً، وفعلاً أدعوه له الآن، تعلمت منه الكثير -رحمه الله- أبي جعله يتولى أمري، لم يكن ليحدثني كثيراً وكأنه إله وأخي رسول بيني وبينه، أبي كان من الأصل لا يطيق كثرة الكلام، تنهد... ذهبوا وسنلحق بهم... لكن الأخ لا يعوض.

قال حسام: ليس ثمة شيء بيني وبين عمران، أنا لا أحمل شيئاً نحوه، زم شفتيه وقطب جبيني،

ربما هو من لديه شيء تجاهي لا أدري؟!

رد الأب بانفعال: هو لا يُكِنُّ لك سوى كل الخير، ويريدك أفضل منه، كن رجلاً حقيقياً وأثبت للجميع أنك تستطيع أن تكون على قدر المسؤولية، شعر حسام بأن صداعه ما عاد يحتمل، فوضع رأسه بين كفيه وضغط عليه، قال له أبوه: ما بك؟

قال: لا شيء، لكن ثمة ألم برأسي يجعله يكاد ينفجر.

نظر الأب نحو ابنه بقلق حاول إخفائه: لا تقلق، يذهب، يذهب، لا تقلق.

قال حسام: سأذهب إلى غرفتي وأخذ دواء مسكناً، أذن له أباه نهض مسرعاً وكأن خطباً جلاًلاً ألم به.

دخل إلى غرفته وأخذ حبة دواء مسكن من العيار الثقيل واضطجع على سريره وتكوم كالجنين، غطى جسمه ببطانية وأمسك براسه، الألم لم يعد يحتمل ولا يطاق، بكى وانتحب كأنه يلفظ ألمه عبر العبرات، عبرة تلو عبرة، عله ينتهي..

استيقظ صباحاً بصعوبة، شعر بالتعب منذ استيقاظه وكأنه ما حظى براحة النوم كعادته، حاول أن ينهض متجاهلاً تعب، ذهب إلى الحمام وغسل وجهه ويديه وعاد مهرولاً نحو غرفته، رأتها أمه وقالت له: ما رأيك بفنجان من القهوة؟ إن أردت فركوة الماء على النار، دقيقتان وتكون جاهزة.

أوما برأسه علامة على الموافقة، جلس مع أمه وارتشف رشفتين من فنجانه بصمت ثم استأذن معللاً أن لديه عملاً، ارتدى ملابسه وخرج، مشى نحو سيارته التي ركنها بمكان بعيد، لم يجد لها ركنًا بجانب المنزل، لم يستاء من الأمر هذه المرة، أراد أن يمشي ويفكر بما سيتصرف به في الأيام القادمة، على أي بحر سيرسو، أيجدر به الآن على حد تعبير أبيه أن يتصرف كالرجال ويتحمل مسؤولية نفسه، ويصدقُ أبيه في وعده فيعمل معه، أم يعود لخالد؟ أم لا يعود لخالد؟ فقط يأخذ منه كل أسبوع على الأقل واحدة من سجائره، ثمة فوضى بداخله، فوضى برأسه وبجسده وب عقله لا يحسده عليها أحد، ماذا يفعل؟

أخرج زفيراً طويلاً، ركب سيارته ومضى في محاولة أخيرة منه باتجاه مكتب خالد عله يحدث أمراً، رن هاتفه المحمول، كان عمران أخيه المتصل، رد على عمران باستعجال، قال له: أهلاً عمران ماذا تريد أنا أقود سيارتي نحو أقصد يعني عندي موعد مع صديق.

قال عمران: لا شيء أردت أن تأتي إليّ لتتحدث قليلاً، ثم إن أردت اذهب لموعدك.

قال حسام ساخراً: ماذا جرى لكم بحق الله؟ فرداً تلو الآخر فجأة أصبحتم تحبون الحديث معي؟ أدفع عمري لأفهم ما الذي استجد، ماذا يجري؟ أخبرني بضحكة ساخرة.

ارتبك عمران، وقال: هيا.. هيا، ركز بقيادتك لسنا ناقصين حادثاً أو ما شابه لا سمح الله، أعرف كم أنت هادئ وواع بالقيادة قالها بسخرية أيضاً، نتحدث لاحقاً، وأقلل الخط.

ركن حسام سيارته على جنب الطريق، وجلس خلف مقوده يفكر، شيء بداخله كفه عن الذهاب لعند خالد، أليست فرصة ليبدأ من جديد؟ تنهد..

لكن ليته فقط يحصل على سيجارة واحدة، كيف والآن جرى ما جرى، سيعمل مع أبيه هذا أفضل حل الآن، ماذا يريد منه عمران هذه المرة، مواعظه المعتادة يترى أو ماذا؟ حمل هاتفه، أراد أن يتصل بعمران ليخبره أنه سيأتي الآن، رصيده منته، زم شفتيه منزعجاً، اتصل بأحد معارفه يعمل بذاك المجال، طلب منه أن يرسل له رصييداً، أخبره بأنه تم الإرسال، فليفتقد رسائله، فتح الرسائل، قال له تم، وشكره قائلاً سأمر اليوم ونتحاسب، وافقه الرجل وأغلق الاثنان الخط، لفت نظره رسالة على ما يبدو أنها وصلته البارحة من رقم غريب ومختلف، أرقامه مثيرة للاستغراب، لم ينتبه لها، الرسائل التي تصله لصندوق الرسائل في هاتفه غير مهمة على الإطلاق، إن كان ثمة ما يهم، يصل على الواتساب، أو حتى الماسنجر، لكن الرسائل عفا عليها الزمن، فتحها والأفكار تتوارد بذهنه بسرعة البرق والفضول يشغله، بدأ بالقراءة ونبضه يزداد بين جنبيه!

صباح الخير أيها الصبي الصغير الغاضب المتذمر طوال الوقت، آه لو تدري كم تمنيت أن أفرغ رصاصتي على جبينك لا تغلى عليك، فأنت عزيز لديّ، فذاك كانت تلك الرصاصة

لست أهم ممن يموتون في تلك المعركة ولا يعرف غريمهم؟ رصاصة واحدة أردتها لك؛

علها كانت تعلمك دفع الثمن أيها الولد، ثمن أن تتناول وتلعب مع الكبار!
لكن حظك عظيم، عظيم جداً أيها الأحمق رغم أنك لا تستحق؛ لو لم يأت أخوك إليّ بعد يوم
واحد من تهجمك عليّ ويقبل يدي ويعتذر لكي لا أؤذيك لكنت اليوم منسي.
أعرف أنك لن تصدق أن رجلاً مثلي تكفيه الاعتذارت وتقبيل الأيدي.

دفع أخوك مبلغاً مالياً كبيراً أنت أرخص منه بكثير وأجبرني على توقيع اتفاق بألا أتعرض
لك وإن حصل لك شيء فأنا أول المتهمين هكذا طلب هو ومحاميه... وأنا وافقت مقابل المبلغ
لأنه أغلى منك وأنت أرخص من أن تهدر جهودي عليك؛ لذا كف عن محاولاتك الغبية لمقابلتي
من جديد، وقتك انتهى لدي.

مع تمنياتي الخالصة باستمرار تعاستك دائماً..

نصيحة اذهب وانتحر

معلمك خالد.

أولاد السلام (النهاية)

شارع عريق واسع ممتد عريض ينبض بالحياة، الناس فيه يتحركون ذهابًا وإيابًا دون ملل أو كلل، وحدها المباني القديمة التي شهدت على ماضي هذا المكان وشكلت زمانة ثابتة

تشرب عقب تاريخ متجذر وحكايا آثرة عن تفاصيل وأحداث ضمتها، هاتيك الشجرة الباسقة التي يقال إن عمرها عدة عقود، وذلك الباب الخشبي الذي احتمل ويلات الحرب وظل يقاومها هو يصدر زئيرًا كلما داعبته نسمة من الهواء ليثبت لك أنه رغم الأئبن حي، ومثله هاتيك النافذة التي لطالما أطلت على الحياة تراقبها بصمت عذراء حيية تارة وفضول طفل شغوف تارة أخرى.

كل هذا الزخم حوته واحتوته هذه الأرض. أي أرض معطاة تلك التي حملتنا على ظهرها كل هذه السنوات بكافة أشكالنا وألواننا وأدياننا وتصنيفاتنا وخيباتنا وهمومنا وأفراحنا وفجورنا وصلاحنا وما زالت تحملنا رغم ما نحن عليه دون مقابل.

في أول هذا الشارع من جهة اليمين مكتبة العم أبو وائل. كانت ندين تجلس على الكرسي متوترة بعض الشيء تنتظر بحماسة وبعض من القلق توقيت مجيء الناس ليشهدوا على حدثها الأجل منذ عدة سنوات (توقيع روايتها الأولى)

وأنت تسير نحو منتصف الشارع بعد أن تمر بمحاذاة عدة أبنية ومحال تجارية مصفوفة كالبنيان المرصوص بجانب بعضها البعض فإذا بك تجد نفسك بساحة مكشوفة تحاوطها أشجار ونباتات مختلفة تفضي إلى مشفى عمره سنوات كثيرة تكاد أن تكون أكثر من نصف قرن، بشر كثير ولدوا فيه وماتوا فيه وسمعوا أكثر خبر سعيد بحياتهم، وآخرون سمعوا أقسى خبرًا بحياتهم بين ممراته وغرفته، في هذا المشفى وفي إحدى غرفه المنزوية كان حسام مع أمه بجانب أبيه الذي خار جسده وتعب من المسير وبدا لأول مرة ضعيفًا هسًا.

تمضي قدمًا نحو الطريق الذي تملأ به عينيك من نبض الحياة بكافة أشكالها وطقوسها الذي

تمنحه مع كل دقيقة من الزمن ليثبت لك حركة حياتية منتظمة لا تعرف الركود أبداً، بدءاً من هذه الأرض وانتهاء بذاك المدى الشاسع الذي أمامك.

تشاهد في آخر الشارع وعلى الطرف المقابل للمشفى متجرًا كبيرًا ذو واجهة زجاجية لامعة وواسعة تعكس لك ما في الداخل، يسرق نظرك فور مشاهدتها البياض في فساتين الزفاف المعروضة ودرجاته المتعددة ابتداء من الأبيض الناصع إلى البلانسير يردينه المانيكان واقفة كل واحدة منهما على حدة، منتصبه الرأس عارية الكتفين يعرضن فساتين زفاف مفعمة بالجمال، لطالما كان هذا الفستان رمز الأنوثة والحب وقدسية البداية والختام لغالب النساء!

في داخل الصالة فرح تقف أمام المرأة بهجة وسعادة خجولة تصبغ وجنتيها بحمرة لطيفة تزيدها جمالاً، تقف أمامها أمامها مندهشة ومسرورة في آن معاً! كيف كبرت هذه الصغيرة لتصبح على مقاس فستان زفاف كبير بهذا الحجم والجمال؟ تتساءل بسرّها.

ها أمي ما رأيك؟ تقاطع تأملها فرح بسؤالها.

نجيبها وعيناها تلمعان وقد اقتربت العبرات: روعة، روعة!

كيف كبرت يا فتاة بهذه السرعة! ستكونين أجمل عروس، تقولها مع ابتسامة من قلبها، تقرب فرح من أمها تقبلها وتحضنها ثم تذهب مسرعة لتبدل ثيابها.

يرن هاتفها المحمول فترد الأم بحماسة: أهلاً محمد حبيبي، نحن في صالة فساتين الزفاف لن نتأخر.

يقول محمد: أهلاً أمي، أنا هنا في المكتبة التي في أول الشارع أنتظركن، لا مشكلة خذي وقتك أمي، يبدو أن هناك حفل توقيع رواية لكاتبة جديدة، أحبذ الاطلاع، وثمة عدة كتب أود شرائها منذ فترة، وها هو الوقت حان، أنهموا أعمالكم، وأنا بانتظاركم.

حسناً بني، نهني أعمالنا وننتصل بك.. إلى اللقاء

أغلقت هاتفها وتمنت بقلبها أن يتم زفاف فرح وتكون أسعد فتاة، ثم أضمرت بقلبها أمنية رجتها من الله، أن تفرح بأخيها محمد من بعدها مع فتاته تلك.

أبي..

بعد أيام سأسلم فرح لطارق عريسها. أغلق دفتره لم يستطع أن يكمل.. يده وأفكاره لم تسعفاه هذه المرة، بعد قليل عاد وأكمل

أبي..

أنا اليوم أجد صعوبة في أن أكتب لك.. أريدك حيًا أمامي، أخبرك بأن فرح كبرت وستتزوج، وحيدتك المدللة ستصبح عروسة، لن أدع مشاعر الألم تخطو اتجاهي هذه المرة، لن أعكر لحظات الفرح تلك عليك، أعرف أن ألمي هو ألمك؛ لذا سأخبرك بخبر آخر قد يبدو جيدًا ربما... لا أدري! فتاتي تلك التي أخبرتك عنها سابقًا علمت منذ فترة أنها ابنة مدرس لي في الكلية وأعتقد أنه يكن لي المحبة والاحترام واكتشفت مؤخرًا أن فتاته تلك، كذلك؟! لا أعرف أبي، مُرَبِّكُ أنا... وربما سعيد.

أي قلب هذا الذي ينبض بداخلنا! كيف هو قادر على احتواء أشخاص وأشياء لدرجة تجعلهم يغوصون بعروق دمه، ثم يلفظهم كأنهم لا شيء! ويسكن أشخاصًا وأشياء جدد كانوا يومًا ما أكثر ما ينفر منهم وها هو ذا يُسكنهم فيه، يقال: سُمِّيَ قلب لشدة تعلقه.

يقف حسام أمام النافذة يتفكر، تبدو السماء أمام ناظريه وكأنها لوحة مهيبه اكتست بعدة ألوان أبرزها الأرجواني والقرمزي، وها قد أعلنت الشمس المغيب. سكن غريب يشعر به، يشبه صفاء السماء، وهدوءها.

أمه تجلس على كرسي خلفه وملامح الرضا تكسو وجهها، كان أبوه ممدد على السرير، نجا منذ أيام من عملية جراحية خطيرة بعد أزمة صحية مرت به. قدرة الأزمات الصحية أن تغير المرء لتجعله يعي تمامًا أن لا شيء أضمن من العافية، ولا شيء أكبر من المحبة.

تأمل الرجل المستلقي على سريريه زوجته بحب ممزوج بالانكسار والخجل، كان ما مر به

بمثابة صعقة قوية من القدر ليستفيق أخيراً وليرى الأشياء والأشخاص من حوله وحتى ذاته بوضوح أكثر، وكأن غاشية كانت أمام ناظريه عمته عن كل شيء، حتى نفسه وأقرب الناس إليه، وبدأت تتلاشى وتبتدد، امتلأت حدقاته، أي حقوق تلك التي أضاعها وضاع العمر معها، فات الأوان.

اقتربت منه زوجته وكأنها شعرت بها ينتابه وربت على كفه كأنها تحاول طمأنته.

قال لها بعدما خرجت من فيه الكلمات بصعوبة بالغة وكأنها كانت أثقلاً مقيدته وبحاجة لكي يطلقها ليخفف عنه العبء:

ولأول مرة، سامحيني.. سامحيني يا أم عمران على كل ما مضى.

التفت حسام مستغرباً مما سمع! كان يشهد لحظة لطالما احتاج لأن توجد أمامه لتعيد توازنه وثقته بالحياة.

ارتبكت أم عمران، وبدون تردد قالت: أنت زوجي وأبو أولادي، هل يعقل ألا أسأحك؟ ظلمتك كثيراً.. قالها وأطرق.

أحياناً ما نسميه الشر يكون مكن الخير الذي سنلمسه لاحقاً، مرض أباه الخطير أيقظ الجميع ولم شتاتهم، تعاطف معه دون أن يعي وكأن بداخله كان ثمة عاطفة قديمة لم يكنها سوى إليه وكساها سواد عظيم فلم يعد يراها لكنها ظهرت الآن وكأنها تطهرت.

أخرج زفيراً طويلاً.. لا شيء عاد يستحق، هو الآن يتشافى، يتطهر، ينتصر أخيراً على نفسه، لا شيء عاد يستحق سوى أن يكون دائماً بخير ويرى عائلته بألف خير.

ثمة نفس بداخله يصعد ويهبط، يخبره بأنه حي، موجود. وأخيراً مطمئن.

شعر ولأول مرة منذ زمن بعيد بأن قلبه يبتسم، عاد والتفت متأملاً السماء ولحظات الغروب والمدي البعيد أمامه.

انزوت ندين في ركن جانبي ومعها كراسية وبضعة ألوان، أمسكت ألوانها وتأملتهم قليلاً ثم

وضعتهم أمامها واختارت اللون الأحمر القاني وبدأت تمرر القلم بهدوء وكأنها تريد أن تشكل شيئاً ما. كانت تحاول أن تهدأ من توترها وحاسها الزائد أو قلقها ربها، البارحة لم تنم جيداً، نامت ساعتين أو ثلاثة ليس أكثر، وصلا أمها ويزن من السفر، أسر للأسف لم يستطع القدوم بسبب دراسته وامتحاناته، لكنه تحدث معها وشاركها فرحتها وهنأها بخطوتها هذه وتمنى لها خطوات موفقة قادمة.

عملت كل الترتيبات التي تجب عليها ليكون يوماً مميزاً، دعت أهلها وأصدقائها وبعض المعارف الذين تثق بذائقتهم الأدبية. كان العم أبو وائل وزوجته متعاونين معها في هذا اليوم أكثر من العادة، ربما لأنهم شعروا بقلقها، وصادف اليوم مجيء وائل للمكتبة لأول مرة فشارك معهم بالاهتمام بالحدث وبذل ما يستطيع

بدأ الناس يتوافدون إلى المكتبة، كانت كلما تشعر بصوت جلبة خارجاً ترتبك، أوقفت قلمها قليلاً وأخرجت زفيراً طويلاً وطلبت من الله أن يمضي هذا اليوم حاملاً معه كل الجمال، وألا يكف قلمها عن المحاولة ودائماً يترك أثر. وعادت لقلمها من جديد تكمل رسمتها التي تتسم ببساطة شديدة وكأنها طفلة تستقطع الوقت خجلة من المواجهة.

سمعت وقع أقدام قادم تجاهها، لم تلتفت، سمعت صوت رخيخ يتساءل قائلاً: أرسامة أنت أيضاً؟

ابتسمت وهي تنهي ما بيدها وتنهض من جلستها قائلة: أنا لا أتعن الرسم جيداً يا سيدي، لكنني أحب الألوان؟!

نحن حكايا جميلة مخبأة..
نحن سنين منسية..
معطرة بالياسمين والبخور المحترق..
نحن أمل وإيمان سيحيا..
نحن لسنا أولاد حرب..
نحن أولاد السلام.